نحو فهم صحيح للحقائق الإسلامية

إسْعَافُ السَّـؤُول

بشـرح

ثلاثـةِ الأصُـول

لأبي عبد الله صادق بن عبد الله

المجلد الأول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة

أخي المسلم أختي المسلمة / السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد

فإن الاهتمام بعلم المعتقد، والحِرْصَ على صِحَّتِه، وتَصْحِيحِهِ ومُرَاقَبَتِهِ، يُعَدُّ اهتماما بقضية الإنسان العظمى، والتفاتا لتحقيق كرامته والمحافظة عليها، كيف لا والله تبارك وتعالى يقول في محكم التنزيل:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦]، ولنعلم أنه مهما حاول الإنسان أن يحافظ على مكانته في هذا العالم بعيدا عن قضيته التي لأجلها خلقه الله تعالى؛ فإنما يحاول عبثا ويجري وراء سراب، وسيتحول بهذا العبث من محل الكرامة إلى المهانة التي كتبها الله تبارك وتعالى على كل من اتخذ دينه لهوا ولعبا، كما قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{١٧} أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ **وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ** إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ{١٨} هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ{١٩} يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ{٢٠} وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ{٢١} كُلَّمَا أَرَادُوا أَن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ{٢٢} إِنَّ اللهَّ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{٢٣} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ{٢٤} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[الحج:١٧-٢٥]، فتأمل في سياق هذه الآيات، لترى أن الله تبارك وتعالى ذكر جملة من الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، وغرتهم الأماني واتبعوا أهواءهم، وبين تبارك وتعالى أنه سيفصل بينهم يوم القيامة، ثم بين الحالة التي ينبغي أن يكون عليها العالم كله برمته علويه وسفليه، أن يكون ذليلا منقادا لأمر الله رب العالمين، فمن فعل كان مكرما شاكرا، ومن أبي كان لئيما مهانا، وستحق عليه كلمة العذاب.

بل وسيعيش الضنك الذي قضى به الله جل جلاله على كل من تنكب صراط الله المستقيم، كما قال تعالى:{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{١٢٥} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{١٢٦} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى{١٢٧} أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى} [طه:١٢٣-١٢٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فبئس الحال، لمن عَمَدَ إلى التحول، من الكرامة إلى المهانة، ومن ولاية الرحمن، إلى ولاية الشيطان، قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً{٧٠} يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً{٧١} وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً} [الإسراء:٧٠-٧٢]، وقال سبحانه: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً}[الكهف:٥٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبب اختيار هذا الكتاب

إن المتأمل في أحوال التعليم والتَّعلُّم ؛ يجد أن من أعظم الأمور التي تكون بعد توفيق الله وسداده، عونا على جودة التحصيل، والثراء المعرفي لدى الطالب والمعلم، كثرة الشروحات المتاحة للمادة العلمية المراد طرحها وتناولها بالشرح، مما يزيد المعلومة نضجا ووضوحا في الذهن، وتكسب التحقق بالرسوخ فيها.

كما أن الشيوع والذيوع لتلك المادة - عند أهل العلم المعتنين بصفاء المعتقد والتحقق بهدي النبي المصطفى r - دال على أهميتها، ودرجة تلقيها بالقبول لدى العلماء الربانيين، مما يجعلها مرمى أنظار كثير من أهل العلم، وهذا لا شك أنه يكسب المادة قوة ووضوحا وانتشارا.

كما أن تداول مثل هذا الكتاب بهذه المواصفات، يجعل النفوس تطمئن إليه، وتعتد بالخبرة السابقة للجمهرة التي تناولته تعليما وتعلما، إذ ما جُرِّب دربُه وعظم نفعه، أوقع في النفس قبولا، وأخصر للطالب من كثرة التنقيب والعناء، بحثا عما يوصل إلى المطلوب بأقرب سبيل وأيسره مع الأمانة والعافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا انضاف إلى ذلك ما عرف به صاحب كتاب:(ثلاثة الأصول) والذي هو مَادَتُنَا – **شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى**- من الإمامة والديانة وسلامة المعتقد، مع التدقيق والتحقيق والرسوخ، وما قدمه من الجهاد العظيم في سبيل إقامة حق الله تبارك وتعالى على وجهه الذي أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب، مع صبر وحلم عظيمين، وحرص على بث العلم رحمة للأمة، وإقامة للحجة، بشارة وإعذارا وإنذارا، عظم الانتفاع به، إذ أن أثر العلم الذي يُعمل به ليس كالنظري الذي لا حظ له من الجهاد العملي بالبيان والبرهان، والحجة والسنان.

ولأجل هذا وغيره من الأسباب المتفرعة عما تقدم؛ وقع الاختيار على هذا الكتاب، بغية شرحه وتفجير كنوزه، إسهاما في نشر العلم الشرعي، لاسيما علم المعتقد، الذي يُعَدُّ آكد الرَّكائز التي ينبني عليها قبول العمل عند الله عزَّ وجل، كيف وقد تناول الكتاب الركيزة الأخرى العظمى، ألا وهي تحقيق الاتباع للرسول r ، التي لا يمكن أن تنفك عن الأولى بحال، فلا قوام للعروة الوثقى إلا بهما، وهي تحقيق قول: **(لا إله إلا الله محمد سول الله)**، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مميزات الكتاب

إن من سَبَرَ غور هذا الكتاب، وعرف بعد نظرة مؤلفه، وما يرمي إليه من المعاني الكبار والمقامات الرفيعة العالية، وما يطمح إليه المؤلف من الجمع بين ما يكون به عز الدنيا وأمن الآخرة؛ يجد أنه بين يدي جملة من المزايا التي اجتمعت في هذا المُؤَلَّف، ومن باب الإسهام في ذلك رُمت ذكر شيء من ذلك، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسأسردها تباعا بلا تعليق:

١- كونه متعلق بسلامة المعتقد وتصحيحه.

٢- قلة جمله مع تضمينها المعاني والأصول الكبار.

٣- الترتيب الفائق للأفكار والجمل.

٤- استعمال أساليب بيانية وبلاغية رائعة أكسبت الكتاب جمالا وإشرقا.

٥- سهولة حفظها.

٦- البداءة بالأهم ثم المهم.

٧- سهولة الألفاظ وبعدها عن التعقيدات اللغوية.

٨- التركيز على القضايا الأظهر والأخطر مع عدم إهمال غيرها.

٩- الإكثار من الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم.

١٠- كونها مادة خصبة للتعليم والنشر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١١- تيسر مادتها فهما وإدراكا للعامة والخاصة.

١٢- التكرار غير الممل لترسيخ المعلومة الأخطر والأعظم.

١٣- التدريب على طريقة استنباط الأحكام والمعاني من نصوص الكتاب والسنة.

١٤- التودد للقارئ، وإظهار الحرص والإشفاق عليه والرحمة له.

١٥- إظهار أهمية الدعاء بالهداية والرشد للنفس والغير.

١٦- اطلاع المؤلف رحمه الله تعالى على مكمن الداء مما يسهل العلاج.

١٧- ربط القارئ بالسلف والعلماء الربانيين.

١٨- التذكير بضرورة عدم الاستنكاف في العلم، وأهمية الذل والتواضع، والاستفادة من علم الآخرين من أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبب تأليف الكتاب على هذا النمط من السعة

لما كانت هذه الأصول الثلاثة، تمثل الأصول الكبار التي يصح بها إسلام العبد، ويتحقق معها إيمانه بالله تعالى، أردت أن أتكلم على هذه الأصول بشيء من السَّعَةِ والتفصيل، حتى إذا أتم العبد حفظ الأصول الثلاثة، ثم قرأ هذا الشرح؛ حصل على جملة طيبة، وجرعة مناسبة في علم المعتقد عموما، فكانت بمنزلة السلاح الذي يتسلح به العبد، في مواجهة الفتن والشبه والضلالات والانحرافات العقدية، كما أنني اجتهدت، أن أذكر فيه أكثر الأمراض، والشبه والفتن العقدية المعاصرة، مع عدم إهمال، لما وقع من قَبْل من انحراف وضلال، وحرصت على أن أصوغه بحظ وافر من الوضوح والبيان، مع بساطة العبارة، وسَعَة المعلومة، قَدْرَ المُستطاع؛ ليتسنى قراءته على الأهل في المنزل، فيحصل بذلك جرعة وقائية للأهل في المنزل، وكذلك إذا قُرِأ عند الأقارب، وفي الاجتماعات العامة أو الخاصة، كما أن المتأمل يجد أن هناك قَدْرا مُقَدَّرا مُعتبرا من الشروحات المختصرة، والنافعة جدا، والمفيدة لهذا الكتاب، فأردت أن يكون هناك شرح لهذا الكتاب فيه شيء من السعة والبسط؛ ليكون مرجعا للمبتدئ، ومنطلقا للمجتهد، فما كان فيه من نفع وصواب فمن الله وحده وفضله ومَنِّهِ وكرمه، وحده لا شريك له، وما كان فيه من نقص وتقصير، فإنما هو جهد البشر غير المعصوم، وأنت أخي المسلم التمس لأخيك العذر، وحسبي أني اجتهدت أن أقدم ما أستطيع بصورة واضحة، ومعلومة دقيقة، والله المستعان، وهو من وراء القصد، والله الموفق. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

قال المؤلف رحمه الله تعالى:(بسم الله الرحمن الرحيم).

الشرح

هذا اقتداء منه بالكتاب العزيز حيث وضعت البسملة في أول كل سورة منه، كما هو في المصحف العثماني، الذي هو محل إجماع من الصحابة **y**، فقد أجمعوا على كتابتها في أول كل سورة، إلا ما كان من سورة براءة، قيل لتنزلها بالسيف، وقيل لإعلان البراءة فيها من الكفر والكافرين، جملة وتفصيلا، وقيل غير ذلك، وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ الله **r** ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ الله قَالَ:"أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ". فَقَرَأَ:"بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ}". ثُمَّ قَالَ:"أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ". فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ"[١].

---

١ - صحيح مسلم:[باب حُجَّةِ مَنْ قَالَ الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ سِوَى بَرَاءَةَ].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن الاستفتاح بالبسملة هو هدي النبي r ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستفتح كتبه ورسائله بالبسملة، كما جاء ذلك مصرحا به في الحديث الذي أخرجه البخاري من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قصة الكتاب الذي بعثه النبي r مع دحية الكلبي t إلى هرقل وفيه:بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ....الحديث[١].

وما أخرجه البخاري من طريق الزهري قال:أخبري عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا:خرج رسول الله r زمن الحديبية، حتى كانوا ببعض الطريق _ فذكر خبر الحديبية إلى أن قال _ قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا، فدعا النبي r الكاتب، فقال النبي r : (بسم الله الرحمن الرحيم). قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي r : (اكتب باسمك اللهم)... الحديث[٢]. ورواه مسلم بمعناه من طرق عن البراء وأنس رضي الله عنهما.

---

١ - صحيح البخاري:[باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله r].

٢ - صحيح البخاري[باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن الله تبارك وتعالى ذكر ذلك في كتابه العزيز من هدي الأنبياء والمرسلين من قبل، كما في ذكر كتاب سليمان عليه السلام الذي بعثه إلى بلقيس، كما قال الله تعالى: {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم}[النمل:٣٠].

وبهذا يتبين أن هذه هي السنة، في جميع الكتب والمراسلات، أن تستفتح بالبسملة دون الحمدلة، بخلاف الخطب والمواعظ الارتجالية، فالسنة استفتاح ذلك كله بالحمدلة، كما جاء ذلك في صحيح الإمام مسلم من طريق جعفر بن محمد عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ:كَانَ رَسُولُ الله r يَخْطُبُ النـاسَ.يَحْمَـدُ اللهّ وَيُثْنِـي عَلَيْـهِ بِـمَا هُـوَ أَهْلُـهُ. ثُـمّ يَقُولُ:"مَنْ يَهْدِهِ الله فَلاَ مُضِلّ لَهُ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَخَيْرُ الْحَـدِيثِ كِتَـابُ اللهّ. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَىَ مُحَمّدٍ. وَشَرّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا. وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ". ثُمّ يَقُولُ:"أَنَا أَوْلَىَ بِكُلّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ. مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ. وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضِيَاعاً فَإِلَيّ وَعَلَيّ"[١].

وعند مسلم أيضا من طريق عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ أَنّ ضِمَاداً قَدِمَ مَكّةَ. وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ. وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرّيحِ. فَسَـمِعَ سُـفَهَاءَ مِـنْ أَهْلِ مَكّةَ يَقُولُونَ: إِنّ مُحَمّداً مَجْنُونٌ. فَقَالَ: لَوْ أَنّي رَأَيْتُ هَذَا الرّجُلَ لَعَلّ الله يَشْفِيهِ عَـلَى يَدَيّ. قَالَ فَلَقِيَهُ. فَقَالَ: يَا مُحَمّدُ إِنّي أَرْقِي مِنْ هذِهِ الرّيحِ. وَإِنّ اللهّ يَشْفِي عَلَىَ يَـدِي مَـنْ شَاءَ. فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"إِنّ الْحَمْدَ للهّ. نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ. مَنْ يَهْـدِهِ الله فَـلاَ

---

١ - صحيح مسلم:[باب تخفيف الصلاة والخطبة]، والجملة الأخيرة منه من قوله r :"أنا أولى...الحديث" هو مخرج في الصحيحين من حديث أبي هريرة t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُضِلّ لَهُ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. وَأَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمّا بَعْدُ". قَالَ فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ. فَأَعَادَهُنّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله r . ثَلاَثَ مَرّاتٍ. قَالَ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السّحَرَةِ وَقَوْلَ الشّعَرَاءِ. فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ. وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ. قَالَ فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ. قَالَ فَبَايَعَهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله r : "وَعَلَىَ قَوْمِكَ" قَالَ: وَعَلَىَ قَوْمِي. قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ الله r سَرِيّةً فَمَرّوا بِقَوْمِهِ. فَقَالَ صَاحِبُ السّرِيّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ شَيْئاً؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً. فَقَالَ: رُدّوهَا. فَإِنّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ[1].

وما أخرجه الترمذي وصححه في ذكر خطبة الحاجة من طريق عبثر بن القاسم عن الأعْمَشِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عنْ أبي الأحْوَصِ، عنْ عَبْدِ الله قالَ: عَلّمَنَا رَسُولُ الله r التّشَهّدَ فِي الصّلاَةِ والتّشَهّدَ فِي الْحَاجَةِ. قالَ "التّشَهّدُ فِي الصّلاَةِ: التّحِيّاتُ لله والصّلَوَاتُ والطّيّبَاتُ. السّلاَمُ عَلَيْكَ أَيّهَا النبيّ وَرَحْمَةُ الله وبَرَكَاتُهُ. السّلاَمُ عَلَيْنَا وعَلَى عِبَادِ الله الصّالِحِينَ. أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله وأَشْهَدُ أَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ. والتّشَهّدُ فِي الْحَاجَةِ، إنّ الْحَمْدَ لله نَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ. ونَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيّئَات أَعْمَالِنَا، فمَنْ يَهْدِه أَيْ الله فَلاَ مُضلّ لَهُ. ومِنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إلَهَ إلاّ الله. وأَشْهَدُ أنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ" وَيَقْرَأُ ثَلاَثَ آيَاتٍ. قَالَ عَبْثَرُ: فَفَسّرَهَ لنا سُفْيَانُ

١ - صحيح مسلم:[باب تخفيف الصلاة والخطبة].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثّوْرِيّ: اتّقُوا الله حَقّ تقَاتِه ولاَ تَمُوتُنّ إلاّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. و{اتّقُوا الله الّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إنّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}. {اتّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}[1].

وهذه السنة مما خفيت على كثير من الناس؛ ولهذا ترى كثيرا من الشراح يعتذرون عن بعض السلف أنهم لم يستفتحوا مصنفاتهم بالحمدلة ببعض الأعذار ظنا منهم أن هذا خلاف الأولى، وكأنهم أخطئوا وحاشاهم في هذا المقام، بل قد أصابوا؛ لأنهم اتبعوا ما علموه من سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام، وهذه الفائدة مما نبه عليها فضيلة شيخنا العلامة المحدث سليمان بن ناصر العلوان، حفظه الله ورعاه، وسدد على الخير خطاه.

أما الأحاديث الدالة على أن الأفضل، هو تضمين الحمدلة عند البداءة بجميع الأمور فكلها أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة[2]. والله أعلم.

---

١ - سنن الترمذي:[باب ما جاء في خطبة النكاح].

٢ - كالحديث الذي في مسند الإمام أحمد بن حنبل من طريق يحيى بن آدم ثنا بن مبارك عن الأوزاعي عن قرة بن عبد الرحمن عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله r :"كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر أو قال اقطع". وهذا إسناد ضعيف لحال قرة حيث يكاد يطبق الحفاظ على ضعفه ونكارة حديثه.

وله علة أخرى بينها الحافظ أبو عبد الرحمن النسائي في سننه الكبرى وإليك نص كلامه:[أخبرنا محمود بن خالد حدثنا الوليد قال قال أبو عمرو وأخبرني قرة عن ابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي r قال:"كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع".

أخبرني محمود بن خالد حدثنا الوليد حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن الزهري رفعه:مثله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي البسملة مباحث نذكر أهمها وأشهرها وهي سبع مباحث:

أولا: بعد أن اتفق العلماء على أنها آية من القرآن في سورة النمل، اختلفوا في حكم تعلقها بالسور على أقوال:

(الأول): ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها من السور، وهو قول مالك وأبي حنيفة.

(الثاني): أنها آية من كل سورة، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين، قال ابن كثير في تفسيره:[وممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن

أخبرنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب:مرسل.

أخبرنا علي بن حجر حدثنا الحسن يعني بن عمر عن الزهري قال قال رسول r :"كل كلام لا يبدأ في أوله بذكر الله فهو أبتر".ا.هـ. فأنت كما ترى قد أرسل هذا الخبر عن الزهري أحد أوثق الناس فيه ألا وهو عقيل وتابعه الحسن بن عمر وهو ثقة، ومخالفة سعيد بن عبد العزيز لهما لا تؤثر، فعقيل أضبط لحديث الزهري منه؛ فتبين بهذا أن الخبر لا يصح إلا مرسلا من رواية الزهري.

وأخرجه عبد الرزاق في موضعين في [باب القول عند النكاح] وفي [تشقيق الكلام] عن معمر قال حدثني رجل من الأنصار رفع الحديث قال:"كل كلام ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر". وهذا حديث مرسل كما ترى لا تقوم بمثله حجة.

وجا هذا الخبر بلفظ:"كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) فهو أبتر". وفي لفظ:"فهو أقطع". رواه الخطيب والحافظ عبد القادر الرهاويوالسبكي في "طبقات الشافعية الكبرى" ومداره على أحمد بن محمد بن عمران، و ابن عمران هذا هو ابن الجندي ترجمه الخطيب"في تاريخه". وابن الجندي متهم بالوضع، فهذا إسناد تالف، ورواه السبكي من طريق خارجة بن مصعب عن الأوزاعي به بلفظ:"لا يبدأ فيه بحمد الله". قلت:وخارجة بن مصعب متروك الحديث.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعليّ. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن رَاهوَيه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله].ا.هـ.

(الثالث): أنها آية في الفاتحة فقط وهذا مروي عن الشافعي.

(الرابع): أنها بعض آية من أول كل سورة، وهذا مروي أيضا عن الشافعي، قال ابن كثير في تفسيره:[وقال الشافعي في قولٍ، في بعض طرق مذهبه:هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان]ا.هـ.

(الخامس): أنها آية مستقلة في أول كل سورة، قال ابن كثير في تفسيره:[وقال داود:هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل. وحكاه أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله]ا.هـ.

واحتجوا بحديث أبي هريرة في صحيح مسلم من طريق الْعَلاَءِ بن عبد الرحمن، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ: قَالَ الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ. وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:{الْحَمْدُ لله رَبّ الْعَالَمِينَ} قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ:{الرّحْمَنِ الرّحِيمِ}. قَالَ الله تَعَالَى:أَثْنَى عَلَيّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ:{مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ} قَالَ:مَجّدَنِي عَبْدِي (وَقَالَ مَرّةً: فَوّضَ إِلَيّ عَبْدِي) فَإِذَا قَالَ:{إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ}. قَالَ:هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ:{اهْدِنَا الصّرَاطَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضّالّينَ}. قَالَ:هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ"[1]. فلم تُذكر البسملة في هذا الخبر.

وهذه المسألة مما لا يسوغ فيها التثريب على المخالف ولا التشنيع عليه،وقد أشار القرطبي إلى هذا المعنى حيث قال في تفسيره:[وهذا يدل على أن المسألة مسألة اجتهادية لا قطعية، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذي يلزم على قوله تكفير المسلمين؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور؛ والحمد لله]ا.هـ. (ذكر ذلك في تفسيره لسورة الفاتحة عند القول في البسملة).

أما الحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال:«كان رسولُ الله r لا يعرف فَصْل السورة حتى ينزل عليه:{بسم الله الرحمن الرحيم}، فطريقه عند أبي داود:حدثنا قتيبة بن سعيد، قال:حدثنا سفيان عن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.فذكره.

بينما بين أبو داود أن الرفع مما تفرد به قتيبة عن الباقين حيث قال:حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَزِيُّ وَابْنُ السَّرْحِ قَالُوا حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَمْرٍو عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ - قَالَ قُتَيْبَةُ فِيهِ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ r لاَ يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْهِ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). وَهَذَا لَفْظُ ابْنِ السَّرْحِ.ا.هـ.

---

١ - صحيح مسلم :[باب وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ وَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْفَاتِحَةَ وَلاَ أَمْكَنَهُ تَعَلُّمُهَا قَرَأَ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبين ذلك أيضا الحميدي في مسنده حيث قال ثنا سفيان قال عمرو عن سعيد بن جبير ولم يذكر فيه عن ابن عباس قال: كان النبي r إذا نزل عليه القرآن يعجل به يريد أن يحفظ فأنزل الله لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه الآية قال وكان رسول الله r لا يعلم ختم السورة حتى ينزل عليه: {بسم الله الرحمن الرحيم}. قلت: وهذا دال على أن هذا الخبر لا يصح إلا مرسلا.

ثانيا: التفريق بين التسمية والبسملة[1]، وأن البسملة لغة هي قولك:(بسم الله)، والتسمية هي قولك:(بسم الله الرحمن الرحيم)، وفي الاستعمال الفقهي تطلق التسمية ويراد بها الاقتصار على (بسم الله) كذلك، كالتسمية في أول الطعام والجماع والوضوء على خلاف في الأخير - إذ الراجح تركها عند الوضوء لعدم انتهاض الأدلة الواردة للاحتجاج، مع تظافر الأدلة الصحاح على عدم إيرادها في صفات الوضوء الثابتة-.

١ -جاء في لسان العرب:[وروي عن الفراء أنه قال لم نسمع بأَسماءِ بنيت من أَفعال إِلاَّ هذه الأَحرف البسملة والسبحلة والهيللة والحوقلة أَراد أَنه يقال بسمل إِذا قال بسم الله وحوقل إِذا قال لا حول ولا قوَّة إِلا بالله وحمدل إِذا قال الحمد لله وجَعْفَلَ جَعْفَلَةً من جُعِلْتُ فداءك والحَيْعَلَةُ من حيّ على الصلاة]ا.هـ.وفي كتاب الصحاح في اللغة:[بسمل:قال ابن السكيت: بَسْمَلَ الرجل، إذا قال بِسْمِ الله. يقال: قد أكثرت من البَسْمَلَةِ، أي من قول بِسْمِ الله]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتظهر ثمرة الخلاف في هذا التفريق، بأن قول (بسم الله)هو ذكر وليس بقرآن بالاتفاق، بخلاف قول (بسم الله الرحمن الرحيم) فإنها بالاتفاق آية من سورة النمل، وفيما عداها فعلى الخلاف المتقدم تقريره، ويتفرع عن ذلك مسائل فقهية أخرى[١].

وبما أن كلا من التسمية والبسملة، هي ألفاظ شرعية، فإن الراجح التَّقَيُّد بِمَوارِد الشرع واستعمالاته لكل منها، فالقول بأن كل فعل صالح من قول أو عمل يشرع الاستفتاح فيه بالبسملة أو التسمية، هو قول فيه نظر، كما أن القياس هنا الراجح أنه غير معمول به، إذ الشأن في الأذكار أنها توقيفية، هذا هو الأصل[٢]، ونسبة شيء إلى الشرع يحتاج إلى دليل خاص، والقياس يحتاج أن يكون مُعَلَّلاً بِعِلَّةٍ مُنْضَبطة، أو أن ينص عليها الشارع، وليس شيء من ذلك حاصلا في التسمية أو البسملة، وعليه فالراجح أن ما

---

١ - كمسألة هل يقولها الجنب والحائض أم لا، على أن الراجح جواز ذلك، وليس هذا محل بسطه، فقد بينته في شرح العمدة وبلوغ المرام، ومسألة هل يجوز مس ما كتبت فيه باعتبار أنها من القرآن على الخلاف المحفوظ في ذلك.

٢ - لما جاء في الصحيحين عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ r :"إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ ثُمَّ قُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لاَ مَلْجَأَ، وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ" قَالَ فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ r فَلَمَّا بَلَغْتُ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ قُلْتُ:**وَرَسُولِكَ**، قَالَ:"لا**وَنَبِيِّكَ** الَّذِي أَرْسَلْتَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورد في الشرع بلفظ التسمية أو البسملة وجب المصير إليه، فمثلا في أول الطعام نقول (بسم الله)، وكذلك عند الجماع، ولكن عند تلاوة القرآن نقول:(بسم الله الرحمن الرحيم)، وكذلك في المكاتبات والرسائل، وهكذا حيث ورد فنتقيد بالوارد من ذلك.

وإذا كان البعض يقيس الوضوء على الجماع والطعام بقياس الأولى، فنقول أليست العلة هنا طلب البركة بالاستفتاح باسم الله تعالى؟، فالجواب بلى، فنقول أليست هذه العلة مطلوبة في جميع الأعمال الصالحة، وعليه فيلزم من ذلك طرد هذا القياس في كل عمل صالح، كالأذان والإقامة والقيام إلى الصلاة وعند الإحرام وأداء المناسك إلى غير ذلك، وهذا لاشك أنه من أبعد ما يكون، وبهذا نعلم أن العلة غير معلومة هنا، بل هو التعبد لله تعالى بما شرع في هذا الموطن أو ذاك، فحيث وردت عملنا[1]، وحيث لم ترد أمسكنا، والله أعلم.

---

١ - ولتمام الفائدة نذكر جملة من ذلك، فمنها ما في صحيح مسلم عَنْ أَبِى سَعِيدٍ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِىَّ r فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ فَقَالَ:"نَعَمْ"، قَالَ:"بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ". وفي صحيح مسلم أيضا عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِى الْعَاصِ الثَّقَفِىِّ أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ r وَجَعًا يَجِدُهُ فِى جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ r :"ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِى تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ . ثَلاَثًا. وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ"، ومنها في النحر كما في الصحيحين عَنْ أَنَسٍ قَالَ ضَحَّى النَّبِيُّ r بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ وَسَمَّى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا، ومنها عند دخول المنزل على خلاف في معنى قوله r :"إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَّ تَعالى عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعامِهِ قالَ الشَّيْطانُ: لا مَبِيتَ لَكُمْ وَلا عَشاءَ؛ وَإِذا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَّ تَعالى عِنْدَ دُخُولِه، قالَ الشَّيْطانُ: أَدْرَكْتُمُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المَبِيتَ؛ وَإذا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ تَعالى عِنْدَ طَعامِهِ قالَ: أدْرَكْتُمُ المَبِيتَ والعَشَاء" رواه مسلم عن جابر t ، فمن حمله على التسمية فظاهر، ومن قال المراد مطلق الذكر فلا يكون حجة على هذا، ومنها عند الخروج من المنزل كما في قوله عليه الصلاة والسلام عن أنس t قال: قال رسول اللهّ r :"مَنْ قالَ ـ يعني إذا خرج من بيته ـ باسْمِ الله، تَوَكَّلْتُ على الله، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله، يُقالُ لَهُ: كُفِيتَ وَوُقِيتَ وَهُدِيتَ، وتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطانُ" رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، وقال الله تعالى:"فكلوا مما ذكر اسم الله عليه". [الأنعام:١١٨]. وقوله:"وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها" [هود:٤١]. وقال رسول الله r :"أغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله" متفق عليه من حديث جابر t ، وقال r :"لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً" متفق عليه من حديث ابن عباس t ، وقال لعمر بن أبي سلمة:"يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك" متفق عليه. وقال r :"إن الشيطان يستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليه" رواه مسلم عن حذيفة t ، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت:قَالَ رسول الله r :"إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ الله تَعَالَى، فإنْ نَسِيَ أنْ يَذْكُرَ اسْمَ الله تَعَالَى في أوَّلِهِ، فَلْيَقُلْ: بسم الله أوَّلَهُ وَآخِرَهُ". رواه أبو داود والترمذي، وقال:حديث حسن صحيح، ومنها قوله عليه السلام:"من لم يذبح فليذبح باسم الله" متفق عليه من حديث جندب t ، إلى غير ذلك من الأدلة الواردة في هذا الصدد، وبما أن التلفظ بالبسملة عبادة لله تعالى؛ فالظاهر أنه يجب فيها ما يجب في سائر العبادات أن تكون خالصة لله تعالى وتابعة للدليل؛ وعليه فلا تشرع التسمية إلا في المواطن التي صح فيها الدليل، وما عدا ذلك فلا يمكن القول بسنية ذكرها في أول كل فعل من الأفعال، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثا: هل تقرأ البسملة عند القراءة من غير أوائل السور أم لا؟، في ذلك خلاف بين أهل العلم والظاهر أنه إن كان التالي للقرآن في بداية قراءته، أي في أول شروعه في التلاوة من أواسط السُّوَر، يريد بذلك البركة، بذكر البسملة جاز له ذلك، وقيل: إن طَلَب البركة أمر تعبدي، وهذا يحتاج إلى دليل؛ فالأولى المنع من ذلك، والاكتفاء بما ورد من الاستعاذة، أما إن كان يقرأ من أواسط سورة ما ثم أراد أن يقرأ من أوسط سورة أخرى فإنه يكتفي بالاستعاذة.

وجاء في كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح:[فَصْلٌ:(فِي التَّعَوُّذِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ وَالْبَسْمَلَةِ لِكُلِّ سُورَةٍ).وَيُسَنُّ التَّعَوُّذُ فِي الْقِرَاءَةِ، فَإِنْ قَطَعَهَا قَطْعَ تَرْكٍ وَإِهْمَالٍ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعُودُ إلَيْهَا أَعَادَ التَّعَوُّذَ إذَا رَجَعَ إلَيْهَا، وَإِنْ قَطَعَهَا بِعُذْرٍ عَازِمًا عَلَى إتْمَامِهَا إذَا زَالَ عُذْرُهُ كَفَاهُ التَّعَوُّذُ الْأَوَّلُ، وَإِنْ تَرَكَهَا قَبْلَ الْقِرَاءَةِ فَيَتَوَجَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا ثُمَّ يَقْرَأُ؛ لِأَنَّ وَقْتَهَا قَبْلَ الْقِرَاءَةِ لِلاسْتِحْبَابِ فَلَا يَسْقُطُ بِتَرْكِهَا إذَنْ؛ وَلِأَنَّ الْمَعْنَى يَقْتَضِي ذَلِكَ، أَمَّا لَوْ تَرَكَهَا حَتَّى فَرَغَ سَقَطَتْ لِعَدَمِ الْقِرَاءَةِ. وَتُسْتَحَبُّ قِرَاءَةُ الْبَسْمَلَةِ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا نَصَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ:لَا يَدَعَهَا، قِيلَ لَهُ:فَإِنْ قَرَأَ مِنْ بَعْضِ سُورَةٍ يَقْرَؤُهَا؟، قَالَ:لَا بَأْسَ، فَإِنْ قَرَأَ فِي غَيْرِ صَلَاةٍ فَإِنْ شَاءَ جَهَرَ بِالْبَسْمَلَةِ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَجْهَرْ نَصَّ عَلَيْهِ فِي رِوَايَتِهِ أَبِي دَاوُد وَمُهَنَّا قَالَ الْقَاضِي : مَحْصُولُ الْمَذْهَبِ أَنَّهُ بِالْخِيَارِ وَالْإِسْرَارِ كَمَا كَانَ مُخَيَّرًا فِي أَصْلِ الْقِرَاءَةِ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْإِسْرَارِ.وَكَالِاسْتِعَاذَةِ وَعَنْهُ يَجْهَرُ بِهَا مَعَ الْقِرَاءَةِ وَعَنْهُ لَا يَعْتَدُّ بِتِلْكَ قُرْبَةً، فَلَا يَجُوزُ. وَقَالَ صَالِحٌ فِي مَسَائِلِهِ عَنْ أَبِيهِ وَسَأَلْتُهُ عَنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَسُورَةِ التَّوْبَةِ هَلْ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَهُمَا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ قَالَ أَبِي:يَنْتَهِي فِي الْقُرْآنِ إلَى مَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ r لَا يُزَادُ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُ. وَهَذَا مَعْنَى مَا نَقَلَ الْفَضْلُ وَأَبُو الْحَارِثِ].ا.هـ.والله أعلم.

رابعا: كتابتها في أول الشعر:قال القرطبي:[اتفقت الأمة على جواز كتبها في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فإن كان الكتاب ديوان شعر فروى مجالد[1] عن

١ - قلت: هذا الأثر جاء في كتابالجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي فأنا أبو نعيم الحافظ نا عبد الله بن جعفر بن أحمد بن فارس نا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود نا عبد الله النفيلي نا جنادة بن سلم من ولد جابر بن سمرة أنا مجالد عن الشعبي قال:«أجمعوا أن لا يكتبوا أمام الشعر» {بسم الله الرحمن الرحيم}. قلت: ومجالد هذا هو ابن سعيد وهو ضعيف عند جمهور المحدثين، وأما ما جاء أيضا في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي:[أنا محمد بن عبد العزيز البرذعي أنا أحمد بن محمد بن عروة نا عمر بن الحسن بن علي بن مالك نا محمد بن القاسم بن خلاد نا يعقوب بن محمد الزهري نا عبد العزيز بن عمران الزهري عن ابن أخي ابن شهاب عن عمه قال:«مضت السنة ألا يكتب في الشعر» {بسم الله الرحمن الرحيم} «وممن ذهب إلى رسم التسمية في أول كتاب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين، وهو الذي نختاره ونستحبه].ا.هـ. قلت:هذا أثر شديد الضعف، فإن عبد العزيز بن عمران الزهري متروك الحديث، ويعقوب بن محمد الزهري وابن أخي ابن شهاب فيهما لين.

وجاء في كتاب الأمر بالمعروف للخلال:[أخبرني عبد الله بن محمد بن عبد الحميد، قال:حدثنا بكر بن محمد عن أبيه عن أبي عبد الله أنه سئل عن الرجل يكتب {بسم الله الرحمن الرحيم} أمام الشعر فكأنه لم يعجبه وقال:حدثنا حفص عن مجالد عن الشعبي قال:«كانوا يكتبون أمام الشعر {بسم الله الرحمن الرحيم}، وقال:{بسم الله الرحمن الرحيم} هي آية من القرآن، فما بال القرآن يكتب مع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشعبي قال: أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر"بسم الله الرحمن الرحيم". وقال الزهري: مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر "بسم الله الرحمن الرحيم". وذهب إلى رسم التسمية في أول كتب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين. قال أبو بكر الخطيب: وهو الذي نختاره ونستحبه]ا.هـ.

ويمكن القول بالتفصيل أنه إذا كان الشعر خبيثاً ماجناً، أو غزلياً ساقطاً مُنع من وضع البسملة في أوله؛ لأن هذا لا يليق، بل قد يعد من الامتهان لاسم الله تبارك وتعالى، وهذا عظيم جدا، وأما إذا كان الشعر مباحاً، أو كان في نصرة الحق، أو تضمن معنىً حسناً، من رثاءٍ أو مدحٍ أو هجاء محمودٍ؛ فلا بأس من وضع البسملة في أوله، ويشهد لهذا القول ذلك التفصيل الوارد في كتاب الله تعالى في أصناف الشعراء، والتفريق بينهم بناء على حالهم وما يتعاطونه من شعر، حيث قال تبارك وتعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

الشعر؟ وقال:هذا حديث أنس:أن النبي r قال:"أنزلت علي سورة وقرأ:{بسم الله الرحمن الرحيم}.وهو حجة ألا يكتب أمام الشعر]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خامسا: في معنى البسملة واشتقاقها: أما قوله "بسم الله" فمعناه على الراجح أي بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته؛ واختلفوا في معنى دخول الباء عليها، هل دخلت على معنى الأمر، فيكون التقدير: ابْدَأْ باسم الله. أم على معنى الخبر، فيكون التقدير: ابتدأت باسم الله؛ قولان، وقيل: التقدير ابتدائي ببسم الله موجود أو ثابت. واختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقيل: هو مشتق من السُّمو وهو العلو والرفعة، وقيل:إنما سمي الاسم اسما لأنه علا بقوته على قسمي الكلمة:الحرف والفعل؛ وقيل: إنه مشتق من السمة وهي العلامة؛ لأن الاسم علامة لمن وضع له، وقيل غير ذلك.

قوله:**"الله"** هذا الاسم عَلَمٌ على ذات الله تبارك وتعالى، وقيل هو أعظم أسمائه سبحانه وتعالى وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره؛ ولذلك لم يثن ولم يجمع؛ وهو أحد تأويلي قوله تعالى: "هل تعلم له سميا" [مريم:٦٥]، أي تسمى باسمه الذي هو "الله". فالله اسم للإله المعبود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بنعوت جلاله وصفات كماله، لا إله إلا هو سبحانه وحده الذي يستحق أن يعبد.

وهذا الاسم **(الله)** قد اشتمل على أنواع التوحيد كلها، بأنواع الدلالات الثلاث، إما مطابقة أو تضمنا أو التزاما، فهو دال على توحيد الألوهية بالمطابقة، لأنه دال بلفظه مطابقة على معاني التأله والتعبد، وهو دال على توحيد الربوبية بالالتزام، فمن لوازم الإله الحق أن يكون رابا متصرفا في خلقه قائما قيوما، كما قال تعالى:{لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي}، وهو دال على توحيد الأسماء والصفات بالتضمن، إذ الإله الحق هو الذي له الأسماء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحسنى وصفات الجمال ونعوت الجلال، له جميع الكمالات والصفات العلا، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى:١١]. والله أعلم.

واختلفوا في هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَمٌ؟. والراجح أنه مشتق كما رجح ذلك سيبويه واختاره ابن القيم رحمه الله تعالى، وهو مشتق من أَلَه يَأْلَهُ أَلَاهَةً فهو مَأْلُوه، أي المعبود المحبوب المنعوت بصفات الكمال ونعوت الجمال والجلال، الذي تأله الخلائق حبا وعبودية، وشوقا وطلبا لمعونته ورحمته وإنما سمي "الله" إلها، لأن الخلق يتألهون إليه في حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائدهم، فهو المعبود الحق لا إله حق سواه، ولا رب للعالمين غيره؛ ولهذا يقال: أله الرجل إذا تعبد، وتأله إذا تنسك؛ ومن ذلك قوله تعالى:{ويذرك وإلاهتك} [الأعراف:١٢٧]، على هذه القراءة؛ فان ابن عباس وغيره قالوا: وعبادتك.

فاسم الله مشتق من هذا، فالله سبحانه معناه المقصود المستحق للعبادة، ومنه قول الموحدين: لا إله إلا الله، ومعناها لا معبود بحق إلا الله تعالى.

وقيل: إنه مشتق من الارتفاع؛ فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهاً، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس:لاهت.

وقيل: إنه مشتق من "وَلَهَ" إذا تحير؛ والوَلَهُ: ذَهَابُ العقل. يقال: رجل وَالِهٌ وامرأة وَالِهَةٌ وَوَالِه، ومَاءٌ مُوَلَّهٌ: أرسل في الصحاري. فالله سبحانه وتعالى تتحير الألباب في معرفة كنهه أي كيف هو، وتعجز العقول عن معرفة حقائق صفاته ويتوقف الفكر عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معرفة كماله وجلاله وجماله، كما قال تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام:١٠٣]، وقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:١١]، وقال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠]، وهو سبحانه وتعالى من صفاته العلو، فله جميع معاني العلو وأنواعه، علو القدر والقهر والذات، جل الله في علاه.

سادسا: واختلفوا أيضاً في اشتقاق اسم الله(الرحمن)، فقال بعضهم: لا اشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه، والراجح أنه مشتق، كما رجح هذا ابن كثير وغيره، وقال القرطبي في تفسيره:[وذهب الجمهور من الناس إلى أن "الرحمن" مشتق من الرحمة مبني على المبالغة؛ ومعناه ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها، فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى "الرحيم" ويجمع.

قال ابن الحصار: ومما يدل على الاشتقاق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله r : يقول:"قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته". وهذا نص من الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له]ا.هـ.

سابعا: واختلفوا في معنى (الرحمن الرحيم) هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟، فقيل: هما بمعنى واحد؛ والراجح أنهما بمعنيين وبينهما عموم وخصوص فـ "الرحمن"

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاص الاسم عام الفعل. و"الرحيم" عام الاسم خاص الفعل. وأنهما اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، و{الرحمن} أشد مبالغة من {الرحيم} . قال أبو علي الفارسي: "الرحمن" اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله. "والرحيم" إنما هو في وجهة المؤمنين؛ كما قال تعالى: "وكان بالمؤمنين رحيما" [الأحزاب:٤٣]. وقال العرزمي: "الرحمن" بجميع خلقه في الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة، "والرحيم" بالمؤمنين في الهداية لهم، واللطيف بهم. وقال ابن المبارك: "الرحمن" إذا سئل أعطي، و"الرحيم" إذا لم يسأل غضب. وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة.

قال ابن كثير في تفسيره:[قال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي،حدثنا عثمان بن زُفَر، سمعت العَرْزَميّ يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الفرقان:٥٩]، وقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه:٥]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]، فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسم به غيره كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}، وقال تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}، ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكد به، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكَّد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد، وإنما هو من باب النعت بعد النعت، ولا يلزم فيه ما ذكروه، وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولا بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَّ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الإسراء:١١٠]. وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة. وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة:١٢٨]، كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}[الإنسان:٢].ا.هـ.

قلت: وأكثر العلماء على هذا أن "الرحمن" مختص بالله عز وجل، لا يجوز أن يسمى به غيره؛ ولهذا قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَّ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الإسراء:١١٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأسماء تنقسم من حيث إطلاقها إلى ثلاثة أقسام فمنها المختص بالله تعالى وحده دونما سواه ومنها المشترك ومنها المختص بالمخلوق على ما سيأتي تقريره وتفصيله فيما سيأتي بإذن الله تعالى .وعليه فإن قولك بسم الله الرحمن الرحيم دال على الذات والصفات.

قال ابن كثير في تفسيره:[والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولا إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة؛ فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روي عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله:{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[الإسراء:١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله r لعَلي: "اكتب {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}"، فقالوا:لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}[الفرقان:٦٠]. والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجُهَّال:

ألا ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هَجِينَها ... ألا قَضَبَ الرحمنُ رَبى يمينها

وقال سلامة بن جندب الطهوي:

عَجِلتم علينا عَجْلَتينَا عليكُمُ ... وما يَشَأ الرّحْمَنُ يَعْقِد ويُطْلِقِ

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن:الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال:{الرحمن الرحيم} [الفاتحة:٣] الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها.

وقال ابن جرير أيضًا: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مَسْعَدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى]ا.هـ.

قلت: وهناك مباحث أخرى ولكن متعلقها بموضوع الكتاب فيها شيء من البعد فأعرضت عنها. وبالله التوفيق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَع مَسَائِلَ:

الشرح

قوله:(اعلم رحمك الله): هذا الأسلوب، أعني أسلوب إلقاء العلم عن طريق الأمر، هي طريقة واضحة المعالم في الكتاب والسنة، وهي طريقة تربوية رفيعة، ذلك لأن إيقاع التعليم بصيغة الأمر على ذهن السامع أبلغ وأنفع، فإن فيه شحذا للهمم ولفتا للانتباه، ألا ترى أنك إذا قلت للإنسان: اسمع أو اعلم أو نحو ذلك من الألفاظ، حصل منه انتباه إليك وأقبل بكليته عليك، لشعوره أنك تريد أن تحدثه عن أمر بالغ الأهمية، هذا ما يتبادر إلى خَلَدِه ورَوعِه. وعليه فإن هذا الأسلوب هو أسلوب دعوي جميل ينبغي أن يستعمله المسلم في دعوته، فالمؤلف إذن عَمَدَ إلى هذا الأسلوب وغَلَّفَه بالدعاء بالرحمة حبا منه لإيصال الخير إليك؛ وليكون أبلغ في سماعه والامتثال له، ومن هذا يتعلم طالب العلم أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله تعالى.والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(يجب): الوجوب لغة السقوط اللازم لمكانه، ومنه قوله تعالى:{وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الحج: ٣٦] ، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى:قوله:{فإذا وجبت جنوبها} يقول: فإذا سقطت فوقعت جنوبها إلى الأرض بعد النحر، {فكلوا منها} وهو من قولهم: قد وجبت الشمس: إذا غابت فسقطت للتغيب، ومنه قول أوس بن حجر:

ألم تكسف الشمس والبدر والكواكب للجبل الواجب

يعني بالواجب: الواقع. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل].انتهى.

وشرعا: اللازم بدليل يتضمن الأمر بالفعل، وهو الذي يثاب فاعله، ويعاقب تاركه، وفي التفريق بينه وبين الفرض أقاويل مختلفة بين أهل العلم، والراجح أنهما مترادفان إلا إن دل دليل على المغايرة، أو دل السياق على التباين، فيتعين المصير إليه.والله أعلم.

وفي قوله:(يجب)، تذكير بأهمية البُداءة بالأهم ثم المهم، وعلى هذا رتب الشارع الكريم المأمورات، في جميع شؤون الشريعة ومسائلها، فلا تُخْطِئَنَّ السبيل، فإن فقه الفاضل والمفضول، والمهم والأهم، أمر ضروري لتحقيق العبادة على الوجه الذي يريده الله تبارك وتعالى ويحبه، وإلا وقعنا في مزالق الشيطان والهوى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الأدلة على ذلك، قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:١٥١-١٥٣]، وتسمى هذه الآيات بآيات الحقوق العشرة، وأنت ترى أن الله تبارك وتعالى بدأ فيها بحقه قبل حقوق المخلوقين، وبالتوحيد قبل باقي شرائع الدين.

ومنها قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢١٧]، فبين تبارك وتعالى أن القتال في الأشهر الحرم عظيم، ولكن أعظم منه وأقبح وآكد أن يجتنب ويتقى، الصد عن سبيل الله والعمل بالكفر به، والإلحاد في المسجد الحرام، وطرد عُمَّارِهِ الحقيقيين، الذين يعمرونه بالتوحيد، ثم بين تبارك وتعالى أن أعظم من ذلك كله الشرك بالله تعالى، وهي الفتنة المذكورة في هذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآية. وكما في قوله تعالى، قبل ذلك، في نفس السورة:{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩١]، وقوله:{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور:٦٣].

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود t ، قَالَ:سَأَلْتُ النَّبِيَّ r أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله قَالَ:"أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ" قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ:ثُمَّ أَيٌّ قَالَ:"وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ"، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ:"أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ".

ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ اللهَّ قَالَ:{مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ}".

ونحو ذلك من النصوص الدالة على هذا المعنى، فتفطن له؛ فإنه أصل عظيم. وهذا كما ترى عام في باب المأمورات والمنهيات، وإن كانت المنهيات هي أصالة من المأمورات، حيث أمر الشارع بتركها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه(مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين):[فصل النظر الرابع نظره إلى الآمر له بالمعصية المزين له فعلها الحاض له عليها وهو شيطانه الموكل به؛ فيفيده النظر إليه وملاحظته اتخاذه عدوا وكمال الاحتراز منه والتحفظ واليقظة والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات بعضها أصعب من بعض لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها:

العقبة الأولى:عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه وبصفات كماله وبما أخبرت به رسله عنه فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية وسلم معه نور الإيمان؛ طلبه على

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين التي لا يقبل الله منها شيئا والبدعتان في الغالب متلازمتان قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى كما قال بعضهم تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال فاشتغل الزوجان بالعرس فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة؛ فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة، فإن قَطَعَ هذه العقبة وخَلُصَ منها بنور السُّنَّةِ واعتصم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهيهات أن تسمح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل وبَغَوْهُ الغَوَائِل، وقالوا مبتدع محدث، فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة؛ طلبه على

العقبة الثالثة:وهي عقبة الكبائر فإن ظفر به فيها زينها له وحسنها في عينه وسوف به وفتح له باب الإرجاء وقال له الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق وهي قوله لا يضر مع التوحيد ذنب كما لا ينفع مع الشرك حسنة والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين ودفعها لما بعث الله به رسوله وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها بل يدعو الخلق إليها ولتضمنها القول على الله بلا علم ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها والاجتهاد على إطفاء نور السنة وتولية من عزله الله ورسوله وعزل من ولاه الله ورسوله واعتبار ماردده الله ورسوله ورد ما اعتبره وموالاة من عاداه ومعاداة من والاه وإثبات ما نفاه ونفي ما أثبته وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب ومعارضة الحق بالباطل وقلب الحقائق بجعل الحق باطلا والباطل حقا والإلحاد في دين الله وتعمية الحق على القلوب وطلب العوج لصراط الله المستقيم وفتح باب تبديل الدين جملة، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتى ينسلخ صاحبها من الدين كما تنسل الشعرة من العجين فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر والعميان ضالون في ظلمة العمى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور، فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله أو بتوبة نصوح تنجيه منها؛ طلبه على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر فكال له منها بالقفزان وقال ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم أو ما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه فالإصرار على الذنب أقبح منه ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال:"إياكم ومحقرات الذنوب"[1] ثم ضرب لذلك مثلا بقوم

---

١ - هذا الخبر رواه الإمام أحمد في مسنده من طريق أَنَسِ بْنِ عِيَاضٍ حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ لاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ الله r :"إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ". قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:[رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة]ا.هـ. قلت:وظاهره الصحة لولا قول أبي حازم:(لاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ).

ويشهد له ما جاء في صحيح البخاري. في (باب مَا يُتَّقَى مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ). ثم ساق حديث أَنَسٍ t ، قَالَ:"إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ إِنْ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ r الْمُوبِقَاتِ".قَالَ أَبُو عَبْدِ الله يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ.

وفي مصنف ابن أبي شيبة وسنن النسائي الكبرى وسنن الدارمي وغيرهم من طريق عوف بن الحارث عن عائشة قالت قال لي رسول الله r :"ياعائشة إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالبا" قال في الزوائد:إسناده صحيح.رجاله ثقات.ا.هـ.قلت: عوف بن الحارث ليس بذاك الكبير ولم يوثقه كبير أحد وإن كان البخاري قد أخرج له، ولكن هذا لا يعني تقويته خارج الصحيح،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نزلوا بفلاة من الأرض فأعوزهم الحطب فجعل هذا يجيء بعود وهذا بعود حتى جمعوا

فالبخاري إنما ينتقي من أحاديث الرجال المتكلم فيهم ما ضبطوه وصح مخرجه. والخبر أخرجه ابن حبان في صحيحه، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري:[وصححه بن حبان].

وفي مصنف عبد الرزاق من طريق معمر عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود قال:"مثل محقرات الذنوب كمثل قوم سفر نزلوا بأرض قفر معهم طعام لا يصلحهم إلا النار فتفرقوا فجعل هذا يجيء بالروثة ويجيء هذا بالعظم ويجيء هذا بالعود حتى جمعوا من ذلك ما أصلحوا به طعامهم فكذلك صاحب المحقرات يكذب الكذبة ويذنب الذنب ويجمع من ذلك ما لعله أن يكبه الله به على وجهه في نار جهنم". قلت: وهذا إسناد صحيح وقد روي مرفوعا ولا يصح كما في شعب الإيمان للبيهقي.

وفي شعب الإيمان للبيهقي بإسناد ظاهره الصحة قال أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الْحَافِظُ، أَنَا أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ الْخَضِرِ الشَّافِعِيُّنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ نا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمْزَةَ الْمَرْوَزِيُّ نا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ نا أَبُو حَمْزَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ قَالَا:قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنَّهُ رَاضٍ مِنْكُمْ بِمَا تَحْتَقِرُونَ".

وفي شعب الإيمان أيضا أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الْحَافِظُ نا أَبُو أَحْمَدَ بْنُ بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ حَمْدَانَ الصَّيْرَفِيُّ نا أَبُو الْأَحْوَصِ مُحَمَّدُ بْنُ الْهَيْثَمِ الْقَاضِي حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ نا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ عَنْ يُونُسَ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:"أُحَذِّرُكُمْ مُحَقَّرَاتِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ، وَإِنَّهَا تُحْصَى عَلَيْكُمْ، وَتُرَدُّ عَلَيْكُمْ".هَكَذَا جَاءَ مَوْقُوفًا.ا.هـ. قلت:وهذا إسناد فيه لين لحال:إسماعيل بن أبي أويس.

ثم روى حديث عن أَبَي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِي يَقُولُ:"إِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ، يَتَّكِلُ عَلَيْهَا، وَيَعْمَلُ الْمُحَقَّرَاتِ حَتَّى يَأْتِيَ اللهَ وَقَدْ أَحْطَرَتْهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَيَفْرَقُ مِنْهَا حَتَّى يَأْتِيَ اللهَ آمِنًا". قلت: إسناد فيه ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حطبا كثيرا فأوقدوا نارا وأنضجوا خبزتهم فكذلك فإن محقرات الـذنوب تجتمـع عـلى العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه، فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ودوام التوبة والاستغفار وأتبع السيئة الحسنة؛ طلبه على

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التـي لا حـرج عـلى فاعلهـا فشـغله بهـا عـن الاستكثار من الطاعات وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ثم طمع فيه أن يستدرجه منهـا إلى ترك السنن ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات وأقل ما ينال منـه تفويتـه الأربـاح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية ولو عرف السـعر لمـا فـوت عـلى نفسـه شـيئا مـن القربات ولكنه جاهل بالسعر، فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هـاد ومعرفـة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء وخطر التجارة وكـرم المشـتري وقدر ما يعوض به التجار فبخل بأوقاته وضن بأنفاسه أن تذهب في غـير ربـح طلبـه؛ العدو على

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضـولة مـن الطاعـات فـأمره بهـا وحسنها في عينه وزينها له وأراه ما فيها من الفضل والربح ليشغله بها عـما هـو أفضـل منها وأعظم كسبا وربحا لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسـيره كمالـه وفضله ودرجاتـه العاليـة فشـغله بالمفضـول عـن الفاضـل وبـالمرجوح عـن الـراجح وبالمحبوب لله عن الأحب إليه وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة فهم الأفراد في العـالم والأكثـرون قـد ظفـر بهـم في العقبات الأول، فإن نجا منها بفقه في الأعـمال ومراتبهـا عنـد الله ومنازلهـا في الفضـل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومعرفة مقاديرها والتمييز بين عاليها وسافلها ومفضولها وفاضلها ورئيسها ومرؤوسها وسيدها ومسودها فإن في الأعمال والأقوال سيدا ومسودا ورئيسا ومرؤوسا وذروة وما دونها كما في الحديث الصحيح :"سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت..... الحديث"[١]، وفي الحديث الآخر:"الجهاد ذروة سنام الأمر"[٢]، وفي الأثر الآخر:إن الأعمال تفاخرت فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم السائرين على جادة التوفيق قد أنزلوا الأعمال منازلها وأعطوا كل ذي حق حقه، فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى باليد واللسان والقلب على حسب مرتبته في الخير فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله وظاهر عليه بجنده وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام له بأمره جد العدو في إغراء السفهاء به فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب وأخذ في محاربة العدو لله وبالله فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين وهي تسمى عبودية المراغمة ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه]ا.هـ.

---

١ - أخرجه البخاري من حديث شدادا بن أوس.

٢ - سيأتي بإذن الله تعالى تخريجه في محله من آخر الكتاب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فما أنفس هذا الكلام، وما أبلغ هذه الموعظة، فاللهم اهد قلوبنا، وسدد أعمالنا وتولنا، فإنك أنت نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بك.

كما أن في قوله:(**يجب**) تذكيرا بمراتب العلوم، وأن منها ما هو واجب ومنها ما دون ذلك، والمعنى أنه يتعين علينا البداءة بالواجب قبل المستحب، بالأهم قبل المهم، وبالفاضل قبل المفضول، فكيف بمن يعكس ذلك، بل كيف بمن يبدأ بالعلوم المحرمة ويشتغل بها عما شرعه الله. كما سيأتي بيانه عند الحديث عن العلم ومراتبه وأنواعه.

قوله:(علينا) هذا أسلوب تربوي بديع آخر من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، حيث يدخل المتحدث نفسه في خطابه مع الآخرين؛ ليكسر الحاجز بينه وبين السامعين؛ وليبين أهمية الأمر، وأن الجميع بحاجة ماسة إليه، السامع والمتحدث، وشواهد ذلك كثير جدا في الكتاب العزيز، فمنها قوله تعالى:{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود:٨٨]، وقوله تعالى:{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام:١٥]، وقوله:{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف:٩]، وغير ذلك من الأدلة.

قوله:(تَعَلُّمُ)، فاعل مرفوع، وهذا تأكيد من المؤلف رحمه الله تعالى، على أهمية العلم وطلبه، إذ لم يبدأ بشيء قبله، لأنه مِفْتَاحُ العمل، وصِحَّتُهُ وقَبُولُهُ،فيلزم جميع العباد أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يسعوا في تحصيله، وأن يُفرغوا من أوقاتهم لطلبه والعمل به ليعبدوا الله تعالى على بصيرة، كيف لا وقد أكد الله تبارك وتعالى على ذلك وبين فضله في كثير من آيات القرآن العظيم، كقوله تعالى: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران:١٨]، وقوله تعالى: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة:١١]، وقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة:٢٦٩]، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه:١١٤].

وفي الباب أحاديث كثيرة جدا، فنذكر منها على سبيل المثل لا الحصر ما جاء في الصحيحين من طريق ابْنِ شِهَابٍ أَخْبَرَنِي حُمَيْدٌ بن عبد الرحمن قَالَ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ يَخْطُبُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللهُ".

وفي صحيح مسلم من طريق الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولِ الله r :"مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ **وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً، سَهّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنّةِ.** وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِّ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ وَحَفّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ أَبطأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ[1]".

وقد علق البخاري في صحيحه قوله:وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ.

قال ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر:**[ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه.**

ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم. وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم.

فقال لي إبليس: ونسيت تعبك وسهرك.

فقلت له: أيها الجاهل، تقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف.

وما طالت طريق أدت إلى صديق:

---

١ - جاء في علل الحديث:ابن أبي حاتم-تحقيق:سعد الحميد.موافق للمطبوع (٥/٢٧٥):[١٩٧٩- وَسَأَلْتُ أَبا زُرعَةَ عَن حَدِيثٍ رَواهُ جَماعَةٌ عَنِ الأَعمَشِ عَن أَبِي صالِحٍ عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r :"مَن نَفَّسَ عَن مُؤمِنٍ كُربَةً". قالَ أَبُو زُرعَةَ: مِنهُم مَن يقولُ:الأَعمَشُ عَن رَجُلٍ عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r ، والصَّحِيحُ:عَن رَجُلٍ عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r]ا.هـ. قلت: وأنت كما ترى أن مسلما اعتمد هذا الخبر، وذكره في الأصول، وخالف أبا حاتم، وقد أورد مسلم بعده طرقا تبين أن هذا الخبر محفوظ؛ ولهذا فالظاهر قول الإمام مسلم. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جزى اللهّ المسير إليه خيراً ... وإن ترك المطايا كالمزاد

ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء.

فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم.

فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث الرسول r وأحواله وآدابه، وأحوال أصحابه وتابعيهم، فصرت في معرفة طريقه كابن أجود.

وأثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدري بالعلم، حتى أنني أذكر في زمان الصبوة، ووقت الغلمة والعزبة قدرتي على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلم من خوف الله عز وجل.

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر، لقد كنت أخاف على نفسي من العجب.

غير أنه عز وجل صانني، وعلمني، وأطلعني من أسرار العلم معرفته، وإيثار الخلوة به، حتى أنه لو حضر معي معروف وبشر لرأيتها رحمة.

ثم عاد فغمسني في التقصير والتفريط حتى رأيت أقل الناس خيراً مني.

وتارة يوقظني لقيام الليل ولذة مناجاته، وتارة يحرمني ذلك مع سلامة بدني.

ولولا بشارة العلم بأن هذا نوع تهذيب وتأديب لخرجت إما إلى العجب عند العمل، وإما إلى اليأس عند البطالة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن رجائي في فضله قد عادل خوفي منه.

وقد يغلب الرجاء بقوة أسبابه، لأني رأيت أنه قد رباني منذ كنت طفلاً، فإن أبي مات وأنا لا أعقل، والأم لم تلتفت إلي. فركز في طبعي حب العلم.

وما زال يوقعني على المهم فالمهم، ويحملني إلى من يحملني على الأصوب، حتى قوم أمري.

وكم قد قصدني عدو فصده عني. وإذ رأيته قد نصرني وبصرني ودافع عني ووهب لي، قوى رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي.

ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس.

وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل، ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام.

وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.

ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رق قلبه. أو دمعت عينه. فقلت لنفسي: كيف بك إن نجوا وهلكت: فصحت بلسان وجدي: إلهي وسيدي إن قضيت علي بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا عذب من دل عليه.

إلهي قد قيل لنبيك r اقتل ابن أبي المنافق فقال:"لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"؛ إلهي فاحفظ حسن عقائدهم في بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حاشاك والله يا رب من تكدير الصافي.

لا تَبْرِ عُـوداً أنْـتَ رَيَّشْـتَهُ ... حَاشَا لِبَانِي الجُودِ أن يَنْقُضَا

لا تُعْطِش الزَّرْعَ الذي نَبَّتَهُ ... بِصَوْبِ إنْعَامِك قَد رَوَّضَا] انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وهذا أمَلِي فيك يا سيدي، ويا ولي نعمتي.

قال ابن القيم في كتابه:(مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلـم والإرادة):[ولـو لم يكن في العلم إلا القُرْبُ من رب العـالمين، والالتحـاق بعـالم الملائكـة، وصـحبة المـلأ الأعلى؛ لكفى به فضلا وشرفا، فكيف وعز الـدنيا والآخـرة، مَنُـوطٌ بـه، ومَشْـرُوطٌ بحصوله]ا.هـ.

العلم الذي جاء الثناء عليه في الأدلة:

ولنعلم أن كل علم جاء الثناء عليه في الكتاب والسنة فهو أصالة علم الشريعة، وقد قسم النبي **r** الناس إلى ثلاثة أقسام بناء على موقفهم من هذا العلم الشـريف المبـارك، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى ، عَنِ النَّبِيِّ **r** قَالَ:"مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِـهِ مِـنَ الْهُـدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَـا نَقِيَّـةٌ قَبِلَـتِ الْمَـاءَ فَأَنْبَتَـتِ الْكَـلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَـرِبُوا وَسَـقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً فَـذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًـا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا قال الزهري رحمه الله تعالى:(ما عبد الله تعالى بشيء كالعلم).وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى:(الناس بحاجة إلى العلم أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب)، وقال الحسن:(الناس بدون علماء كالبهائم)، وقد أورد الإمام ابن عبد البر في كتابه النفيس [جامع العلم وفضلة] جملة من الآيات والأحاديث والآثار الدالة على شرف هذا العلم وعلو منزلته وأهميته في حياة العباد، وأن فلاحهم منوط به في دنياهم وأخراهم، كما أبدع الإمام ابن القيم في بيان ذلك،وأسهب فيه، وفجر كنوزا ودررا على ذلك، في كتابه الرائع البديع [مفتاح دار السعادة] فحري بنا أن نقرأه ونقف على عجائبه، وفرائد فوائده.

وقد كان الصحابةُ يجلسون لهذا العلم ويجتهدون في تحصيله، ومنهم من تفرغ له، وكانوا يتحسرون على ما فاتهم منه، ولهذا سادوا وعزوا، إذ تعلموا علم الكتاب والسنة، وسَاسُوا الدنيا بالدين، لا بالأهواء والضلالات، والآراء، وإليك جملة من الأحاديث الدالة على ذلك:

ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَلَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا ثُمَّ يَتْلُو:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ} إِلَى قَوْلِهِ {الرَّحِيمُ} إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ r بِشِبَعِ بَطْنِهِ وَيَحْضُرُ مَا لاَ يَحْضُرُونَ وَيَحْفَظُ مَا لاَ يَحْفَظُونَ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيهما أيضا من طريق عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ أَنَّ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ t ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَكَأَنَّهُ كَانَ مَشْغُولاً فَرَجَعَ أَبُو مُوسَى فَفَرَغَ عُمَرُ فَقَالَ أَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ائْذَنُوا لَهُ قِيلَ قَدْ رَجَعَ فَدَعَاهُ فَقَالَ كُنَّا نُؤْمَرُ بِذَلِكَ فَقَالَ تَأْتِينِي عَلَى ذَلِكَ بِالْبَيِّنَةِ فَانْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِ الأَنْصَارِ فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا لاَ يَشْهَدُ لَكَ عَلَى هَذَا إِلاَّ أَصْغَرُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فَذَهَبَ بِأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فَقَالَ عُمَرُ أَخَفِيَ عَلَيَّ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ r أَلْهَانِي الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ يَعْنِي الْخُرُوجَ إِلَى تِجَارَةٍ.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ.

قَالَ آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ r أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ r خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:"مَا أَجْلَسَكُمْ". قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ:"آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ". قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ:"أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ".

وفي سنن أبي عيسى الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان أَخَوَانِ على عهد النبي r فكان أحدهما، يأتي النبي r ، والآخر يَحْتَرِف؛ فشكى المُحْتَرِفُ، أخاه إلى النبي r ، فقال :"**لعلك تُرْزَقُ بِه**". قال أبو عيسى:هذا حديث حسن صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيا سبحان الله!!، النبي r يحث على التفرغ لهذا العلم، والإنفاق على أهله، ويجعل الفضل بعد الله لهم، فيما يجريه الله تعالى من الأرزاق على من أنفق عليهم، ليعلم الناس كل الناس أنه لا شيء يعدل العلم ولا يعلوه.

فأين الذين يخادعون الناس وأنفسهم، أن علوم الحياة الدنيا أهم، وأن الأمة إنما تنتصر بالعلوم الحياتية وإن ضعفت في العلم الشرعي، وأين الذين يرمون المتفرغين للعلم الشرعي بالعطالة والبطالة، وأنهم أعضاء غير فاعلين في المجتمع، بل هم عِبْؤٌ عليه، فحسبنا الله نعم الوكيل، {فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء:٧٨].

والعجيب أنهم يحثون الأمة ويقلقونها أفراداً وجماعات إلى التفرغ للعلوم الحياتية، وتكريس الجهد لأجل ذلك، ويُثْنُّونَ الآباء والمحسنين على بذل الأموال لهم، في حين أنهم لا يكادون يفعلون شيئا من ذلك لمن أراد أن يتفرغ لعلم محمد r . بل يرمونه بالعظائم عياذا بالله من فساد التصور ومن الخذلان.

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل نال مَالِكُ، أَمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ مَا نَالَ، من المكانة العالية السامية الرفيعة في الأمة، إلا بالتفرغ لهذا العلم، والجد والاجتهاد فيه، وكم حاجة الأمة للإمام مالك في زمانه وبعد زمانه، وقارن ذلك بحاجتها لما سوى ذلك؛ لتعرف الفرق وعظيم الأثر، والنفع الذي يحصل للأمة بالعلماء الْمُتَفَرِّغِين، لهذا العلم الجليل الشريف، وقل مثل ذلك في الإمام الشافعي المطلبي والإمام أحمد وغيرهم من الأئمة، الذين انتفعت بهم الأمة، وانتصرت بهم، أعظم من انتفاعها بالأطباء وغيرهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الإمام الذهبي في كتابه:(سير أعلام النبلاء):[وعن وكيع قال: قالت أم سفيان لسفيان: اذهب، فاطلب العلم حتى أعولك بمغزلي، فإذا كتبت عدة عشرة أحاديث، فانظر هل تجد في نفسك زيادة، فاتبعه، وإلا، فلا تتعن].ا.هـ.

وليس هذا قدحا في العلوم الحياتية من كل وجه، وإنما هو من باب بيان الخلل، الذي وقع فيه كثير من أفراد هذه الأمة، في عُصُورِهَا المتأخرة، لا أقول على مستوى العامة، بل وكثير من الخاصة، وهذا التذكير مهم من باب تصحيح النظرة الفاسدة، والعمل على اعتدال الميزان الذي اختل. وأما العلوم الحياتية فسيأتي الحديث عندها إن شاء الله تعالى.

ولهذا كان السلف رحمهم الله تعالى يتلذذون به، ويحثون الناس على الصبر عليه، ويتفرغون له، ويَسْعَونَ في تفريغ من يَتَوَسَّمُون فيه قُدْرَةً على جمعه والتَّوَسُّع فيه؛لتنتفع به الأمة، وكانوا يُنْشِدُونَ في ذلك الأشعار، فمن ذلك ما نقل عن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب t :

النَّاسُ من جِهَةِ التَّمْثِيلِ أكْفَاءُ .... أبُوهُم آدم والأم حواءُ
نفس كنفس وأعضاء مُشَاكِلَةٌ .... وأَعْظُمٌ رُكِّبَتْ فيهم وأعضاءُ
فإن يكن لهم في أصلهم شرف .... يُفاخرون به فالطين والماءُ
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهموا ...على الهدى لمن استهدى أدلاءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه .... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
وإن أتيت بجود في ذوي نسب .... فإن نِسْبَتَنَا جُودٌ وعَلْيَاءُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَفُزْ بعلم تعش حَيّاً به أبـداً .... الناس موتى وأهـل العلم أحياءُ

ومما حفظ عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قوله:

سـهري لتنقيح العلوم ألَذُّ لي...مِنْ وصْــلِ غَـانِيَةٍ وطِيبِ عِنَـاقِ

وألَــذُّ مـن نَقْـرِ الفتاة لدفها... نَقْـرِي لألقي الــرمل عن أوراقي

وتمايلي طـربـا لحَـلِّ عَوِيصَةٍ...في الدرس أشهى من مدامة ساقي

أأبيت سهران الدجى وتبيته ...نـوما وتبغـي بعـد ذاك لحـاقـي

ومن جميل ما قال أيضا:

اصـبر على مُـرِّ الجَــفَا مـن مُعَلِّمٍ ... فإن رُسُوبَ العلم في نَفَـرَاتِه

ومـن لم يـذق مر التعـلـم سـاعة ... تجـرع ذل الجهل طول حياته

ومـن فـاته التعليـم وقـت شبابه ... فـكَـبِّر عليـه أربعــا لِـوَفَاتِه

وذات الفتى والله بالعـلـم والتقى ... إذا لم يـكـونا لا اعتبار لذاته

ومن جميل ما قال أيضا:

العلمُ من فضلهِ، لمن خدمهُ ... أن يجعـلَ النَّاسَ كلَّهم خَدَمَهْ

فَـوَاجِبٌ صَـوْنُهُ عَلَيْهِ كَـمَا ... يَصُونُ فِي النَّاسِ عِرْضَهُ وَدَمَهُ

فَمَنْ حَوَى العِلْمَ ثُمَّ أَوْدَعَهُ ... بـجَهْـلِهِ غـيرَ أهـلِـهِ ظـلَـمه

ولما سئل الإمام ابن حزم عن أمنيته في الدنيا ارتجل قائلا:

مُنَـايَ من الـدنـيـا عـلـوم أبُـثُّها...وأنشـرها في كـل بَـادٍ وحَاضِـر

دعـاء إلى القــرآن والسـنن التي...تناسى رجال ذكرها في المحاضر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأَلْـزَمُ أَطْـرَافَ الثُّغُـور مُـرَابـطا...إذا هَيْـعَـةٌ ثَـارَت فـأول نـافـر
لألقـى حِمَـامِي مُقْبِلا غيـر مُـدْبِـرٍ ...بسمر العـوالي والرقاق البواتر
كفاحا مع الكفار في حومة الوغى...وأشرف موت للفتى قتل كافر
فيـارب لا تجـعل حِـمامي بغيرها...ولا تَـجْعَلَنِّي مـن قطـين المقابر

وقال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني:

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما ... بـدا طـمـع صـيرتـه لي سـلـماً
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ...لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأغــرسـه عـزاً وأجـنـيـه ذلــة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أسـلما
فـإن قلـت جـد العلم كـاب فإنما ... كبا حين لم يحرس حماه وأسلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أذلـوه فـهـان ودنـســوا ... مُـحَيَّاهُ بالأطـماع حتى تجـهما

ومن ديوان أبي إسحاق الإلبيري وهو يتكلم عن العلم والجهل وحَامِلِيه:

والتي مطلعها:

تَـفُـتُّ فــؤادك الأيـام فَـتَّـا . وتنحت جسمك الساعات نحتا
وتـدعوك المنون دعاء صدق ... ألا يـا صـاح أنـت أريـد أنـتا
أراك تـحـب عـرسا ذات غدر ... أَبَتَّ طـلاقـها الأكـيـاس بتا
تنـام الـدهـر ويحك في غطيط ... بهـا حـتى إذا مُتَّ انـتـبـهتا
فكـم ذا أنت مخـدوع وحـتى ... مـتى لا تَـرْعَوي عنها وحتى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى أن قال:

وإن أوتيت فيه طويل باع ... وقال الناس إنك قد سبقتا
فلا تأمن سؤال الله عنه ... بتوبيخ عَلِمْتَ فهل عَمِلْتَا
فرأس العلم تقوى الله حقا ... وليس بأن يقال لقد رأستا
وضافي ثوبك الإحسان لا أن ... ترى ثوب الإساءة قد لبستا
إذا ما لم يفدك العلم خيرا ... فخير منه أن لو قد جهلتا
وإن ألقاك فهمك في مهاو ... فليتك ثم ليتك ما فهمتا
ستجنى من ثمار العجز جهلا ... وتصغر في العيون إذا كبرنا
وتُفقَد إن جهلت وأنت باق ... وتوجد إن علمت وقد فُقِدتا
وتذكر قولتي لك بعد حين ... وتغبطها إذا عنها شغلتا
لسوف تعض من ندم عليها ... وما تغني الندامة إن ندمتا
إذا أبصرت صحبك في سماء ... قد ارتفعوا عليك وقد سفلتا
فراجعها ودع عنك الهوينى ... فما بالبطء تدرك ما طلبتا
ولا تحفل بمالك والْـَه عنه ... فليس المال إلا ما علمتا
وليس لجاهل في الناس معنى ... ولو مُلْكُ العراقِ له تَأَتَّى
سينطق عنك علمك في ندي ... ويُكتب عنك يوما إن كتبتا
وما يغنيك تشييد المباني ... إذا بالجهل نفسك قد هدمتا
جعلت المال فوق العلم جهلا ...لعمرك في القضية ما عدلتا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبينهما بنص الوحي بون ... ستعلمه إذا طه قرأتا
لئن رفع الغنى لواء مال ... لأنت لواء عِلْمِك قَد رَفَعْتا
وإن جلس الغنى على الحشايا..لأنت على الكواكب قد جلستا
وإن ركب الجِيَاد مُسَوَّمَاتٍ ... لأنت مِنْاهِجَ التَّقوى ركبتا
ومهما افْتَضَّ أبكار الغواني ... فكم بِكْراً من الحكم افْتَضَضْتَا
وليس يضرك الإقتار شيئا ... إذا ما أنت ربك قد عرفتا
فماذا عنده لك من جميل ... إذا بفناء طاعته أنختا
فقابل بالقبول صحيح نصحي فإن أعرضت عنه فقد خسرتا
وإن راعيته قولا وفعلا ... وتَاجَرْتَ الإلَه بِه رَبِحتا
فليست هذه الدنيا بشيء ... تسؤوك حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا
وغايتها إذا فكرت فيها ... كَفَيْئِكَ أو كَحلْمِكَ إن حلمتا
سُجِنْتَ بها وأنت لها محب ... فكيف تحب ما فيه سُجِنْتَا
وتُطْعِمُكَ الطَّعامَ وعن قريب سَتَطْعَمُ مِنْك مَا مِنها طَعِمْتَا
وتَعْرَى إن لَبِسْتَ لها ثِيابا ... وتُكْسَى إن مَلابِسَها خَلَعْتَا
وتشهد كل يوم دفن خِلٍّ ... كأنك لا تُراد بما شَهِدتا

وقال النووي في (المجموع شرح المهذب):[قال الخطيب البغدادي: أجود أوقات الحفظ الأسحار ثم نصف النهار ثم الغداة وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع: قال وأجود أماكن الحفظ الغرف وكل موضع بعد عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الملهيات قال وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار: وقوارع الطرق لأنها تمنع غالبا خلو القلب: وينبغي أن يصبر على جفوة شيخه وسوء خلقه ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله ويتأول لا فعاله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق: وإذا جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار وأظهر أن الذنب له والعتب عليه فذلك أنفع له دينا ودنيا وأبقى لقلب شيخه: وقد قالوا من لم يصبر على ذل التعلم بقى عمره في عماية الجهالة ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما ذلت طالبا فعززت مطلوبا]ا.هـ.

ومن القصص الجميلة المؤثرة، التي طالما كان يكررها شيخنا العلامة سليمان بن ناصر العلون - حفظه الله ورعاه، وجزاه عنا خير الجزاء، فقد كان نعم المعلم والمربي-؛ ليشد أزرنا، ويبعث هممنا على طلب العلم، والصبر عليه، قصة هشام ابن عمار التي ذكرها الذهبي في كتابه (سير أعلام النبلاء):[قال أبو بكر محمد بن سليمان الربعي: حدثنا محمد بن الفيض الغساني، سمعت هشام بن عمار، يقول: باع أبي بيتا له بعشرين دينارا، وجهزني للحج. فلما صرت إلى المدينة، أتيت مجلس مالك، ومعي مسائل أريد أن أسأله عنها.فأتيته، وهو جالس في هيئة الملوك، وغلمان قيام، والناس يسألونه، وهو يجيبهم. فلما انقضى المجلس، قال لي بعض أصحاب الحديث: سل عن ما معك؟، فقلت له: يا أبا عبد الله، ما تقول في كذا وكذا؟، فقال: حصلنا على الصبيان، يا غلام، احمله. فحملني كما يحمل الصبي، وأنا يومئذ غلام مدرك، فضربني بدرة مثل درة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعلمين سبع عشرة درة، فوقفت أبكي، فقال لي: ما يبكيك؟، أوجعتك هذه الدرة؟، قلت: إن أبي باع منزله، ووجه بي أتشرف بك، وبالسماع منك، فضربتني؟، فقال: اكتب، قال: فحدثني سبعة عشر حديثا، وسألته عما كان معي من المسائل فأجابني.

قال يعقوب بن إسحاق الهروي، عن صالح بن محمد الحافظ: سمعت هشام بن عمار، يقول: دخلت على مالك، فقلت له: حدثني، فقال:اقرأ، فقلت:لا. بل حدثني، فقال: اقرأ، فلما أكثرت عليه، قال: يا غلام، تعال اذهب بهذا، فاضربه خمسة عشر، فذهب بي فضربني خمس عشرة درة، ثم جاء بي إليه، فقال: قد ضربته، فقلت له: لم ظلمتني؟، ضربتني خمس عشرة درة بغير جرم، لاأجعلك في حل، فقال مالك: فما كفارته؟، قلت: كفارته أن تحدثني بخمسة عشر حديثا.قال: فحدثني بخمسة عشر حديثا.فقلت له: زد من الضرب، وزد في الحديث، فضحك مالك، وقال: اذهب]ا.هـ.

فهذه أمة معلمة مرحومة، إن أقبلت على هذا العلم النافع لتعمل بالعمل الصالح، فبهذا العلم رفع الله أبانا آدم عليه السلام، وأسجد له الملائكة، بعد أن ظهر فضلُه بما معه من العلم الذي علمه الله تبارك وتعالى، فسجدت الملائكة له، وحسده إبليس وأبغضه، فطرد الله إبليس اللعين من رحمته، واجتبى آدم واصطفاه، وانطلق الثقلان بين مُحب للعلم كالملائكة وآدم عليهم السلام، ومبغض للعلم وأهله، ساع في حربه وحربهم، وتنفير الناس عنهم، وعن العلم النافع، كإبليس عياذا بالله من الخذلان.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة:٣٠-٣٤].

قال ابن القيم في (مدارج السالكين):[فصل قال: الدرجة الثالثة: الصبر في البلاء بملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج وتهوين البلية بعد أيادي المنن وبذكر سوالف النعم، هذه ثلاثة أشياء تبعث المتلبس بها على الصبر في البلاء:

إحداها: ملاحظة حسن الجزاء وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء لشهود العوض وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة فالنفس موكلة بحب العاجل وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب ومطالعة الغايات، **وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وأن من رافق الراحة فارق الراحة وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة فإن قدر التعب تكون الراحة:**

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكريم الكرائم
ويكبر في عين الصغير صغيرها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك، والثاني: انتظار روح الفرج يعني راحته ونسيمه ولذته فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة ولا سيما عند قوة الرجاء أو القطع بالفرج فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته: ما هو من خفي الألطاف وما هو فرج معجل وبه وبغيره يفهم معنى اسمه اللطيف.

والثالث: تهوين البلية بأمرين أحدهما: أن يعد نعم الله عليه وأياديه عنده فإذا عجز عن عدها وأيس من حصرها هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه فهذا يتعلق بالماضي وتعداد أيادي المنن: يتعلق بالحال وملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل وأحدهما في الدنيا والثاني يوم الجزاء]ا.هـ.

قوله:(أربع مسائل): هذا يسمى عند أهل البلاغة بأسلوب اللَّف ثم النَّشر، ومعناه أن يعمد المؤلف أو المتكلم إلى ذكر جملة من الأشياء، ثم يعود ليفصل القول فيها، ومن فوائده أن يحمس السامع أو القارئ ويحرضه على التطلع إلى تفاصيل الأمر المراد طرحه وبيانه.

وقد استعمل المؤلف رحمه الله تعالى ذلك في هذا المؤلف في مواضع، حيث أنه يجمل ثم يعود بعد ذلك إلى تفصيل ما أجمله، ومنها في هذا المقام في ذكره لهذه المسائل الأربع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واللّف والنَّشر منه نوعان: لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّب، ولف ونشر غير مرتب، وكل من هذين النوعين هو أسلوب مستعمل في القرآن العظيم، فهو من أفصح ما يكون، كيف وهو كلام الله تبارك وتعالى، فمن اللف والنشر المرتب قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْس إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ {١٠٥} فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ {١٠٦} خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيد {١٠٧} وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَت السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود:١٠٥-١٠٨]. فأجمل بذكر الشقي والسعيد وهذا هو اللف في هذا المقام، ثم عاد ففصل القول في كل منهما على نسق الترتيب في اللف المتقدم في السياق، وهذا هو النشر في هذا المقام.

ومن ذلك أيضا قوله تبارك وتعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(١٨)أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُون} [السجدة:١٨-٢٠].

ومن اللف والنشر غير المرتب قوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَد وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُم فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ {١٠٦} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّت وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ الله هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {١٠٧} تِلْكَ آيَات الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ} [آل عمران:١٠٦-١٠٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذه المسائل الأربع تعد أعظم مقومات وعُدَّة الداعية إلى الله تعالى، فهي تبين ما يجب أن يتسلح به الداعية، عند أداء هذه المهمة العظيمة، التي هي مهمة الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام وورثتهم من عباد الله الصالحين.

وفي قوله:(**أربع**) أسلوب شيق آخر، فعندما يذُكْرُ العدد ابتداء، ويجد السامع أو القارئ قلة العدد، ومع ذلك فهو بالغ الأهمية، احتفزت نفسه وعزمت على المضي قُدُماً، بقلب حاضر وسمع شاهد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

المسألة الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ.

الشرح

قوله:(المسألة الأولى): وهنا أسلوب آخر، فإن تقسيم المعلومات إلى مسائل وأبواب وفصول أسلوب تربوي رفيع، يستشعر من خلاله السامع أو القارئ، أهمية المعلومة، ويسهل عليه تلقيها،فكل مسألة توضع في قالبها وتقتل بيانا وبحثا، حتى تكون واضحة المعالم، ثم ينشط المتعلم إلى المزيد، فكلما فرغ من مسألة وثب إلى الأخرى، كما أنه يشعر الطالب أنه قد قام بإنجاز شيء من العلم فيتطلع إلى غيره. فيجتمع في هذا المقام التشويق والتسهيل والتقريب إلى الأفهام. وقد استعمل ذلك جمع من السلف والخلف.

قوله : (العلم): الألف واللام هنا للعهد الذهني، والمراد به العلم الشرعي.

والعلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه حقيقة، كما أنه مصحوب بتصور الأشياء على حقائقها.

والعلم من حيث جنسه في الجملة ينقسم إلى قسمين:

١ - العلم الضروري . ٢ - العلم النظري التجريبي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما العلم الضروري: فهو الذي لا يحتاج إلى استدلال، ولا إثبات، فهو من حيث هو كاف في بيان الشيء وحقيقته، ويكون مستنده الحِس، كالعلم بأن النار حارة، والشمس طالعة، والجو بارد وهكذا.ولهذا قال قائلهم وهو منسوب إلى المتنبي:

وليس يَصِحُّ في الأفهامِ شيءٌ ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

ولهذا كان أعظم المعلوم ضرورة هو العلم بوجود الخالق تبارك وتعالى، ولهذا قال تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [إبراهيم:١٠]، وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة:١٦٤]، وقوله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:١٩٠-١٩١].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره:[قوله:"وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا".وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟.

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام فتلقيه بعرًا وروثا، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح، يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٧ - ٢٨]، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، علم وجود الصانع وقدرته العظيمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جدًا].ا.هـ.

وقال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:[وإذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة على النعوت والصفات وحقائق الأسماء الحسنى وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى بمكابرة ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة كما قال تعالى:{وفي أنفسكم أفلا تبصرون} فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها وتنادي عليها وتدل عليها وتخبر بها بلسان النطق والحال كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها... من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدي ومن هو قائل

فلست ترى شيئا أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها فهي تدل عقلا وحسا وفطرة ونظرا واعتبارا]ا.هـ.

وبهذه المقدمة احتج الله تبارك وتعالى على عبادة، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، كما قال تعالى:{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد:١٤-١٦]، والمعنى: أي هل كانت المشكلة عندكم أيها المشركون، أنكم وجدتم من يخلق كخلق الله تعالى، فاختلط عليكم الأمر واشتبه؛ فأصبحتم لا تميزون بين ما خلقه الله وما خلقه غيره، أم أنكم تقرون أنه وحده الخالق، إذن فاعلموا أنه هو وحده المعبود بحق جل الله في علاه.

وبهذه الطريقة احتج إبراهيم الخليل على قومه، إذ ناظر جميع المشركين – عباد الأصنام والكواكب والبشر (النمرود) - بهذه المقدمة، فاستدل على وحدانية الله تعالى بأفول الكواكب، والذي يَأْفُلُ لابد له من مُأَفِّل، فهو إذن ضعيف، مسير، مقهور، مربوب لا رب، فكيف يستحق أن يعبد، وبَيَّن لعباد الأصنام عجزها، وضعفها، وفقرها، وعالتها، وفضح النمرود إذ طالبه أن يطرد أصله، إذ زعم أنه يفعل كفعل الله، فأمره الخليل عليه السلام وطالبه أن يأتي بالشمس من المغرب، فإن الإله الحق يأتي بها من المشرق، فَأْتِ بها من المغرب، {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}.

والله تعالى سيأتي بها من المغرب، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ يَوْمًا:"أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ"، قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا". فَقَالَ رَسُولُ الله r :"أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ ذَاكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا".

وأما العلم النظري التجريبي: فهو ما يحتاج إلى استدلال ونظر، مثل العلم بعدد الصلوات وشروطها وأركانها ومواقيتها وكيفياتها وسننها وراتبها ونحو ذلك، والعلم بأحكام الصيام والزكاة والحج وما أشبه ذلك .

ويمكن تقسيم هذا العلم من جهة العموم إلى قسمين:

١ - **العلم الضار**: وهو ما جاء عن طريق التعلم بالتجربة والنظر، ولكنه وبال على أصحابه وعلى كل من تعاطاه، كالغناء والسينما والأفلام والمسلسلات، كما قال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ {٦} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [لقمان:٦-٧].

مبحث في الغناء:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أن هذا الآية لا خلاف بين السلف، في أن مِن أظهر ما فُسِّرَت بـه، أن المُـرَادَ بلهو الحديث هنا هو الغناء، وإنما قلت هذا؛ لأن البعض يحـاول جاهـدا، أن يطعـن في الأحاديث الدالة على تحريم المعازف والغناء، وينسى أو يتناسى، أنه لا خلاف بين أهل العلم، في أن هذه الآية المـراد بهـا ذلـك، وهـذا كالشـأن مـثلا في آيـة التوبـة:{اتَّخَـذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} [التوبة:٣١]، فإن حديث عـدي t الـوارد في ذلك ضعيف، ولكن لا خلاف بين السـلف، في أن المـراد بهـذه الآيـة، هـو مـا ورد في حديث عدي t ، من تحليل الحرام، وتحريم الحلال. فتنبه.

أخرج ابن جرير من طريق عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس:{ومن الناس من يشتري لهو الحديث}، قال:الغناء. وأخرج مـن طريـق سـعيد بـن جبـير، عـن أبي الصهباء البكري، أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية {ومـن النـاس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم}، فقال عبد الله: الغناء، والـذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات.ا.هـ.

وقال ابن جرير:[حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله:{ومـن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم}، والله لعله أن لا ينفق فيه مالا، ولكن اشتراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل عـلى حديث الحق، وما يضر على ما ينفع]ا.هـ.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية:[وروى شعبة وسـفيان عـن الحكـم وحمـاد عـن إبراهيم قال :قال عبد الله بن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب؛ وقاله مجاهد، وزاد:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل. وقال الحسن: لهو الحديث المعازف والغناء. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل والباطل في النار. وقال ابن القاسم سألت مالكا عنه فقال: قال الله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال}، أفحق هو؟!].ا.هـ.

ومن السنة ما أخرجه البخاري من طريق عطية بن قيس الكلابي: حدثنا عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: حدثني أبو عامر - أو أبو مالك - الأشعري، والله ما كَذَبَني: سمع النبي r يقول:"ليكونَنَّ من أمتي أقوام، يستحلُّون الحِرَ والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلنَّ أقوام إلى جنب عَلَم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم - يعني الفقير - لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غداً، فيُبيِّتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة".

ومنها ما أخرجه النسائي حيث قال:ثنا محمد بن بشار، قال: ثنا أبو أحمد، قال: ثنا سفيان، عن عليّ بن بذيمة، قال: حدثني قيس بن حَبْتر النهشلي، عن ابن عباس أن وفد عبد القيس قالوا: يا رسول اللهّ فيم نشرب؟ قال: "لا تشربوا في الدباء، ولا في المزفت، ولا في النقير، وانتبذوا في الأسقية" قالوا: يارسول اللهّ، فإن اشتد في الأسقية؟ قال: "فصبُّوا عليه الماء" قالوا: يارسول اللهّ، فقال لهم في الثالثة أو الرابعة "أهريقوه" ثم قال: "إن اللهّ حرم علي، أو حرم الخمر والميسر والكوبة" قال: "وكل مسكرٍ حرامٌ" قال سفيان: فسألت عليّ بن بذيمة عن الكوبة قال:الطبل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي مسند أحمد بن حنبل بسند جيد من طريق سفيان عن على بن بذيمة حدثني قيس بن حبتر قال: سألت بن عباس عن الجر الأبيض، والجر الأخضر والجر الأحمر فقال : إن أول من سأل النبي r وفد عبد القيس فقالوا: إنا نصيب من الثفل، فأي الأسقية فقال:" لا تشربوا في الدباء والمزفت والنقير والحنتم واشربوا في الأسقية" ثم قال:"إ الله حرم علي أو حرم الخمر والميسر والكوبة وكل مسكر حرام". قال سفيان قلت لعلي بن بذيمة ما الكوبة قال: الطبل.

ومن الآثار ما أخرجه ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر الأموي عمر بن عبد الله قال: كتب عمر بن عبد العزيز t إلى مؤدب ولده: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سهل مولاه. أما بعد: فإني اخترتك على علم مني لتأديب ولدي، وصرفتهم إليك عن غيرك من موالي وذوي الخاصة بي، فخذهم بالجفاء فهو أمكن لأقدامهم، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة، وكثرة الضحك فإن كثرته تميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف، واستماع الأغاني، واللهج بهما ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب، ولعمري ولتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذوي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء ينتفع به.

وقال النسائي : أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى قَالَ: حَدّثَنَا مَحْبُوبٌ يَعْنِي ابْنَ مُوسَى قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ وَهُوَ الْفَزَارِيّ عَنِ الأَوْزَاعِيّ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عُمَرَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بْنِ الْوَلِيدِ كِتَابا فِيه: وَقَسْمُ أَبِيكَ لَكَ الْخُمُسُ كُلّهُ وَإِنّمَا سَهْمُ أَبِيكَ كَسَهْمِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَفِيهِ حَقّ اللهّ وَحَقّ الرّسُولِ وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السّبِيلِ فَمَا أَكْثَرَ خُصَمَاءَ أَبِيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَكَيْفَ يَنْجُو مَنْ كَثُرَتْ خُصَمَاؤهُ وَإِظْهَارُكَ الْمَعَازِفَ وَالْمِزْمَارَ بِدْعَةٌ فِي الإسلام وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْكَ مَنْ يَجُزّ جُمّتَكَ جُمّةَ السّوءِ.

وفي مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ:[كَانَ أَصْحَابُ عَبْدِ الله يَسْتَقْبِلُونَ الْجَوَارِيَ فِي الأَزِقَّةِ مَعَهُنَّ الدُّفُوفَ فَيَشُقُّونَهَا]. قلت:وعبد الله هنا هو ابن مسعود t .

وفي الحديث:"نهى عن كسب الزمارة". أخرجه البيهقي، والبغوي في شرح السنة، وأخرجه أبو عبيد في (غريب الحديث) قال : حدثنيه حجاج عن حماد بن سلمة عن هشام بن حسان ، وحبيب بن الشهيد عن ابن سيرين عن أبي هريرة به. قلت:وإسناده قوي.

وفي الحديث أيضا: قال رسول الله r :"إنيِّ لم أنه عن البكاء، ولكنيّ نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند نعمة لهو، ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة، لطم وجوه، وشق جيوب، ورنّة شيطان" أخرجه الطيالسي في مسنده والحاكم والبيهقي، وأبي أبي الدنيا في (ذم الملاهي) والبغويّ في(شرح السنة).

قال ابن تيمية في كتابه (الاستقامة) :[ثم ذكر أبو القاسم حديث ابن عاصم عن شبيب بن بشر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله r :"صوتان ملعونان صوت ويل عند مصيبة وصوت مزمار عند نعمة" مفهوم الخطاب يقتضي إباحة غير هذا في غير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الأحوال وإلا لبطل التخصيص. قلت: هذا الحديث من أجود ما يحتج به على تحريم الغناء كما في اللفظ المشهور عن جابر بن عبد الله t عن النبي r أنه قال:"إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة لهو ولعب ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب ودعوى بدعوى الجاهلية"، فنهى عن الصوت الذي يفعل عند النعمة كما نهى عن الصوت الذي يفعل عند المصيبة والصوت الذي عند النعمة هو صوت الغناء]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَصْلٌ:حَدِيثُ النَّبِيِّ r :"أَمَرَهُمْ بِشَقِّ ظُرُوفِ الْخَمْرِ وَكَسْرِ دِنَانِهَا"دَلِيلٌ عَلَى إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ فِي جَوَازِ إتْلَافِ ذَلِكَ عِنْدَ الْإِنْكَارِ وَأَنَّ الظَّرْفَ يَتْبَعُ الْمَظْرُوفَ. وَمِثْلُهُ مَا ثَبَتَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:أَنَّهُمَا أَمَرَا بِتَحْرِيقِ الْمَكَانِ الَّذِي يُبَاعُ فِيهِ الْخَمْرُ وَقَدْ نَصَّ أَحْمَد عَلَى ذَلِكَ. وَمِثْلُهُ إتْلَافُ الْآلَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا صُورَةُ التَّأْلِيفِ الْمُحَرَّمِ وَهِيَ آلَاتُ اللَّهْوِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ الْمَالِيَّةَ ثَابِتَةٌ بِالسُّنَّةِ وَسِيرَةِ الْخُلَفَاءِ . وَمَنْ قَالَ : إنَّهَا مَنْسُوخَةٌ فَمَا مَعَهُ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ]ا.هـ.

وجاء في الشرح الكبير لابن قدامة:[مسألة:ولا يقطع بسرقة آلة لهو ولا محرم كالخمر، لا يقطع بسرقة آلة لهو كالطنبور والمزمار والشبابة وإن بلغت قيمته مفصلا نصابا .....إلى أن قال، **ولنا أنه آلة للمعصية بالإجماع**[1] .....]ا.هـ.

---

١ - قال الشيخ الطريفي في بحث نفيس له في هذه المسألة:[لا يزال العلماء على مرِّ العصور ينقلون إجماع السلف والخلف على تحريم الغناء وآلات اللهو والطرب، فمن نظر إلى العلماء في كل قرن وجد أنهم يتتابعون على نقل الإجماع مقرين له، ولا أعلم قرناً من القرون خلا من عالمٍ ينقل إجماع العلماء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على تحريم الغناء والمعازف.ولذلك قد نقله زكريا بن يحي الساجي في كتابه "اختلاف العلماء" في القرن الثالث إذ جل حياته فيه.ونقله الآجري رحمه الله في القرن الرابع. ونقله أبوالطيب الطبري وابن عبد البر في القرن الخامس. ونقله ابن قدامة وأبو القاسم الدولعي الشامي الشافعي في القرن السادس.ونقله ابن الصلاح والقرطبي والعز بن عبد السلام في القرن السابع .ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية والسبكي وابن رجب وابن القيم وابن مفلح وغيرهم في القرن الثامن. ونقله العراقي والبزازي الحنفي في القرن التاسع. ونقله ابن حجر الهيتمي في القرن العاشر. ونقله الآلوسي وأحمد الطحطاوي في القرن الثالث عشر. ونقله الغماري في القرن الرابع عشر. ولا يزال العلماء على شتى مذاهبهم؛ من المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة مطبقين على تحريم الغناء والمعازف. ولذلك فمن نظر إلى من حكى الإجماع وجد اختلاف بلدانهم، وتباين مذاهبهم. فمن المالكية: ابن عبد البر في "التمهيد"، والقرطبي في "تفسيره"، وابن القطان الفاسي في كتابه "الإقناع في مسائل الإجماع". ومن الشافعية: جماعة وخلق كثير كابن الصلاح، والعز بن عبد السلام، وابن حجر الهيتمي، والعراقي، والطرطوسي وغيرهم. ومن الحنابلة": ابن قدامة، وابن رجب، وابن تيمية، وابن القيم، وابن مفلح،وغيرهم.ومن الحنفية :الفقيه الحنفي محمد البزازي في "المناقب"، وزين الدين الكرماني، وشيخ الحنفية أحمد الطحطاوي في مصر في "حاشيته على مراقي الفلاح."وكذلك أئمة المذاهب بأنفسهم: قد نصوا عليالتحريم، وحكى الإجماع من أهل المذاهب على اختلاف بلدانهم.فابن عبد البر والقرطبي في الأندلس، وابن القطان الفاسي والغماري في المغرب، وابن قدامة وابن الحنبلي وابن تيمية والعز بن عبد السلام وابن رجب وابن القيم في الشام، وابن حجرالهيثمي والطحطاوي الحنفي في مصر، والعراقي والآلوسي في العراق، وفي بلاد الترك والبلغار: الفقيه الحنفي محمد البزازي الكردي، في "الفتاوى البزازية" . وغيرهم خلق كثير على اختلاف بلدانهم. ومن حكى خلافاً في هذه المسألة فقد غلب عليه هواه، يقول ابن حجر الهيتمي: في كتابه "كف الرعاع":[ومن حكى خلافاً في الغناء فإنه قد وهِمَ وغَلِط، وغلب عليه هواه حتى أصمّه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأعماه]ا.هـ. ومن نظر إلى الأئمة الأربعة وجد نصوصهم متضافرة على تحريم الغناء بالنص، فالإمام مالك: قد روى الإمام أحمد في كتاب "العلل: والخلال في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" من حديث إسحاق بن عيسى الطبّاع، قال:[سألت مالكاً عن سماع الغناء؟ فقال:إنما يفعل ذلك عندنا الفسّاق] وأما الإمام أحمد: فقدنقل عنه ابنه عبد الله في كتابه "المسائل" قال:(سألت أبي عن الغناء؟ فقال:ينبت النفاق في القلب، لا يعجبني)، ثم نقل قول الإمام مالك رحمه الله:إنما يفعل ذلك عندنا الفسّاق. قال أبو حنيفة رحمه الله: وأما الغناء فهو محرّم عند سائرالأديان. ورد شهادة المغنّي الأئمةُ من أتباع مذهبِهِ. أما الإمام الشافعي - رحمه الله - فقال: الغناء لهوٌ مكروه، ويشبه الباطل والمحال، وقد نص في كتابه "أدب القضاء" وكذلك في كتابه "الأم" على أن المغنّي ترد شهادته. وأعْجَبُ مِنْ قول من يقول: إن رد الشافعي لشهادة المغني مع قوله:(لهو مكروه يشبه الباطل) ليس بصريح في التحريم. وإن قول الإمام مالك:(إنما يفعل ذلك عندنا الفسّاق) ليس بصريح في التحريم. وإن قول الإمام أحمد:(ينبت النفاق في القلب) ليس بصريح بالتحريم!! فأي تحريم يثبت في الشرع عنهم حينئذٍ إن لم يكن هذا القولصريحاً بالتحريم؟؟، وإنكنا نعلم بل نتيقن أن أقوال الأئمة من الأئمة الأربعة وغيرهم ليست نصوصاً من الوحي،وأن كلامهم ليس بحجه، وأنه بحاجة إلى أن يحتج له لا أن يحتج به، ولكن تساق أقوال الأئمة - رحمهم الله - ليُعْلم الإجماع والإطباق، فإن الإجماع معتبر، ولا يكون إلا على نص، ونقل تكفير من أباح الغناء عن أئمة من ثلاثة مذاهب متبوعة، قال بعض أصحاب أبي حنيفة:(سماع الغناء فسق، والتلذذ به كفر)، والتصريح بكفر مستحل الغناء قال به من الحنفية: حافظ الدين الفقيه محمد البزازي في "الفتاوى البزازية"، وزين الدين الكرماني. قال البزازي في "فتاويه":(ولما عُلِمَ أنّ حرمَتَهُ بالإجماع؛ لزم أن يكفّر مُسْتَحِلَّه)، وقال به القاضي عياض المالكي، بل حكى الإجماع على كفر مستحله وحكاه ابن الحنبلي، كما نقله ابن رجب - رحمه الله - في كتابه "ذيل طبقات الحنابلة" عن ابن قدامه، وإن كان هذا القول ليس على الصواب، بل أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٥ / ٣٤٩):[وَمِنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ اسْتِمَاعُ الْعَبْدِ مَزَامِيرَ الشَّيْطَانِ وَالْمُغَنِّي هُوَ مُؤَذِّنُهُ الَّذِي يَدْعُو إلَى طَاعَتِهِ فَإِنَّ الْغِنَاءَ رُقْيَةُ الزِّنَا]ا.هـ.

تنبيه: لابد من التفريق بين الغناء الذي هو أشعار تنشد وتلحن بالصوت المجرد عن آلات اللهو، وبين الغناء الذي تصحبه آلات اللهو، فأما الأول، فليس هو مما يُتَعَبَّدُ به، ومن جعل ذلك قربة وعبادة لله فقد أعظم الفرية وضل سواء السبيل، وإنما غايته الترويح عن النفس عند الحاجة إلى ذلك[1]، هذا مع اشتراط أن يكون الكلام المُنْشَد في أقل أحواله مباحا، وأما إن تضمن تَشْبِيباً بالنساء أو المردان، وذكرا للفواحش وتهيجا عليها؛ فلا شك في حرمته.

فيه تشدداً، وذلك أن الكفر بعيد، وإنما هو هوى وجرمٌ وذنبٌ، وقد عدّه غيرواحد من الأئمة من كبائر الذنوب كابن النحّاس في كتابه "تنبيه الغافلين"، وابن حجر الهيتمي في كتابه "الزواجر"عدّوا سماع الغناء من الكبائر]ا.هـ. **قلت: وطالما أن التحريم مستقر ظاهر، فمن استحل المحرم كَفر، ولا يكون في ذلك غلو ولا تشدد، وهذا من جهة الكلام على النوع، وإلا فتنزيل ذلك على أعيان أهل القبلة فمتوقف على توفر الشرط وانتفاء الموانع، وهو إقامة الحجة ونفي الشبهة.**

١ -كما في الصحيحين من طريق أَبِي قِلابَةَ عَنْ أَنَسٍ **t** أَنَّ النَّبِيَّ **r** كَانَ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ غُلامٌ يَحْدُو بِهِنَّ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ فَقَالَ النَّبِيُّ **r** :"رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ".قَالَ أَبُو قِلابَةَ يَعْنِي النِّسَاءَ. وفيهما أيضا من طريق قَتَادَة حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ كَانَ لِلنَّبِيِّ **r** حَادٍ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ، وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ **r** :"رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ لاَ تَكْسِرِ الْقَوَارِيرَ".قَالَ قَتَادَةُ يَعْنِي ضَعَفَةَ النِّسَاءِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما يروى عن بعض أهل العلم من أنه كان يجيز السماع، وربما تعاطاه بعضهم، فمن الضرب المباح، فإنما هو الشعر الطيب، وكثير منه ما يُهَيِّجُ على مكارم الأخلاق، فليس فيه محرمات، لا قوليه ولا عملية، لا من جهة المَقُول، ولا من جهة آلات اللهو.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١ / ٥٣٤-٥٣٥):[وَأَمَّا الِاسْتِمَاعُ إلَى الْقَصَائِدِ الْمُلَحَّنَةِ وَالِاجْتِمَاعِ عَلَيْهَا. فَأَكَابِرُ الشُّيُوخِ لَمْ يَحْضُرُوا هَذَا السَّمَاعَ كالْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِي وَالسَّرِيِّ السقطي وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ: كَالشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَالشَّيْخِ عَدِيِّ بْنِ مُسَافِرٍ وَالشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ وَالشَّيْخِ أَبِي الْبَيَانِ وَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخِ: فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَحْضُرُونَ هَذَا السَّمَاعَ وَقَدْ حَضَرَهُ طَائِفَةٌ مِنْ الشُّيُوخِ وَأَكَابِرِهِمْ ثُمَّ تَابُوا مِنْهُ وَرَجَعُوا عَنْهُ. وَكَانَ الْجُنَيْد - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - لَا يَحْضُرُهُ فِي آخِرِ عُمْرِهِ. وَيَقُولُ:مَنْ تَكَلَّفَ السَّمَاعَ فُتِنَ بِهِ وَمَنْ صَادَفَهُ السَّمَاعَ اسْتَرَاحَ بِهِ أَيْ مَنْ قَصَدَ السَّمَاعَ صَارَ مَفْتُونًا وَأَمَّا مَنْ سَمِعَ بَيْتًا يُنَاسِبُ حَالَهُ بِلَا اقْتِصَادٍ فَهَذَا يَسْتَرِيحُ بِهِ. وَالَّذِينَ حَضَرُوا السَّمَاعَ الْمُحْدَثَ الَّذِي جَعَلَهُ الشَّافِعِيُّ مِنْ إحْدَاثِ الزَّنَادِقَةِ لَمْ يَكُونُوا يَجْتَمِعُونَ مَعَ مردان ونسوان وَلَا مَعَ مصلصلات وَشَبَّابَاتٍ وَكَانَتْ أَشْعَارُهُمْ مُزَهَّدَاتٍ مُرَقَّقَاتٍ.

فَأَمَّا "السَّمَاعُ" الْمُشْتَمِلُ عَلَى مُنْكَرَاتِ الدِّينِ فَمَنْ عَدَّهُ مِنْ الْقُرُبَاتِ اُسْتُتِيبَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ. وَإِنْ كَانَ مُتَأَوِّلًا جَاهِلًا بَيَّنَ لَهُ خَطَأَ تَأْوِيلِهِ وَبَيَّنَ لَهُ الْعِلْمَ الَّذِي يُزِيلُ الْجَهْلَ. هَذَا مِنْ كَوْنِهِ طَرِيقًا إلَى الله. وَأَمَّا كَوْنُهُ مُحَرَّمًا عَلَى مَنْ يَفْعَلُهُ عَلَى وَجْهِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ إلَى الله فَهَذَا فِيهِ تَفْصِيلٌ فَأَمَّا الْمُشْتَمِلُ عَلَى الشَّبَّابَاتِ وَالدُّفُوفِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المصلصلة فَمَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ تَحْرِيمُهُ. وَذَكَرَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلَاحِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ فِيهِ خِلَافٌ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ فَإِنَّ الْخِلَافَ إنَّمَا حُكِيَ فِي الْيَرَاعِ الْمُجَرَّدِ مَعَ أَنَّ الْعِرَاقِيِّينَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ لَمْ يَذْكُرُوا فِي ذَلِكَ نِزَاعًا وَلَا مُتَقَدِّمَةُ الْخُرَاسَانِيِّين وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ مُتَأَخِّرُوا الْخُرَاسَانِيِّين. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ r ذَكَرَ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ لَهُمْ وَأَنَّ اللهَ مُعَاقِبُهُمْ. فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى تَحْرِيمِ الْمَعَازِفِ.وَالْمَعَازِفُ هِيَ آلَاتُ اللَّهْوِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ وَهَذَا اسْمٌ يَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْآلَاتِ كُلَّهَا]ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (١١ / ٥٧٦-٥٧٨):[وَلِهَذَا كَانَ الْمُكَاءُ وَالتَّصْدِيَةُ يَدْعُو إلَى الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَيَصُدُّ عَنْ حَقِيقَةِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَالصَّلَاةِ كَمَا يَفْعَلُ الْخَمْرُ وَالسَّلَفُ يُسَمُّونَهُ تَغْبِيرًا ؛ لِأَنَّ التَّغْبِيرَ هُوَ الضَّرْبُ بِالْقَضِيبِ عَلَى جِلْدٍ مِنْ الْجُلُودِ وَهُوَ مَا يُغَبِّرُ صَوْتَ الْإِنْسَانِ عَلَى التَّلْحِينِ فَقَدْ يُضَمُّ إلَى صَوْتِ الْإِنْسَانِ . إمَّا التَّصْفِيقُ بِأَحَدِ الْيَدَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى وَإِمَّا الضَّرْبُ بِقَضِيبٍ عَلَى فَخِذٍ وَجِلْدٍ وَإِمَّا الضَّرْبُ بِالْيَدِ عَلَى أُخْتِهَا أَوْ غَيْرِهَا عَلَى دُفٍّ أَوْ طَبْلٍ كَنَاقُوسِ النَّصَارَى وَالنَّفْخِ فِي صَفَّارَةٍ كَبُوقِ الْيَهُودِ، فَمَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْمَلَاهِي عَلَى وَجْهِ الدِّيَانَةِ وَالتَّقَرُّبِ فَلَا رَيْبَ فِي ضَلَالَتِهِ وَجَهَالَتِهِ . وَأَمَّا إذَا فَعَلَهَا عَلَى وَجْهِ التَّمَتُّعِ وَالتَّلَعُّبِ فَذَهَبَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ : أَنَّ آلَاتِ اللَّهْوِ كُلَّهَا حَرَامٌ فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ r أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِهِ مَنْ يَسْتَحِلُّ الْحَرَّ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ وَذَكَرَ أَنَّهُمْ يُمْسَخُونَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ. و"الْمَعَازِفُ" هِيَ الْمَلَاهِي كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ اللُّغَةِ. جَمْعُ مِعْزَفَةٍ وَهِيَ الْآلَةُ الَّتِي يُعْزَفُ بِهَا:أَيْ يُصَوَّتُ بِهَا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ فِي آلَاتِ اللَّهْوِ نِزَاعًا. إلَّا أَنَّ بَعْضَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ ذَكَرَ فِي الْيَرَاعِ وَجْهَيْنِ بِخِلَافِ الْأَوْتَارِ وَنَحْوِهَا؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا فِيهَا نِزَاعًا. وَأَمَّا الْعِرَاقِيُّونَ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَمُ بِمَذْهَبِهِ وَأَتْبَعُ لَهُ فَلَمْ يَذْكُرُوا نِزَاعًا لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا بَلْ صَنَّفَ أَفْضَلُهُمْ فِي وَقْتِهِ أَبُو الطَّيِّبِ الطبري شَيْخُ أَبِي إسْحَاقَ الشِّيرَازِيِّ فِي ذَلِكَ مُصَنَّفًا مَعْرُوفًا. وَلَكِنْ تَكَلَّمُوا فِي الْغِنَاءِ الْمُجَرَّدِ عَنْ آلَاتِ اللَّهْوِ: هَلْ هُوَ حَرَامٌ؟ أَوْ مَكْرُوهٌ؟ أَوْ مُبَاحٌ؟ وَذَكَرَ أَصْحَابُ أَحْمَدَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ وَذَكَرُوا عَنْ الشَّافِعِيِّ قَوْلَيْنِ وَلَمْ يَذْكُرُوا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ فِي ذَلِكَ نِزَاعًا. وَذَكَرَ زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَى الساجي - وَهُوَ أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ الْمَائِلِينَ إلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ - أَنَّهُ لَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْفُقَهَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ إلَّا إبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَمَا ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي وَأَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِي وَغَيْرُهُمَا: عَنْ مَالِكٌ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي ذَلِكَ فَغَلِطَ. وَإِنَّمَا وَقَعَتْ الشُّبْهَةُ فِيهِ لِأَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَانَ يَحْضُرُ السَّمَاعَ إلَّا أَنَّ هَذَا لَيْسَ قَوْلَ أَئِمَّتِهِمْ وَفُقَهَائِهِمْ؛ بَلْ قَالَ إسْحَاقُ بْنُ عِيسَى الطِّبَاعُ:سَأَلْت مَالِكًا عَمَّا يَتَرَخَّصُ فِيهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ الْغِنَاءِ فَقَالَ: إنَّمَا يَفْعَلُهُ عِنْدَنَا الْفُسَّاقُ وَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي كُتَّابِ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَهُمْ أَعْلَمُ بِمَذْهَبِهِ وَمَذْهَبِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ طَائِفَةٍ فِي الْمَشْرِقِ لَا عِلْمَ لَهَا بِمَذْهَبِ الْفُقَهَاءِ وَمَنْ ذَكَرَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ ضَرَبَ بِعُودٍ فَقَدْ افْتَرَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا نَبَّهْت عَلَى هَذَا ؛ لِأَنَّ فِيمَا جَمَعَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي وَمُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ المقدسي فِي ذَلِكَ حِكَايَاتٌ وَآثَارٌ يَظُنُّ مَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِالْعِلْمِ وَأَحْوَالِ السَّلَفِ أَنَّهَا صِدْقٌ. وَكَانَ " الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ " - رَحِمَهُ اللهُ - فِيهِ مِنْ الْخَيْرِ وَالزُّهْدِ وَالدِّينِ وَالتَّصَوُّفِ مَا يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ مِنْ كَلَامِ الشُّيُوخِ وَالْآثَارِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الَّتِي تُوَافِقُ مَقْصُودَهُ كُلَّ مَا يَجِدُهُ؛ فَلِهَذَا يُوجَدُ فِي كُتُبِهِ مِنْ الْآثَارِ الصَّحِيحَةِ وَالْكَلَامِ الْمَنْقُولِ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الدِّينِ. وَيُوجَدُ فِيهَا مِنْ الْآثَارِ السَّقِيمَةِ وَالْكَلَامِ الْمَرْدُودِ مَا يَضُرُّ مَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ. وَبَعْضُ النَّاسِ تَوَقَّفَ فِي رِوَايَتِهِ. حَتَّى أَنَّ البيهقي كَانَ إذَا رَوَى عَنْهُ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنْ أَصْلِ سَمَاعِهِ. وَأَكْثَرُ الْحِكَايَاتِ الَّتِي يَرْوِيهَا أَبُو الْقَاسِم القشيري صَاحِبُ الرِّسَالَةِ عَنْهُ فَإِنَّهُ كَانَ أَجْمَعَ شُيُوخِهِ لِكَلَامِ الصُّوفِيَّةِ. و"مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ" لَهُ فَضِيلَةٌ جَيِّدَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَدِيثِ وَرِجَالِهِ وَهُوَ مِنْ حُفَّاظِ وَقْتِهِ لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ:أَهْلِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ الزُّهْدِ وَأَهْلِ الْفِقْهِ وَغَيْرِهِمْ إذَا صَنَّفُوا فِي بَابٍ ذَكَرُوا مَا رُوِيَ فِيهِ مِنْ غَثٍّ وَسَمِينٍ وَلَمْ يُمَيِّزُوا ذَلِكَ كَمَا يُوجَدُ مِمَّنْ يُصَنِّفُ فِي الْأَبْوَابِ مِثْلَ الْمُصَنِّفِينَ: فِي فَضَائِلِ الشُّهُورِ وَالْأَوْقَاتِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ وَفَضَائِلِ الْأَشْخَاصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ]ا.هـ.

وللإمام ابن رجب الحنبلي رسالة في السماع، وهي رسالة قوية ونافعة جدا ومفيدة في بابها.

كن على حذر من فتنة النساء:

ولا نذهل عن التذكير بفتنة النساء، التي غالبا ما تقترن بفتنة الغناء، والعياذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي **r** قال:"مَا تَرَكْتُ فِتْنَةً بَعْدِيْ أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري t عن النبي r قال:"إنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ الله مُسْتَخْلِفُكُم فِيهَا، فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، واتَّقُوا النِّسَاء، فَإنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسْرَائِيْلَ كَانَت في النِّسَاء".

قال ابن كثير في كتابه:(البداية والنهاية) وهو يذكر سليمان بن عبد الملك:[وسمع سليمان ليلة صوت غناء في معسكره، فلم يزل يفحص حتى أتى بهم، فقال سليمان: إن الفرس لَيَصْهَل فَتَسْتَودِقُ له الرَّمْكَة، وإن الجمل لَيَهْدِر فَتَضْبَع له النَّاقَة، وإن التَّيْسَ لَيَنِب فَتَسْتَخْذِي له العَنْز، وإن الرَّجُل ليتغنى فَتَشْتَاقُ له المرأة، ثم أمر بهم فقال: اخصوهم، فيقال إن عمر بن عبد العزيز قال: يا أمير المؤمنين إنها مثلة، ولكن انفهم، فنفاهم.

وفي رواية أنه خصى أحدهم، ثم سأل عن أصل الغناء فقيل إنه بالمدينة، فكتب إلى عامله بها وهو أبو بكر بن محمد بن حزم يأمره أن يخصي من عنده من المغنين المخنثين]ا.هـ. وذكر أصلها ابن عساكر في تاريخ دمشق.

خطورة علم تصوير ذوات الأرواح

ومن العلوم الضارة أيضا علم التصوير، فقد وردت في بيان تحريمه كثير من الأحاديث الصحاح، فمنها حيث ابن عباس رَضيَ اللهُ عَنْهُما قال سمعت رَسُول الله r يقول:"كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه في جهنم" قال ابن عباس: فإن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا روح فيه.مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وعنه t قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سمعت رَسُول الله r يقول:"من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وعن أبي الهَيّاج حيان بن حصين قال، قال لي عليّ t : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رَسُول الله r : أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: وعد رَسُول الله r جبريل أن يأتيه فراث عليه حتى اشتد على رَسُول الله r ، فخرج فلقيه جبريل فشكا إليه، فقال: إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وعن ابن مسعود t قال سمعت رَسُول الله r يقول:"إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وعن أبي هريرة t قال سمعت رَسُول الله r يقول:"قال اللهُ تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي! فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ولا فرق في ذلك بين الفوتوغرافي منها، أو ذوات الظل، أو النحت أو الرسم، فالكل تصوير وسيأتي مزيد تنبيه على هذه المسألة في الكلام على حديث جبريل المشهور بإذن الله تعالى.

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي بسند جيد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ وَبِالْمُصَوِّرِينَ". قَالَ أَبُو عِيسَى الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التصوير نشر الشرك بالأمس، واليوم هو ينشر الشرك والفواحش:

والتصوير كان أحد أهم العوامل التي ساعدت في نشر الشرك بالله تعالى، كما في صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وُدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرُفِ عِنْدَ سَبَا وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لآلِ ذِي الْكَلاَعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ.

وليت شعري لو كان عندهم مثل هذه الآلات الموجودة اليوم؛ لكانوا أرغب فيها، لأنهم إنما أرادوا بتصويرهم أنصابا فعل أقرب ما يكون شبها بهم، فكيف لو وجدوا ما يصورنهم به مطابقة؛ إذن لبادروا إلى ذلك.

وهو كذلك إلى يومنا هذا، فإن أكثر الشبهات والفواحش اليوم تنتشر عن طريق التصوير، عبر التلفاز والدجتلات، والقنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية، حتى صار الشر مستطيرا في كل مكان إلا ما رحم ربي،؛ فظهر الفساد في البر والبحر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل هذا الخبر العجيب الذي كأنه يصور حالنا اليوم، ففي مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح عَنْ حُذَيْفَةَ t ، قَالَ:لَيُوشِكَنَّ أَنْ يُصَبَّ عَلَيْكُمَ الشَّرُّ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى يَبْلُغَ الْفَيَافِيَ، قَالَ:قِيلَ:وَمَا الْفَيَافِيُ يَا أَبَا عَبْدِ الله، قَالَ:الأَرْضُ الْقَفْرُ.

وقد صدق، فهذا الخبث لا تكاد تخلوا منه بقعة، ولا منزل إلا من رحم الله وقليل ما هم. فاللهم عفوك ورضاك، وغوثك والنجاة والعافية والسلامة نسألك.

وللأسف الشديد فقد تسارع في ذلك أقوام من أهل العلم بدعوى مزاحمة الباطل، وما شَعُرُوا أنهم ربما كانوا فتنة لغيرهم، وسببا لنشر هذه الأجهزة المدمرة، أجهزة الدمار الشامل، التي تدمر الدين والحياء[1]. ولو اعتزلوها لكان خيرا لهم وللأمة، ولبقي الباطل واضحاً بَيِّنا، لا لبس فيه ولا غَبَش.

والشارع الحكيم إذا نهى عن شيء، فلعلمه بمضاره وأخطاره الآنية والمستقبلية، ولكن كثيرا من الناس يتسارعون، ويعللون لأنفسهم، ويبررون مواقفهم، ثم ما يلبث أصحاب البصيرة النافذة أن يروا مواقع الخبث، وعلة النهي من الشارع الحكيم، جل الله في علاه، ولهذا قال تعالى:{وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}[النور:٥٤]، وقال سبحانه:{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[الحشر:٧]. نسأل الله العافية ونعوذ به من الضلال والخذلان.

---

١ - راجع غير مأمور كتابي [أجهزة الدمار الشامل] لمزيد من الحقائق، والبحوث، والتقارير، المتعلقة بهذا الخطر الجسيم، الذي غفل عنه أكثر الناس إلا من رحم الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل ذلك محرم، بل وبعض هذه العلوم كفر بالله العظيم، كالسحر والكهانة والعرافة لا سيما ما كان فيه استعانة بالجن، كما قال تعالى:{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاس السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوت وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُر فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِه وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَتَعَلَّمُون مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاه مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِه أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:١٠٢] ،وقوله تعالى:{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}[طه:٦٩].

وقوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه مسلم من طريق عُبَيْدِ الله ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ صَفِيَّةَ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ r ، عَنِ النَّبِيِّ r . قَالَ: "مَنْ أَتَىَ عَرّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً". وفي رواية عند الإمام أحمد من طريق عوف بن أبي جميلة الأعرابي قال حدثنا خلاس بن عمرو البصري عن أبي هريرة عن النبي r قال:"من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد r "، قلت: وفيه انقطاع وسيأتي تخريجه.

٢ - العلم النافع: وهو ينقسم إلى قسمين:

أ- العلم الديني الأخروي. **ب- العلم الدنيوي.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلوم الدنيوية:

أما العلم الدنيوي: فينفع إذا اتصل بالله جل وعلا وبشرعه تبارك وتعالى، وإلا عاد وبالا على العباد.

مثال ذلك علم الإحياء والكيمياء والجيولوجيا مثلا تعلمها مباح، وهي علوم نافعة في أصلها، ولكنها إذا انفصلت عن الله تعالى، واتصلت بالطبيعة والإلحاد أصبحت علوما ضارة، بل داعية إلى الكفر والضلال والزندقة والإلحاد والعياذ بالله من ذلك.

علوم مقطوعة الصلة بالله تعالى:

ومن العجائب والعجائب جمة في هذا الزمان أن ترى هذه العلوم تدرس في مدارس المسلمين وجامعاتهم، على أنها علوم جافة بحتة، تكاد تكون مقطوعة الصلة بالله جل وعلا، بل وتجد في طيات ما يدرس ما هو مصادم للكتاب والسنة، بل وما هو كفر بواح وإلحاد صراح، كنظرية التطور أو المعروفة اليوم بالدارونية، وكنظرية دوران الأرض حول الشمس التي زعموا أنها ثابتة،وغير ذلك كثير. عياذا بالله من ذلك كله. ومن تتبع المناهج عرف حجم الخبث المبثوث في طياتها عبر المراحل التعليمية المختلفة.

ومما يجب التنبه له في هذا المجال تَذَكُّرُ كيفية انتقال هذه العلوم من بلاد الإلحاد والضلال إلى بلدان المسلمين، حيث أن الغرب الكافر قد عاش فترة من الجهل المتقع والضلال العظيم، والتخلف في شتى مجالات الحياة، في عصور سمها أهل التأريخ (العصور المظلمة أو عصور الظلام)؛ لأن الكنيسة كانت تحارب العلوم بشتى أنواعها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتساير الكبراء على حساب الضعفاء، فظهرت الفتوى والتشريعات الظالمة الجائرة؛ فثار الناس على الكنيسة ومن فيها، وأبغضوا كل ما هو متصل بها، وأبغضوا الدين تبعا لذلك، إذ هو يمثل دين الأحبار والرهبان الذين قال الله تعالى في وصفهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة:٣٤-٣٥].

الثورة الفرنسية الإلحادية:

وانطلق ما يعرف بالثورة الفرنسية، والتي جاءت داعية فصل الدين عن الحياة، وعن العلوم؛ فجاءت العلوم معزولة تماما عن الدين، فقامت حضارتهم الماثلة اليوم على الزندقة والإلحاد على مبدأ (لا إله والحياة مادة) عياذا بالله منهم ومن مبادئهم.

ولما أراد المسلمون أن يتعلموا منهم، ويأخذوا عنهم هذه الحضارة المزعومة،قاموا وللأسف الشديد بنقلها برمتها وعلى علاتها، بما فيها من ضلال وانحراف وزندقة وإلحاد، ونقلت إلى بلاد المسلمين على أيدي من يُسَمَّون بالمثقفين، وهي طبقة من الناس ذهبت إلى بلاد الغرب الكافر وجاءت مفتونة بهم، مشبعة بمبادئهم المنحرفة، وخبثهم وضلالهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نعم هم أقوام من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، ولكنهم دعاة على أبواب جهنم عياذا بالله منهم، ومن كيدهم وشرهم ومكرهم،واستمع إلى وصفه لهم{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون:٤]؛ نعم هكذا فتن الناس بهم، وبمعسول كلامهم، وتشدقهم بالحضارة والمدنية، في محاولة جادة لإغراء المسلمين، بالغرب الكافر وحضارته الإلحادية.

وقد حق عليه وصف نبينا r كما في الصحيحين من طريق أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ:كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله r عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:"نَعَمْ"، قُلْتُ:وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ، قَالَ:"نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ"، قُلْتُ:وَمَا دَخَنُهُ؟قَالَ:"قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ"، قُلْتُ:فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ:"**نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**"، قُلْتُ:يَا رَسُولَ الله صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ:"**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**"، قُلْتُ:فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ:"تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"، قُلْتُ:فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ:"فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ".

يَكُونُ وفي رواية أخرى لمسلم:"بَعْدِي أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي **وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكانت النتيجة ما نرى من الغثائية المنقطعة النظير، في حين أننا من أكثر الأمم شهادات علمية أكاديمية في شتى العلوم، فما من تخصص إلا وعند المسلمين من حملته المئات بل الآلاف من العباد، بل لربما في بعضها الملايين، ولكنهم غثاء كغثاء السيل.

قال ابن القيم في (زاد المعاد):[جواز ترك التداوي وأن علاج الأرواح بالتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء:وفي ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوي وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء وأن تأثيره وفعله وتأثر الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية وانفعال الطبيعة عنها وقد جربنا هذا مرارا نحن وغيرنا وعقلاء الأطباء معترفون بأن لفعل القوى النفسية وانفعالاتها في شفاء الأمراض عجائب وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم وسفلتهم وجهالهم]ا.هـ.

متى تصبح العلوم المباحة محرمة:

وإذا كانت العلوم المفضولة إذا أشغلت عن العلوم الفاضلة حرمت، فكيف إذا صادمتها وحاربتها، بل كيف إذا قامت على نقض الأصلين، اللذين قام عليهما دين الله جل وعلا، الكتاب والسنة، لا شك أن الخطب أعظم والجرم أشنع وأفظع.والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولهذا كان النبي r يستعيذ بالله من علم لا ينفع، كما جاء في صحيح مسلم من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ، وَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: لاَ أَقُولُ لَكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلاّ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله r يَقُولُ: كَانَ يَقُولُ:"اللّهُمّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ. اللّهُمّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا. وَزَكّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكّاهَا. أَنْتَ وَلِيّهَا وَمَوْلاَهَا. اللّهُمّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا".

قضية الإنسان مع العلم قديمة:

واعلم رحمك الله، أن علاقتك بهذا العلم متصلة من لَدُن أبِينَا آدم عليه الصلاة والسلام، إلى أن تُدْرَجَ في قَبْرِك، فأما آدم عليه السلام، فكان إظهار فضله بالعلم الذي علمه الله تبارك وتعالى، كما تقدم، وأما في القبر ففي حديث البراء بن عازب y r الطويل الذي أخرجه الإمام أحمد وغيره قال النبي r :"فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِيَ الْإِسْلَامُ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ الله r فَيَقُولاَنِ لَهُ وَمَا عِلْمُك فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ....الحديث". إلى أن قال r في حق الكافر أو الفاجر:" وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ....الحديث".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن الله تبارك وتعالى بين في قصة خلق آدم عليه السلام العلاقة الوثيقة بين فشو العلم وحصول الرحمة والبركة والرضوان منه تبارك وتعالى، وبين كذلك العلاقة الوطيدة بين حصول الخوف وانتشار الفساد في الأرض عند فشو الجهل بدين الله تبارك وتعالى، وتأمل قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، مع قول النبي r كما في حديث أبي سعيد t يرويه عن معاوية t في صحيح مسلم قال t : وَإِنَّ رَسُولَ الله r خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:"مَا أَجْلَسَكُمْ". قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ:"آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ". قَالُوا وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ:"أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ".

لعله أن يظهر لنا شيء من معاني هذه المباهاة، أن هناك من بني آدم من ليسوا كما ذكرت الملائكة، بل هم يتعلمون العلم النافع ويعملون العمل الصالح، وبهذا تعمر الأرض وتصلح، وبضد ذلك تفسد وتخرب.

خطورة الزهد أوالإعراض عن علم محمد r :

والناس اليوم إلا من رحم الله انصرفوا إلى هذه العلوم الحياتية، وانقطعوا إليها، وَوُلِعُوا بها، وعَوَّلُوا عليها في معايشهم وأرزاقهم، وظنوا بها النصر والتمكين، ورموا علم الشريعة وراء ظهورهم، وزهدوا فيه، إلا ثقافة يأخذها من هنا أو هناك يتعلل بها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن احتاج إلى ذلك، فانتشر الجهل بدين الله تعالى، وظهرت الفتن، وعاشت الأمة ذلا كتبه الله على من تنكب صراطه المستقيم وابتغى العزة من عند غيره تبارك وتعالى.

إذن هذه العلوم، الأصل أن الله تعالى علمها عباده ليزدادوا إيمانا به وتعلقا به، وتوكلا عليه، لا أن يطغوا بها على حق الله تبارك وتعالى، ويستظهروا بها على دينه وشريعته، والأمر كما قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} [فصلت:٥٣-٥٤]. وقال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غافر:٨٣-٨٥].

هكذا الأمة إذا أخذت هذه العلوم بهذه الهدايات الربانية؛ كانت عونا لها على قضيتها التي لأجلها خلقت، {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات:٥٦-٥٨].

وإن انشغلوا بها وكانت هِمَّتَهم؛ انقطعوا بها عن الله، فَوُكِلُوا إلى أنفسهم، وفرحوا بما عندهم من علم، فضلوا وأضلوا، وحقت عليه كلمة العذاب، والعياذ بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة:[فصل: حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها إلا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة وأما أهل البدو كلهم وأهل الكُفُور كلهم وعامة بني آدم فلا يحتاجون إلى طبيب وهم أصح أبدانا وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب ولعل أعمارهم متقاربة وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم وجعل لكل قوم عادة وعرفا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء حتى أن كثيرا من أصول الطب إنما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية فمبناها على الوحي المحض والحاجة إلى التنفس فضلا عن الطعام والشراب لأن غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبدان وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول r والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم]ا.هـ.

ومن آثار هذا التنكر للعلم الشرعي، صرنا نرى في من ترفع إليهم الأبصار، من أطباء ومهندسين، وأصحاب درجات علمية متنوعة، من لا يحسن أن يقيم تلاوة قصار السور، ناهيك عن تلاوة القرآن، وتجد من بينهم من لا يحسن يصلي،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يعرف كيفية غسل الجنابة، بل لو سألت كثيرا منهم عن معاني بعض قصار السور، كقوله تعالى:{ومن شر غاسق إذا وقب}، لم يحر جوابا، ولضرب الأخماس بالأسداس، في إفلاس واضح مشين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

في حين أنه يحسن عدة لغات، ويقرأ كثيرا من الكتب والجرائد والمجلات، ويعرف كثيرا من أخبار العالم، السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، إلا أنه لا يعرف كثيرا من حدود ما أنزل الله تعالى على نبيه r . والله المستعان.

الرد على دعوى أن تعلم الطب من فروض الكفايات:

ومن الأوابد والطوام التي طغت على كثير من الناس في هذا العصر، وتبنى ذلك فئام من أهل العلم، القول بوجوب التطبب، ووجوب الهندسة، ووجوب كذا وكذا، وهذه والله ثالثة الأثافي، أما علم هؤلاء أن الوجوب حكم شرعي، لا يجوز الاجتراء عليه، إلا مع وجود الدليل الصحيح الصريح، كيف وقد قامت الأدلة على خلاف ما قالوا، أما علم هؤلاء أن هذا يدخل في القول على الله بغير علم، وأنه من شغل الذمم بالإثم،من دون موجب شرعي، فيا سبحان الله!!.

اعلم أيها المسلم، أن لم يأت نص واحد صحيح صريح بوجوب التطبب، وإنما خصصته بالذكر لأنه أشرف العلوم الحياتية، واعلم أنه لم يقل أحد من السلف لا في زمان الصحابة، ولا فيمن بعدهم في القرون الثلاثة المفضلة، بهذا الوجوب المزعوم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما نشأ فيمن بعدهم، حتى أصبح دينا اليوم، والعياذ بالله، فمن تركه كان آثما عند هؤلاء، بل وجعلوه فرض كفاية على الأمة، بل وقدموه على علوم الشريعة، واعتقدوا أن أعظم أسباب النصر اليوم التعمق والطلب لهذه العلوم الحياتية، وأن سبب تخلفنا، هو إعراضنا عنها، وبهذا سرت الركبان، فاللهم غفرا من هذا التخبط.

سبحان الله!!، كيف اجترأ هؤلاء على القول بالوجوب؟!!، وهو قول مبتدع، مختلق، محدث، ولكنه التقليد الأعمى، والرضوخ لضغط الواقع، والتجاوب مع الآراء، والمصالح والمفاسد المختلقة، والتسارع مع العواطف، وليت شعري أين السلف عن أمثال هؤلاء؟!!.

حكم التطبب عند السلف:

واعلم يقينا، بارك الله فيك، أن التطبب كان يدور في زمان السلف، على ثلاثة أحكام لا رابع لها، وهي الإباحة و الكراهة والسُّنِّيَّة، واعلم أن أدلة القائلين بالكراهة، لا تقل قوة عن القائلين بالإباحة، وأما القول بالسنية فهو قول قوي، ولكن أدلته أقل.

أما الوجوب فلا محل له من الأدلة، ولا محل له من كلام الصحابة، ولا محل من كلام أئمة الهدى، في القرون الثلاثة المفضلة. فتنبه. ولا تغتر بملإ الأوراق، وتسويد الصفحات، فالمسألة غاية في الوضوح، فإنما نأخذ أحكام الشريعة كلها، من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإليك بعض النقولات عن الأئمة المحققين، الذين اعتنوا بمسائل الخلاف وتحريرها، وبيان الراجح من المرجوح؛ لتعلم عظيم الانحراف الذي وقع في هذا الباب اليوم، لا أقول على مستوى العامة، بل حتى على مستوى الخاصة:

قال الإمام أبو عمر ابن عبد البر في كتابه (التمهيد):[حديث خامس وأربعون لزيد بن أسلم مرسل مالك عن زيد بن أسلم أن رجلا في زمان رسول الله r أصابه جرح فاحتقن الجرح الدم وأن الرجل دعا رجلين من بني أنمار فنظرا إليه فزعم زيد أن رسول الله r قال لهما أيكما أطب فقالا أو في الطب خير يا رسول الله فزعم زيد أن رسول الله r قال أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء هكذا هذا الحديث في الموطأ منقطعا عن زيد بن أسلم عند جماعة رواته فيما علمت وقد روى عاصم بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي r قوله (أيكما أطب) وأما (أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء) فقد روي عن النبي r في هذا المعنى بغير هذا اللفظ آثار مسندة صحاح سنذكرها في آخر هذا الباب إن شاء الله وفي هذا الحديث إباحة التعالج؛ لأن رسول الله r لم ينكر ذلك عليهم وفيه إتيان المتطبب إلى صاحب العلة وفيه بيان أن الله عز و جل هو الممرض والشافي وأنه لا يكون في ملكه إلا ما شاء وأنه أنزل الداء والدواء وقدره وقضى به وكذلك ثبت عن النبي r أنه كان يرقي ويقول:"اشف أنت الشافي يا رب لا شفاء إلا شفاؤك اشف شفاء لا يغادر سقما" وهذا يصحح لك أن المعالجة إنما هي لتطيب نفس العليل ويأنس بالعلاج ورجاء أن يكون من أسباب الشفاء كالتسبب لطلب الرزق الذي قد فرغ منه وفي قوله r أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء دليل على أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البرء ليس في وسع مخلوق أن يعجله قبل أن ينزل ويقدر وقته وحينه وقد رأينا المنتسبين إلى علم الطب يعالج أحدهم رجلين وهو يزعم أن علتهما واحدة في زمن واحد وسن واحد وبلد واحد وربما كانا أخوين توأمين غذاؤهما واحد فعالجهما بعلاج واحد فيفيق أحدهما ويموت الآخر أو تطول علته ثم يفيق عند الأمد المقدور له.

واختلف العلماء في هذا الباب فذهبت منهم طائفة إلى كراهية الرقى والمعالجة قالوا الواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله تعالى وتوكلا عليه وثقة به وانقطاعا إليه وعلما بأن الرقية لا تنفعه وأن تركها لا يضره إذ قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة فلا تزيد هذه بالرقي والعلاجات ولا تنقص تلك بترك السعي والاحتيالات لكل صنف من ذلك زمن قد علمه الله ووقت قد قدره قبل أن يخلق الخلق فلو حرص الخلق على تقليل أيام المرض وزمن الداء أو على تكثير أيام الصحة ما قدروا على ذلك قال الله عز و جل ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها واحتجوا بما حدثنا سعيد بن نصر قال حدثنا قاسم ابن أصبغ حدثنا محمد بن وضاح قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله r :"عرضت علي الأمم" فذكر الحديث وفيه ويدخل الجنة أيضا من أمتك سبعون ألفا بغير حساب ثم دخل رسول الله r ولم يبين لهم فأفاض القوم فقالوا نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم وأولادنا الذين ولدوا في الإسلام فسمع ذلك رسول الله r فقال:"هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون"، وبه عن أبي بكر قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حدثنا الحسن بن موسى قال حدثنا شيبان عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين عن ابن مسعود قال تحدثنا عند رسول الله r ذات ليلة فقال النبي r :"سبعون ألفا يدخلون الجنة لا حساب عليهم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون"، واحتجوا (أيضا) بحديث سعيد بن أبي سعيد مولى المهري عن أبي هريرة قال قال رسول الله r :"دخلت أمة بقضها وقضيضها الجنة كانوا لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون".....إلى أن قال"فلهذه الفضيلة ذهب بعض أهل العلم إلى كراهية الرقى والاكتواء، والآثار بهذا كثيرة ثابتة عن النبي r وممن ذهب إلى هذا داود بن علي وجماعة من أهل الفقه والأثر .....إلى أن قال:

وذهب آخرون من العلماء إلى إباحة الاسترقاء والمعالجة والتداوي وقالوا إن من سنة المسلمين التي يجب عليهم لزومها لروايتهم لها عن نبيهم r الفزع إلى الله عند الأمر يعرض لهم وعند نزول البلاء بهم في التعوذ بالله من كل شر وإلى الاسترقاء وقراءة القرآن والذكر والدعاء واحتجوا بالآثار المروية عن النبي r في إباحة التداوي والاسترقاء منها.....إلى أن قال:

وقال إبراهيم النخعي كانوا لا يرون بالاستشفاء بأسا وإنما كرهوا منه ما كرهوا مخافة أن يضعفهم وقال عطاء لا بأس أن يستشفي المجذوم وغير المجذوم وقد سئل رسول الله r فقيل له أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها أترد من قدر الله فقال هي من قدر الله وقال في عجوة العالية شفاء إذا بكره على الريق وقال من تصبح سبع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمرات من عجوة من تمر العالية لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر وكوى رسول الله r أسعد بن زرارة وروى أنه قطع من أبي بن كعب عرقا وكواه وهو حديث غريب رواه أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر وذكر الأثرم قال سألت أحمد بن حنبل عن قطع العرق فقال لا بأس بذلك عمران بن حصين قطع عرقا وأسيد بن حضير قطع عرق النساء وأبي بن كعب قطع عرقا فيما قال أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر.....إلى أن قال:

فمن زعم أنه لا معنى للرقى والاستعاذة ومنع من التداوي والمعالجة ونحو ذلك مما يلتمس به العافية من الله فقد خرج من عرف المسلمين وخالف طريقهم قالوا ولو كان الأمر كما ذهب إليه من كره التداوي والرقي ما قطع الناس أيديهم وأرجلهم وغير ذلك من أعضائهم للعلاج وما افتصدوا ولا احتجموا وهذا عروة بن الزبير قد قطع ساقه قالوا وقد يحتمل أن يكون قول النبي r أنهم :"لا يسترقون ولا يكتوون" أن يكون قصد إلى نوع من الكي مكروه منهي عنه أو يكون قصد إلى الرقى بما ليس في كتاب الله ولا من ذكره وقد جاء عن أبي بكر الصديق كراهية الرقية بغير كتاب الله وعلى ذلك العلماء وأباح لليهودية أن ترقى عائشة بكتاب الله قال أبو عمر هذا كله قد نزع به أو ببعضه من قصد إلى الرد على القول الأول.

والذي أقول به أنه قد كان من خيار هذه الأمة وسلفها وعلمائها قوم يصبرون على الأمراض حتى يكشفها الله ومعهم الأطباء فلم يعابوا بترك المعالجة ولو كانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعالجة سنة من السنن الواجبة لكان الذم قد لحق من ترك الاسترقاء والتداوي وهذا لا نعلم أحدا قاله.

ولكان أهل البادية والمواضع النائية عن الأطباء قد دخل عليهم النقص في دينهم لتركهم ذلك وإنما التداوي والله أعلم إباحة على ما قدمنا لميل النفوس إليه وسكونها نحوه و {لكل أجل كتاب} لا أنه سنة ولا أنه واجب ولا أن العلم بذلك علم موثوق به لا يخالف بل هو خطر وتجربة موقوفة على القدر والله نسأله العصمة والتوفيق وعلى إباحة التداوي والاسترقاء جمهور العلماء .....إلى أن قال:**وقد رخصوا أن يداوي الرجال عند الاضطرار النساء على سبيل السترة والاحتياط** أخبرنا عبد الله بن محمد قال حدثنا عبد الحميد بن أحمد قال حدثنا الخضر بن داود قال حدثنا أبو بكر الأثرم قال سألت أحمد بن حنبل أو سئل وأنا أسمع عن المرأة يداويها الرجل في مثل الكسر وشبهه قال نعم قد رخص في ذلك عدة من التابعين قال أبو بكر حدثنا قبيصة قال حدثنا سفيان عن عبد الله بن عثمان بن خثيم قال سألت عطاء بن أبي رباح عن امرأة منا في رأسها سلعة لا يستطيع النساء أن يداوينها قال يخرق في خمارها قدر السلعة ثم يداويها الرجال قال وحدثنا أبو جعفر النفيلي قال حدثنا مسكين بن بكر عن شعبة عن يونس بن عبيد عن هشام بن عروة قال خرج في عنق أختي خراج فدعا عروة الطبيب فأمره أن يقور الموضع ثم يعالجها قال وحدثنا حفص بن عمر قال حدثنا همام قال حدثنا ثابت بن ذروة قال سألت جابر بن زيد عن المرأة ينكسر منها العضو أجبره قال نعم قال وحدثنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا هشام قال حدثنا قتادة عن جابر بن زيد في المرأة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينكسر فخذها فلا يجدون امرأة تجبرها فقال يجبرها رجل ويسترها قال وأخبرنا حفص بن عمر قال حدثنا هشام عن قتادة عن سعيد بن المسيب في الرجل يؤخر عن امرأته فيلتمس من يداويه قال إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع....]ا.هـ.

وقال العلامة ابن القيم في (مفتاح دار السعادة :[النوع الرابع علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجة إليه وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس في أسباب العلم الواجب وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول اعتقاد وفعل وترك فالواجب في الاعتقاد مطابقته للحق في نفسه والواجب في العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمرا وإباحة والواجب في الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضات الله وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب فلا يتحرك في طلبه أو كف النفس عن فعله على الطريقتين وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان،**وأما فرض الكفاية** فلا أعلم فيه ضابطا صحيحا فإن كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضا فيدخل بعض الناس في ذلك **علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة**، وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحدادة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخياطة ونحوها، وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق، وربما جعله فرض عين، وبناه على عدم صحة إيمان المقلد.

وكل هذا هَوَسٌ وخَبْطٌ فلا فَرْضَ إلا مَا فَرَضَهُ الله ورَسُولُه

فيا سبحان الله هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيبا حجاما حاسبا مهندسا أو حائكا أو فلاحا أو نجارا أو خياطا فإن فرض الكفاية كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم فإنه ليس واحد منها فرضا على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم فيجب على كل أحد أن يكون حاسبا حائكا خياطا نجارا فلاحا طبيبا مهندسا فإن قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحا لأن فرض الكفاية يجب على العموم]ا.هـ.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم:[باب لكل داء دواء واستحباب التداوي: قوله r :"لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء بريء بإذن الله" الدواء بفتح الدال ممدود وحكى جماعات منهم الجوهري فيه لغة بكسر الدال قال القاضي هي لغة الكلابيين وهو شاذ وفى هذا الحديث إشارة إلى استحباب الدواء وهو مذهب أصحابنا وجمهور السلف وعامة الخلف قال القاضي في هذه الأحاديث جمل من علوم الدين والدنيا وصحة علم الطب وجواز التطيب في الجملة واستحبابه بالأمور المذكورة في هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن الوزير في (إيثار الحق على الخلق):[فصل : ينبغي من كل مكلف أن يطرح العصبية ويصحح النية ويستعمل النظر بالفطرة التي فطر الله الناس عليها ولا يقدم عليها ما لقنه أهل مذهبه فإنه إذا نظر كذلك في كل أمرين متضادين فيما يحتاج إليه يجد ترجيح الحق منهما على الباطل بينا لا يدفع مكشوفا لا يتقنع، فَاقْسِمِ الأمور أولا إلى قسمين:**قسم لا يحتاج إلى معرفته في الدين الذي تسأل عنه في الآخرة كعلم الفلك ودقائقه وعلم الطبائع وعلم الطب** وعلم الفراسة الدالة على الأخلاق الباطنة وعلم النجوم وعلم السحر وعلم الطلسمات وعلم السيمياء وعلم الكيمياء وعلم الرياضة وعلم الفلاحة وعلم الهندسة وعلم المرايا المحرقة وعلم المساحة وعلم الهيئة وعلم الأرصاد وعلم الحساب وعلم الشعر وعلم العروض وعلم تجويد الكتابة وقوانينها وعلم اللطيف وعلم الزيجات من الفلك والتقاويم إلى سائر ما ذكر من علوم الأذكياء وأهل الرياضات وقد صنفت كتب في ذكر أعداد العلوم وأسمائها فبلغت مبلغا كثيرا ومن أحسن من صنف في ذلك الشيخ محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري فانه صنف في ذلك كتابا مفيدا سماه إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد وذكر من هذه الفنون التي لم يرد الشرع بوجوب معرفتها ولا ندب إليها قدر أربعين فنا أو تزيد من هذه العلوم وإنما أشرت إليها ونبهتك عليها لتعرف سهولة ما بقي عليك بعد تركها وتيقن صدق قول الله عز و جل يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وتحمد الحمد تعالى على ذلك وأنفعها علم الطب وعلم اللطيف أما علم الطب فنفعه بين لكن التوكل أفضل منه بالنص المتفق على صحته والأجر في الألم لمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صبر عظيم وأعظم مصائب الدنيا الموت والطب لا يمنع منه وهو مهون لما دونه كما قيل في ذلك المعنى شعرا:

سَلِّي عن العَيْشِ أنا لا نَدُومُ له ... وهَوَّنَ الموتُ ما نَلْقَى مِن العِلَلِ

لكن الصبر قليل فنسأل الله العافية ولا بأس بتعلم الجلي من الطب، وأما علم اللطيف فهو أساس علم الكلام وتحقيق بعض فوائده يكشف عوار كثير من البدع كما تأتي إليه الإشارة.

والقسم الثاني من العلم ما يحتاج إليه في الدين وهو قسمان قسم لم يختلف في حسنه مثل النصوص في الحديث والإجماع من تفسير الإسلام والإيمان الواجب على الجميع دون ما عداه وعلم الزهد بما اشتملت عليه كتبه مما أجمع عليه دون ما اختلف فيه ومن أنفس كتبه رياض الصالحين للنووي لاقتصاره على الحديث القوي وأنفس منه الترهيب والترغيب للمنذري ونحوهما من الكتب الخالية من البدع فهذا القسم الأول لا نتعرض لذكره في هذا المختصر لعدم الإشكال فيه وإنما نتعرض لإيضاح ما فيه إشكال بأقرب الطرق أو أبعدها من الشبه ومن هذا القسم كتب الفروع التي كل مجتهد فيها مصيب أو مأجور وكتب العربية ونحو ذلك إذ لا يمكن رفع الاختلاف فيما اختلف في مثله موسى والخضر وسليمان وداود واختصم في مثله الملأ الأعلى لأنه مراد الله بالإجماع والقسم الثاني المختلف فيه اختلافا تخاف مضرته في الآخرة فما كان لا يجب شرعا الخوض فيه مع عظم الخطر في الخوض فيه فاضرب عنه وطالب من دعاك إليه بالدليل الواضح على الوجوب وأعرض ما أورد عليك فيه من الأدلة على النصحاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأذكياء من العلماء حتى تعرف الوجوب يقينا من غير تقليد ثم حرر النية الصحيحة بعد ذلك في معرفة الحق وما أوجب الله معرفته طاعة لله لا لمباهاة ولا مراآة ولا مماراة ثم استعن بالله واستغث به وانظر في الخلوات خالطا للنظر بالدعاء والتضرع والاستعاذة من الفتن فإنك ترى بذلك من العون والسهولة ما وعد الله به الداعين له الراجعين إليه فإن الله تعالى إذا أوجب أمرا أعان عليه من أراد الأدلة بنية صحيحة كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإنه قال لو صبروا عليها لطوقوها فلما نقص من تكليفهم نقص من صبرهم رواه البخاري وله شواهد والعقل يشهد لذلك أيضا]ا.هـ.

أزكى العلوم وأعلاها وأعظمها نفعا:

أما العلم الديني الشرعي الأخروي (أزكى العلوم وأعلاها وأشرفها وآكدها): فينقسم أيضا إلى قسمين:

١ - **فرض عين:** وهو ما لا يسع العبد الجهل به، أو هو ما يلزم كل مكلف من أهله أن يتعلمه، وقلنا من أهله؛ لأن من العلم ما يكون فرض عين في حق قوم دون آخرين، فإذا صاروا من أهله كان فرض عين عليهم كذلك، مثل الصلاة والزكاة والحج والصيام والوضوء.

ومما هو فرض عين على جميع العباد أن يتعلموه الفقه الأكبر والعلم الأعظم، ألا وهو علم التوحيد وما يضاده، وما يجب اعتقاده في الله رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ - **فرض كفاية**: وهو ما إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وأما إن تواطأ العباد على ترك تعلمه؛ فإن الإثم يلحقهم جميعا، إلا من كان ساعيا في تحصيل الكفاية وإيجادها.

وبهذا الاعتبار يكون فرض الكفاية أشد من فرض العين، وذلك من جهة لحوق الإثم بالأمة جمعاء، كعلم الفتوى والقضاء وما يتعلق به وعلم المواريث وما يتبعه،وتحصيل العلم الشرعي لإيجاد العلماء الربانيين الراسخين في دين الله تعالى؛ ليعلموا الأمة ويفقهوها في دين الله تبارك وتعالى،كما قال تعالى:{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة:١٢٢].

وكالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لعموم قوله تعالى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٤-١٠٥].

على خلاف بين أهل العلم فيه هل هو من فروض الأعيان أم من فروض الكفايات، لعموم قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلاَ حَرَجَ،وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتحقيق أن منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية وكل بحسبه. وسيأتي مزيد بيان وتفصيل في ذلك. إن شاء الله تعالى.

السلف والحرص على العلم الموصل إلى النجاة:

ولما كان العلم منه النافع والضار، ومنه المهم والأهم، كان من دعاء النبي r المأثور عنه أنه كان يستعيذ بالله من علم لا ينفع، كما في صحيح مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ لاَ أَقُولُ لَكُمْ إِلاَّ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله r يَقُولُ كَانَ يَقُولُ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ** وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا".

وأنت إذا تأملت في هذا الدعاء النبوي الجامع العظيم، وجدت أن مرد ذلك كله إلى العلم الذي ينتفع به العبد، فإن العلم يهجم بك على حقائق الأمور، فتراها على وجهها الصحيح، فتهتدي بتوفيق الله تعالى، وما آتاك من العلم النافع، إلى ترك الخصال الذميمة، والعِلْم يدعوك إلى تحصيل مكارم الأخلاق، فيحصل للنفس تزكيتها، والنجاة، والبعد عن أسباب تَدْسِيَتِهَا، فإذا بك تنآى بنفسك عن سبيل المفسدين والذين لا يعلمون، فتكون قد حققت أسباب خشوع القلب وإجابة الدعاء، فعاد جماع الخير في العلم النافع، الذي يورث العمل الصالح، فنسأل الله تبارك وتعالى لي ولكم علما نافعا وعملا متقبلا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان دأب الصالحين السعي في تحصيل العلم النافع، بل أمر الله تبارك وتعالى نبيه أن يسأله المزيد من العلم النافع، كما قال تعالى:{وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه:١١٤]، فكان r يسأل الله تعالى المزيد من العلم؛فدل ذلك على أن العبد لم ولن يزال بحاجة إلى مزيد من العلم النافع والعمل الصالح، فمن ظن أنه قد علم واكتفى فقد جهل،فما أوتي العباد من العلم إلا نزرا يسيرا، فهم يتنافسون في هذا اليسير، كما قال تعالى:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[الإسراء:٨٥].

وفي الصحيحين من طريق سفيان بن عيينة : حدثنا عمرو بن دينار قال: أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله: حدثني أبي بن كعب: أنه سمع رسول الله r يقول:"إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، .... الحديث إلى أن قال: وقال رسول الله r : وكانت الأولى من موسى نسيانا، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر،..... الحديث".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقيل للإمام أحمد وقد رُئِي حاملا الإداوة والقلم، فقيل له إلى متى؟!!، فقال من المحبرة إلى المقبرة.

ومن جميل ما نقل عن الشافعي رحمه الله:

كلُّ العُلُومِ سِوى القُرْآنِ مَشْغَلَةٌ ... إلاَّ الحَديث وَعِلْمِ الفِقْهِ في الدِّينِ

العلمُ ما كانَ فيه قالَ حدثنا ... وَمَا سِوى ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

وقال أيضا:

لن يبلُغَ العلمَ جميعاً أحدٌ ... لا ولَوْ حاوَلَهُ ألفَ سنَهْ

إنما العلْمُ عَمِيقٌ بحرُهُ ... فخذوا من كل شيءٍ أحسنه

والمراد بالعلم في هذه الأصول الثلاثة هو العلم المتعلق بالله جل وعلا ومعرفته ومعرفة دينه وشرعه ورسله. كما سيبينه المؤلف رحمه الله تعالى.

قوله:(وهو معرفة الله): شرع المؤلف رحمه الله تعالى، في بيان هذا العلم الذي قدم له من قبل، وبَيَّنَ أنه واجب علينا جميعا أن نتعلمه،والمعرفة هنا مرادفة لمعنى العلم، وإن كانت في بعض السياقات قد يحصل نوع تباين، ويكون بينهما عموم وخصوص؛ ولأجل هذا فرق بعضهم بين العلم والمعرفة[1]، والراجح أن هذه الألفاظ تَتَحَدَّدُ معانيها

---

١ - قال ابن القيم في كتابه مدارج السالكين:[فصل والفرق بين العلم والمعرفة لفظا ومعنى أما اللفظ ففعل المعرفةيقع على مفعول واحد تقول عرفت الدار وعرفت زيدا قال تعالى:{فعرفهم وهم له منكرون}، وقال:{يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}، وفعل العلم يقتضي مفعولين كقوله تعالى فإن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

علمتموهن مؤمنات وإن وقع على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كقوله وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وأما الفرق المعنوي فمن وجوه:

أحدها: أن المعرفة تتعلق بذات الشيء والعلم يتعلق بأحواله فنقول عرفت أباك وعلمته صالحا عالما ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة كقوله تعالى فاعلم أنه لا إله إلا الله وقوله اعلموا أن الله شديد العقاب وقوله فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، فالمعرفة حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس والعلم حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه فالمعرفة تشبه التصور والعلم يشبه التصديق.

الثاني:أن المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه فإذا أدركه قيل عرفه أو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل عرفه قال الله تعالى ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم وقال تعالى وجاء أخوه يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون وقال الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لما كانت صفاته معلومة عندهم فرأوه عرفوه بتلك الصفات وفي الحديث الصحيح إن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولا أتعرف الزمان الذي كنت فيه فيقول نعم فيقول تمن فيتمنى على ربه وقال تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فالمعرفة تشبه الذكر للشيء وهو حضور ما كان غائبا عن الذكر ولهذا كان ضد المعرفة الإنكار وضد العلم الجهل قال تعالى:{يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها} ويقال عرف الحق فأقر به وعرفه فأنكره.

الوجه الثالث:من الفرق أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره وهذا الفرق غير الأول فإن ذاك يرجع إلى إدراك الذات وإدراك صفاتها وهذا يرجع إلى تخليص الذات من غيرها وتخليص صفاتها من صفات غيرها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بحسب السياق الذي وردت فيه. كما هو هنا في ظاهر صنيع المؤلف حيث فسر العلم بالمعرفة، فصارا مترادفين.

وهذه المعرفة لا تتم إلا بالتعرف على أنواع التوحيد وحقائقه ولوازمه ومقتضياته، والتحقق بذلك، وما يتبع ذلك من معرفة نواقضه واجتنابها، وهذا كما تقدم هو من فروض الأعيان، ولهذا كان لزاما على المكلفين السعي الجاد في تحصيل هذا العلم، ولهذا حذر الله تبارك وتعالى عباده من الغفلة في مواضع من الذكر الحكيم.

قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:١٧٩].

وفي بُدَاءَةِ المؤلف رحمه الله تعالى بهذا العلم، تذكير بما تقدم تقريره، من تباين العلوم، درجة ومعنى، وأن آكد العلوم على الإطلاق، العلم المختص بمعرفة حق الله تبارك وتعالى، وما يتبع ذلك مما سيأتي عليه المؤلف في سياق كلامه رحمه الله تعالى.

الفرق الرابع:أنك إذا قلت علمت زيدا لم يفد المخاطب شيئا لأنه ينتظر بعد أن تخبره على أي حال علمته فإذا قلت كريما أو شجاعا حصلت له الفائدة وإذا قلت عرفت زيدا استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره ولم يبق منتظرا لشيء آخر وهذا الفرق في التحقيق إيضاح للفرق الذي قبله.

الفرق الخامس:وهو فرق العسكري في فروقه وفروق غيره أن المعرفة علم بعين الشيء مفصلا عما سواه بخلاف العلم فإنه قد يتعلق بالشيء مجملا].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالعلم يتفاوت في درجة أهميته، فهناك مهم وأهم، وليس في علم الشريعة ما يهمل، وأس العلوم وأعظمها وأجلها، ما كان به إقامة حق الله تعالى، وما دَلَّ عليه وهدى إليه، ولا شك أن رأس ذلك كله التوحيد، الذي هو حق الله على العبيد.

أنواع التوحيد وتقسيماته:

وقد اختلفت عبارات أهل العلم في أنواع التوحيد وتقسيماته، وهذا كله من اختلاف التنوع لا التضاد، فإن جماع الأمر ومرده يعود، إلى إفراد الله تعالى بحقه،وما يختص به جل الله في علاه، وحقه منه ما هو متعلق بذاته كالأسماء والصفات، ومنها ما هو متعلق بأفعاله وهو مقتضى ربوبيته، ومنها ما هو متعلق بما يلزم العباد أن يتوجهوا به إليه، وحده لا شريك له جل الله في علاه، وهذا مقتضى ألوهيته.

ومما تلزم الإشارة إليه أن هذه التقسيمات، ليست تعبدية من جهة حرفها، ولكنها كذلك من جهة مقتضياتها ومعانيها ومدلولاتها، إذ لا خلاف بين السلف بأن معاني هذه التقسيمات هي لله تبارك وتعالى، وأنها مبثوثة في كتاب الله وسنة رسوله r .

وهي تقسيمات اصطلاحية، دأب أهل العلم على استعمالها في مثل هذه المقامات وغيرها، تقريبا للأفهام، وتيسيرا للعلم، ولهذا كانوا يقولون: لا مشاحة في الاصطلاح إذا عرف المعنى وتحدد الهدف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما قلت هذا؛لِأُذَكِّر بما وقع من التَّحْجِير والتَّمْييع في هـذه المسـألة، أعنـى تقسـيم التوحيد إلى أقسام، وذلك لأن بعض الناس سلك فيها مسلك الجفاء، فَمِنْ مُفْرِطٍ ومِنْ مُفَرِّط.

فتسمع من بعضهم من يقول: من أين هذه التقسيمات وتلك التسميات؟!، ويـزعم أنه لا أصل لها، وأن هذا ليس بـلازم، ونحـو ذلـك مـن الأقـوال، في ذهـول تـام عـن مدلولات ومعاني هذه التقسيمات والتسميات، التي كما تقدم جاءت واضحة المعـالم في الكتاب والسنة.

ومن آخرين يُحَجِّرُون واسعا، فيزعمون أن مـن تجـاوز هـذه التقسـيمات -بعضـهم يقول من جهة عددها، وبعضهم من جهة تسمياتها، و ربما الإثنين معا– فقـد ابتـدع في الدين وتكلف ما لا علم له به، في نسيان تام، أو تناسي، بأن هذه التقسـيمات مـن جهـة عددها وتسمياتها، إنما جاءت بسـبيل الاسـتقراء لنصـوص الكتـاب والسـنة وتعامـل الأئمة، فهي توقيفية المعـاني والـدلالات لا الحـروف والتقسـيمات، إذ لا يوجـد نـص صريح صحيح بتحديد العدد والتسمية.

وقد أقام بعضهم الأرض ولم يُقْعِدْها، عندما قال بعض أهـل العلـم: ومـن أقسـام التوحيد، توحيد الحاكمية والتشريع.

فَبَادَرُوا إلى رميهم بالبدعة ومفارقـة السـبيل، عيـاذا بـالله مـن الجـور في الأحكـام، والفجور في الخصومة، أليس الله تبارك وتعالى يقول في كتابـه العزيـز:{أَمْ لَهُـمْ شُرَكَـاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُـمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَذَابٌ أَلِيمٌ}[الشورى:٢١]، وقال:{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [الأنعام:٥٧]، وقال:{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠] وغير ذلك من الأدلة.

أوليست هذه الآيات دالة على أن من صميم التوحيد إفراد الله تعالى بالتشريع والحكم، جل الله في علاه، كيف لا وهو القائل:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]. فيا سبحان الله!!.

أليس في هذه التسميات في حدودها ومدلولاتها ومعانيها، ما اقتضى أن ذلك حق لله تعالى يجب إفراده به، وأن من صرفها لغير الله تعالى فإنه مشرك بالله كافر.

وبمثل هذه السبيل جاءت التسميات الأخرى، التي اشتهرت بين الناس وذاعت، فلماذا ننكر المسميات الحقة ذات المعاني الصحيحة والمدلولات الواضحة؟!!، ألِأن فلانا أو فلانا هو المتكلم بها، أم لمعطيات سياسية وسلطانية، رضخ الناس لها؟. فيا لله العجب!!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإن من أشهر التقسيمات للتوحيد، التي سرت بها الركبان، وتلقاها أهل العلم بالقبول والتسليم، أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام،فمن حققها فقد أدى ما عليه من المعرفة الواجبة والعلم بالله تبارك وتعالى.

وهذا التقسيم على النحو التالي:

أنواع التوحيد ثلاثة:

١ - **توحيد الربوبية:** وهو إفراد الله تعالى بأفعاله جل وعلا، مثل الخلق والرَّزق، والإحياء والإماتة، وعلم الغيب وتدبير الأمور، ورزق الولد وتفريج الكرب وإغاثة العباد وإجابة المضطر، وإنزال المطر ودَرِّ الضرع وإنبات الزرع، وإيتاء الملك ونزعه، ومداولة الأيام بين الناس، إلى غير ذلك من أفعاله تبارك وتعالى، المختصة به لا ينازعه فيها أحد، إلا أفاك أثيم، كذاب أشر.

والمعنى أنه يجب على العبد أن يعتقد اعتقادا جازما أن الله سبحانه وتعالى لا شريك له في أفعاله تبارك وتعالى، وأنه ليس هناك من يدبر هذا الكون كله إلا الذي خلقه، ألا وهو الله رب العالمين، خلافا لما تعتقده بعض الطوائف المنتسبة إلى الإسلام، من اعتقادهم أن في الكون أقطابا وأغواثا يعلمون الغيب المطلق، ويدبرون الكون مع الله رب العالمين، تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيرا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن زعم ذلك لنفسه، فهو كفرعون وهامان وقارون، سواء بسواء مثلا بمثل، فإن فرعون زعم لنفسه الربوبية وتابعه على ذلك هامان، وقارون زعم أنه رازقُ نَفْسِه والمُنْعِمُ عليها، عياذا بالله من الكفر والخذلان.

ويدخل في ذلك دخولا أوليا كل من نصب نفسه مشرعا للعباد، يجوز ويمنع، أو يحلل ويحرم، في مقابلة حكم الله تبارك وتعالى وتشريعه، سواء من الرؤساء والسلاطين، أو من رؤساء العشائر والقبائل، أو من كُبَرَاء أصحاب الطرق الصوفية والعقلانية، والأحزاب العلمانية ومن شابهها، ومن فعل مثل فعلهم من غير هؤلاء، إذ كلهم منازعون لله تعالى في أخص خصائص الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

٢- **توحيد الألوهية**: هو إفراد الله تعالى بأفعال العبادة والعباد. بحيث لا يصرف العباد شيئا من العبادات بجميع أنواعها، الظاهرة أو الباطنة.والفعلية القولية منها العملية لأحد سوى الله رب العالمين، الذي خلقهم وصورهم فسواهم فعدلهم ورزقهم وأوجدهم من العدم كما قال تعالى:{اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الروم:٤٠]، وقوله تعالى:{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّار} [الرعد:١٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسيأتي مزيد بيان وإيضاح شاف لهذين النوعين من التوحيد فيما يأتي من الشرح، ذلك لأن المؤلف رحمه الله تعالى قد أفرد لهما كلاما مستقلا سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، لا سيما النوع الثاني من أنواع التوحيد ألا وهو توحيد الألوهية، فهو الذي وقعت فيه أكثر الخصومة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والقرآن مليء بذكر سياقات متنوعة دالة على هذه الخصومة،التي وقعت بين الرسل والمشركين المعاندين المحاربين لحق رب العالمين ، ولأجله وأنواع التوحيد الأخر يشرع الجهاد في سبيل الله تعالى، جهاد البيان بالحجة والبرهان وجهاد السنان بالقتال في سبيل لله، وجهاد المال نصرة للحق وأهله، ولأجله ولأجل أنواع التوحيد الأخرى أنزلت الكتب وأرسلت الرسل، وقامت سوق الجنة والنار على مقتضى تحقيق التوحيد لله رب العالمين وحده لا شريك له.

٣- **توحيد الأسماء والصفات**: وهو إفراد الله تعالى بأسمائه وصفاته جل وعلا. بحيث لا يصرف العباد شيئا من أسماء الله تعالى ولا صفاته لأحد سوى الله رب العالمين. كائنا من كان لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا وليا صالحا.

لأنه سبحانه وتعالى لا سَمِيَّ له ولا نِدَّ له ولا كُفْأَ له جل الله في علاه، كما قال تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} [الشورى: ٩ - ١٣].

وتأمل كيف ذكر الله تبارك وتعالى قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، في سياق آيات قرر فيها سبحانه وتعالى أسماءً وصفاتٍ وأفعالاً من أفعاله جل الله في علاه، وبَيَّنَ أنه هو الذي يَشْرَع لعباده، والعباد لا يشرعون، بل يتبعون ويتعبدون بذلك لله رب العالمين، فبين تبارك وتعالى التباين التام بين الخالق والمخلوق، وأنه لا يليق للمخلوق أن ينازع الخالق في شيء من ذلك، وهي دالة بالتبع على باقي أسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه وتعالى، ولهذا عمم فقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

الرد على الملحدين في أسماء الله وصفاته:

وفي هذه الآية، كما قرر أهل العلم، رد على طائفتين ضالتين، وهما من أكثر الطوائف فتنة للعباد وشيوعا في البلاد عياذا بالله منهم، ألا وهما طائفة المعتزلة، الذين انبثق عنهم الجهمية المعطلة، ومن نحى نحوهم من الأشاعرة وأفراخهم، ممن ألحدوا في أسماء الله وصفاته، إما بالتعطيل التام، أو بالتأويلات الفاسدة،وأما الطائفة الثانية فهم المشبهة، الذين شبهوا الخالق العظيم تبارك وتعالى بالمخلوق الضعيف الفقير، والعكس، ولا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يلزم أن يكون التشبيه في كل شيء، بل ولو في بعض ذلك، وهذا كثير في المتصوفة، وأرباب التشريعات الجاهلية.

فقوله تعالى: {ليس كمثله شيء}، رَدٌّ على الممثلة بكل أشكالهم ومللهم ونحلهم، حيث نفى الله تبارك وتعالى أن يكون له مثيل بحال من الأحوال، كما قال تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم:٦٥]، وقوله: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الصمد]، فهو جل وعلا أحد في جميع أسمائه وصفاته وأفعاله وتشريعاته وأحكامه وقضائه، كما قال تعالى: {وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [غافر:٢٠].

وفي قوله تعالى: {وهو السميع البصير} رد على المعتزلة والمعطلة والأشاعرة ومن نحى نحوهم. فإن الله تبارك وتعالى أثبت لنفسه السمع والبصر، وبين أنه جل وعلا يسمع ويبصر كما قال تعالى: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦].

وقد أبدع ابن القيم حيث رد على هاتين الطائفتين الضالتين في أبيات له من النونية حيث قال رحمه الله تعالى:

لَسْنَا نُشَبِّهُ ربنا بصفاتنا * إن المُشَبِّه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه * إن المُعَطِّل عابد البُهتان
من شَبَّه الله العظيم بخلقه * فهو الشَّبِيهُ بمشرك نصراني
أو عَطَّلَ الرحمن عن أوصافه * فهو الكَفُور وليس ذَا إيمان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما المعطلة فهم الذين عطلوا الرحمن جل جلاله عن أوصاف كماله ونعوت جلاله وجماله، وأصل التعطيل الإخلاء، فيقال جِيْدٌ عَطِلٌ أي خال. فقالوا عن الله تبارك وتعالى سميع بلا سمع وبصير بلا بصر تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ومن أجل هذا التعطيل الشنيع الذي يصفون فيه الله تعالى - بما لا يرتضونه لأنفسهم ولا لبهائمهم،عليهم لعنة الله - لم يتوقف جملة من العلماء في تكفيرهم، كما قال ابن القيم عنهم في نونيته:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في * خمس من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنهم * بل قد حكاه قبله الطبراني

وقال في موطن آخر :

وكذلك النعمان قال وبعده ... يعقوب والألفاظ للنعمان

من لم يقر بعرشه سبحانه ... فوق السماء وفوق كل مكان

ويقر أن الله فوق العرش لا ... تخفى عليه هواجس الأذهان

فهو الذي لا شك في تكفيره ... لله درك مِنْ إمام زمان

ولا تَقِلُّ الممثلة عن المعطلة في الكفر والضلال والزندقة الإلحاد، فقد انبثق عنهم الحلولية والاتحادية؛ ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الجواب الصحيح:[فمن نفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات؛ كان معطلا، ومن جعلها مثل صفات المخلوقين؛ كان ممثلا، والمعطل يعبد عدما، والممثل يعبد صنما]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال في مجموع الفتاوى:[وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الخزاعي:مَنْ شَبَّهَ اللهَّ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُّ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُّ بِهِ نَفْسَهُ وَرَسُولُهُ تَشْبِيهًا. وَمَذْهَبُ السَّلَفِ بَيْنَ مَذْهَبَيْنِ وَهُدًى بَيْنَ ضلالتين:إثْبَاتُ الصِّفَاتِ وَنَفْيُ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ فَقَوْلُهُ تبارك وتَعَالَى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، رَدٌّ عَلَى أَهْلِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ. وَقَوْلُهُ:{وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} - رَدٌّ عَلَى أَهْلِ النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ، **فَالْمُمَثِّلُ أَعْشَى وَالْمُعَطِّلُ أَعْمَى: الْمُمَثِّلُ يَعْبُدُ صَنَمًا وَالْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا.** وَقَدْ اتَّفَقَ جَمِيعُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ عَلَى أَنَّ اللهَّ حَيٌّ حَقِيقَةً عَلِيمٌ حَقِيقَةً قَدِيرٌ حَقِيقَةً سَمِيعٌ حَقِيقَةً بَصِيرٌ حَقِيقَةً مُرِيدٌ حَقِيقَةً مُتَكَلِّمٌ حَقِيقَةً].ا.هـ.

وأما الأشاعرة فهم وإن كانوا قد انبثقوا من الجهمية إلا أنهم لم يجرؤوا على القول بقول الجهمية من النفي والتعطيل التام، ولكنهم قالوا بنفي سائر الصفات ولم يثبتوا منها إلا سبعة، على المشهور من قولهم، وهم مختلفون حتى في هذه السبعة، أما باقي الأسماء والصفات فأولوها تأويلات باطلة لا تمت للحق بصلة لا من قريب ولا من بعيد، ولهم تفريعات ليس هذا محل بسطها، وهم في ذلك على خلاف كبير لا يكاد يجتمع لهم قولهم، وهذا حال كل من تكلف لوي النصوص وتأويلها بما يخالف الحق، فهم كما قال عنهم الإمام أحمد بن حنبل:[هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب].

تحذلق المفوضة وضلالهم:

ثم ظهرت طائفة المُفَوِّضَة فأرادوا أن يأتوا بقول وسط بين أهل الضلال؛ فأتوا بما هو أشنع من قول المشبهة والمعطلة والأشاعرة، وهذا حال جميع أهل الضلال والابتداع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنهم لا يهتدون إلى الحق إلا إذا رجعوا إليه من قريب، ووسعهم ما وسع الصحابة **y**، فقد كانوا أبر الناس قلوبا، وأقلهم تكلفا، وأعرف للحق، وأبصر فيه واصبر عليه، فرضي الله عنهم وأرضاهم .

وأصل قول المُفَوِّضَة ألا نثبت لأسماء الله تبارك وتعالى المعاني التي دلت عليها، فصار الكلام عندهم بهذا الاعتبار لا معاني له، بل وإياك أن تفهم من كتاب الله تعالى ما يتبادر إلى الذهن من المعنى الظاهر للأسماء والصفات، فعطلوا أسماء الله تعالى عن المعاني، فصارت كلمات جامدة لا معاني فيها، وليس لنا أن نفهم منها شيئا؛ فصار كتاب الله تعالى لا يهدي إلى مراد الله تبارك وتعالى، بل صار أعجمي المعنى عندهم، وعلى أتباعهم أن يتكلفوا رد المعاني المتبادرة من ظاهر الأسماء والصفات، بما يليق بالله تعالى على حد زعمهم، وكل هذا ضلال وانحراف عن قول الله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

والأصل في هذا الباب الخطير العظيم، الذي ضلت فيه أفهام، وزلت فيه أقدام، أن أسماء الله وصفاته تبارك وتعالى، لا سبيل إلى معرفتها والوقوف عليها، إلا من جهة النقل والخبر، إذ لا سبيل إلى معرفة ذلك، لا بالعقل ولا بالخرص، ولا بالاستقراء والتأمل والتفكر، ولا بالقياس؛ ولهذا أجمع أهل السنة والجماعة[1]، على أن باب الأسماء

---

١ - ولابد من التنبه إلى أن الأشاعرة إذا نسبوا قولا ما إلى أهل السنة والجماعة في كتبهم فإنهم يريدون بذلك من وافق مذهبهم الفاسد، أما نحن فإننا نعني بأهل السنة والجماعة هو ما كان عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصفات باب توقيفي؛ فلا يجوز إثبات صفة من صفات الله تعالى ولا اسم من أسمائه جل وعلا إلا بعد ورود النص الصريح الصحيح من الكتاب أو السنة، ولما كان الأمر كذلك؛ وجب التسليم والاستسلام لما جاءت به النصوص الصريحة الصحيحة في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة، ولزم الإيمان بها كما جاءت؛ لأنها أخبار عن الله تعالى، وهو أعرف بنفسه جل جلاله، وقد قرأها علينا ونقلها إلينا أصدق خلقه وأعلمهم به، ألا وهو نبينا محمد r ؛ فوجب المصير إلى قوله r دون أي تكلف ولا تردد ولا رد عياذا بالله من الإلحاد في أسمائه وصفاته جل وعلا، ومن شك أو توقف، قلنا له أمامك أحد أمرين، إما أن تقول أن النقل غير صحيح، أو أن الناقل غير مؤتمن، وكل منهما كفر وزندقة وإلحاد والعياذ بالله من ذلك كله؛ فوجب التسليم لما جاء على لسان الصادق المصدوق r ، فيما سمى أو وصف الله جل وعلا به نفسه، وإلا كان رَدُّ ذلك تكذيباً بالخبر ورداً على النبي r ما جاء به من عند الله جل وعلا.

قال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم:١-١٠].

النبي r وصحابته الكرام في جميع أبواب الدين أصوله وفروعه بما في ذلك باب الأسماء والصفات وأسماء الدين والإيمان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منشؤ الضلال وسببه:

وإنما أُتِيَ القوم من جهتين مَنْ فَهِمَهُما؛ أدرك حقيقة السبب الذي أدى بهؤلاء إلى سلوك هذه الطريقة المبتدعة في أسماء الله وصفاته:

الجهة الأولى: أنهم أرادوا أن ينزهوا الله تبارك وتعالى عما وصف به نفسه، وما أخبر به عنه نبيه r . وهذا لا شك أنه ضلال مبين، وانحراف عظيم، حيث يعمدون إلى ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات، وأوحى بها إلى نبيه فأخبر بها نبيه r ، وخاطب الناس بها، يعمدون إلى نفيها، والتنكر لها، والإنكار على من يخالفهم في ذلك، بل يرمونهم بالعظائم، فيسمون أهل السنة الذين قالوا بما قال به الصحابة y ، مما تلقوه عن رسوله r ، يسمونهم حشوية، ومجسمة، ويرمونهم بالبدعة والضلال، بل الكفر بالله تعالى. عياذا بالله. زعما منهم أنهم بذلك ينزهون الله تبارك وتعالى عما لا يليق به، وهذا لا شك تكذيب ورد على الله تعالى فيما أخبر به عن نفسه جل وعلا. وغيرة كاذبة إذ أرادوا أن يغاروا على حق الله تعالى أكثر من الله تعالى، ومن رسوله r وأصحابه y .

أخرج ابن بطة في كتابه الإبانة:[حدثنا أبو الفضل جعفر بن محمد القافلائي قال ثنا محمد بن إسحاق الصاغاني قال ثنا سلم بن قادم قال ثنا موسى بن داود قال ثنا عباد بن العوام قدم علينا شريك بن عبد الله منذ نحو من خمسين سنة قال فقلت يا أبا عبد الله إن عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث فحدثني بنحو من عشرة أحاديث في هذا وقال:(**أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين وأخذ التابعون عن أصحاب رسول الله فهم عمن أخذوا؟**)].ا.هـ. ورواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل في كتاب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السنة، والدارقطني في الصفات، والذهبي في العلو والبيهقي في الأسماء والصفات، وإسناده جيد.

وجاء في كتاب الصفات للدارقطني بإسناده عن شريك بن عبد الله النخعي:[هؤلاء أبناء المهاجرين يحدثون أن الله عز وجل يُرَى في الآخرة، حتى جاءنا ابن يهودي صباغ فزعم أن الله لا يُرى. يعني بشرًا المريسي].ا.هـ. وفيه بإسناده عن مالك، عن الزهري قال:[سَلِّمُوا للسنة ولا تعارضوها]ا.هـ.

الجهة الثانية: أنهم خشوا من إثبات تلك الأسماء والصفات، أن يشبهوا الخالق بالمخلوق؛ فوقعوا في عين ما فروا منه. حيث أنك لو سألتهم مثلا، لماذا لا تثبتون لله تعالى صفة العلو، أو صفة الاستواء، أو صفة الضحك، أو صفة اليدين، والعينين، والساق، وصفة النزول والمجيء، إلى غير ذلك من أوصافه جل وعلا، سواء الذاتية أو الفعلية؛ لقالوا حتى لا نشبه الخالق جل وعلا بالمخلوق، فهم إذاً عندما نفوا وعطلوا، كانوا قد شبهوا، وقاسوا أسماء الله وصفاته على صفات خلقه؛ فأحدث ذلك عندهم لازما فاسدا، أنهم إن أثبتوا لله جل وعلا تلك الصفات؛ لزم من ذلك عندهم أن تكون تلك الصفات مشابهة للمخلوق، فتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. فشبهوا أولا ثم عادوا فنفوا وعطلوا، نسأل الله العافية والسلامة.

ومما ساعد في توسعهم في هذا الإلحاد في أسماء الله وصفاته، أنهم ابتدعوا ألفاظا، موهمة تحتمل الحق والباطل في طياتها، وتركوا طريقة النبي r وأصحابه y، حيث كانوا لا يتكلمون إلا بالواضحات البينات، على ما جاء في كلام الشارع، فإنها كلمات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تثبت الحق وتنفي الباطل، بل وجاءت النصوص تنهى عن استعمال الموهم من الكلام، وذلك لأن الكلام المُوهم المحتمل، إن نفيته بكليته ربما نفيت شيئا من المعاني الحَقَّة التي يتضمنها الكلام، والعكس كذلك إن أثبتها أثبت المعاني الباطلة التي تضمنتها هذه الألفاظ.

ثم إن هؤلاء الذين ألحدوا في أسماء الله تعالى وصفاته يستنكرون بعض أسماء الله تعالى وصفاته، تحكما بعقولهم الفاسدة وفهومهم السقيمة، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، عياذا بالله من الخذلان، كصفة الوجه والكلام واليد، والقَدَم والصُّورة والضحك، والغضب والسخط والمَقْت، وَوَضْعُ الجَبَّارِ جل جلاله رِجْلَهُ سبحانه وتعالى في النار، وكَشْفُ سَاقِهِ سبحانه وتعالى يوم القيامة، وغير ذلك من الصفات التي جاءت الأدلة الصحيحة الصريحة بها، ونقول لهؤلاء هل تكلم رسول الله r ، وأصحابه y ، بما تقولونه في أسماء الله تعالى وصفاته، أم أمسكوا عن ذلك؟!.

وهل يلزم من إثبات ما وصف الله تبارك وتعالى به نفسه وتسمى به أن ينتفي عنه غِنَاه سبحانه، وكماله جل جلاله؟!.

وهل أنتم أغير على حق الله تعالى مِن الله ورسوله r والصحابة y ؟!.

وهل كل ما لا تدركه عقولكم؛ يجب نفيه عن الله تعالى، وإن أثبته الله تعالى لنفسه؟!.

إذن انظروا ما هي مَرَاجِعُكُم، وأيُّ رسول تُصدقون وتَتَّبِعُون وأيُّ إله تعبدون؟!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى:[فالسلف والأئمة لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة كلفظ الجوهر و العرض والجسم وغير ذلك بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه لاشتمال هذه الألفاظ على معاني مجملة في النفي والإثبات كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع فقال:[هم مخالفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة أهل الكتاب يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويلبسون على جهال الناس بما يتكلمون به من المتشابه]، فإذا عرفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات ووزنت بالكتاب والسنة بحيث يثبت الحق الذي أثبته الكتاب والسنة وينفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة كان ذلك هو الحق بخلاف ما سلكه أهل الأهواء من التكلم بهذه الألفاظ نفيا وإثباتا في الوسائل والمسائل من غير بيان التفصيل والتقسيم الذي هو الصراط المستقيم وهذا من مثارات الشبهة فإنه لا يوجد في كلام النبي r ولا أحد من الصحابة والتابعين ولا أحد من الأئمة المتبوعين أنه علق بمسمى لفظ الجوهر والجسم والتحيز والعرض ونحو ذلك شيئا من أصول الدين لا الدلائل والمسائل، والمتكلمون بهذه العبارات يختلف مرادهم لها تارة لاختلاف الوضع وتارة لاختلافهم في المعنى الذي هو مدلول اللفظ]ا.هـ.

وقال ابن القيم في زاد المعاد:[ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزا بعيدة وأشار إليه إشارات ملغزة لم يصرح به وصرح دائما بالتشبيه والتمثيل والباطل وأراد من خلقه أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه وتأويله على غير تأويله ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان فقد ظن به ظن السوء فإنه إن قال إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه فقد ظن بقدرته العجز وإن قال إنه قادر ولم يبين وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحة دون الله ورسوله وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم . وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال وظاهر كلام المتهوكين ظن السوء ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية. ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ثم صار قادرا عليه بعد أن لم يكن قادرا فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم الموجودات ولا عدد السماوات والأرض ولا النجوم ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم ولا يعلم شيئا من الموجودات في الأعيان فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه لا سمع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

له ولا بصر ولا علم له ولا إرادة ولا كلام يقول به وأنه لم يكلم أحدا من الخلق ولا يتكلم أبدا ولا قال ولا يقول ولا له أمر ولا نهي يقوم به فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه فوق سماواته على عرشه بائنا من خلقه وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها وأنه أسفل كما أنه أعلى فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه . ومن ظن به أنه ليس يحب الكفر والفسوق والعصيان ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى ولا يغضب ولا يسخط ولا يوالي أحد من خلقه ولا يقرب منه أحد وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه يسوي بين المتضادين أو يفرق بين المتساويين من كل وجه أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الآبدين بتلك الكبيرة ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده في العذاب كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه فقد ظن به ظن السوء . وبالجملة فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ووصفته به رسله فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أن له ولدا أو شريكا أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ويتوسلون بهم إليه ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه فيدعونهم ويحبونهم كحبه ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه . ومن ظن به أنه ينال ما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عنده بمعصيته ومخالفته كما يناله بطاعته والتقرب إليه فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته وهو من ظن السوء]ا.هـ.

الصفات الذاتية والاختيارية:

وصفات الله جل وعلا منها الذاتية، ومنها الفعلية الاختيارية، التي مُتَعَلَّقُها المشيئة، فمن الصفات الذاتية مثلا، صفة الوجه، واليدين، والقدمين، والعينين، والساق، والعلم، والسمع، والبصر، وغير ذلك، مما ثبت لله تبارك وتعالى من صفاته الذاتية في الكتاب أو السنة الصحيحة. وهو سبحانه لم يزل كذلك جل وعلا، وكل هذه الصفات صريحة جاءت في الكتاب العزيز والسنة المطهرة الصحيحة.

ومن الصفات الفعلية الاختيارية المتعلقة بالمشيئة، صفة الاستواء، والحب، والبغض، والنزول، والأخذ، والمجيء، والإتيان، والضحك، ومكره بمن يستحق المكر، وكيده بمن يستحق الكيد، وغير ذلك من الصفات الفعلية الاختيارية وقد ألف أهل السنة والجماعة كتبا تشرح ذلك وتبينه، أشفى وأكمل وأوضح بيان، معتمدين في ذلك على الوحيين الكتاب والسنة الصحيحة على فهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فَكُتِبَت في ذلك المطولات والمختصرات، ووردت في ذلك جملة كبيرة من الآثار، وألفت في ذلك الأشعار والمنظومات؛ فجزاهم الله عنا خير الجزاء، فقد تَصَدَوا لشبه أهل البدع والضلال، وفَنَّدُوها، ورموهم بقوس قوية، وسهم صائب، عن قدم ثابتة راسخة، لا تزعزعها رياح الباطل، مهما هبت وعَلَتْ، ولا تَثْنِيها أعاصير البدع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأمواجها وشبهها المتلاطمة من هنا وهناك، فلله دَرُّهُم، ونشهد الله تعالى على حبهم، وحب من يحبهم، وعلى بغض أعدائهم، وبغض من يبغضهم.

كيف لا وهم القوم قالوا فصدقوا، وعملوا فسبقوا، فنسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ومن أنفع الكتب المختصرة في ذلك متن العقيدة الواسطية، ومتن الفتوى الحموية، والتدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مع مطالعة شروحها، فهي على اختصارها إلا أنها نافعة وجامعة، وهي من أحسن ما ألف في هذا الباب المهم العظيم.

ومن أراد المزيد فعليه بالكتب المطولة ككتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، والإبانة لابن بطة، والشريعة للآجري، والتوحيد لابن خزيمة، والتوحيد لابن مندة، وكتاب الصفات للدارقطني، والعلو للذهبي، وكتاب البيهقي في الأسماء والصفات،ولكل من شيخ الإسلام وتلميذه العلامة ابن القيم كتبا قيمة في ذلك، ككتاب درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية وكتاب النونية وكتاب الصواعق المرسلة لتلميذه العلامة ابن القيم، وغيرها من كتبهم النافعة المحققة فعلى الجميع رحمة الله تعالى، وجزاهم الله خيرا عن الإسلام والمسلمين.

ولابد في هذا الشأن العظيم الذي يتعلق بأسماء وصفات العلي العظيم الكبير الجليل جل جلاله وتقدست أسماؤه، أن نعلم أن من أهم الواجبات وآكد المهمات أن نتعرف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على أسماء الله جل وعلا وصفاته؛ لكي نعامله بها، ومن لم يفعل ذلك وقع في التخبط والآثام، وقطعا لن يكون ممن قدر الله حق قدره؛ ولهذا ما من خلل يقع في حياة العباد إلى وهو من جراء جهلهم بالله جل وعلا، وبأسمائه وصفاته؛ ولهذا قال تعالى:{وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر:٦٧]، وقال تعالى:{مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا} [نوح:١٣].

ولهذا حث النبي r أمته على أن يتعلموا أسماء الله وصفاته، وأن يضبطوها حفظا ومعنى، وقولا وعملا، كما في الصحيحين من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رواية، قال::"لله تسعة وتسعون اسماً، مائة إلا واحداً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر".وفي رواية أخرى:"من أحصاها دخل الجنة".وقد جاء ذكر جملة كبيرة من أسماء الله وصفاته فيما رواه الترمذي من طريق صَفْوَانُ بنُ صَالِح أخبرنا الوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ، أخبرنا شُعَيْبُ بنُ أبي حَمْزَةَ عَن أبي الزّنَادِ عَن الأَعْرَجِ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"إنّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً غيرَ وَاحِدَةٍ مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الجَنّةَ. هُوَ الله الّذِي لا إلَهَ إلاّ هُوَ الرّحمنُ الرّحيمُ المَلِك القُدّوسُ السّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيمِنُ العَزِيزُ الجَبّارُ المُتَكَبّر الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوّرُ الغَفّارُ القَهّارُ الوَهّابُ الرّزّاقُ الفتّاحُ العَلِيمُ القَابِضُ البَاسِطُ الخافضُ الرّافِعُ المعزّ المذِل السّمِيعُ البَصِيرُ الحَكَمُ العَدْلُ اللّطِيفُ الخَبِيرُ الحَلِيمُ العَظِيمُ الغَفُورُ الشّكُورُ العَلِيّ الكَبِيرُ الحَفِيظُ المُقِيتُ الحَسِيبُ الجَلِيلُ الكَرِيمُ الرّقِيبُ المُجِيبُ الْوَاسِعُ الحَكِيمُ الوَدُودُ المَجِيدُ البَاعِثُ الشّهِيدُ الحَق الوَكِيلُ القَوِيّ المَتِينُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوَلِيّ الحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِيءُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الحَيّ القَيّومُ الوَاجِدُ المَاجِدُ الوَاحِدُ الصّمَدُ القَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدّمُ الْمُؤَخّرُ الأوّلُ الآخِرُ الظّاهِرُ البَاطِنُ الوَالِي الْمُتَعَالِي البَرّ التّوّابُ المنتقم العَفُوّ الرّؤُوف مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الجَلاَلِ وَالإكْرَامِ الْمُقْسِطُ الجَامِعُ الغَنِيّ الْمُغْنِي المَانِعُ الضّارّ النّافِعُ النّورُ الهَادِي البَدِيعُ البَاقِي الوَارِثُ الرّشِيدُ الصّبُور".

قال أبو عيسى: هَذا حديثٌ غَرِيبٌ حَدّثَنا بِهِ غَيْرُ واحِدٍ عَنْ صَفْوَانَ بنِ صَالِحٍ وَلاَ نَعْرِفُهُ إلاّ مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بنِ صَالِحٍ وهُوَ ثِقَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الحدِيثِ. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ عَن النبيّ r وَلا نَعْلَمُ في كَبِيرِ شَيْءٍ مِنَ الرّوَايَاتِ له إسناد صحيح ذكر إلا ذِكْرَ الأسْمَاءِ إلاّ في هَذَا الحَدِيثِ، وَقَدْ رَوَى آدَمُ بنُ أبي إيَاسٍ هَذَا الحدِيثَ بإِسْنَادٍ غَيْرِ هَذَا عَن أبي هُرَيْرَةَ عَن النبيّ r وذَكَرَ فِيهِ الأسْمَاءَ وَلَيْسَ لَهُ إسْنَادٌ صحيحٌ.ا.هـ.

وعليه فلا يصح هذا الحديث بوجه من الوجوه، وبالتالي فلا يمكن إثبات اسم المنتقم، ولا اسم الرشيد، لله جل وعلا، ولا غيرهما من الأسماء التي وردت في هذا الخبر؛ لضعفه، ولكن نأخذها مما ثبت، مما جاء في القرآن، أو السنة الصحيحة الصريحة عن النبي r .

مسألة: هل أسماء الله تعالى لها عدد معين ثابت في الكتاب أو السنة؟، وهل أسماء الله تعالى هي فقط التي ثبتت في الكتاب والسنة؟.

الجواب:لا يمكن القول بأن الأسماء الثابتة لله تعالى في الكتاب والسنة، هي كل أسماء الله تعالى فقط، بل قد دلت الأحاديث والأخبار، على أن أسماء الله تعالى لا يعلم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عددها إلا الله تبارك وتعالى كما جاء في مسند الإمام أحمد من طريق أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال: قال رسول الله r :"ما قال عبد قط إذا أصابه هم وحزن اللهم إني عبدك وابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحا قالا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات قال: أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن".قال الحافظ في الفتح أخرجه أحمد وصححه ابن حبان. قلت: وضعفه بعض أهل الحديث.

ولكن هناك ما جاء في الصحيحين من طُرُق عن قتادة عن أنس t واللفظ للبخاري في ذكر حديث الشفاعة الطويل.

وفيه قول النبي r : فيأتونني فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقل يُسمع، وسل تُعطه، واشفع تُشفَّع، فأحمد ربي بمحامد علَّمنيها، ثم أشفع، فيحدُّ لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يُسمع، وسل تُعطه، واشفع تُشفَّع، **فأحمد ربي بمحامد علَّمنيها ربي**، ثم أشفع فيحدُّ لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجع، فإذا رأيت ربي وقعت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يُسمع، وسل تُعطه، واشفع تُشفَّع، فأحمد ربي بمحامد علَّمنيها،.... الحديث،

وفي لفظ في صحيح مسلم:"فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ الآنَ يُلْهِمُنِيهِ اللَّهُ"، وفي رواية فيه أيضا:"فَآتِى تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي".

فعُلِم من هذا الحديث أن لله تعالى أسماءً استأثر الله تعالى بعلمها، ومنها أسماء سيخص الله تعالى بها نبيه r ، يوم القيامة.

علم الأسماء والصفات محكم غير متشابه:

واعلم رحمك الله تعالى، أن النبي r كان يخاطب الأمة جمعاء بأسماء الله وصفاته، ويَذْكُرها لهم، ويسألهم عنها، من الذكور والإناث، والصغار والكبار، حتى الجواري، فصارت الأسماء والصفات من الواضحات البينات، ثم جاء بعض الخلف فَنَهَوا عن ذلك، وقالوا لا تحدثوا الناس بها؛ لأنهم لن يفهموها، ويحتجون بالأثر الوارد، حدثوا الناس بما يعرفون، إلى غير ذلك، فأضلوا الأمة، حيث ابتَعَدَت عن هدي النبي r وأصحابه y ، وصارت لا تعلم كثيرا عن أسماء الله وصفاته، وفي المقابل تغلغلت الأشعرية، بل والجهمية في الأمة، فوقع بذلك فساد عريض، فنسأل الله العافية والسلامة، وإليك الأدلة الدالة على أن هذا الباب هو من آكد ما يُخَاطَبُ الناس به، وأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العمل كان على ذلك في حياة النبي r وأصحابه y، وثم دَرَبَتْ على ذلك الأمة في قرونها المفضلة:

أولا: جميع آيات الصفات دالة على ذلك، فقد أنزلها الله تعالى على نبيه، وأمره أن يقرأها على الناس، وكان الصحابة يتلون القرآن كل بحسب ما حفظ منه.

ثانيا: أما من السنة فهنا أحاديث، فمنها:

ففي صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ r بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ r فَقَالَ:"سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ" فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا فَقَالَ النَّبِيُّ r :"أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"احْشِدُوا فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ". فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ الله r فَقَرَأَ:"{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}"، ثُمَّ دَخَلَ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ. ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ الله r فَقَالَ:"إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ أَلاَ إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ".

وعن أبي سعيد الخدري t أن رسول الله r قال في قل هو الله أحد:"والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن" وفي رواية : أن رسول الله r قال لأصحابه:"أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن في ليلة" فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله، فقال:"قل هو الله أحد الله الصمد ثلث القرآن" رواه البخاري.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ في الحديث الطويل وفيه:" قَالَ وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله r فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَفَلاَ أُعْتِقُهَا قَالَ:"ائْتِنِي بِهَا". فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا:"أَيْنَ اللهُ". قَالَتْ فِي السَّمَاءِ.قَالَ:"مَنْ أَنَا". قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله. قَالَ:"أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ".

وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية حظا من ذلك في العقيدة الواسطية حيث قال:[(فَصْلٌ): فِي سُنَّةِ رَسُولِ الله r فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبِّرُ عَنْهُ؛ وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ r بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ. مِثْلُ قَوْلِهِ r :"يَنْزِلُ رَبُّنَا إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ r :"للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ....الْحَدِيثُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ r :"يَضْحَكُ اللهُ إلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ".مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. .....إلى أن قال: وَقَوْلُهُ"لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ:عَلَيْهَا قَدَمَهُ - فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ:قَطُّ قَطُّ"مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ r :"يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:يَا آدَمَ فَيَقُولُ:لَبَّيْكَ وسعديك. فَيُنَادِي بِصَوْتِ:إنَّ اللهَ يَأْمُرُك أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِك بَعْثًا إلَى النَّارِ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ:"مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ"،.....إلى أن قال: وَقَوْلُهُ:"إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّ اللهَّ قِبَلَ وَجْهِهِ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ:"اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ؛ أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَك شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَك شَيْءٌ؛ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَك شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَك شَيْءٌ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ"رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَقَوْلُهُ لَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ:"أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ r :"إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تضامون فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا:فَافْعَلُوا". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ الله r عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ. فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ - أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُّ بِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ؛ بَلْ هُمْ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ. فَهُمْ وَسَطٌ فِي (بَابِ صِفَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الجهمية؛ وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ). وَهُمْ وَسَطٌ فِي (بَابِ أَفْعَالِ الله تَعَالَى بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ)، وَفِي بَابِ (وَعِيدِ الله بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ والوعيدية:مِنْ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ)، وَفِي (بَابِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الحرورية وَالْمُعْتَزِلَةِ وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ والجهمية)، وَفِي(أَصْحَابِ رَسُولِ الله r بَيْنَ الرَّوَافِضِ وَالْخَوَارِجِ)]ا.هـ.

فَلْنَسْعَ جَادِّينَ جَاهِدِين في رَدِّ الأمة إلى ما كان عليه النبي r وأصحابه y في هذا الباب، وفي غيره من أبواب الدين، حتى يعود غَضّاً نَدِيّاً كما أُنْزِل، وإن وعد الله حق.

تقسيم آخر لأنواع التوحيد:

ثم إن بعض أهل العلم قسم التوحيد إلى قسمين فقط، وهما:

١ - توحيد القصد والطلب. ٢ - توحيد المعرفة والإثبات.

وقد قال بهذا شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم، وليس هناك فرق كبير بين هذا التقسيم والذي تقدم، فالأمر في ذلك واسع وقريب، فهذه التقسيمات والتسميات كما تقدم، ليست وحيا يجب المصير إليه، ولا يجوز المحيد عنه، وإنما وضعها أهل العلم عن طريق استقرائهم للكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح؛ لتقريب المعلومات إلى الأفهام، وترتيب الأفكار في الأذهان، لا سيما بعد أن هجم أهل البدع على العلوم الشرعية؛ فأقحموا فيها ما ليس منها، ظلما وعدوانا، ولا مشاحة في الاصطلاح، فالمهم أن يعرف العباد ربهم ويعبدوه حق عبادته، كما يحب ربنا ويرضى،فهذه التقسيمات هي من باب الوسائل التي يتوصل بها إلى أعظم غاية وأهم مطلوب، ألا وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولمزيد من الإيضاح فإن توحيد المعرفة والإثبات يدخل فيه توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وأما توحيد القصد والطلب فهو توحيد الألوهية.

ونعود إلى الملبسين على الأمة، المنازعين في حق الله تعالى، في الحكم والتشريع، والمعذرين عن طواغيت الحكم الجاهلي؛ لنقول لهم: هل كان ابن تيمية الحراني، وابن القيم رحمهما الله مبتدعة، إذ قَسَّما التوحيد إلى قسمين، في حين أن المشهور عندكم، أنه ثلاثة أقسام؟!!.

هذه التقسيمات لنا فيها سلف:

وهذه بعض النقولات الدالة على استعمال السلف والخلف لهذا التقسيم، حتى لا يتوهم البعض أن هذا مما تكلم به بعض الخلف من عندهم، وأنهم لا سلف لهم فيه:قال ابن جرير الطبري في تفسيره:[وتأويل الكلام: يا معشرَ أهل الكتاب {أفغيرَ دين الله تبغون}، يقول:أفغير طاعة الله تلتمسون وتريدون،{وله أسلم من في السماوات والأرض}، يقول:وله خَشع من في السموات والأرض، فخضع له بالعبودة، وأقرّ له بإفراد الربوبية، وانقاد له بإخلاص التوحيد والألوهية {طوْعًا وكرهًا}، يقول أسلم لله طائعًا من كان إسلامه منهم له طائعًا، وذلك كالملائكة والأنبياء والمرسلين،فإنهم أسلموا لله طائعين {وكرهًا}، من كان منهم كارهًا]ا.هـ.

وقال أيضا:[القول في تأويل قوله جل ذكره:{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ}. قال أبو جعفر:يعني بذلك جل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثناؤه: وذِلُّوا لله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له الخضوع والذلة، بالانتهاء إلى أمره، والانزجار عن نهيه، ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكًا تعظمونه تعظيمكم إياه]ا.هـ.

وقال أيضاَ:[القول في تأويل قوله تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإن الله يوحي إليّ أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، معبود واحد لا ثاني له، ولا شريك{فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ} يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته {فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا}يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير:[{أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزآئن ربك أم هم المسيطرون أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين أم له البنات ولكم البنون أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون أم عندهم الغيب فهم يكتبون أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون}.

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى:{أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} أي أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم، أي لا هذا ولا هذا بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية في العقيدة السلفية:[فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ الْأَمْرِ وَآخِرُهُ ، أَعْنِي تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ.فإن التَّوْحِيدَ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ:أَحَدُهَا: الْكَلَامُ فِي الصِّفَاتِ. وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَبَيَانُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ. وَالثَّالِثُ:تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ اسْتِحْقَاقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ]ا.هـ.

وقال الإمام المفسر الشنقيطي في سِفْرِه البَدِيع أضواء البيان:[وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:الأول ـ توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ...} [٤٣/٨٧]، وقال:{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ} [١٠/٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله:{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}[٢٦/٢٣]، تجاهل من عارف أنه عبد مربوب. بدليل قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ} [١٧/١٠٢]، وقوله:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} [٢٧/١٤]، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله. كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ}، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً.

الثاني توحيده جلَّ وعلا في عبادته. وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلاَّ الله» وهي متركبة من نفي وإثبات. فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [٣٨/٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...} [٤٧/١٩]، وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [١٦/٣٦]، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [٢١/٢٥]، وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [٤٣/٤٥]، وقوله: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [٢١/١٠٨]، فقد أمَر في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنما أوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد. لشمول كلمة «لا إله إلاَّ الله» لجميع ما جاء في الكُتب. لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده. فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتْبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث:توحيده جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته. وهذا النوع من التوحيدِ ينبني على أصلين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأول: تنزيه الله جلَّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [٤٢/١١].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسول الله r ، على الوجه اللائق بكماله وجلاله سبحانه،كما قال جل وعلا: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [٤٢/١١]، مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً} [٢٠/١١٠]، وقد قدمنا هذا المبحث مستوفًى موضحاً بالآيات القرآنية «في سورة الأعراف»].ا.هـ.

قوله:(ومعرفة نبيه): سيأتي تفصيل ذلك فيما يأتي من الشرح بإذن الله تعالى .

وإنما قدم المؤلف رحمه الله تعالى ذكر ذلك هنا ومباشرة بعد معرفة الله تعالى؛ لأنه لا يمكن بحال معرفة الله تعالى، وأسمائه وصفاته، وحقه الواجب على العباد، إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين؛ ولهذا كان لزاما على كل أمة أن تعرف نبيها، وتصدقه وتتبعه، كما قال تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ}[المؤمنون:٦٨-٦٩].

وقد رحم الله تبارك وتعالى هذه الأمة، إذ بعث فيها خير رسله، وأفضل خلقه على الإطلاق نبينا محمد r ، وجعل شريعته ناسخة لسائر الشرائع، والكتاب الذي أنزله عليه مهيمنا على سائر الكتب، وناسخا لها، وأَعْلَمَ أن اتباعه واجب على العباد كلهم، جِنِّهم وإنْسِهم، فما من أحد لا يهودي ولا نصراني، ولا صاحب أي ملة من الملل،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يسمع به ثم لا يتبعه؛ إلا كان من أهل النار.وسيأتي بحول الله تعالى مزيد بيان وإيضاح لهذه المسألة العظيمة بأدلتها من الكتاب والسنة.

قوله:(ومعرفة دين الإسلام بالأدلة): ثَلَّثَ المؤلف رحمه الله تعالى بذكر دين الإسلام، لأنه هو الدين الذي لا يقبل الله تعالى من العباد سواه، كما قال تعالى:{قُلْ آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران:٨٤-٨٥]، وقوله تعالى:{شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ الله فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران:١٨-١٩].

وهو الدين الذي امتن الله تعالى به على عباده، وتفضل به عليهم، كما قال تعالى:{لْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣] ، وقوله:{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات:١٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عظمة هذا الدين وفخامته: ونصوص الكتاب والسنة متكاثرة في بيان عظمة هذه الدين وفخامته، وذلك لأمور:

أولا: لأنه محل لذلك، فهو كلام الله تبارك وتعالى، وشرعه الذي أنزله بعلمه، وهو أحكم الحاكمين، وهو العليم الخبير، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} [النساء:١٦٥-١٦٦].

ثانيا: ليعلم العباد عظمته فلا يزهدوا فيه، بل يعتزون به ويفخرون ويفرحون، وينافحون عنه ويذبون، فعزهم مرهون به، وكرامتهم لا تكون بدونه، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} [الرعد:٣٦]، وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام:١٦١-١٦٥].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثا: لتحصل الرغبة العارمة الشديدة في تعلمه وتعليمه، والعمل بـه وبثـه ونشره، ودعوة الناس إليه.

رابعا: لأنه يوقفنا على حقائق الأمور، بعيدا عن الأهـواء المضـلة، والآراء المنحرفـة، فإذا بنا نعيش في النور، نور الهدى بعيـدا عـن غياهـب الظلـمات، فتنشـرح الصـدور وتتضح الأمور، فتقل الشحناء وتذهب البغضاء، وتأتلف القلوب، فَنَصْدُرَ بِعَطَن، على قلب رجـل واحـد، واعتـبر بحـال الصـحابة y قبـل وبعـد البعثـة، وتأمـل في قولـه تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَـيْنَ قُلُـوبِهِمْ وَلَكِـنَّ اللهَ أَلَّـفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:٦٢-٦٣].

خامسا: ليعلم العباد كلهم أنهم مهما تنكروا لهذا الدين رضا بغيره، فـإنما يسـتبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وأنهم ساعون في هلكتهم، وإن زين لهم الشيطان سـوء فعالهم، فإن علمنا ذلك جدنا بالغالي والنفيس في سبيل نصـر هذا الدين، ورفع لوائـه؛ لأنه حق ربنا، ولأننا إذ نفعل إنما نحافظ على كرامتنا وندافع عن عزتنا ومكانتنا.

وهذا هو الأمر الذي فقهه الصحابة y حق الفقه؛ فقـاموا لله تعـالى قومـة رجل صادق، يريد الله والدار الآخرة، فـما كـان شيء عنـدهم، أعـز وأعظـم وأنفس من دين الله تبارك وتعالى، فقاموا بواجب الشـكر باللسـان والأعـمال أكمل القيام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّيْر إلى الله على بصيرة:

وإنما خص المؤلف رحمه الله تعالى معرفة هذا الدين العظيم بالأدلة؛ لأن الله تعالى لا يقبل من عباده أن يعبدوه إلا ببرهان واضح بَيِّن، أما الظن والخرص والتخبط واتباع الهوى والرضوخ لضغط الواقع، أو اتباع الأكثر من العباد، لا لشيء إلا لكثرتهم؛ فمرفوض جملة وتفصيلا، وجاءت النصوص واضحة المعالم في ذلك محذرة ومنفرة.

قال تعالى: {أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [الأنعام:١١٤-١١٧]، وقال سبحانه: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١٤٨-١٥٠]، وقال: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس:٣٥-٣٦]، وقال:{أَلَا إِنَّ لله مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس:٦٦]، وقال:{ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُّ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم:٢٣]، وقال:{وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} [النجم:٢٨-٣٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في :(الرد على البكري):[والعلم شيئان إما نقل مصدق وإما بحث محقق وما سوى ذلك فهذيان مسروق].ا.هـ.

وقال في :(مجموع الفتاوى):[وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ الْعِلْمَ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ نَقْلٍ مُصَدَّقٍ وَنَظَرٍ مُحَقَّقٍ . وَأَمَّا النُّقُولُ الضَّعِيفَةُ لَا سِيَّمَا الْمَكْذُوبَةُ فَلَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا . وَكَذَلِكَ النَّظَرِيَّاتُ الْفَاسِدَةُ وَالْعَقْلِيَّاتُ الجهلية الْبَاطِلَةُ لَا يُحْتَجُّ بِهَا].ا.هـ.

حياة الصحابة وفهمهم هو سبيل المؤمنين:

ولنعلم أن الله تبارك وتعالى أخرج جيل الصحابة حجة على من بعدهم، فطبقوا دين الله تبارك وتعالى، والنبي r بين ظهرانيهم، يعلم جاهلهم، ويصوب خطأهم، ويذكر ناسيهم، وينبه غافلهم، وما قبض الله تبارك وتعالى نبيه r إلى الرفيق الأعلى، حتى أقام به الملة العوجاء، وترك الناس على المحجة البيضاء، ليلها ونهارها سواء، لا يزيغ عنها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلا هالك مفتون،وأنزل الصحابة y دين الله تبارك وتعالى في دنيا الواقع، على مسمع ومرآى من النبي r ، والله تبارك وتعالى وحْيُهُ يَتَنَزَّلُ بين ظَهْرَانَيْهِم، حتى استقاموا على الطريقة، فرضيهم الله تبارك وتعالى قدوة لهذه الأمة، حيث أعلمنا تبارك وتعالى أنه رضي عنهم ورضوا عنه، فجاءت التزكيات المتكاثرة المتوالية في الكتاب والسنة على ذلك الجيل الفذ الفريد، ثم أمرنا باتباعهم بإحسان، ومعنى الاتباع بإحسان حقيقة هو الاعتداد بفهومهم وعلومهم، والسير على طريقتهم وفي ركابهم، لا نقدم عليهم أحدا في فهم هذا الدين وتحديد معالمه، مهما كانت الظروف والأحوال.

فإنما أمرنا إن أردنا النصر والتمكين، ورغد العيش، والأمن في الدنيا والآخرة، أن نُنَزِّلَ الإسلام في واقعنا كما فعل الصحابة y ، وألا نضرب لله ورسوله الأمثال، اعتذرا عن الانقياد والامتثال.

القوة الكامنة العارمة:

ولنعلم أن لهذا الدين قوة ومنعة وسريانا، وجَرْفاً لِزَخَمِ الباطل، مهما كَثُرَ وتَكَاثَر أهله، ولكن متى ما أنزلناه على وجهه، وطبقناه بحذافيره، بعيدا عن آراء فلان وفلان، وبعيدا عن الاستجابة لضغط الواقع، وتصورات علية القوم، الذين همتهم مصروفة إلى المحافظة على زخرف الدنيا، ولو بذهاب الدين، كما قال تعالى: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [القصص:٥٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالأمة لن تزال بمأمن وأمان من الانحراف والضلال، والهزيمة والنكال، والعذاب والشنار، مهما أخذوا دينهم من الكتاب والسنة على فهم الصحابة الكرام y ومن تبعهم بإحسان.

فلا يذهبن أحد بنفسه بعيدا، حتى تحدثه أنهم رجال ونحن رجال، بغية أن يأتي بفهم جديد، أو شيء جديد في هذا الدين، فلابد أن نعلم أنه لا جديد في الإسلام.

وهذا هو الذي عمل به الصحابة الكرام y، إذ كانوا يحسنون الظن بالله ورسوله r، فلا يقدمون بين يدي الله ورسوله، لا رأيا ولا ضغط واقع، ولا فعل أكثر الناس، ولا هوى، ولا شيئا من ذلك، بل ما هو إلا النظر فيما أراده الله منهم في هذا المقام؛ فيبادرون إلى التطبيق والإذعان والامتثال، فرضي الله عنهم أجمعين.

فسادوا في الدنيا والآخرة، وعاشوا أئمة أعزة، وماتوا بخير حمد وثناء، وما زالوا نبراسا للهدى، ومنارات له، وعلامات يُهتدى بها، فكانوا هم القدوة أحياء وأمواتا y أجمعين، وما أجمل ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في العقيدة الواسطية عنهم y، حيث قال:[وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمْ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأدلة على وجوب الأخذ بفهم الصحابة وطريقتهم:

وإليك طرفا من هذه الأدلة الدالة على هذا الأصل العظيم، الذي عندما تضيعه الأمة تعيش في تخبط وضلال، وتذوق ألوان الذل وتتجرعه، ويتسلط عليها أعداؤها، إذ هانت على الله جل وعلا، وما نحن فيه هذه الأيام، ضرب مثال واقعي عملي لهذا الذل والهوان، الذي لحق الأمة لَـمَّا تركت سبيل الصحابة الكرام y، واعتدت بفهومها وعلومها، ومصالحها مفاسدها التي اختلقتها من عند أنفسها؛ لتبرر وترقق وترقع وتمرر هذا الواقع المُر الخبيث، راضية بذلك عوضا عن طريقة الصحابة وتعاملهم مع مجريات الأحداث، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. هكذا تَذُوقُ الأمة وبال أمرها، {وما ربك بظلام للعبيد}.

قال تعالى مبينا أنه ارتضى لهذه الأمة، في أخطر القضايا وأعظمها - ألا وهي قضية الإيمان بالله – ارتضى لنا إيمان الصحابة y، فقال تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}[البقرة:١٣٧-١٣٩].

وقال آمرا باتباعهم بإحسان، وناهيا ومحذرا الذين يزعمون اتباعا، ولكنه اتباع بإساءة: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:١٠٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال في شأن من أراد مشاقة سبيل الصحابة، والذي يتمثل في فهمهم لهذا الدين وعلمهم به:{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء:١١٥]، إذ هم المؤمنون أصالة.

وقال في تزكيتهم وإحالة الفتوى عليهم، فقد ارتضاهم الله لهذا المقام العظيم، إذ هم رؤوس العلماء وأعلم الناس بعد الأنبياء والمرسلين، فقال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٣، ٤٤].

وهذا من أعظم مظاهر العز للعبد المسلم، المعتز بدينه المطبق لتعاليمه، وسيأتي بحول الله تعالى مزيد بيان وإيضاح لهذه المسألة العظيمة بأدلتها من الكتاب والسنة.

أفلا نرتضي لأنفسنا ما رضيه الله تعالى لنا، ومن رضيهم الله تعالى قدوة لنا؟!!.

فقبح الله الرافضة، ما أضلهم، وما أعظم افترائهم، وضحالة عقولهم.

عدالة الصحابة y:

فقد أجمعت الأمة على عدالة الصحابة **y**، حتى قال الإمام الحافظ أبي زُرْعة الرازي رحمه الله تعالى:[إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله **r**، فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول **r** عندنا حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن، والسنن، أصحاب رسول الله **r**، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة]ا.هـ.رواه الخطيب في الكفاية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد روى أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني في كتابه الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة واللالكائي أيضا: عن مالك ابن أنس قال:[كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر، وعمر، كما يعلمون السورة من القرآن]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام في أحكام المرتد:[وبهذا وأمثاله، يتبين أن الرافضة أمة ليس لها عقل صريح، ولا نقل صحيح، ولا دين مقبول، ولا دنيا منصورة، بل هم من أعظم الطوائف كذبًا وجهلًا، ودِينُهم يُدْخِلُ على المسلمين كل زنديق ومرتد، كما دخل فيهم النصيرية، والإسماعيلية وغيرهم، فإنهم يعمدون إلى خيار الأمة يعادونهم، وإلى أعداء اللهّ من اليهود والنصارى والمشركين يوالونهم، ويعمدون إلى الصدق الظاهر المتواتر يدفعونه، وإلى الكذب المختلق الذي يعلم فساده يقيمونه، فهم كما قال فيهم الشعبي - وكان من أعلم الناس بهم:لو كانوا من البهائم لكانوا حُمُرًا، ولو كانوا من الطير لكانوا رَخَمًا. ولهذا كانوا أبْهَت الناس وأشدهم فِريَة، مثل ما يذكرون عن معاوية، فإن معاوية ثبت بالتواتر أنه أمَّره النبي r كما أمَّر غيره، وجاهد معه، وكان أمينًا عنده يكتب له الوحي، وما اتهمه النبي r في كتابة الوحي. وولاه عمر بن الخطاب: الذي كان من أخبر الناس بالرجال، وقد ضرب اللهّ الحق على لسانه وقلبه، ولم يتهمه في ولايته.

وقد ولى رسول اللهّ r أباه أبا سفيان إلى أن مات النبي r وهو على ولايته. فمعاوية خير من أبيه وأحسن إسلامًا من أبيه باتفاق المسلمين، وإذا كان النبي r ولى أباه فلأن تجوز ولايته بطريق الأولى والأحرى، ولم يكن من أهل الردة قط، ولا نسبه أحد من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهل العلم إلى الردة، فالذين ينسبون هؤلاء إلى الردة هم الذين ينسبون أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعامة أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، وغيرهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى ما لا يليق بهم. والذين نسبوا هؤلاء إلى الردة يقول بعضهم:إنه مات ووجهه إلى الشرق والصليب على وجهه، وهذا مما يعلم كل عاقل أنه من أعظم الكذب والفرية عليه. ولو قال قائل هذا فيمن هو دون معاوية من ملوك بني أمية وبني العباس؛ كعبد الملك بن مروان وأولاده، وأبى جعفر المنصور وولديه ـ الملقبين بالمهدي، والهادي والرشيد، وأمثالهم من الذين تولوا الخلافة وأمر المؤمنين، فمن نسب واحدًا من هؤلاء إلى الردة، وإلى أنه مات على دين النصارى، لَعَلِم كل عاقل أنه من أعظم الناس فرية، فكيف يقال مثل هذا في معاوية وأمثاله من الصحابة. بل يزيد ابنه، مع ما أحدث من الأحداث، من قال فيه:إنه كافر مرتد، فقد افترى عليه، بل كان ملكًا من ملوك المسلمين كسائر ملوك المسلمين، وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات، وحسناتهم عظيمة، وسيئاتهم عظيمة، فالطاعن في واحد منهم دون نظرائه إما جاهل، وإما ظالم.

وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين، منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته، ومنهم من قد تاب من سيئاته، ومنهم من كفر اللهّ عنه، ومنهم من قد يدخله الجنة، ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته، ومنهم من قد يتقبل اللهّ فيه شفاعة نبي أو غيره من الشفعاء، فالشهادة لواحد من هؤلاء بالنار هو من أقوال أهل البدع والضلال]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان):[قال بعض أهل العلم إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق وانصبغ بذلك صبغا تاما صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك من القردة والخنازير وغيرهما ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوا خفيا ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرا على الوجه ثم يقوى حتى يقلب الصورة الظاهرة كما قلب الهيئة الباطنة.

ومن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن فقل أن ترى محتالا مكارا مخادعا ختارا إلا وعلى وجهه مسخة قرد **وقل أن ترى رافضيا إلا وعلى وجهه مسخة خنزير**].ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير على قول الله تعالى:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}:

[ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله، - في رواية عنه- بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصحابة في الجنة:

قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد:١٠].

وقال سبحانه:{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:٩٥-٩٦]

وقال:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح:٢٩].

وقال:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} [محمد:٢-٣].

ثال ابن حزم في كتابه :(المحلى):[مَسْأَلَةٌ: وَهُمْ الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ أَزْوَاجُهُمْ ثُمَّ سَائِرُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ e وَجَمِيعُهُمْ فِي الْجَنَّةِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ e أَنَّهُ لَوْ كَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لِأَحَدِنَا مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ أَعْلاَهُمْ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ، وَلاَ مَنْزِلَةَ أَعْلَى مِنْ دَرَجَةِ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، فَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ فِي دَرَجَتِهِمْ فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّنْ دُونَهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إلاَّ لِنِسَائِهِمْ فَقَطْ. وَقَالَ تَعَالَى: {لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى} وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ لاَ يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ} فَجَاءَ النَّصُّ أَنَّ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَدْ وَعَدَهُ اللهُ تَعَالَى الْحُسْنَى. وَقَدْ نَصَّ اللهُ تَعَالَى {إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} . وَصَحَّ بِالنَّصِّ كُلُّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْ اللهِ تَعَالَى الْحُسْنَى، فَإِنَّهُ مُبْعَدٌ، عَنِ النَّارِ لاَ يَسْمَعُ حَسِيسَهَا، وَهُوَ فِيمَا اشْتَهَى خَالِدٌ لاَ يَحْزُنُهُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ. وَهَذَا نَصُّ مَا قلنا، وَلَيْسَ الْمُنَافِقُونَ، وَلاَ سَائِرُ الْكُفَّارِ، مِنْ أَصْحَابِهِ عليه السلام، وَلاَ مِنْ الْمُضَافِينَ إِلَيْهِ عليه السلام].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

المسألة الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ.المسألة الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الشرح

قوله:(المسألة الثانية): أي من المسائل الواجب على المسلمين تعلمها والعمل بها، أن يعلموا في قرارة أنفسهم أن الله تبارك وتعالى لا يقبل علما مما افترضه على عباده، حتى يعملوا بمقتضى ذلك العلم، وأن العلم والعمل قرينان، لا ينفك أحدهما عن الآخر من حيث الجملة؛ ولهذا كثيرا ما يذم الله تبارك وتعالى ويوبخ الذين يعلمون ولا يعملون بمقتضى ما يعلمون، كما قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف:٢-٣] ، وقال:{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة:٤٢-٤٤] ، وقال تعالى:{وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة:٤١-٤٤] ، وقوله:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:١٤٦-١٤٨]، وقوله تعالى:{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:١٨٨] ، وقوله تعالى:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [آل عمران:٧١] ، وقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:٢٧-٢٨]،وقوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [المجادلة:١٤-١٦]، ونحو هذا كثير في الذكر الحكيم.

وأخرج مسلم من طريق ابْنُ جُرَيْجٍ. حَدّثَنِي يُونُسُ بْنُ يُوسُفَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: تَفَرّقَ النّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشّامِ: أَيّهَا الشّيْخُ حَدّثْنَا حَدِيثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ r قَالَ: نَعَمْ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"إنّ أَوّلَ النّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ. فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ:فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ:قَاتَلْتُ فِيكَ حَتّىَ اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ:كَذَبْتَ. وَلَكِنّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىَ وَجْهِهِ حَتّىَ أُلْقِيَ فِي النّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلّمَ الْعِلْمَ وَعَلّمَهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَقَرَأَ الْقُرْآنَ. فَأُتِيَ بِهِ. فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنّكَ تَعَلّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىَ وَجْهِهِ حَتّىَ أُلْقِيَ فِي النّارِ. وَرَجُلٌ وَسّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلّهِ. فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إلاّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىَ وَجْهِهِ. ثُمّ أُلْقِيَ فِي النّارِ".

ومما يؤثر عن أمير المؤمنين الخليفة الراشد الرابع علي t وأرضاه أنه قال: **هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.**

ومن جميل ما قيل في ذلك: **وعالم بعلمه لم يَعْمَلن... معذب من قبل عباد الوثن**

قال بان الجوزي في (صيد الخاطر):[ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح، فراحوا عن القلوب وبدد تفريطهم ما جمعوا من العلم. فقل الانتفاع بهم في حياتهم، ونسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحد أن يلتفت إلى مصنفاتهم.

فالله الله في العلم بالعمل فإنه الأصل الأكبر. والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة فقدم مفلساً مع قوة الحجة عليه]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في تاريخ دمشق:[حكي عن الأوزاعي أنه قال في كتاب لـه: اتقـوا الله مـعشر المسلمين، واقبلوا نصح النّاصحين، وعظة الـواعظين، واعلمـوا أن هـذا العلـم ديـن، فانظروا ما تصنعون، وعن من تأخذون، وبمن تقتدون، ومن على دينكم تأمنون؛ فـإن أهل البدع كلّهم مبطلون، أفّاكون، آثمون، لا يرعوون، ولا ينظرون، ولا يتّقـون، ولا مع ذلك يؤمنون على تحريف ما تسمعون، ويقولون ما لا يعلمون في سرد مـا يـذكرون وتسديد ما يفترون؛ والله محيط بما يعلمون.

فكونوا لهم حذرين، منهم هاربين، رافضين، مجانبين؛ وإنّ علماءكم الأوّلـون، ومـن صلح من الآخـرين كـذلك كـانوا يفعلـون ويـأمرون؛ واحـذروا أن تكونـوا عـلى الله مظاهرين، ولدينه هادمين، ولعراه ناقضين موهنين، بتوقير المبتدعين والمحدثين؛ فإنه قد جاء في توقيرهم ما تعلمون، وأيّ توقير لهم أو تعظيم اشدّ من أن تأخذوا منهم الـدّين، وتكونوا بهم مقتدين، ولهم مصدّقين موادعين، مؤالفين، معينين لهم بما يصـنعون، عـلى استهواء من يستهوون، وتأليف من يتألّفون من ضعفاء المسلمين، لرأيهم الذي يـرون، ودينهم الذي يدينون؛ وكفى بذلك مشاركةً لهم فيما يفعلون]ا.هـ.

وقدم ذكر العلم على العمل؛ لأن العلم إمام، والعمل مأموم، فالعلم قائـد والعمـل تابع له، وإنما يكون صلاح العمل بصلاح العلم، وإن العمل مهما كان حجمه وقـدره، إذا لم يكن على بصيرة من علم وتقى؛ فإنه يذهب أدراج الرياح ولا ينفع صاحبه شـيئا، عياذا بالله. كما قال قائلهم:

إن البِنَاءَ وإنْ تَسَامَقَ واعْتَلَى.... مَـا لم يُشَيَّـد بالتُّقى يَنْهَـارُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القوتان الهامتان:

وذلك لأن للعباد قوتين متعلقتين بتحقيق العبودية لله رب العالمين، ألا وهما القوة العلمية، والقوة العملية، فإذا فسدت إحداهما؛ لم ينتفع العامل بشيء من عمله؛ ولهذا ذم الله تبارك وتعالى اليهود، الذين فسدت قوتهم العملية، فهم يعملون بخلاف ما يعلمون من الحق؛ فحل عليهم غضب الله تعالى، ووصفهم الله تعالى بالمغضوب عليهم، أما النصارى، فقد فسدت قوتهم العلمية، فهم يعبدون الله تعالى على جهل؛ فوصفهم الله تعالى بالضلال، وأمر العباد أن يستعيذوا من سبيلهم وطريقتهم، فقال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:٦-٧].

فكان اليهود مغضوبا عليهم، والنصارى ضالين، وإن لكل منهما أيضا حظه من الغضب والضلال، بقدر ما معهم من علم لم ينتفعوا به، أو عمل لم يكونوا فيه على بصيرة.

ونهى الله تعالى عباده المؤمنين عن تَوَلِّيهم، فقال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِين} [المائدة: ٥١ - ٥٣]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } [الممتحنة:١٣]، وقال: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران:٢٨]، وسيأتي مزيد بيان وإيضاح عند الكلام عن الولاء والبراء.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري t أن النبي r قال:"لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه" قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال:"فمن".

ونهى النبي r عن التشبه بهم، كما في صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ r النَّبِيَّ r فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} إِلَى آخِرِ الآيَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r :"اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ". فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلاَّ خَالَفَنَا فِيهِ فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالاَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا. فَلاَ نُجَامِعُهُنَّ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ r حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا فَخَرَجَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ r فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا.

وأخطر ما نتشبه بهم فيه، أن نتخذ القرآن عضين، وأن نُحرف الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه، فنتخذ ديننا لعبا ولهوا، ولهوا ولعبا، كما فعلوا، وهاهي الأمة اليوم تفعل، نسأل الله العافية والسلامة، إلا من رحم الله وقليل ما هم.

العلم وسيلة العمل:

فالعلم إذن هو وسيلة إلى غاية أعظم، وهي العمل بمقتضى ذلك العلم، والعمل وسيلة إلى غاية أكبر وأعظم، ألا وهي تحقيق العبودية الحقة لله رب العالمين.

الفرق بين الغاية والوسلة:

والفرق بين الغاية والوسيلة، أن الوسيلة هي ما يتوصل بها إلى غيرها، بينما الغاية هي التي تكون مُرَادَةً لِذَاتِها، ثم إن الغاية قد تكون وسيلة إلى غاية أعظم منها، فتكون وسيلة بهذا الاعتبار الخاص، كما في حالة العلم مع العمل هنا، إلى أن ينتهي الأمر إلى غاية الغايات، ألا وهي تحقيق العبادة العامة التامة لله رب العالمين، بتوحيده تبارك وتعالى، إذ هي الغاية التي من أجلها خلق الله العباد كلهم، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦].

مسألة :هل يلزم العمل بكل ما يعلمه الإنسان، بمعنى هل يأثم الإنسان بترك العمل بجميع ما يعلم أم لا؟. وهل لا يكون محققا للغاية إلا من دخل في السلم كافة، أم أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هناك قدرا من العمل لابد من وجوده حتى يتحقق في العبد القدر من العبودية التي بها تكو ن النجاة، وذلك باعتبار أن المعاصي تقدح في التوحيد ولكنها لا تذهبه إلا إن ناقضته، والنوافل تكمل التوحيد ولكن تركها لا ينقضه.

والجواب: أن الإثم لا يلحق العبد إلا بترك الفرائض والواجبات، على القول بالتفريق بينهما، أما إن ترك السنن والمستحبات؛ فإنه لا يأثم بذلك، ولكن الواجب عليه أن يؤدي الفرائض على الوجه الأكمل، وإلا فعليه بالإكثار من المرقعات (النوافل) التي تُتَمَّمُ بها فرائضه.وأما المعاصي والآثام فيجب اجتنابها كلها، فمن وقع في شيء منها كان آثما، وإثمه بحسب معصيته. فمن المعاصي ما ينافي كمال التوحيد الواجب، ومنها ما ينافي أصله، وهي المعروفة بنواقص الإسلام. لما في الصحيحين عن أبي هريرة **t** قال النبي **r** :"فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ".

مسألة: هل يلزم العبد أن لا يأمر إلا بما يعمل، أم أنه يجوز له أن يأمر بشيء لا يقوم هو بفعله؟.

والجواب:أنه يجوز للعبد أن يأمر بما لا يفعله، بل قد يجب أحيانا،ثم قد يلحقه الذم شرعا، وقد لا يلحقه، بحسب درجة الشيء الذي أمر به ولم يعمل به، فإن كان في باب الواجبات، فإنه يأثم بعدم العمل به؛ لأن مجرد عدم العمل بالواجبات، مع تمكن العبد من ذلك إثم، ومن الجهل أن يجمع العبد على نفسه بين إثمين، إثم بترك العمل بالواجب، وإثم بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع تمكنه من ذلك، أما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المستحبات، فله أن يأمر بها، وإن لم يكن عاملا بها، ولا إثم عليه بتركها، وهو مأجور بأمره بها، ولكنه ضيع حظا من الكمال والحسنات، ولكن لا شك أن هذا الخُلق سيجده العبد ممجوجا عند العامة من الناس؛ لأن الذي ينبغي ويسوغ أن يأمر العبد بما يعمل ويعلم.

وفي الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ قِيلَ لَهُ أَلاَ تَدْخُلُ عَلَى عُثْمَانَ فَتُكَلِّمَهُ فَقَالَ أَتَرَوْنَ أَنِّى لاَ أُكَلِّمُهُ إِلاَّ أُسْمِعُكُمْ وَاللهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا دُونَ أَنْ أَفْتَتِحَ أَمْرًا لاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ وَلاَ أَقُولُ لأَحَدٍ يَكُونُ عَلَىَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ. بَعْدَ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ".

ولهذا قال قائلهم: لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

فأعود لأقول تأكيدا لهذا المقام: إنه يمكن التفصيل في ذلك، وذلك بالنظر إلى المأمورات، فإن كان المأمور به واجبا أو فرضا من فرائض الدين، وكان الآمر من أهل ذلك الفرض، وجب عليه أن يعمل بما يأمر به. وأما إذا كان الشيء المأمور به من المستحبات أو المباحات؛ جاز له أن يأمر به، وإن كان لا يعمل به، ولكن الأكمل ولا شك هو أن يأمر به، وأن يكون عاملا به، ولكنه إن لم يفعل فلا يدخل في الذم شرعا، ولا يخلوا من الأجر؛ لأن الدال على الخير كفاعله، كمن يأمر الناس بصيام ثلاثة أيام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من كل شهر ويعجز هو عن ذلك، أو يدعه عمدا، مع حثه للناس على ذلك، ويشهد لهذا ما أخرجه مسلم في صحيحه من طريق العَلاَءِ بن عبد الرحمن عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً. وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا". وقل مثل ذلك في سائر المستحبات والمباحات. والله أعلم .

وهكذا كان الصحابة y عامتهم، إن أُمِرُوا بشيء امتثلوه، وإن نُهُو عن شيء تركوه، لا سيما في باب الواجبات والمحرمات، ويشهد لهذا قول الله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود:٨٨]، وتأمل في قوله تعالى: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ}.

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود t قَالَ:لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله. قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله فَقَالَ عَبْدُ الله: وَمَا لِيَ لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ الله r وَهُوَ فِي كِتَابِ الله، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ. فَقَالَ لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ فَإِنِّي أَرَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الآنَ. قَالَ اذْهَبِي فَانْظُرِي. قَالَ فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ فَلَمْ تَرَ شَيْئًا فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا. فَقَالَ: **أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكِ لَمْ نُجَامِعْهَا.**

فلم يكن عندهم انفصام بين القول والعمل، بل كانوا أئمة في الدعوة إلى الخير، رؤوسا في العمل به والتسابق إليه، هذا هو الأصل فيهم، وهو الغالب على حالهم، فرضي الله عنهم أجمعين.

قوله رحمه الله:(المسألة الثالثة الدعوة إليه):إن الدعوة إلى الله أمرها عظيم، وإنما عظمت لأنها دعوة إلى الله عز وجل.وهي أشرف المقامات؛ ولهذا اصطفى الله تبارك وتعالى لها خير خلقه، ألا وهم الأنبياء والمرسلون، وقال تعالى:{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت:٣٣]، ثم هي سبيل من تبعهم في ذلك من المؤمنين الصادقين، كما قال تعالى:{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف:١٠٨].

والعبد المسلم إذا تعلم العلم وعمل به، وجب عليه الدعوة إليه، فإنه من شكر العبد لله تعالى على نعمة العلم والعمل به.

العبد والعالم الرَّباني:

والعبد العالم العامل لابد أن تكون في قلبه رحمة للآخرين، فإذا ذاق حلاوة العلم والعمل به، شعر بالرحمة والرغبة في دعوة الآخرين، كما هو حال الأنبياء والمرسلين،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالواجب رحمة الخلق ودعوتهم إلى الله عز وجل؛ لأن الذي يعلم ليس كالذي لا يعلم، قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر:٩].

فالعالم الحق الرباني هو الذي يسعى في تكميل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وتكميل الآخرين بدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح.

الرَّكْبُ المبارك:

وقد ضرب الله تبارك وتعالى لذلك مثلا بعباد له، ليسوا بأنبياء ولا مرسلين؛ ليعلم المؤمنون أن هذا الأمر ليس خاصا بالأنبياء والمرسلين، بل الأمة جمعاء مطالبة أن يكون فيها قوم يقومون بهذا الدور الريادي، والذي به تكون نجاة الأمة من عذاب الله تعالى، وبها تنال الأمة خَيْرِيَّتَها، كما قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:١٠٨-١١٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإليك هذه الأمثلة من كتاب الله تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} [الكهف:٩-١٥]، فهؤلاء فِتْيَةٌ استعملوا فُتُوَّتَهم في الدعوة إلى الله تعالى، ثم اعتزلوا الباطل ورفضوا أهله.

وقال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [يس:٢٠-٣٠]، فهذا رجل رأى أن عليه واجبا لابد أن يقدمه دعوة إلى الله، ونصرة للحق والمرسلين، مع أنه قد كان في أمة بعث الله تبارك وتعالى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيهم ثلاثة رسل، ولكنه أبى إلا أن يسير في هذا الركب المبارك، مشاركا في الدعوة إلى الله، واقفا في خندق واحد مع المرسلين، ذَابّاً عن حق الله تعالى، داعيا قومه وهو لهم راحم.

وقال تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [غافر:٢٨-٣٣]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} [غافر:٢٨-٤٥]، وهذا مؤمن آل فرعون، لم يلتفت إلى بطش فرعون وجبروته، حين رأى أنه لا يسعه السكوت والكتمان، وفرعون يرجف بالعباد، ويسعى في إطفاء نور الله تعالى، حتى عزم على قتل موسى عليه السلام، فلم يجد بدا من الوقوف وقفة رجل صادق، قائم لله تعالى بالتوحيد الخالص، منافحا ومدافعا عن موسى ودعوته الحقة، التي أرسله الله تبارك وتعالى بها.

هَلَّا همة كالهدهد:

بل وهذا الهدهد، أبى إلا أن يكون داعية من دعاة التوحيد إلى الله جل وعلا، كما قال تعالى:{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل:٢٣-٢٦].

فليت شعري كم نحن بحاجة إلى همم، مثل همة هذا الهدهد، أفَعَجِزْنَا حتى صار الهُدْهُد خيرا منا؟!!، فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل كيف كان هذا الهدهد؛ سببا لهداية أمة من الناس، واسأل نفسك كم لك من العمر؟، ثم سل نفسك كم اهتدى على يديك من العباد؟!!.

وتأمل في هذا الحديث المخرج في الصحيحين عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ:"لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ". قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا - قَالَ - فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ الله r كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ:"أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ". فَقَالُوا هُوَ يَا رَسُولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ - قَالَ - فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ الله r في عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ يَا رَسُولَ الله أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ:"انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فِيهِ **فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**".

وتذكر حديث أبي هريرة t أَنَّ رسول الله r ، قَالَ:"مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً". رواه مسلم.

من عزائم الأمور:

ومن الدعوة إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من عزائم الأمور، وتحتاج إلى صبر ومُصَابَرةٍ، كما قال تعالى عن لقمان في وصيته لابنه وهو يعظه: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان:١٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية:[ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعرض به المرء للفتنة : صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة كما قال عن المنافقين:{وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ} الآية]ا.هـ

جاء في تفسير الطبري:[وقوله:{وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ}، يقول تعالى ذكره: ألم يأن لهم أن ولا يكونوا، يعني الذين آمنوا من أمة محمد r {كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ} يعني من بني إسرائيل، ويعني بالكتاب:الذي أوتوه من قبلهم التوراة والإنجيل.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حُميد، قال: ثنا جرير، عن مُغيرة، عن أبي معشر، عن إبراهيم، قال: جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود، فقال: يا عبد الله هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال عبد الله: هلك من لم يعرف قلبه معروفا، ولم ينكر قلبه منكرا، إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد، وقست قلوبهم اخترعوا كتابا من بين أيديهم وأرجلهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وقالوا: نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب، فمن آمن به تركناه، ومن كفر به قتلناه، قال: فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن، ثم جعل القرن بين ثندوتيه؛ فلما قيل له: أتؤمن بهذا؟ قال: آمنت به، ويوميء إلى القرن الذي بين ثندوتيه، ومالي لا أومن بهذا الكتاب، فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن].اهـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي المعجم الكبير للطبراني بسند قوي:[حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : جاء عتريس بن عرقوب الشيباني إلى عبد الله فقال:هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال:(بل هلك من لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر)].ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (أحكام المرتد في مجموع الفتاوى):[وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول، والجهاد في سبيل الله، وتعليم الإيمان والقرآن .

وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعي إليه، وذلك هو الأمر به؛ إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به، واستدعاء له ودعاء إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله، فهو أمر بسبيله، وسبيله تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر.

وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين، وجوب فرض الكفاية، لا وجوب فرض الأعيان، كالصلوات الخمس، بل كوجوب الجهاد.

والقيام بالواجبات، من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها].ا.هـ

وجاء في تفسير القرطبي:[قوله تعالى:{كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه}.

فيه مسئلتان: الأولى: قوله تعالى:{كانوا لا يتناهون} أي لا ينهى بعضهم بعضا:{لبئس ما كانوا يفعلون} ذم لتركهم النهي، وكذا من بعدهم يذم من فعل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فعلهم. خرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله r :"إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل أول ما يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أَكِيْلَهُ وشَرِيْبَهُ وقَعِيْدَهُ فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض"، ثم قال:{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} إلى قوله:{فاسقون}، ثم قال:"كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولَتَأْطُرُنَّهُ على الحق ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعنكم كما لعنهم" وخرجه الترمذي أيضا. ومعنى لَتَأْطُرُنَّهُ: لَتَرُدُّنَّهُ.

الثانية: قال ابن عطية: والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه]ا.هـ.

إذن الله مقدم على إذن السلطان:

واعلم رحمك الله، أنه لا يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذن الأمراء أو السلاطين، إذ أن الله تعالى أذن به وأمر به، وكذلك رسوله r ، ولا شيء فوق أمر الله ورسوله، ومن اشترط ذلك فقد خالف الكتاب والسنة وعمل الصحابة وسلف الأمة، بل هو شرط فاسد باطل لعموم الأدلة، إلا إن كان هناك من يدعو إلى ضرلة فهذا يمنع، ويؤدب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليس من شرط الداعية أن يكون معصوما:

واعلم حفظك الله ورعاك، أنه لا يشترط في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكـر، أن يكون خاليا من العيوب والخطايا والآثام، إذ من المعصوم بعد رسول الله r ، وكما قيل:

من ذا الذي تُرْضَى سَجَايَاه كلها ... كفى المرء نُبْلا أن تُعَدَّ مَعَايِبُه

وكما قيل:

ولو لم يَعِظ في الناس من هو مُذْنِبُ... فَمَنْ يَعِظُ العَاصِين بَعْدَ مُحمد

وقال القرطبي رحمه الله:[وَقَالَ الْحَسَنُ لِمُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ الله: عِظْ أَصْحَابَكَ، فَقَـالَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ، قَالَ: يَرْحَمُكَ اللهُ! وَأَيُّنَا يَفْعَلُ مَا يَقُولُ! وَيَوَدُّ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ بِهَذَا، فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مُنْكَرٍ. وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْـدِ الرَّحْمَنِ سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ: لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حتى لا يكون فيه شي، ما أمر أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ. قَالَ مَالِـكٌ: وَصَـدَقَ، مَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شيء].ا.هـ.

وقال في تفسيره أيضا:[وقال حذاق أهل العلم: وليس من شرط النـاهي أن يكـون سليما عن معصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضا.

وقال بعض الأصوليين: فرض على الـذين يتعـاطون الكـؤوس أن ينهـى بعضـهم بعضا]ا.هـ.

نعم قد يستهجن الناس إنكار من هو متلبس بالمعصية على غيره ممن يتعاطاها، ولكن هذا ليس بصاد ولا مانع من الدعوة، فقد تكون سببا للهداية، وهي كذلك بحول الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحرك والمهيج على الدعوة:

واعلم رحمك الله، أن مبدأ إنكار المنكر، هو تحرق القلب عند رؤية المنكر، مما يثمر السعي في تغييره، على حسب التدرج الشرعي بمراتبه الثلاث الواردة في حديث أبي سعيد الخدري أن النبي **r** قال:"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".

فهذا الحديث دال على أن هناك قدرا من الإنكار هو من فروض الأعيان، ويتدرج بحسب الاستطاعة، إلى أن يصل إلى القلب، فأدنى مراتب الإنكار أن يكون بالقلب، فإن القلب الذي لا ينكر المنكر عند رؤيته، هو قلبٌ ميت ممسوخ منكوس ليس بمؤمن. نسأل الله العافية والسلامة.

كما في مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق حبيب عن أبي الطفيل قال:قيل لحذيفة:ما ميت الأحياء؟ قال:[من لم يعرف المعروف بقلبه وينكر المنكر بقلبه]. وفيه عن علي **t** قال:[فينكس كما ينكس الجراب فينثر ما فيه].

وفيه بسند صحيح من طريق طارق بن شهاب قال:قال رجل لعبد الله:هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فقال عبد الله:[بل هلك من لم يعرف المعروف بقلبه وينكر المنكر بقلبه].

وفيه بسند جيد من طريق عاصم قال ما سمعت الحسن يتمثل ببيت شعر إلا هذا البيت: ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

ثم قال صدق والله إنه ليكون حيا وهو ميت القلب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ".

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي بكر الصديق t أنه قال:يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية:{يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم} وإني سمعت رسول الله r يقول:"إن الناس إذا رأوا ظالما فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب" قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

وفي صحيح مسلم عن حُذَيْفَة t قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ". والأحاديث في هذا كثيرة جدا.

وأيُّ دِين وأيَّ خَير؟!:

قال ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين):[وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يُترك، وسنة رسول الله r يُرغب عنها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بَلِيَّةُ الدين إلا من هؤلاء، الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورِيَاسَاتُهم؛ فلا مُبَالَاة بما جرى على الدين، وخِيَارُهُم المُتَحَزِّن المُتَلَمِّظ، ولو نُوزِعَ في بعض ما فيه غضاضة عليه، في جاهه أو ماله، بَذَلَ وتَبَذَّل، وجَدَّ واجْتَهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة، بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومَقْتِ الله لهم؛ قد بُلُوا في الدنيا بأعظم بَلِيَّةٍ تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم؛ كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرا، أن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال:يا رب كيف وفيهم فلان العابد؟، فقال:"به فابدأ، فإنه لم يَتَمَعَّرْ وجْهُه فِيَّ يوما قَط".

وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد، أن الله سبحانه أوحى إلى نبي من أنبيائه، أن قل لفلان الزاهد:أما زهدك في الدنيا؛ فقد تعجلت به الراحة، وأما انقطاعك إلي؛ فقد اكتسبت به العِز، ولكن ماذا عَمِلت فيما لِي عَليكَ؟، فقال: يا رب، وأي شيء لك علي؟، قال هل واليت فِيَّ وليا، أو عاديت فِيَّ عَدُوا؟]ا.هـ.

أولى الناس بدعوتك:

واعلم سَدَّدَكَ الله وأرشدك، أن أولى الناس بدعوتك، وأمرك ونهيك، هم أهل بيتك وعشيرتك، كما قال تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء:٢١٤]، وقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:٦].

وقد قص الله تبارك وتعالى علينا قصص آباء مشفقين على أهليهم، فنصحوا لهم ابتداء في دينهم، وكان أعظم ما يشغل بالهم تجاههم أن يحافظوا على دينهم، وإليك هذه الآيات التي تبين ذلك وتفصله وتحث عليه، قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة:١٣٠-١٣٣].

وتأمل في وصية لقمان لابنه، بم أوصاه؟، وبم أمره؟، وعلى ماذا حثَّه؟، فإليك سياق ذكر من كتاب الله تبارك وتعالى: {لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان:١٢-١٩]، والله إذ يذكرنا بهذه الآيات، إنما ليحصل الاقتداء بهؤلاء الأنبياء وأولئك الصالحين.

فيجب علينا أن نربي أنفسنا وأبناءنا على تقديم دين الله تعالى، ومراضي الله سبحانه وتعالى، على جميع معطيات الحياة الدنيا، وتأمل كيف خاطب الخليل إبراهيم رَبَّهُ تبارك وتعالى، إذ ترك ذريته بِوَادٍ من الأرض، حيث ذكر إقام الصلاة، في بيان واضح أن أعظم مهمة لهم هي إقامة الدين، وأنه الأمر الأعظم الذي يشغل بَالَهُ r، كما قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم:٣٧].

وفي أول الكلمات التي تكلم بها عيسى عليه السلام وهو في المهد: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} [مريم:٣٠-٣٢].

وفي إسماعيل عليه السلام عظة واعتبار، حيث قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم:٥٤-٥٥]. ومثل هذه المعاني متكاثرة متوالية في الكتاب والسنة.

قال الذهبي في كتابه:(سير أعلام النبلاء):[رَوَى: الأَعْمَشُ، عَنْ خَيْثَمَةَ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:كُنْتُ تَاجِراً قَبْلَ المَبْعَثِ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ، جَمَعْتُ التِّجَارَةَ وَالعِبَادَةَ، فَلَمْ يَجْتَمِعَا، فَتَرَكْتُ التِّجَارَةَ، وَلَزِمْتُ العِبَادَةَ]ا.هـ.

إياك والتفريط فإنك مسئول:

واليوم ترى أكثر المُرَبِّين، إلا من رحم الله وقليل ما هم، يُلْقُون الحبل على الغارب، فيما يتعلق بسلامة دين من تحت يدهم، وأكبر همتهم مصروفة إلى تحقيق مكاسب الحياة الدنيا ولو ضاع الدين، فهاهم الملايين يزجون بأبنائهم في مستنقعات المدارس والجامعات التي امتلأت بالشر والفساد، بل وبعضهم يكره التزام ابنه بالدين، إما بغضا والعياذ بالله للدين، وهذه ردة عن الإسلام، وإما لأنه لا يريد أن يكون الابن عينا ورقيبا عليه في المنزل، فيلاحقه بالأحكام الشرعية، لما يتم تعاطيه من المحرمات منه، أو من أفراد الأسرة، وتلك المحرمات الأخرى القابعة في البيوت، من تِلْفَاز ودِجِتِلات وصور، بل وربما صُور للطواغيت، وغير ذلك من المنكرات.

وبعضهم يتعامل مع أبنائه وكأنهم عبيد له، فيأمرهم بالطاعة له، على كل حال، وإن كان في معصية الله، ونسي أنه هو وهم عبيد لله تعالى، وأن الكل مطالب بالانقياد لشرع الله تبارك وتعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خطروة المدارس والجامعات على الدين:

وقد نبه ابن الجوزي على خطورة بناء المدارس والدور التعليمية التي تبعد الناس عن الله تعالى، وتعظم الدنيا وتهمش الآخرة، ناهيك عن فساد القدوات والمناهج والبيئة التعليمية، وبين الإنفاق عليها لا ثواب فيه، وذلك في زمانه فكيف لو رآى زمانا؟!.

فقال كما في صيد الخاطر:[رأيت بعض المتقدمين سئل عمن يكتسب حلالاً وحراماً من السلاطين والأمراء، ثم يبنى المساجد والأربطة:هل له فيها ثواب؟. فأفتى بما يوجب طيب قلب المُنْفِق، وأن له في إنفاق ما لا يملكه نوع سمسرة؛ لأنه لا يعرف أعيان المغصوبين فيردها.

فقلت:واعجباً! من المتصدين للفتوى الذين لا يعرفون أصول الشريعة[١].

ينبغي أن ينظر في حال المُنفِق أولاً، فإن كان سلطاناً فما يخرج من بيت المال قد عرفت وجوه مصارفه، فكيف يمنع مستحقه **ويشغله بما لا يفيد من بناء مدرسة ورباط.**

---

١ - هذا ابن الجوزي رحمه الله تعالى اكتفى بمجرد العجب ممن في زمانه، ولو كان في زماننا لربما مات كمدا، من فتاوى علماء السوء، المبررين والمرقعين والممررين للسلاطين لا أقول في معاصيهم، بل في الكفر بالله جل وعلا. نعوذ بالله من الخذلان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و إن كان المنفق من الأمراء و نواب السلاطين، فإنه يجب أن يرد ما يجب رده إلى بيت المال، و ليس له فيه إلا ما فرض من إيجاب يليق به.

فإن تصرف في غير ذلك كان مصروفاً فيما ليس له، ولو أذن له كان الإذن جائزاً.

وإن كان قد أقطع مالاً يقاوم عمله، كان ما يأخذه فاضلاً من أموال المسلمين لا حق له فيه. وعلى من أطلقه في ذلك إثم أيضاً.

هذا وإذا كان حرماً أو غصباً فكل تصرف فيه حرام، و الواجب رده على من أخذ منه له على ورثتهم.فإن لم يعرف طريق الرد كان في بيت مال المسلمين، يصرف في مصالحهم أو يصرف في الصدقة، و لم يحظ آخذه بغير الإثم.....إلى أن قال:فأما إذا كان الباني تاجراً مكتسباً للحلال، فبنى مسجداً أو وقف و قفاً للمتفقهة، فهذا مما يثاب عليه.

ويبعد من يكتسب الحلال حتى يفضل عنه هذا المقدار، أو يخرج الزكاة مستقصاة، ثم يطيب قلبه بمثل هذا البناء و النفقة.إذ مثل هذا البنيان لا يجوز أن يكون من زكاة. وأين سلامة النية وخلوص المقصد.

وإن بناء المدارس اليوم مخاطرة، إذ قد انعكف أكثر المتفقهة على علم الجدل، وأعرضوا عن علوم الشريعة، وتركوا التردد إلى المساجد، وقَنِعُوا بالمدارس والألقاب.

و أما بناء الأربطة فليس بشيء أصلاً، لأن جمهور المتصوفة جلوس على بساط الجهل والكسل، ثم يدعي مُدَّعِيهِم المحبة والقرب، ويَكْرَهُ التشاغل بالعلم، وقد تركوا سيرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سَرِي وعَادَات الجُنَيد، و اقتنعوا بأداء الفرائض، و رضوا بالمرقعات؛ **فلا تحسن إعانتهم على بطالتهم وراحتهم، و لا ثواب في ذلك**]ا.هـ.

وقال المؤرخ حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون):[الإعلام الثالث: في دفع ما يتوهم من الضرر في العلم وسبب كونه مذموما.

اعلم:أنه لا شيء من العلم من حيث هو علم بضار ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل بنافع لأن في كل علم منفعة ما في أمر المعاد أو المعاش أو الكمال الإنساني وإنما يتوهم في بعض العلوم أنه ضار أو غير نافع لعدم اعتبار الشروط التي يجب مراعاتها في العلم والعلماء فإن لكل علم حدا لا يتجاوزه.

فمن الوجوه المغلطة: أن يظن بالعلم فوق غايته، كما يظن بالطب: أنه يبرئ من جميع الأمراض وليس كذلك فإن منها ما لا يبرأ بالمعالجة.

ومنها: أن يظن بالعلم فوق مرتبته في الشرف، كما يظن بالفقه: أنه أشرف العلوم على الإطلاق، وليس كذلك، فإن علم التوحيد أشرف منه قطعا.

ومنها: أن يقصد بالعلم غير غايته،**كمن يتعلم علما للمال أو الجاه، فالعلوم ليس الغرض منها: الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق، وتهذيب الأخلاق، على أنه من تعلم علما للاحتراف لم يأت عالما إنما جاء شبيها بالعلماء.**

ولقد كُوشِفَ علماء ما وراء النهر بهذا الأمر، ونطقوا به، لما بَلَغَهُم **بناء المدارس ببغداد أَقَامُوا مَأْتَم العلم، وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العلية، والأنفس الزكية، الذين يقصدون العلم؛ لشرفه والكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم، وإذا صار**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه أجرة؛ تدانى إليه الأخِسَّاء، وأرْبَاب الكسل؛ فيكون سببا لارتفاعه، ومن هـا هنـا هجرت علوم الحكمة، وإن كانت شريفة لذاتها.

ومنها: أن يمتهن العلم بابتذاله إلى غير أهله، كما اتفق في علم الطـب، فإنـه كـان في الزمن القديم حكمة موروثة عن النبوة، فصار مُهَاناً لما تَعَاطَاه اليهود؛ فلم يَشْرُفُوا بـه، بل رَذُلَ العلم بهم]ا.هـ.

الإسلام لا يحارب العلم النافع:

واعلم رحمك الله وأرشدك، أن الإسلام لا يحارب العلـوم النافعـة، ولكنـه يحـارب العلم الضار، ويحارب العلم الذي يشغل العبد عما خلق لـه، وعـن وظيفتـه الحقيقيـة، التي فيها نجاته وسعادته الحقيقية.

الإسلام يحارب الأساليب الضالة والملتويـة، التـي تتضـمن التلبـيس عـلى النـاس، بإلباس الباطل ثياب الحق؛ للتغرير بالجموع الإسلامية.

الإسلام يحارب الوسائل المنحرفة الجائرة، كـما أنـه يحـارب أسـباب الفسـاد كلهـا، ويحارب التَّبَعِيَّةَ والتقليد الأعمى للكفار، والتشبه بهم.

الإسلام يحارب أن يتحول الإنسان المسلم إلى دابـة هِمَّتُهـا جمـع الـدرهم والـدينار، والتنافس على زخرف الحياة الدنيا، على حساب القضية العظمى، ألا وهي تحقيق عبادة الله جل وعلا.

الإسلام يحارب أن يكون الإنسان المسـلم، دابـة تُـدَجَّنُ لأعـدائها، وُتُسَـمَّنُ لِـدُوْدِ القبور، في ذهول وإعراض عن الله والدار الآخرة، التي هي الحيوان الحقيقي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كيف هجرنا حدود الله واحتفينا بحدود الطاغوت؟!!:

وفي مقابل هذا الاحتفاء العظيم بعلوم الحياة الدنيا، وقع هجر عظيم لكتاب الله تعالى وسنة النبي r، ومعرفة سبيل المؤمنين y، قال تعالى:{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان:٣٠].

وصار الاحتفاء بكتاب الله تعالى موقوفا على حروفه دون حدوده، فالأمة تتلوه في الحِلَق، وفي رمضان، وفي بعض الاجتماعات والمناسبات، بل وربما استفتحت به الإذاعات والقنوات واختتمت به، بل وفي بعض البلدان قنوات خاصة بالقرآن، يتلى فيها على مدار اليوم، بل وهناك الاحتفالات البدعية لتخريج الحفظة لكتاب الله، بل وفوق ذلك وأعجب منه، أن هناك طواغيت نسبوا أنفسهم زورا وبهتانا إليه، وتسموا بـ(خادم القرآن، وخادم السنة، وخادم الحرمين)، كل هذا حروفا لا حدودا، بل هم خائنوا ذلك كله.

أما قانون الطاغوت، ودساتيره، وقضاته ومُحَامُوه، فهم محل الاحتفاء حدودا وحروفا.

وقد نقل ابن القيم عن بعض السلف، كما في (زاد المعاد في هدي خير العباد)، فقال:[كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ الْعَامِلُونَ بِهِ وَالْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ. وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إقَامَةَ السَّهْمِ. قَالُوا: وَلِأَنَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْإِيمَانَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ وَفَهْمُ الْقُرْآنِ وَتَدَبّرُهُ هُوَ الّذِي يُثْمِرُ الْإِيمَانَ وَأَمّا مُجَرّدُ التّلَاوَةِ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ وَلَا تَدَبّرٍ فَيَفْعَلُهَا الْبَرّ وَالْفَاجِرُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ كَمَا قَالَ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:"وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيّبٌ وَطَعْمُهَا مُرّ"، **وَالنّاسُ فِي هَذَا أَرْبَعُ طَبَقَاتٍ**: أَهْلُ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ وَهُمْ أَفْضَلُ النّاسِ، **وَالثّانِيَةُ**: مَنْ عَدِمَ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ، **الثّالِثَةُ**: مَنْ أُوتِيَ قُرْآنًا وَلَمْ يُؤْتَ إيمَانًا، **الرّابِعَةُ**: مَنْ أُوتِيَ إيمَانًا وَلَمْ يُؤْتَ قُرْآنًا، قَالُوا: فَكَمَا أَنّ مَنْ أُوتِيَ إيمَانًا بِلَا قُرْآنٍ أَفْضَلُ مِمّنْ أُوتِيَ قُرْآنًا بِلَا إيمَانٍ فَكَذَلِكَ مَنْ أُوتِيَ تَدَبّرًا وَفَهْمًا فِي التّلَاوَةِ أَفْضَلُ مِمّنْ أُوتِيَ كَثْرَةَ قِرَاءَةٍ وَسُرْعَتَهَا بِلَا تَدَبّرٍ]ا.هـ.

وقال أيضا في كتابه:(الفوائد):[فائدة هجر القرآن أنواع: **أحدها**: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، **والثاني**: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به، **والثالث**: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم، **والرابع**: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه، والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله:{وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا}، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض، وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه تارة يكون حرجا من إنزاله، وكونه حقا من عند الله، وتارة يكون من جهة التكلم به، أو كونه مخلوقا من بعض مخلوقاته، أَلْهَمَ غيره أن تكلم به، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأَقْيِسَة أو الآراء أو السياسات،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مُرَادَة فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أَوْهَمَ أنها مُرَادَة لضرب المصلحة، فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعا في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالما فاجرا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا لمعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء].ا.هـ.

فصل: والعباد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مراتب:

١- الذي يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، ويسعى في عداء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهؤلاء هم الكفار والمنافقون.

٢- كالأول ولكنه لا يسعى في عداء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فهذا منافق أيضا ولكنه أقل من المرتبة الأولى.

٣- الذين يفعلون المنكر، ولا يأمرون به، ولكنهم لا يجدون حرقة في قلوبهم عند رؤية المنكر، فهذا ضرب من النفاق ولكنه أقل من الأوليّن.

٤- الذي يفعل المنكر ويسعى في إنكاره، فهذا مؤمن عاصٍ، قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

٥- الذي لا يفعل المنكر و لا يسعى في إنكاره أيضاً، وهو مبغض له بقلبه، فهذا مؤمن عاصٍ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦- من لا يفعل المنكر ويسعى في إنكاره، وهذا هو المؤمن الذي وصفه الرسول r بحقيقة الإيمان، فإن وقع في شيء من ذلك عاد إلى الله من قريب، فاستغفر وتاب.

قرية نَيْنَوَى:

وقد قص الله تبارك وتعالى علينا قصصا في كتابه العزيز، دالة على ضرورة العباد إلى الأمر والنهي، وقد تنوعت السياقات في ذلك، ومن أظهر ذلك أصحاب قرية نينوى، كما قال تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف:١٦٣-١٧٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه أمة من أهل الكتاب انقسمت مع المنكر إلى ثلاثة أقسام، فمنهم من باشر المنكر، ومنهم من أعرض عن الواقعين في المنكر، والقسم الثالث هم الذين قاموا بواجب وشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فنجا الله تعالى الفريق الذي قام بهذا الدور الرِّيَادِي العظيم، وسكت عن الفريق الذي لم يقم بهذا الواجب، وعذب الله تعالى الوالغين في المنكر.

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَانِي النَّيْسَابُورِيُّ أَبُو إِسْحَاقَ، ثنا عَفَّانُ بْنُ مُسْلِمٍ، ثنا مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ، قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ:{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ}، إِلَى قَوْلِهِ:{كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، قَالَ الْحَسَنُ:(وَالْعَمَلُ السَّيِّئُ يُقَدِّمُهُ الْقَوْمُ يُقَيَّضُ لَهُمُ الْبَلاءُ لِيُهْلَكُوا فِيهِ، فَكَانَتْ تَجِيءُ يَوْمَ السَّبْتِ حِيتَانُهُمْ شُرَّعًا عَلَى مَتْنِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا الْمَخَاضُ عِظَمًا وَسَمْنًا، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِ السَّبْتِ لَمْ يُرَ حُوتٌ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، فَطَالَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهَا يَوْمَ السَّبْتِ نَسْتَوْثِقُ مِنْهَا أَلا تَذْهَبُ، وَنَأْكُلُهَا يَوْمَ الأَحَدِ، فَإِنَّمَا نُهِينَا عَنْ أَكْلِهَا يَوْمَ السَّبْتِ)، قَالَ الْحَسَنُ:(فَأَكَلُوا وَاللهِ أَوخَمَ أَكْلَةً أَكَلَهَا قَوْمٌ قَطُّ أَعْجَلُهَا عُقُوبَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَبْقَاهَا خِزْيًا فِي الآخِرَةِ)]ا.هـ.

ثم بين تبارك وتعالى أن هناك من ورث هذه السبيل الخبيثة في التحايل على شرع الله تبارك وتعالى؛ لِيُوَاقِعُوا المحرمات، بِمُبَرِّرَات مختلقة ينسبونها إلى الشرع، وأَشَادَ الشرع بالمستمسكين بالحق على كل حال، به يهدون ويعدلون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن ذلك قوله تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة:٧٨-٨١].

نحن جميعا في سفينة واحدة (سفينة المجتمع):فالحذر من غَرَقِهَا:

وتأمل أن هؤلاء مَرُّوا بمرحلتين، فأما الأولى منهما فهي مُوَاقَعَةُ المنكر، وأما الثانية وهي أشد وأعظم، اسْتِمْرَاء هذا المنكر، والتَّوَاطُؤ عليه، وتقديم المجاملات على الإنكار على الواقعين في المنكر، فعندها تكون العقوبة جماعية والعياذ بالله، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال:٢٤-٢٥].

وفي الباب جملة من الأحاديث:

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي r قال:"مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خَرَقْنَا في نصيبنا خَرْقاً ولم نُؤْذِ من فَوْقَنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعا" رواه البخاري.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال النووي في رياض الصالحين:["القائم في حدود الله" معناه: المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها. والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه، و"استهموا": اقترعوا]. ا.هـ.

مُصْلِحُون أم صَالِحُون؟:

ولنعلم أننا جميعا في هذه السفينة، والتي هي المجتمع، فإن تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ تسلط أصحاب الباطل والهوى، بالشهوات أو الشبهات، فكثر الخارقون في هذه السفينة، حتى يَتَّسِع الخَرْقُ على الرَّاقِع؛ فتغرق السفينة بمن فيها، وإن كانوا من الصالحين وإن كانوا أكثرية، فتأمل وانتبه واحذر.

فالشأن كل الشأن في وجود المصلحين لا الصالحين.

كما قال تعالى في بيان سبيل النجاة:{فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود:١١٦-١١٧]، وقوله:{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [يونس:٩٨-١٠٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعن أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية حذيفة رضي الله عنها عن النبي r أنه قال:"إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع"، قالوا : يا رسول الله ألا نقاتلهم؟، قال:"لا ما أقاموا فيكم الصلاة". رواه مسلم.

قال النووي في رياض الصالحين:[معناه: من كره بقلبه ولم يستطع إنكار بيد ولا لسان فقد برئ من الإثم وأدى وظيفته ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي]ا.هـ.

وعن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي r دخل عليها فزعا يقول:"لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد أقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه" وحلق بأصبعيه: الإبهام والتي تليها. فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟، قال:"نعم إذا كثر الخبث". متفق عليه.

واعلم أن ترك المنكر عظيم الأجر، وأعظم منه بُغْضُه، فإنه أنكى وأبلغ.

طريقة السلف في الإنكار:

واعلم رحمك الله تعالى، أن السلف كانوا أشد ما كانوا في الإنكار، عندما تتعلق المنكرات بالعقيدة والتوحيد؛ ولهذا ترى أن إنكارهم في مسائل الفروع والاختلافات الفقهية، هو أقل بكثير من حالهم مع البدع والشبهات والضلالات العقدية، فلنتنبه لهذا المقام، فإن أقواما يخادعون الناس، ويخلطون الأوراق، فيذكرون تَسَمُّح بعض السلف وعدم تشديدهم في بعض مسائل الفروق الفقهية؛ ليبرروا ويمرروا مسائل البدع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والضلالات والشبهات العقدية؛ بغية توسيع الماعون، وإدخال جميع فرق الضلال في أهل السنة والجماعة، بدعوى أنه لا إنكار في مسائل الخلاف، ولا شك أن هذا من التخبط والضياع الذي ورثته الأمة في هذه الأزمنة المتأخرة عن جماعة الإخوان المسلمين، الذين من أصول فكرهم ومذهبهم، البحث عن مبررات لمشاكل وفتن الواقع، والرضوخ للحالة السائدة العامة في المجتمعات الإسلامية، بل والعالمية، ثم البحث الجاد عن التخريجات والترقيعات لهذا الواقع المُر؛ فتربى أتباعهم ومن اغتر بهم، وكثير من أفراد الأمة، على أنه ليس الشأن أن نصيب الحق ونقصده ونُنقب عنه، بل المهم أن نثبت أن في المسألة خلافا ولو شاذا؛ حتى نُصَوِّبَ الجميع، ويسكت الكل، ولا نُحدث فتنة، فالكل إذا عندهم مصيب، والكل له نصيب؛ فحصل التخليط العظيم في دين الله تعالى، في الأصول والفروع، واخْتَلَّت المبادئ، وصارت هذه الجماعة تَنْتَظِمُ في داخلها، طوائف من المبطلين والضالين، كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة والمرجئة والخوارج، بل حتى المشركين، والبعثيين والمارونيين، والنصارى، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فَهِمَّتُهم مَصْرُوفَة إلى تحقيق توحيد الكلمة، لا إلى تحقيق كلمة التوحيد.

واعلم أن من الكفريات التي يتداولها كبراء من منظري هذه الجماعة - وهو يمثل جانبا من واقع الفكر الإخواني العقدي المبني على اتساع الدائرة لتستوعب كل متدين، مهما كان تدينه ودينه - قولهم: إن العدو إنما هو الإلحاد، وأن لكل أهل ملة تدينها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإيمانها، فالكل مؤمن، وإنما الكافر الملحد؛ ولهذا يصرح بعضهم، بل وبلا أدنى حياء أن اليهود والنصارى مؤمنون، ولاشك أن هذه ردة صريحة عن الإسلام باتفاق المسلمين.

واعلم أنه قد اغتر بهم جملة من المسلمين المنتسبين لأهل السنة والجماعة، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات، لاسيما مع الهجمة العالمية الشرسة على الإسلام والمسلمين من الغرب الكافر وأعداء الدين، فلجأ هؤلاء إلى لَبْسَةِ الإخوان المسلمين، فظهر نتاج غريب، بل هو أشد خطرا من الإخوان المسلمين؛ لأن الإخوان المسلمين غالبا ما يؤسسون أقوالهم على التنظير، لا على التأصيل العقدي الفقهي الاستدلالي، بخلاف المنتسبين إلى السلف، فإنهم يعتمدون على الاستدلال، ومن هنا تقع الورطة وتكون الخطورة، عندما يعمد هؤلاء إلى لوي أعناق النصوص وتطويعها لتبرير وتمرير الواقع، فإذا بنا أمام إنسان يلبس عباءة السلف، وبداخله محرك مصنوع في معامل الإخوان المسلمين، فيا ضيعة المسلمين، في بلاد يكون فيها الرموز الذين ترفع إليهم الأبصار، إما إخواني قلبا وقالبا، وإما سلفي بمحرك إخواني، والله المستعان.

ولنعلم أن الإسلام إنما جاء ليجتث الواقع المر؛ ليزرع الحق، ويؤصله، ويدعو إليه، رضي من رضي، وسخط من سخط، وأن الأمة مبتلاة بإصابة الحق والعمل به، وإن خالف مراد وفعل الأكثر، وهذه هي حقيقة دعوة الرسل، واقرأ القرآن لتعتبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والدعوة إلى الله على أقسام:

أ- فرض عين: وهي الدعوة الخاصة، وهو ما لا يسع العبد تركها، إذا كان يعلم،وكل بحسب علمه، فإن تركها وهو يعلم مع الإمكان أثم.

ب- فرض كفاية: وهي الدعوة العامة، وهي التصدي لمسائل العامة، وهذه خاصة بالعلماء وطلبة العلم.

ويمكن أن نحتج للنوع الأول: بحديث الرسول r :"بَلِّغُوا عني ولو آية". أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ونحتج للنوع الثاني: بحديث الرسول r عند ما قال:"لأعطين الراية غداً رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله" وقد تقدم قريبا، فاختار عليا، أي إنه اختار رجلا من أهل العلم، وأيضاً بأن النبي r لما بعث إلى اليمن، بعث عالمين من علماء الصحابة، وهما معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما، وعليه فقد كان النبي r لا يختار للدعوة العامة والخروج بها إلى الناس والآفاق إلا العلماء.

وعليه فإنه لا يجوز أن يتصدى العبد لأمر العامة إلا إذا تمكن من العلم، وليس مقياس العلم كثرة العبادة، أو القدرة على الوعظ والخطابة، فرب رجل كثير العبادة فصيح العبارة وبليغ الخطاب، ولكنه قليل العلم، فيفسد أكثر مما يصلح، ورب رجل كثير العلم قليل العبادة، فهو أحق بهذا المقام العام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودليل ذلك حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ الله r قَالَ:"كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ فَقَالَ لاَ. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَّ فَاعْبُدِ اللهَّ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى الله. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ".

الأكثر لا يفرق بين العابد والعالم:

فلاحظ أنه عندما سأل عن أعلم أهل الأرض دُل على رجل كثير العبادة ولكنه قليل العلم؛ فَجَنَى هذا الجاهل على نفسه وكاد أن يُهْلِكَ سائله، وعندما سأل في المرة الأخرى عن أعلم أهل الأرض دُل على رجل كثير العلم، وإن لم يكن مشهورا بالعبادة كالأول، بل والسياق دال على أن الشهرة كانت للعابد وأنه هو العالم والعالم الحقيق مغمور لا يكاد يعرف،فلما سأله الرجل وجد عنده الشفاء، وسلك به العالم سبيل النجاة، فالعلم صلاح ونجاة وخلاص لصاحبه وللأمة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتأمل فقه هذا التائب، إذ لم يحدث العالم عما جرى معه في مسألته الأولى، وأنه قتل من أجابه، وهذا دال على صدق توبته، فهو لا يريد إجابة تفرضها معطيات معينة، أو مؤثرات خارجية، بل يريد الحق من بابه ليعمل به.

وتأمل كيف أن أكثر الناس لا يميزون بين العالم وغيره، وهذا إلى يومنا هذا، فكم من العلماء لا يعرفهم الناس، وكم من حُطَّاب الليل، من القصاص والوُعَّاظ يجوبون الأمصار، وسرت بأخبارهم الركبان، واشتهروا وطَارَ الناس بهم كل مَطَار، وهذا لاشك أنه منقصة على الأمة، وسبب لانتشار الضلال فيها، مما يباعدها عن الله، فتقع البلايا وتحصل الكوارث والنكبات.

والإعلام الجائر يلمع المداهنين، إمعانا في تضليل الأمة، وفرضا لأجندة الطاغوت، مستعملا المدلسين والملبسين، والمتلونين في الدين، نسأل الله العافية والسلامة.

المنهجية والبصيرة في الدعوة إلى الله:

وأما المنهجية في الدعوة إلى الله جل وعلا فتكون بأمور:

١- العلم.

٢- العمل به.

٣- معرفة حال المدعو.

٤- الاستعداد لما يلقى من الشبة.

٥- اتباع الحكمة في الدعوة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦- التدرج من الأهم إلى المهم.

٧- التحقق بالرفق حال الدعوة.

٨- ولا بد في الأمر المعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، من اعتبار المفاسد والمصالح، بالضوابط الشرعية، نصرة للدين، كما قال تعالى: { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٠٨].

وفي الصحيحين عن جابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ r فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ". قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ.فَقَالَ:"دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ". فَسَمِعَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ قَدْ فَعَلُوهَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. قَالَ عُمَرُ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ:"دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ".

وفي الصحيحين عن عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكَعْبَةَ".

٩- الجمع بين نَظْرَتَي الرَّحمة للخلق، والغيرة على حق الرب، تبارك وتعالى.

وهذه الأمور، نأخذها من حديث معاذ المخرج في الصحيحين، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مُعَاذًا قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ r قَالَ:"إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَـأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْـتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَـأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْـتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَـرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ".

فالواجب على الداعي إلى الله، أن يكون عالماً بما يدعو إليه، فلا يدعو عن جهل، بـل يجب عليه أن يتسلح بسلاح العلم، وأن يكون عاملا بعلمه؛ حتى يُقْتَدَى به ويُؤْخَذَ عنه ويقبل منه، كذلك معرفة حال المدعو، ليحسن اختيار المدخل الصحيح على المـدعوين، وأيضاً لكي يستعد لما سوف يُلقى عليه من الشبه حال الدعوة، فيكون مستعدا بالعلم، وسُرْعَة البديهة، حاضر الذهن، متوقد الفهم، لا سـيما في مواقـف المنـاظرة والتحـدي، التي تكون من المبطلين والمستكبرين والمعاندين.

وكذلك لابد من اتباع الحكمة في الدعوة إلى الله، بالتدرج مـن الأعـلى إلى الأدنـى، لأن العبد إن دعوته إلى ما يراه هو أهون من أمر أعظم هو يقترفه، سـتكون الاسـتجابة ضعيفة، وذلك لأن الشيطان يدعوه إلى عدم المُبَالاة بذلك؛ لكونه واقع فيما هـو أخطـر وأقبح.

ولهذا كانت دعوة الرسل دائما البُداءة بالأهم قبل المهم، ولا أهم من التوحيد، إيمانـا بالله وكفرا بالطاغوت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَزَالقُ الشيطان:

واعلم عافانا الله وإياك، أن الشيطان، يربط المعاصي، بعضها، بالبعض الآخر، وبالطاعات كذلك، وذلك على النحو التالي:

١- أن يرقق المعصية الأدنى بالأعلى منها؛ ليقع العبد في كليهما.

٢- ترقيق المعاصي عموما، بدعوى أنها غير مؤثرة، إذ أنها سَتَنْغَمِرُ في بُحُورِ الطاعات، ورصيد الحسنات الكثيرة، التي يمتلكها هذا العبد أو ذاك.

٣- ترقيق بعض الطاعات ببعضها، بدعوى عدم حاجة العبد إليها، فهو يمتلك من الطاعات ما توصله إلى طريق النجاة، وتَخْلُصُ به إلى سبيل الخلاص.

٤- أن يهون من شأن اللَّمم، ويقول افعلها ولا حرج ما اجتنبت الكبائر؛ فتكون منه خطوات نحو الكبائر، بعد أن يرغب العبد في الإصرار على الصغائر وأنها لا تضره.

فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عائذين بالله من الشيطان الرجيم وأعوانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[لَكِنَّ النِّيَّةَ الْمَحْمُودَةَ الَّتِي يَتَقَبَّلُهَا اللهُ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا: أَنْ يُرَادَ اللهُ بِذَلِكَ الْعَمَلِ. وَالْعَمَلُ الْمَحْمُودُ: الصَّالِحُ؛ وَهُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدِ فِيهِ شَيْئًا.

وَإِذَا كَانَ هَذَا حَدُّ كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ: فَالْآمِرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنْ الْمُنْكَرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَلَا يَكُونُ عَمَلُهُ صَالِحًا إنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمِ وَفِقْهٍ وَكَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَنْ عَبَدَ اللهَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ. وَكَمَا فِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ { الْعِلْمُ إمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ }.

وَهَذَا ظَاهِرٌ فَإِنَّ الْقَصْدَ وَالْعَمَلَ إنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمٍ كَانَ جَهْلًا وَضَلَالًا وَاتِّبَاعًا لِلْهَوَى كَمَا تَقَدَّمَ وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَهْلِ الْإِسْلَامِ. فَلَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا. وَلَا بُدَّ مِنْ الْعِلْمِ بِحَالِ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ . وَمِنْ الصَّلَاحِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ أَقْرَبُ الطُّرُقِ إلَى حُصُولِ الْمَقْصُودِ. وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنْ الرِّفْقِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ r :"مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إلَّا زَانَهُ؛ وَلَا كَانَ الْعُنْفُ فِي شَيْءٍ إلَّا شَانَهُ"، وَقَالَ:"إنَّ اللهَّ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ". وَلَا بُدَّ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا صَبُورًا عَلَى الْأَذَى؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ أَذًى؛ فَإِنْ لَمْ يَحْلُمْ وَيَصْبِرْ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ. كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ:{وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُّ الرُّسُلَ - وَهُمْ أَئِمَّةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ - بِالصَّبْرِ كَقَوْلِهِ لِخَاتَمِ الرُّسُلِ ؛ بَلْ ذَلِكَ مَقْرُونٌ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ . فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا أُرْسِلَ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ . اقْرَأْ الَّتِي بِهَا نُبِّئَ فَقَالَ:{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} {قُمْ فَأَنْذِرْ} {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} {وَثِيَابَكَ فَطَهِّر} {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} فَافْتَتَحَ آيَاتِ الْإِرْسَالِ إلَى الْخَلْقِ بِالْأَمْرِ بِالنِّذَارَةِ وَخَتَمَهَا بِالْأَمْرِ بِالصَّبْرِ وَنَفْسُ الْإِنْذَارِ أَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَعُلِمَ أَنَّهُ يَجِبُ بَعْدَ ذَلِكَ الصَّبْرُ وَقَالَ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} وَقَالَ تَعَالَى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ} {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}. فَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: الْعِلْمُ؛ وَالرِّفْقُ؛ وَالصَّبْرُ؛ الْعِلْمُ قَبْلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيُ؛ وَالرِّفْقُ مَعَهُ وَالصَّبْرُ بَعْدَهُ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْ الثَّلَاثَةِ مُسْتَصْحِبًا فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ؛ وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ وَرَوَوْهُ مَرْفُوعًا؛ ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى فِي الْمُعْتَمَدِ:"لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ إِلَّا مَنْ كَانَ فَقِيهًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ؛ فَقِيهًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ؛ رَفِيقًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ؛ رَفِيقًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ؛ حَلِيمًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ حَلِيمًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ". وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الْخِصَالِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ مِمَّا يُوجِبُ صُعُوبَةً عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النُّفُوسِ؛ فَيَظُنُّ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَسْقُطُ عَنْهُ فَيَدَعُهُ؛ وَذَلِكَ مِمَّا يَضُرُّهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَضُرُّهُ الْأَمْرُ بِدُونِ هَذِهِ الْخِصَالِ أَوْ أَقَلَّ: فَإِنَّ تَرْكَ الْأَمْرِ الْوَاجِبِ مَعْصِيَةٌ: فَالْمُنْتَقِلُ مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَى مَعْصِيَةٍ أَكْبَرَ مِنْهَا كَالْمُسْتَجِيرِ مِنْ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ وَالْمُنْتَقِلُ مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَى مَعْصِيَةٍ كَالْمُنْتَقِلِ مِنْ دِينٍ بَاطِلٍ إِلَى دِينٍ بَاطِلٍ؛ وَقَدْ يَكُونُ الثَّانِي شَرًّا مِنْ الْأَوَّلِ: وَقَدْ يَكُونُ دُونَهُ؛ وَقَدْ يَكُونَانِ سَوَاءً ؛ فَهَكَذَا تَجِدُ الْمُقَصِّرَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمُعْتَدِيَ فِيهِ قَدْ يَكُونُ ذَنْبُ هَذَا أَعْظَمُ : وَقَدْ يَكُونُ ذَنْبُ هَذَا أَعْظَمُ ؛ وَقَدْ يَكُونَانِ سَوَاءً]ا.هـ.

وقال ابن القيم في (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي):[فَصْلٌ: الَّذِينَ اعْتَمَدُوا عَلَى عَفْوِ اللهِ فَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ. وَكَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ اعْتَمَدُوا عَلَى رَحْمَةِ اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ، وَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَنَسُوا أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّهُ لَا يُرَدُّ بِأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.....إلى أن قال: وَقِيلَ لِلْحَسَنِ : نَرَاكَ طَوِيلَ الْبُكَاءِ ، فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ وَلَا يُبَالِي. وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ قَوْمًا أَهْتَمُّهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: لِأَنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي ، وَكَذَبَ ، لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ لَأَحْسَنَ الْعَمَلَ. وَسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ كَيْفَ نَصْنَعُ بِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يُخَوِّفُونَا حَتَّى تَكَادَ قُلُوبُنَا تَطِيرُ؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤَمِّنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَاوِفُ]ا.هـ.

الرِّفْقُ يَكُونُ شِدَّةً ويَكُونُ لِينًا:

مسألة: هل الحكمة في الدعوة تعني اللين دائما؟.

الجواب: ليس شرطاً، فقد تكون شدة، وقد تكون ليناً،وهذا هو الرفق في الدعوة إلى الله تعالى، فإن معناه أن تفعل ما الأرفق، وهو الأصلح، ناظرا إلى حال المدعو ومن حوله وما حوله.

كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتِ اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله r فَقَالُوا السَّامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ". قَالَتْ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ:"قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأعظم ما يبين حقيقة الحكمة - وهي الرفق بين الشدة واللين - هو تدبر حال الرسول r في تعامله حال دعوته إلى الله تعالى، وإنكاره للمنكرات، فنسلك سبيله فنقع على الحكمة من بابها، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

فقد استخدم النبي r اللِّين مع الأعرابي الذي بال في المسجد؛ لأن الحكمة تقتضي اللين هنا، رفقا بالأعرابي، من ناحية سلامة دينه، وسلامة بدنه، وسلامة المسجد من تشتت النجاسة فيه.

كما في الصحيحين عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ الله r إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله r مَهْ مَهْ. قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لاَ تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ". فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله r دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ:"إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلاَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ". أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله r . قَالَ فَأَمَرَ رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ.

واستخدم r الشدة مع الرجل الذي رآى في يده خاتما من ذهب، فأخذه الرسول r بشدة فرمى به، كما في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ الله r رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ:"يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ". فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ الله r خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ. قَالَ لاَ وَالله لاَ آخُذُهُ أَبَدًا، وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ الله r .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالنبي r هنا التفت إلى حالة الأمة العامة، وإلى من حوله، فلو ترك الأمر إلى وقت آخر، لظن البعض أن التحريم قد نسخ، ولو تساهل معه في التعامل لظن البعض أن في الأمر سعة، فاستلزم المقام الشدة؛ فباشرها عليه الصلاة والسلام.

وكذلك في قصة أهل بَرِيرَةَ مع عائشة رضي الله عنها، كما الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ دَخَلَتْ عَلَيَّ بَرِيرَةُ فَقَالَتْ إِنَّ أَهْلِي كَاتَبُونِي عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ فِي تِسْعِ سِنِينَ فِي كُلِّ سَنَةٍ أُوقِيَّةٌ. فَأَعِينِينِي. فَقُلْتُ لَهَا إِنْ شَاءَ أَهْلُكِ أَنْ أَعُدَّهَا لَهُمْ عَدَّةً وَاحِدَةً وَأُعْتِقَكِ وَيَكُونَ الْوَلاَءُ لِي فَعَلْتُ. فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لأَهْلِهَا فَأَبَوْا إِلاَّ أَنْ يَكُونَ الْوَلاَءُ لَهُمْ فَأَتَتْنِي فَذَكَرَتْ ذَلِكَ قَالَتْ فَانْتَهَرْتُهَا فَقَالَتْ لاَهَا الله إِذَا قَالَتْ. فَسَمِعَ رَسُولُ الله r فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ:"اشْتَرِيهَا وَأَعْتِقِيهَا وَاشْتَرِطِي لَهُمُ الْوَلاَءَ فَإِنَّ الْوَلاَءَ لِمَنْ أَعْتَقَ". فَفَعَلْتُ - قَالَتْ - ثُمَّ خَطَبَ رَسُولُ الله r عَشِيَّةً فَحَمِدَ اللهَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ:"أَمَّا بَعْدُ فَمَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ الله مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ كِتَابُ الله أَحَقُّ وَشَرْطُ الله أَوْثَقُ مَا بَالُ رِجَالٍ مِنْكُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ أَعْتِقْ فُلاَنًا وَالْوَلاَءُ لِي إِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ".

وهكذا كانت دعوة إخوانه من الأنبياء والمرسلين يستعملون الشدة واللين بحسب المقام والحال، فهذا موسى يقول الله تعالى في شأنه:{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه:٤٣-٤٤]، فلما تعنت فرعون تغير الخطاب، كما قال تعالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هَـؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَـائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّـكَ يَـا فِرْعَـوْنُ مَثْبُـورًا} [الإسراء:١٠١-١٠٢]، وقال:{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [القصص:٣٦-٣٧].

وكذلك لوط عليه الصلاة السلام، تلاحظ اختلاف الخطاب في السياقين هنا، قال تعالى:{وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَّ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود:٧٨]، وقال:{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} [العنكبوت:٢٨-٣٠].

وكذلك شعيب عليه السلام، قال تعالى{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود:٨٧-٨٨] إلى أن قال لهم:{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ} [هود:٩٢-٩٣].

ونحو ذلك، ما كان من نوح عليه السلام، كما قال تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} [المؤمنون:٢٣-٢٦]، ومثل هذا كثير في قصص الأنبياء والمرسلين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

المسألة الرَّابِعَةُ:الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم:{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:بَابٌ:العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} [محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ:(قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ).

الشرح

قوله:(المسألة الرابعة الصبر على الأذى فيه): لما كان طريق الدعوة إلى الله عز وجل ليس مفروشاً بالرياحين، وليس أمراً يسيراً، بل لربما أن يكون محفوفا ببعض المخاطر والصعاب، فالابتلاء قد كتبه الله على الخلائق؛ أراد المؤلف رحمه الله تعالى أن يذكرنا بأن من سلك هذا الطريق لابد له من أن يستعد لتحمل الأذى في سبيل هذه الغاية العظيمة الجليلة، ولأصحابها العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، كما هو حال الأنبياء والرُسل،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأن نعلم أن هذه السُّنَّةُ ماضية لا تحابي أحدا، وعلى المضطلعين بهذا الدور الريادي في الأمة، أن يتذكروا سنة الابتلاء، وأن يتفهموا ذلك تماما، سائلين الله تعالى الإعانة والسداد، والعافية والسلامة، كما قال تعالى:{الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت:١-٦].

تعريف الصبر:

والصبر لغة: الحبس والمنع ، ومنه قوله تعالى:{ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} [مريم:٢٦]، أي نذرت أن أحبس نفسي عن الكلام وأمنعها.

وشرعاً: حبس النفس على طاعة الله، وعن معصية الله وعلى الرضا، بأقدار الله.

وجاء في كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: (الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله).

وفي تفسير ابن أبي حاتم عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ t ، قَالَ:"الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ، واليقين الإِيمَانِ كُلِّهِ"، قَالَ: فذكرت هَذَا الحَدِيث للعلاء بن يَزِيد t ، فقال: أوليس هَذَا في القرآن"{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُوقِنِينَ}.ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلت: ورواه وكيع في الزهد بسند صحيح أيضا، وجاء عند غيرهم، وقد روي مرفوعا ولا يصح رفعه.

أقسام الصَّبر: والصبر من حيث الجملة ينقسم إلى قسمين:

أ- الصبر المحمود. **ب- الصبر المذموم.**

أما الصبر المذموم: فهو الصبر على المعاصي والضلال، وأخطره وأخْبَثُهُ، الصبر على الشرك والكفر والنفاق، وهذا صبر أهل الجاهلية، وسيورثهم ما لا صبر لهم عليه، وما لا قبل لهم به، الحجاب عن رؤية الله تبارك وتعالى، ثم نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى، مع عظيم الحسرة والندامة، والخلود الأبدي، في النار، عياذا بالله من الخذلان.

كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [المطففين:٧-١٧].

كما أن العاصي يتجرع ألوانا من غصص المعاصي ولَأْوَائِها، فضيق الصدر، وقلة البركة، وقلة الرزق،وضنك العيش، مع الهم والغم،والأدواء والأسقام، وفساد الأحوال، وتسلط الأهل والعشيرة والجيران، وتسلط الأعداء، وغير ذلك كثير، كله بسبب المعصية لله تعالى؛ ومع ذلك يتصبرون على المعصية، قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم:٤١].

وقد تنوعت السياقات في القرآن العظيم في هذا الصدد، تحذيرا للعباد، وتنفيرا لهم، وترغيبا في البعد عن المعاصي، والإقلاع عنها، وترغيبا في التوبة النصوح، وسلوك السراط المستقيم، وأنه لا سواء بين أصحاب المعاصي المُصِرِّين عليها، الصابرين عليها، وبين أهل الطاعة والتقى، الرَّجَّاعون إلى الله تعالى من قريب بالتوبة النصوح، فليس عندهم إصرار، ولا عزيمة مستقرة على العصيان، ولكنها عوارض الشيطان وسِهَامُه، التي سرعان ما يَتَخَفَّفُونَ منها بالتوبة النصوح، والرجوع السريع إلى جادة الصواب، وإلا فإن المتقي ليس معصوما، ولكنه يتميز عن غيره، بمجاهدة النفس ألا تقع في العصيان، فإن زَلَّت قدمه، بَادَرَ إلى ربه، فاستغفره وتاب إليه، وأتبع سيئاته بالحسنات، بخلاف الفساق أصحاب المعاصي، فإنهم يأخذون المَدَدَ من إخوانهم من شياطين الإنس أو الجن؛ ليزدادوا فجورا وتعنتا وعصيانا، كما قال تعالى مبينا حال الفريقين: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ}[الأعراف:٢٠١-٢٠٢].

وهكذا كان آدم عليه السلام لما وقع في المعصية، لم يكن ذا عزيمة وإصرار، وإنما هو غرور الشيطان وخداعه، الذي سرعان ما تنبه إليه؛ فثاب إلى ربه من قريب، فاصطفاه واجتباه، وتاب عليه وهداه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى {(١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } [طه:١١٥-١٢٥].

هبوطان فانتبه:

وعليه فلْنعلم أنها هما هُبُوطَان، في قوله تعالى:{قَالَ اهْبِطُوا}{قَالَ اهْبِطَا}، فَهُبُوطٌ باستكبار وإصرار، كإبليس اللعين، وهُبُوطٌ بتوبة واعتراف واستغفار، كآدم وحواء عليهما السلام، فكان حظ آدم وحواء عليهما السلام، التواضع والنَّدَم على ما بَدَر، والحرص على نشر الخير، والأمر بالتوبة النصوح، وطاعة الله تعالى؛ فتداركهما الله تعالى برحمته؛ فاجتباهما وغفر لهما، وذلك بخلاف الشيطان، الذي أَصَرَّ على معصيته، واستكبر وكان من العالين، وهبط بِنِيَّةٍ مَاكِرَةٍ، وطَوِيَّةٍ غادرة حاسدة فاجرة كافرة، قد أفصح عن إرادة الإفساد في الأرض، وإضلال العباد، ولِكُلٍّ من آدم عليه السلام، وإبليس اللعين، ورَثَةٌ يَرِثُونَ طريقتهم، فترى أفواج التائبين الطائعين المخبتين، وترى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أفواج المُصِرِّين المستكبرين المفسدين، نسأل الله تعالى لنا ولكم أن نكون من التوابين المتطهرين، إلى أن نلقى الله تبارك وتعالى بقلب سليم.

وعلينا أن نتذكر دائما، أن هذا الهبوط، دال على نزول الرُّتْبَة، أي رتبة العبد عند الله تعالى، فمنهم من يعود إلى ما كان عليه، أو أفضل، بالتوبة النصوح، وإتباع السيئة الحسنة، ومنهم من يتمادى في الغي الضلال؛ حتى يَصِيرَ إلى أُمِّه الهَاوِية، عياذا بالله من الخذلان.

قال تعالى: {وَبَرَزُوا لله جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [إبراهيم:٢١-٢٣].

وإليك جملة من الآيات في هذا الصدد: قال تعالى{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل:٤٥-٤٧]، وقال:{وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر:٩]، وقال: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية:٢١]، وقوله: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود:٧٨]، وقوله: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس:٢٦-٢٧]، وقوله:

وقال تعالى في صبر المشركين والكافرين، وهو كما تقدم أخبث وأقبح دَرَكَات الصبر المذموم: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان:٤١-٤٣]، وقوله: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} [ص:٤-٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النوع الثاني: الصبر المحمود: وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام[١]:

١- الصبر على طاعة الله. ٢- صبر عن معاصي الله. ٣- صبر على أقدار الله.

أما الصبر على طاعة الله: فإن العبد لابد لهمن أن يستقيم على صراط الله، وأن يدخل في السلم كافة، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة:٢٠٨-٢٠٩]، وأن يأخذ بالتي هي أحسن ليهتدي إلى التي هي أقوم، كما قال تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٤٥]

وهو عاجز عن أن يقوم بذلك مع الجزع؛ ولهذا شرع الله لعباده الصبر؛ ترويضا للنفس التي غالبا ما يستهويها الجزع؛ فتنكل عن العمل بطاعة الله عز وجل، والمتأمل في الصبر المحمود يجد أنه لن يستقيم لعبد دينه إلا به.

فمن لم يحبس النفس على طاعة الله ويصبرها؛ سرعان ما ينقلب والعياذ بالله، وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز حال العبد الذي لا يصبر، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

١- وقد قسمها بعض أهل العلم تقسيما غير هذا ولكن المعنى متقارب، كما فعل ابن القيم رحمه الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج:١١] .

وفي الصحيحين وهذه رواية مسلم عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله r :"حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات"، وفي لفظ للبخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله r قال:"حُجِبَت النار بالشهوات، وحُجِبَت الجنة بالمَكَارِه".

أعداء الإنسان الخمسة:

والمكاره هي جملة المأمورات والمنهيات الشرعية التي تكرهها النفوس الأمارة بالسوء ويبغضها الهوى والشيطان، ورفقاء السوء، فهؤلاء أربعة أعداء للمؤمنين يجتهدون في قطع الطريق عليهم إلى الله رب العالمين.

وخامس الأعداء الدنيا، إذا اغتر بها العبد، وركن إلى زخرفها، فأنسته ربه تبارك وتعالى، فعندها تكون شراً على العبد،حتى إذا ما أخذ الإنسان أمره بالجد؛ فجعل من الدنيا مطية للآخرة، وزمنا لتحصيل الأعمال الصالحة،مع الصدق والإخلاص لله تعالى؛ صارت نِعْمَ الدَّار يُتَوَصَّلُ بها إلى رضوان الله تعالى وجنته، وأما من أتبع نفسه هواه، وركن إليها كانت شراً له، ومن أخذ منها خيرا وشرا، وحقا وباطلا؛ فهذا خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فهو بحسب طبيعة الشر الذي جمعه، وقوة الخير الذي جاء به.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن كان الشر دون نواقض الإسلام، فهو برجاء ما في هذه الآية، إن تحقق فيه وَصْفُها: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة:١٠٢]، ولكن الحذر الحذر، فقد دلت النصوص أن هناك من عصاة الموحدين من سيدخل حتما نار الجحيم، ثم مآله إلى الجنة.

قال الناظم:

إني بليت بخمسة يرمينني ... بالنَّبْلِ لا أرجو لهن فكاكا
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... وأخو الضلالة قصده إغْوَاكا
يا رب ساعدني بفضل ... إنني أصبحت لا أرجو لهن سواكا

وتأمل في قوله تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف:١٢٨]، وقوله: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال:٤٦].

إذن لابد من الصبر على الطاعة، فجميع الأعمال الصالحة تحتاج للقيام بها إلى هذا النوع من الصبر، وإلا كان الجزع والعياذ بالله، فالصلاة مثلاً، ليست بالأمر اليسير، فإنها تحتاج إلى صبر عظيم عليها، وإلا فإن الشياطين بالمرصاد، و تأمل في حال المسلمين اليوم؛ لترى كثيرا ممن غاب عنهم الصبر على هذه الطاعة. والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعاقل حَجِيجُ نفسه، فمن علم أنه لا تقبل منه الأعمال الصالحة إلا بالصلاة والصبر عليها، وأشدها صلاة الفجر؛ وجب عليه الصبر عليها، وكذلك الخشوع في الصلاة أمره شديد يحتاج إلى صبر عظيم، فليس للإنسان من صلاته إلا ما عقل.

وكذلك طالب العلم يحتاج إلى صبر؛ ولذلك طلبة العلم الحقيقيون هم في كل زمان أقل القليل؛ وذلك لأن طلب العلم يحتاج إلى صبر ومصابرة ومرابطة، فعلى العبد أن يجعل هذا الصبر نصب عينيه دائما أثناء طلبه للعلم، وأن يُوَطِّنَ نفسه على ذلك، لاسيما وهو في بداية الطلب؛ فإن الصبر في البداية يورث المصابرة والمرابطة بإذن الله تعالى، فما يلبث أن يصبره الله تعالى، كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري t عن النبي r أنه قال:"ومَن يَتَصَبَّر يُصَبِّره الله ومن يستغن يُغْنَهِ الله ولن تُعْطَوا عطاء خيرا وأوسع من الصبر". وفي لفظ لمسلم:" ومن يَصْبِر يُصَبِّره الله".

والله تعالى يقول: {وَاتَّقُوا اللهَّ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُّ وَاللهُّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[البقرة:٢٨٢]، ويقول سبحانه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَّ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال:٢٩].

فالعلم أمره عظيم؛ ولهذا يحتاج إلى صبر عظيم، فإذا وجد طالب العلم حلاوة العلم، اجتهد في الصبر على هذا العلم، وقد نقل عن بعض السلف:[لا أعلم أمراً يأتي بعد مرتبة النبوة كتعلم العلم وتعليمه][1].

---

١ - هو قول منسوب إلى عبد الله بن المبارك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابن عبد البر في الاستذكار:[ومما يشبه هذا ما جَاوَبَ به مَالِكُ بنُ أنس، العُمَرِيَّ العابد وهو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل، وترك مجالسة الناس في العلم وغيره، فكتب إليه مالك: إن الله تعالى قسم بين عباده الأعمال، كما قسم الأرزاق، فَرُبَّ رَجِلٍ فَتَحَ له في الصلاة، ولم يَفْتَح له في الصوم، وآخر فَتَحَ الله له في الجهاد، ولم يَفْتَحْ له في الصلاة، وآخر فَتَحَ له في الصدقة، ولم يَفْتَح له في الصيام. وقد عَلِمْت أنَّ نَشْرَ العلم وتعليمه من أفضل الأعمال، وقد رَضِيتُ بما فتح الله لي فيه، وقسم لي منه، وما أظن ما أنا فيه بِدُونِ ما أنت فيه من العبادة، وكلانا على خير إن شاء الله].ا.هـ.

وقال ابن القيم في مفتاح دار السعادة:[قوله:{أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون في سبيل الله، هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم، فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز و جل، قال كعب الأحبار: طالب العلم كالغادي الرايح في سبيل الله عز و جل، وجاء عن بعض الصحابة **y**: إذا جاء الموتُ طَالبَ العلم وهو على هذه الحال؛ مات وهو شهيد. وقال سفيان بن عيينة:من طلب العلم؛ فقد بايع الله عز و جل، وقال أبو الدرداء **t** :من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد؛ فقد نقص في عقله ورأيه]ا.هـ.

قال ابن القيم في نونيته:

والعلم يدخل قلب كل موفق ... من غير بواب ولا استئذان

ويرده المحروم من حرمانه ... لا تشقنا اللهم بالحرمان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك الزكاة والصدقات؛ تحتاج إلى صبر عظيم؛ فإن المال مُزَيَّنٌ محبوب للنفوس، وكثيرا ما تشح به، وتفشل في الامتحانات المالية، كما قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران:١٤]، وقال: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [الحديد:٢٠]، وقال: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن:١٥]، وقال: {وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: ١٨-٢٠].

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ".

ولهذا هددنا الله تبارك وتعالى بقوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [التوبة:٧٥-٧٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عن أبي سعيد t قال النبي r :"وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ هُوَ، لِمَنْ أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ"، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ r "وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

وكذلك الصبر على الحج والعمرة، والصبر على الصيام، فهو شهر التقوى والصبر، وكذلك بر الوالدين يحتاج إلى صبر، وخاصة في هذا الزمان، ولذلك جعل الله من شكره شكر الوالدين، كما قال تعالى:{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} [الإسراء:٢٣-٢٥]

فقرن سبحانه عبادته، التي هي حقه على عباده، مع طاعة الوالدين، فلابد من توطين النفس على الصبر على ذلك، واحتساب الأجر من الله عز وجل، وكذلك الأمر في جميع الطاعات والقُرُبَات المفروضة والنافلة، وتأمل هذا الحديث القدسي، الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال:قال رسول الله r :"إن الله قال:من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولئن استعاذني لأُعِيذَنَّه وما تَرَدَّدت عن شيء أنا فَاعِلُه تَرَددِي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَسَاءَتَه".

وفي الجملة فإن أي عبادة تحتاج إلى صبر، وسِرُّ المسألة أن كل طاعة، هي مخالفة لطريق الشيطان ومراداته؛ وعليه فلابد من أنه سيجتهد كل الاجتهاد، أن يقف حَجَر عَثْرَةٍ في سبيل عدم تحقيقها والقيام بها، كما قال تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف:١٦-١٧]، ونحن مأمورون بإحراقه بضياء الصبر.

كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاَةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا".

ب- **الصبر على ترك معصية الله تبارك وتعالى**: وهي قرينة للأولى، فإن الشيطان لا يَهُمُّهُ ولا يُكْرِثُه، أن يَهْلِكَ ابن آدم في أي باب ما، سواء في الغلو في الدين، أو التقصير فيه، وعدم الصبر عن المعاصي نوع من التقصير والجفاء، واليوم كثير مما حول الإنسان من قريب أو بعيد، يدعوه إلى المعصية ويزينها له، إلا من رحم الله وقليل ما هم، ومِنْ هنا تظهر أهمية اختيار الصاحب والرفيق في الطريق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف:٣٦-٣٩]، وقال: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان:٢٧-٢٩].

وكما قيل :الصَّاحِب سَاحِب.

وقال الناظم: ومن يكن الغراب له دليلا ... يمر به على جيف الكلاب

وقال آخر:

إذا صحبت القوم فاصحب خيارهم ... ولا تصحب الأَرْدَى فَتَرْدَى مع الرَّدِي

فأقول: جميع المعاصي تحتاج إلى صبر عنها، وأنت إذا تأملت في العالم اليوم رأيت أن أكثر الناس حبسهم الشيطان وأعوانه في غمرة المعاصي وذلها وعارها، فالأكثر مع الغناء والأفلام والمسلسلات ولعب الكرة وغير ذلك من المحرمات، ناهيك عن الزنا واللواط وشرب الخمور وأكل الربا والعقوق، والغيبة والنميمة وعموم الفواحش، وفوق ذلك كله وقوع كثير من العباد في الشرك والكفر والنفاق - عياذا بالله من الحور بعد الكَوْر، ومن الرِّدَّةِ بعد الإسلام -، مع غفلة شديدة عن دين الله تباك وتعالى، وهذا من جملة ما يعاقب به العبد عند إقباله على الشهوات المحرمة، وإعراضه عن طاعة الله جل وعلا، كما قال تعالى مهددا عباده: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٤٦].

ومن جميل ما نقل عن علي t ، وقيل عن ابن المبارك رحمه الله:

ومن البلاءِ وللبلاءِ عَلامةٌ ... أن لا يرى لك عن هواكَ نُزوغُ

العبدُ عبدُ النفسِ في شهواتِها ... والحُرُّ يشبعُ تارةً ويَجُوعُ

وكفاكَ من غير الحوادثِ أنه ... يبلى الجديدُ ويحصدُ المزروعُ

وإليك هذا الكلام النفيس في آثار الذنوب والمعاصي على العباد في الدنيا والآخرة، نقلته بعد اختصار غير مخل، تكميلا للفائدة في هذا المقام:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه القيم:(الجواب الكافي):[فصل:وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله فمنها حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تُطْفِىء ذلك النور ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية وقال الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم فضل ... وفضل الله لايؤتاه عاصي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنها:حرمان الرزق، ومنها الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ولاسيما أهل الخير منهم. فإنه يجد وحشة بينه وبينهم وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن. **ومنها:** تعسير أموره عليه فلا يتوجه لأمر الا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه وهذا كما إن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسرا. ويا لله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لايعلم من أين أتى. **ومنها:** ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فان الطاعة نور والمعصية ظلمة وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والامور المهلكة وهو لايشعر كاعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده. وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا في الوجه حتى يراه كل أحد قال عبد الله بن عباس ان للحسنة ضياء في الوجه ونورا في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة سوادا في الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق. **ومنها:** أن المعاصي توهن القلب والبدن أما وهنها للقلب فامر ظاهر بل لايزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه وكلما قوى قلبه قوى بدنه وأما الفاجر فانه وإن كان قوي البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة فتخونه قوته عند أحوج ما يكون إلى نفسه فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانهم عند أحوج ما كانوا اليها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم. **ومنها:**حرمان الطاعة. **ومنها:**أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولابد فان البر كما يزيد في العمر فالفجور ينقص. **ومنها:**أن المعاصي تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها أعملني أيضا فاذا عملها قالت الثانية كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح وتزايدت الحسنات وكذلك كانت السيئات أيضا حتي تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الارض بما رحبت وأحسن من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتي يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاق صدره وأعيت عليه مذاهبه حتي يعاودها حتي أن كثيرا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ولا داعية اليها إلا لما يجد من الالم بمفارقتها كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانيء حيث يقول:

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر:وكانت دوائى وهي دائي بعينه ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولايزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تأزه اليها أزا وتحرضه عليها وتزعجه عن فراشه ومجلسه اليها ولايزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتي يرسل الله اليه الشياطين فتأزه اليها أزا فالأول قوي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جند الطاعة بالمدد فكانوا أكثر من أعوانه وهذا قوي جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه. **ومنها** وهو من أخوفها على العبد أنها لضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا الى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب الى الله فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشيء كثير وقلبه معقود بالمعصية مصر عليها عازم على مواقعتها متي أمكنه وهذا من أعظم الامراض وأقربها إلى الهلاك. **ومنها:**أنه ينسلخ من القلب إستقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة حتي يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها. فيقول ياقلان عملت كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لايعافون وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب. **ومنها:** أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الامم التي أهلكها الله عز وجل. **ومنها:** أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه. **ومنها:**أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم. **ومنها:** أن المعصية تورث الذل ولا بد فان العز كل العزفى طاعة الله تعالى قال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعا أي فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها الا في طاعته وكان من دعاء بعض السلف اللهم أعزاني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك قال الحسن البصري انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لا تفارق قلوبهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين الا الملوك ... وأحبار سـوء ورهبانها

ومنها:أن المعاصي تفسد العقل فان للعقل نورا والمعصية تطفيء نور العقل ولابد. **ومنها:** أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين. **ومنها:** أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول فانه لعن على معاصى والتي غيرها اكبر منها فهي اولى بدخول فاعلها تحت اللعنة. **ومنها:** حرمان دعوة رسول الله ودعوة الملائكة. **ومن** عقوبات المعاصي: ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب t :قال:كان رسولُ الله r مِمَّا يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ لأصحابه:"هل رأَى أحدٌ منكم من رؤيا" فَيَقُصُّ عليه ما شاء الله أن يقصَّ، وإنه قال لنا ذَاتَ غَدَاةٍ:"إنه أتاني اللَّيْلَةَ آتيان، وإنَّهُما ابْتَعَثَانِي، وإنَّهُمَا قالا لي:انطَلِقْ، وإنِّي انطلقتُ معهما، وإنَّا أتَيْنا على رَجُلٍ مُضْطَّجِعٍ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بصَخْرةٍ، وإذا هو يَهْوِي بالصخرةِ لرأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ فَيَتَدَهْدَهُ الحَجرُ ها هنا، فَيَتْبَعُ الحجرَ فيأخُذُهُ، فلا يرجِعُ إليه حتَّى يصِحَّ رأْسُهُ كما كان، ثم يعود عليه، فيفعلُ به مثلَ ما فعلَ المرةَ الأولى، قال:قلتُ لهما:سبحانَ الله! ما هذا، قال:قالا لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فأتينا على رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بِكَلُّوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ، فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قَفاهُ، ومِنْخَرَهُ إلى قفاهُ، وَعَيّنَهُ إلى قفاهُ قال:ورُبَّما قال أبُو رجاءٍ: فَيَشُقُّ- قال:ثم يتحَوَّلُ إلى الجانب الآخر، فَيَفْعَلُ به مثل ما فَعَل بالجانب الأول، قال:فما يفْرَغُ من ذلك الجانب حتى يصِحَّ ذلك الجانبُ كما كان، ثم يعود عليه، فيفعَلُ مثلَ ما فَعَلَ المرّةَ الأولى، قال:قلتُ:سبحان الله!! ما هذا، قال:قالا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانطَلَقنا، فَأَتيْنا على مثل التَّنُّورِ، قال:فَأحْسِبُ أنه كان يقول:فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ، قال:فاطّلَعْنا فيه، فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ، وإذا هُمْ يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم، فإذا أَتاهم ذلك اللَّهبُ ضَوْضَوْا، قال:قلتُ لهما:ما هؤلاء، قال:قالا لي انْطَلِقْ انْطَلِقْ، قال:فانطَلَقنا، فَأتينَا على نَهْرٍ حَسِبْتُ أنَّهُ كان يقول: أحْمَرَ مِثْل الدَّم وإذَا في النَّهْرِ رجُلٌ سابِحٌ يسْبَحُ، وإذا على شط النهر رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عنْدهُ حِجَارَة كَثيرة، وإذا ذلك السابح يسْبَحُ ما سَبَحَ، ثم يأتي ذلك الذي قَد جَمَعَ عنْده الحجارة، فَيَفْغَرُ فَاهُ، فَيُلْقِمُهُ حَجَرا، فيَنْطَلِقُ فيَسْبَحُ، ثم يرجعُ إليه، كُلَّما رَجع إليه فَغَر فَاهُ، فأَلْقَمَهُ حجرا، قال:قلتُ لهما:ما هذا، قال:قالا لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانطَلَقْنَا، فَأَتيْنا على رَجُل كَرِيه المَرْآة، أَو كَأكْرَهِ مَا أنت رَاءٍ رجُلا مَرْأى،وإذا عندَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا ويَسْعَى حَوْلَهَا، قال:قلتُ لهما:ما هذا، قال:قالا لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانطَلقنا، فَأَتيْنا على رَوْضَةٍ مُعَتَّمَةٍ مُعْشِبَةٍ، فيها من كل نَوْر الرَّبيع، وإذَا بيْنَ ظَهْرَيْ الرَّوَضةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لا أكادُ أرى رَأْسَهُ طُولا في السَّمَاءِ، وإذا حَوْلَ الرَّجُلِ من أكثر ولْدَانٍ رأيتُهم قَطُّ قال:قلتُ لهما:ما هذا، ما هؤلاء، قال:قالا لي:انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فانطَلقنا، فَأَتيْنا على دوْحةٍ عَظيَمة، لم أرَ دَوْحَة قطّ أعظَم منها ولا أحْسَن، قال:قالا لي:ارْق فيها، قال:فَارتَقَيْنَا فيها إلى مَدينةٍ مبنيَّة بلبِنٍ ذَهَبٍ ولَبِنٍ فِضَّةٍ، قال:فَأتينا بابَ المدينةِ، فَاْستفتحنا، ففُتِحَ لنا، فدخلناهَا، فتَلَقَّانَا رِجالٌ شَطْرٌ من خَلقِهم كأحْسَنِ ما أنتَ رَاءٍ، وشَطْر منهم كأقْبَح ما أنتَ رَاءٍ، قال:قالا لهم: اذْهَبُوا فَقَعُوا في ذلك النهر، قال:وإذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يجري كأنَّ مَاءهُ المْحض في البياض، فَذَهَبَوا، فَوَقَعُوا فيه، ثم رَجعوا إلينا قد ذَهب ذلك السوءُ عنهم، فصارُوا في أحْسَنِ صُورَةٍ، قال:قالا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لي:هذه جَنَّةُ عَدْنٍ، وهَذَاك منزلكَ ، قال : فَسَما بَصري صُعُدا ، فإذا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابةِ البيضاء ، قال: قالا لي : هَذاك منزلُك، قال:قلتُ لهما: بارك اللهُ فيكما، فَذَرَانِي فأدْخُلَهُ، قال:أما الآنَ فلا، وأنت دَاخِلُهُ، قال:قلت لهما:فإني رأَيتُ منذُ الليلة عجبا، فما هذا الذي رأيتُ، قال:قالا لي: أمَا إنَّا سَنُخْبِرُك، أمَّا الرجل الأول الذي أتيتَ عليه يُثْلَغُ رأْسُه بالحجَرِ، فإنَّهُ الرجلُ يأخذ القرآن، فيرفُضُه، وينام عن الصلاة المكتوبة، وأنّ الرجل الذي أتيتَ عليه يُشَرْشَرُ شِدْقُه إلى قفاه، ومِنْخَرُه إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يَغْدُو من بيته، فيكذِبُ الكَذْبة تبلغُ الآفاق، وأما الرِّجال والنساءُ العراةُ الذين هم في مثل بناء التَّنُّور، فإنهم الزُّنَاةُ والزَّواني، وأما الرَّجُلُ الذي أتيتَ عليه يَسبْحُ في النهر، ويُلْقَمُ الحجارةَ، فإنه آكلُ الرِّبا، وأما الرجلُ الكريه المْرآة الذي عند النار يَحُشُّها ويسعى حولها، فإنه مالِكٌ خازنُ جهنم، وأَما الرجل الطويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم، وأما الْوِلْدَانُ الذين حَوْلَه، فكل مولود مات على الفِطْرة"، قال: فقال بعضُ المسلمين:يا رسول الله:وأولاد المشركين؟، فقال رسول الله r :"وأولادُ المشركين، وأَما القوم الذين كانوا شَطْرٌ منهم حَسَنٌ، وشطر منهم قبيحٌ، فإنهم قومٌ خَلَطُوا عملا صالحا وآخر سيئا، تجاوَزَ اللهُ عنهم". **ومن** آثار الذنوب والمعاصي: أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن قال تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون. **ومن** عقوباتها:أنها تطفي من القلب نار الغيرة التي هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن فان الغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المذمومة كمال يخرج الكير خبث الذهب والفضة. **ومن** عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير. **ومن** عقوباتها: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله وتضعيف وقاره في قلب العبد ولابد شاء أم أبى ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرء على معاصيه وربما اغتر المغتر وقال إنما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء وطمعي فى عفوه لا ضعف عظمته في قلبي وهذا من مغالطة النفس فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرمانه يحول بينه وبين الذنوب والمتجرؤن على معاصيه ما قدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل وكفى بالعاصى عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه ومن بعض عقوبة هذا أن يرفع الله عز و جل مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخف به فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته يعظم الناس حرماته. **ومن** عقوباتها:أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لا يرجي معه نجاة. **ومن** عقوباتها: أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين. **ومن** عقوبتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطوا إلى الله خطوة هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التي تسيره فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه والله المستعان. **ومن** عقوبات الذنوب:أنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب.....وقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فَارْعَها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وَحُطْها بطاعة رب العباد ... فَرَبُّ العباد سريع النِّقَم
وإياك والظلم مهما استطعت ... فظلم العباد شديد الوَخَم
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم ... شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر ... من الظلم وهو الذي قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن ... قصور وأخرى عليهم أَطَم
صُلُوا بالجحيم وفات النعم ... وكان الذي نالهم كالحلم

ومن عقوباتها:ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي فلا تراه الا خائفا مرعوبا فإن الطاعة حصن الله الاعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانا ومن عصاه انقلبت مأمنه مخاوف.....وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه وكلما اشتد القرب قوى الأُنس والمعصية توجب البعد من الرب وكلما زاد البعد قويت الوحشة. **ومن** عقوباتها:أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضا معلولا لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينتفع بالاغذية التي بها حياته وصلاحه وتأثير الذنوب في القلوب كتأثير الامراض في الابدان بل الذنوب أمراض القلوب ودائها ولادواء لها الا تركها. **ومن** عقوباتها:أنها تعمي بصر القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية. **ومن** عقوباتها:أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره كما ان الطاعة تنمها وتزكيها وتكبرها قال تعالى:{قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها}. **ومن** عقوباتها:أن العاصي دائما في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ولا أسير أسوء حال من أسير أسره أعدى عدوله ولا سجن أضيق من سجن الهوى ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد. **ومن** عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه فان أكرم الخلق عند الله أتقاهم وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده فاذا عصاه وخالف امره سقط من عينه فاسقطه من قلوب عباده. **ومن** عقوباتها:أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمنقي والمطيع والمنيب والولى والورع والمصلح والعابد والخائف والاواب والطيب والرضى ونحوها وتكسوه اسم الفاجر والعاصى والمخالف والمسيء والمفسد والخبيث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن واللوطي والغادر وقاطع الرحم وأمثالها فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الايمان التي توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزى والهوان وتلك أسماء توجب رضاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرحمان ودخول الجنان. **ومن** عقوباتها:أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص الا وعقل المطيع منهما أو فر وأكمل وفكره أصح ورأيه أمد والصواب قرينه. **ومن** أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر. **ومن** عقوباتها:أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا. **ومن** عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد ان كان مهيئا لأن يكون من العلية فان الله خلق خلقه قسمين علية وسفلة وجعل عليين مستقر العلية وأسفل سافلين مستقر السفلة وجعل أهل طاعته الاعليين في الدنيا والاخرة وأهل معصيته الاسفلين في الدنيا والآخرة. **ومن** عقوباتها: أنها تخون العبد أحوج ما يكون الى نفسه فأن كل أحد محتاج الى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم.....فاذا وقع مكروه واحتاج الى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه اذا جذبه فعرض له عدو يريد قتله فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه فدهمه العدو وظفر به كذلك القلب يصدىء بالذنوب ويصير مثخنا بالمرض فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئا.....وأدهي وأمر وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الى الله تعالى فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل لا إله إلا الله فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فقال شاه رخ غلبتك ثم قضى وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فقال:يارب قائلة يوما وقد تعبت ... أين الطريق الى حمام منجاب.... ثم قضى وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يهذي بالغناء ويقول تاتا ننتتا فقال وما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية الا ركبتها ثم قضى ولم يقلها وقيل لآخر ذلك فقال وما يغني عني وما أعلم اني صليت لله تعالى صلاة ثم قَضَى، ولم يقلها، وقيل لآخر ذلك، فقال هو كافر بما تقول وقضى، وقيل لآخر ذلك، فقال كلما أردت أن أقولها فلساني يمسك عنها، وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فلس لله فلس حتى قضى، وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله وهو يقول هذه القطعة رخيصة هذا مشترى جيد هذه كذا حتى قضى، وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم، وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصي، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه من ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوطه قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألَمِ النَّزْعِ، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه؛ لينال منه فرضته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوي ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة، فمن ترى يسلم على ذلك، فهناك:{يثبت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء}.فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا.**ومن** عقوباتها:أنها مَدَدٌ من الإنسان يُمِدُّ به عَدُوَّهُ عليه وجَيْشٌ يُقَوِّيهِ بِه على حَرْبِه.....ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقون بها وأمد عدوهم أيضا بجند وعساكر يلقاهم به وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالاضافة الى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها]ا.هـ.

احذر من خبايا النفس ودسائسها:

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم:[وإنَّ خاتمة السُّوءِ تكونُ بسبب دسيسةٍ باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس ، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك ، فتلك الخصلة الخفية توجب سُوءَ الخاتمة عند الموت ، وكذلك قد يعمل الرجلُ عملَ أهل النَّارِ وفي باطنه خصلةٌ خفيةٌ من خصال الخير ، فتغلب عليه تلكَ الخصلةُ في آخر عمره ، فتوجب له حسنَ الخاتمة. قال عبد العزيز بن أبي روَّاد : حضرت رجلاً عند الموت يُلَقَّنُ لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافرٌ بما تقول، ومات على ذلك، قال: فسألتُ عنه، فإذا هو مدمنُ خمرٍ. فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب، فإنَّها هي التي أوقعته]ا.هـ.

وقال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:{واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير}، أي متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد وعداوتها أضر من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عداوة العدو الخارج فالنصر على هذا العدو أهم والعبد إليه أحوج وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله، وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى بعد هذا في حقيقة الاعتصام وأن الإيمان لا يقوم إلا به، ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له وأنك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده واشتدت عليه مفارقته وعلم أن الهلك كل الهلك بعده وهو حقيقة الخذلان فما خلى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك وخلى بينك وبين نفسك ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلا.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان أن يكلك الله إلى نفسك ويخلى بينك وبينها والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك وله سبحانه في هذه التخلية بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته حكم وأسرار سنذكر بعضها.

وعلى الاحتمالين فترجع التوبة إلى اعتصامك به وعصمته لك، قوله: (وفرحك عند الظفر به) الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها ففرحه بها غطى عليه ذلك كله وفرحه بها أشد ضررا عليه من مواقعتها والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا ولا يكمل بها فرحه بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به ومتى خلي قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه وليبك على موت قلبه فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه ولا يحس القلب بذلك فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ج- **الصبر على أقدار الله**: إن الابتلاء كتبه الله على جميع العباد، فكل شيء ابتلاه الله تعالى، فهي سنة لله تعالى جارية، فالسموات والأرض، ابتلاها الله، بالطاعة، كما قال سبحانه: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت:١١].

وكذلك ابتلى إبليس بآدم، وابتلى آدم عليه السلام بالشجرة، وابتلى الجن والإنس بقوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦].

وهناك الابتلاء بالأعداء، والبلايا، والفتن، والأمراض، وفقد الأحبة، ولكل ابتلاء موقف شرعي، بينه الله تبارك وتعالى، فمن صبر، وتعامل مع ما يبتلى به بشرع الله جل وعلا؛ كان له من الله الرضوان، وأخلف الله عليه خيرا، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وقال سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد:٣١]، وقال: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيب} [البقرة:٢١٤]، وقال: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب:٢٢].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد سئل الإمام الشافعي، وكذلك الإمام أحمد:[الرجل يُمكّن أو يبتلى؟، فقال رحمه الله:لا يُمكّن حتى يبتلى].

الله أرحم بنا من أنفسنا وأمهاتنا:

ومن رحمة الله أن هذا الابتلاء، هو بحسب إيمان الشخص، فالأمر كما قال تعالى:{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة:٢٨٦]، وكما في الحديث الذي أخرجه أحمد والدارمي وابن ماجة والنسائي في الكبرى وعبد بن حميد وأبو يعلى والترمذي وقال حسن صحيح من طريق مصعب بن سعد عن أبيه سعد **t** قال:قلت:يا رسول الله، أيُّ الناس أَشَدُّ بلاء؟، قال:"الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسْبِ دِينه، فإن كان دِينُهُ صُلْباً اشتَدَّ بلاؤه، وإن كان في دِينه رِقَّة على حَسبِ دِينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركَهُ يَمْشِي على الأرض وما عليه خطيئة".

وعلى العبد ألا يسأل الله البلاء، وألا يعرض نفسه من البلاء ما لا يطيق، فإذا ابتلي استعان بالله، واتقى وصبر؛ فتكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى:{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:٩٠].

وليسأل العبد ربه العافية دائما، فإنه خير له من سؤال الله البلاء، فإن العبد لا يدري أيصبر أم يجزع، واعتبر، بقول النبي **r** المُخَرَّج في الصحيحين من طريق أَبِي النَّضْرِ عَنْ كِتَابِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ **r** يُقَالُ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ أَبِي أَوْفَى فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ الله حِينَ سَارَ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ يُخْبِرُهُ أَنَّ رَسُولَ الله **r** كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِيهَا الْعَدُوَّ يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ:"يَا أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللهَّ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ".ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ r وَقَالَ:"اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ".

كلام نفيس لسفيان بن عُيَيْنَة رحمه الله:

وجاء في تهذيب الكمال للحافظ المزي:[وقال مشرف بن أبان الواسطي عن عمر بن السكن: كنت عند سفيان بن عيينة، فقام إليه رجل من أهل بغداد، فقال:يا أبا محمد أخبرني عن قول مطرف: لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، أهو أحب إليك أم قول أخيه أبي العلاء: اللهم رضيت لنفسي ما رضيت لي.

قال:فسكت عنه سكتة، ثم قال:قول مطرف أحب إلي، فقال الرجل: كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له؟!.

فقال سفيان: إني قرأت القران؛ فوجدت صفة سليمان عليه السلام مع العافية التي كان فيها:{نعم العبد إنه أواب}، ووجدت صفة أيوب عليه السلام مع البلاء الذي كان فيه :{نعم العبد إنه أواب}، فاستوت الصفتان، وهذا معافى، وهذا مبتلى.

فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر، فلما اعتدلا؛ كانت العافية مع الشكر، أحب إلي من البلاء مع الصبر]ا.هـ. فلله دره ما أعظم تفكره، وما أجمل استنباطه، وما أحسن تأمله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا تَكُن أَخْرَقَا:

ولنعلم أن الابتلاء علامة على إرادة الخير للعبد المؤمن؛ فلا يجزع، بل عليه أن يحتسب ويصبر، ففي الحديث،الذي في صحيح البخاري من طريق سعيد بن يسار أبا الحباب يقول سمعت أبا هريرة يقول:قال رسول الله r :"من يُرِد الله به خيرا يُصِبْ منه".

فالأمراض وآثارها وتبعاتها، والضيق، والهم والغم، والحزن كلها ابتلاءات تحتاج إلى صبر، ومما يعين على ذلك أن يعلم العبد أن هذا الابتلاء هو من عند الله، وأن فيه تكفيرا للسيئات ورفعا للدرجات، ولنعلم أن سنة الابتلاء ماضية، سواء مع وجود الصبر أو مع عدمه، فَمِنَ الخرق والسفه إذا، أن نضيع الأجر بعدم الصبر، فإذا انضاف إلى ذلك أن عدم الصبر لا يُذْهِبُ البلاء، بل يُثْقِلُ العبد بالسيئات؛ علمنا يقينا أنه لا أحسن من الصبر، وما أعظمه إن كان من الصبر الجميل، وهو الذي يقارنه الرضى، وإن كانت هذه درجة عالية، ومقاما عظيما، هي محط أنظار المقربين، والسادات المؤمنين، واعتبر بصبر الأنبياء والمرسلين، وقول نبي الله يعقوب عليه السلام، في بلائه العظيم،{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}، في موضعين من سورة يوسف، وتأمل في صبر إسماعيل الذبيح عليه الصلاة والسلام، مع أبيه الخليل عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم في قصة الذبح، وتأمل هذا المشهد في كتاب الله تبارك وتعالى:{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} [الصافات: ٩٩-١١١].

والابتلاء يكون في الأهل والأولاد، بتربيتهم والقيام عليهم بحق الله تعالى، ويكون كذلك بالجوع والخوف... إلخ ، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة:١٥٥-١٥٧]، أي إنها سنة إلهية على الخلق كلهم، فالرسول r قد ابتلي بالمرض والفتن والأعداء وغيرها من الابتلاءات، وهو أشرف وأطهر وخير خلق الله كلهم، فمن ذا الذي ينجو إذن؟!!، فمن صبر فله الأجر، ومن تسخط فله الإثم، وفي قوله تعالى {ولنبلونكم بشيء} أي ليس بالكثير، بل هو يسير من البلاء، وأنت لو تأملت مدة البلاء مع زمن العافية والعطاء والرخاء، لعلمت أن ذلك نزر يسير، والله أصدق قيلا جل الله في علاه.

وفرق بين الفرح بالمرض وتمنيه، فالتمني لا يجوز، فإذا أصابك المرض، صبرت لله، ولك أن تفرح به، وهذا هو المنقول عن بعض السلف، لماذا؟ لأنه يكفر الله به السيئات ويرفع به الدرجات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهناك جملة كبيرة من الأخبار في هذا الباب أذكر بعضها:

ففي صحيح مسلم عن جَابِر بْن عَبْدِ الله أَنَّ رَسُولَ الله r دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ:"مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ". قَالَتِ الْحُمَّى لاَ بَارَكَ اللهُ فِيهَا. فَقَالَ:"لاَ تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُـذْهِبُ خَطَايَـا بَنِـي آدَمَ كَـمَا يُـذْهِبُ الْكِـيرُ خَبَـثَ الْحَدِيدِ".

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان t قال قال رسول الله r :"عجبا لأمـر المـؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن:إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له" رواه مسلم.

وعن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله r وحِبُّهُ وابنُ حِبِّـهِ رضي الله عنهما قال:أرسلت بنت النبي r إن ابني قد احتضر فاشـهدنا. فأرسـل يقـرئ السـلام ويقـول:"إن لله مـا أخـذ ولـه مـا أعطـى وكـل شيء عنـده بأجـل مسـمى فلتصـبر ولتحتسب"، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي ابن كعب وزيد بن ثابت ورجـال y فرفـع إلى رسـول الله r الصـبي فأقعـده في حجره ونفسه تقعقع ففاضت عيناه. فقال سعد:يا رسول الله ما هذا؟، فقال:"هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده". وفي رواية:"في قلوب من شاء من عباده وإنما يـرحم الله من عباده الرحماء" متفق عليه.

وعن أنس t قال:مر النبي r على امرأة تبكي عند قبر فقال:"اتقـي الله واصـبري، فقالت: إليك عني فإنك لم تُصَب بمصيبتي. ولم تعرفه فقيل لها إنه النبي r . فأتت باب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النبي r فلم تجد عنده بوابين فقالت:لم أعرفك فقال:"إنما الصبر عند الصدمة الأولى"متفق عليه. وفي رواية لمسلم:"تبكي على صبي لها".

وعن أبي هريرة t أن رسول الله r قال:"يقول الله تعالى:ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة"رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله r عن الطاعون؟ فأخبرها:"أنه كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد" رواه البخاري.

وعن أنس t قال سمعت رسول الله r يقول:"إن الله عز و جل قال:{إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة}" يريد عينيه. رواه البخاري.

وعن عطاء بن أبي رباح قال قال لي ابن عباس t :ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت:بلى. قال:هذه المرأة السوداء أتت النبي r فقالت:إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي. قال:"إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك"، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف؛ فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها. متفق عليه.

وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود t قال:كأني أنظر إلى رسول الله r يحكي نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول:"اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"متفق عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي r قال:"ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه"متفق عليه.

وعن ابن مسعود t قال دَخَلْتُ على النبي r وهو يوعك فقلت:يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا. قال:"أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم"، قلت:ذلك أن لك أجرين. قال:"أجل ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها". متفق عليه.

وعن أنس t قال قال رسول الله r :"لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لا بد فاعلا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي" متفق عليه.

وعن أنس t قال:كان ابن لأبي طلحة t يشتكي فخرج أبو طلحة فَقُبِضَ الصبي. فلما رجع أبو طلحة قال:ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان. فقربت له العشاء فتعشى ثم أصاب منها. فلما فرغ قالت:واروا الصبي. فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله r فأخبره فقال:"أعرستم الليلة؟"، قال:نعم. قال:"اللهم بارك لهما"، فولدت غلاما فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتي به النبي r وبعث معه بتمرات. فقال:"أمَعَهُ شيء"، قال: نعم تمرات. فأخذها النبي r فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في فِيِّ الصبي ثم حنكه وسماه عبد الله.متفق عليه. وفي رواية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للبخاري قال ابن عيينة:فقال رجل من الأنصار فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن(يعني من أولاد عبد الله المولود).

وفي رواية لمسلم:مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه. فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت:يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال:لا. فقالت:فاحتسب ابنك. قال فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا تلطخت ثم أخبرتني بابني فانطلق حتى أتى رسول الله r فأخبره بما كان. فقال رسول الله r :"بارك الله في ليلتكما" قال فحملت. قال وكان رسول الله في سفر وهي معه وكان رسول الله r إذا أتى المدينة من سفر، لا يطرقها طروقا، فدنوا من المدينة فضربها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة وانطلق رسول الله r . قال يقول أبو طلحة:إنك لتعلم يا رب أنه يعجبني أن أخرج مع رسول الله r إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى. تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد انطلق. فاطلقنا وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاما. فقالت لي أمي: يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله r فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله r .....الحديث.

والصبر قرين الصلاة للاضطلاع بالأمور وتَيَسُّرِ قضائها، كما قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٥]، وقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبحانه: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٢٢].

وقد تكاثرت النصوص في الحث عليه، والتأكيد على ضرورة العباد إليه، وبيان شرفه وعظيم منزلته عند الله تعالى، فمنها قوله تعالى: { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٥]، وقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف:٣٥]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص:٨٠]، وقوله: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:١٠]، وقوله: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٢٢-٢٤]، وقوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِالله وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:١٢٦-١٢٨]، وقوله: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف:١٣٧]، وقوله: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [هود:١٠-١١]، وقوله: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤]، وقوله: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا } [الإنسان:١٢]، إلى غير ذلك من المواضع المتكاثرة في الكتاب العزيز.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: في رسالة في التوبة:[ومن اعتقد أن الصبر لا يكون إلا مع مرارة وأنه ضد الرضا فقد تكلم بعرف بعض المتأخرين وليس ذاك عرف الكتاب والسنة فإن الله تعالى أمرنا بالصبر وأثنى على أصحابه في أكثر من تسعين موضعا من كتابه، والله تعالى لا يأمر بما هو مكروه أو ترك الأفضل ولا يكون ذلك إلا بفعل الحسن لا بترك الأحسن وبهذا يعرف قول من قال:(حسنات الأبرار سيئات المقربين) مع أن هذا اللفظ ليس محفوظا عمن قوله حجة لا عن النبي r ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها وإنما هو كلام وله معنى صحيح وقد يحمل على معنى فاسد، أما معناه الصحيح فوجهان: أحدهما أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين فيحرم درجاتهم وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين فكل من أحب شيئا وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك، فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات لا يتوبون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار، بل يتوبون من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاقتصار عليها، وفرق بين التوبة من فعل الحسن، وبين التوبة من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن، الثاني: أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسنا منه، إما واجبا وإما مستحبا؛ لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة، مثال ذلك أن العامي يؤمر بمسألة العلماء المأمونين على الإسلام والرجوع إليهم؛ بحسب قوة إدراكه، وإن كان في ذلك تقليد لهم، إذ لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه، وأما العلماء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال بهما فلو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامي؛ لكانوا مسيئين بذلك]ا.هـ.

أَحْسِن الظَّنَّ بالله تعالى:

ولنعلم أن البلاء وإن اشتد فإنه إلى زوال وانفراج، فما علينا إلا أن نحسن الظن بالله تعالى، مع التَّحَقُّقِ بالصبر والتقوى واليقين، ولنعلم أن الله تعالى عند ظن عبده به، كما الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً".

فانظر أي شيء هو ظنك بالله تعالى، فإنما ظن السوء أحق به العبد، ولله تعالى المثل الأعلى، جل الله في علاه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الفتح:٦-٨].

وقال تعالى: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت:٢٣]، وقال: {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النحل:٦٠].

واعلم أن نصر الله آت لا محالة، وأن فرج الله أبدا قريب، كما تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح:٥-٦]، قال بعض السلف: فلن يغلب عسر يسرين، هذا وعد الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد.

كما في الموطأ للإمام مالك عن زيد بن أسلم قال كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم فكتب إليه عمر بن الخطاب:[أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة؛ يجعل الله بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}]ا.هـ.

وفي صحيح البخاري:[قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ أَيْ مَعَ ذَلِكَ الْعُسْرِ يُسْرًا آخَرَ كَقَوْلِهِ {هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ} وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ]ا.هـ. قلت: وقد روي هذا المعنى مرفوعا ولا يصح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليس لِهَوَانِكَ على الله على كُل حَال:

ولنعلم أن نزول البلاء بالعبد المؤمن، لا يعني تخلي الله تعالى عن عبده، ولا هوانه على ربه، فهذا ظن فاسد لابد أن نطرحه، بل دلت النصوص على خلاف ذلك تماما، واستمع إلى قول الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف:١٠٩-١١١].

وتأمل هذه الحكم الربانية التي قصها علينا في كتابه الحكيم، حيث ضَيّقَ فرعون على موسى وهارون وقومهما، حتى اضْطُرَّ موسى أن يصلي في بيته هو ومن معه، ثم ماذا كان؟!، أغرق الله فرعون ومن معه، ونَجَّى موسى ومن معه، قال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف:١٣٧].

وسُجِن يوسف عليه السلام، بعد ما أصابه من الكرب والبلاء الذي كاده إخوته به، فما مرت الأيام ولا الليالي حتى مكن الله له في الأرض، كما قال تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [يوسف:٩٩-١٠٠].

وحُوصِر النبي r ومن معه في شعب أبي طالب، وطرده أهل الطائف، وكذب وأوذي حتى علاه الهم r كما في الصحيحين من طريق عُرْوَة أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ r حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ r : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ:"لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ r بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا".

ثم طُرِدَ من بلده مكة، من أهله وعشيرته، الذين أرادوا قتله، وتنكر له القريب والبعيد، وكان قد رمي بالحجارة حتى أدموا عَقِبَيهِ، فما لبث أن عاد فاتحا منصورا، يطعن آلهة المشركين، كما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ t قَالَ دَخَلَ النَّبِيُّ r مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُ مِائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ:"{جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} {جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله أكبر دَالَت دولة الشرك، وجاءت دولة التوحيد، قال تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} [الحج:١٥].

قال تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٤٠].

هو الحق مهما طغى باطل ... له النصر يوم النِّزال الأخير
ولله سهم سيمضي غدا ... ولو كره المُسْتَبِدُّ الكَفُور
هو الحق يَحْشُدُ أجْنَادهُ ... ويَعْتَدُّ للموقف الفاصل
فَصُفُّوا الجَحَافِل آسَادَهُ ... ودُكُّوا به دولة الباطل

وما أجمل ما قيل:

قيل للحق: أين كنت عندما علا الباطل وانْتَفَش؟!، قال: **كنت تحته اجْتَثُّ جُذُورَه.**

قد يحصد الطغيان بعض ثماره ... لكن عقبى الظالمين دمار
تبقى صروح الحق شامخة وإن ... أرغى وأزبد عندها الإعصار

وهكذا يأتي الفرج من بين طيات الضيق، وإنما هي أسباب تتكامل لاستئصال الطاغوت، وشجرته الخبيثة، حيث يستدرجهم الله تعالى إلى توهم إمكانية القضاء على الحق وأهله، حتى إذا ما سعى الطاغوت في إيقاف سنة المُدَافَعة، أتاهم أمر الله ومكره،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكانوا نسيا منسيا. والله تعالى يقول: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}[الروم:٦٠].

احذر ظن الجاهلية:

قال ابن القيم في زاد المعاد:[(معنى ظن الجاهلية):ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته وخفف عنهم ذلك الغم وغيبه عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم أمنا منه ورحمة والنعاس في الحرب علامة النصرة والأمن كما أنزله عليهم يوم بدر وأخبر أن من لم يصبه ذلك النعاس فهو ممن أهمته نفسه لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه وأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل وقد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ولا حكمة له فيه ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله ويظهره على الدين كله وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول:{ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا}، وإنما كان هذا ظن السوء وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل وظن غير الحق لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء بخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم ولجنده بأنهم هم الغالبون فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائه ويظهرهم عليهم وأنه لا ينصر دينه وكتابه وأنه يـديل الشرك على التوحيد والباطل على الحق إدالة مستقرة يضـمحل معهـا التوحيـد والحـق اضمحلالا لا يقوم بعده أبدا فقد ظن بالله ظن السوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكمالـه وجلاله وصفاته ونعوته فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيتـه تـأبى ذلـك وتـأبى أن يـذل حزبه وجنده وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله وكذلك مـن أنكـر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته وكـذلك مـن أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة صدر عن مشيئة مجردة عـن حكمـة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فوتها وأن تلك الأسـباب المكروهـة المفضـية إليهـا لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له فما قدرها سدى ولا أنشأها عبثا ولا خلقها باطلا {ذلك ظن الـذين كفـروا فويـل للـذين كفـروا مـن النار}، وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعـرف أسـماءه وصـفاته وعـرف موجـب حمـده وحكمته فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء . ومن جوز عليـه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظـن السوء. ومن ظن به أن يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهـي ولا يرسـل إلـيهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه بل يتركهم هملا كالأنعام فقد ظن به ظن السوء . ومن ظـن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجـازي المحسـن فيهـا بإحسـانه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمسيء بإساءته ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصا لوجهه الكريم على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد أو أنه يعاقبه بما لا صنع فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة في حصوله بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم يضلون بها عباده وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في أسفل السافلين وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر فقد ظن به ظن السوء]ا.هـ.

وإن من الكتب النافعة فيا يتعلق بالصبر ومسائله وأحواله، كتاب:(عدة الصابرين) للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، فليراجع فإنه نفيس في بابه.

قال المؤلف رحمه الله:(والدليل قوله تعالى:{وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}).

هذا تدليل من المؤلف على ما سبق تقريره من فرضية وأهمية المسائل الأربعة المتقدمة، وفي ذلك تربية بالقدوة العملية، فالمؤلف رحمه الله امتثل ما حث عليه، وذلك أنه بين أن العلم لابد أن يكون مبنيا على الاستدلال الصحيح، فطبق ذلك مباشرة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا ما سيتبعه في جميع هذا الكتاب، بل وفي غير ذلك من كتبه رحمه الله تعالى. وبهذا يكون العبد من الربانيين الراسخين في العلم.

قوله تعالى:{بسم الله الرحمن الرحيم}:قد تقدم التفصيل في شأن البسملة.

قوله تعالى:{والعصر}: الواو واو القسم، وحروف القسم حروف جر، أي تجر ما بعدها من الأسماء.

أما {العصر}:قيل هو الدهر، وقيل هو وقت صلاة العصر، وقيل هو صلاة العصر نفسها، ولله جل وعلا أن يقسم بما شاء من خلقه، إلا أنه سبحانه لا يقسم إلا بالعظيم والشريف من خلقه، فهذا القسم يؤكد عظمة المُقْسَم به وأهميته، وشرفه ومنزلته.

وخُصَّ العصر هنا؛ لأنه دال على الزمن، وهو مدة العمر التي يقضيها العبد في الحياة الدنيا، فهل هو من الخاسرين أم من الناجين، إذن هذا هو متعلق تخصيص العصر بحال الإنسان.

قال ابن القيم في:(الفوائد):[إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها، الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوى غم ساعة، فكيف بغم العمر]ا.هـ.

قوله:{إن الإنسان لفي خسر} هذا هو المقسم عليه، وهو دال على أن هذا هو الغالب من حال بني آدم، والمعنى أن أكثر الإنسان خاسر، والخسران له أنواع فنذكر منها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنواع الخسران:

١ - **خسران في القوة**:وهو التحول من حال القوة إلى الضعف. قال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم:٥٤].

٢ - **خسران في العقل**: وهو التحول من قوة العقل إلى ضعفه. قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [العنكبوت:٦٣].

٣- **خسران في الدين**: وهذا هو أعظم أنواع الخسران، فبعد أن كان مسلماً حنيفاً، أصبح مجرماً فاجراً والعياذ بالله. قال تعالى: {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزمر:١٥].

والألف واللام في كلمة (الإنسان) هي للجنس، وهذا يؤكد خطورة المسألة، ولهذا قال بعض أهل العلم:[لا تنظر إلى الهالك كيف هلك ولكن انظر إلى الناجي كيف نجى، فإنما الهلكى كُثُر].

أي أن الخاسرين والهالكين كثر، ولكن الناجي قليل؛ فانظر كيف نجى؛ لتسلك سبيله؛ فتنجو كما نجى.

وفي الحديث الذي في صحيح مسلم من طريق النُّعْمَانِ بْنِ سَالِمٍ قَالَ سَمِعْتُ يَعْقُوبَ بْنَ عَاصِمِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو وَجَاءَهُ رَجُلٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَقَالَ مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ تَقُولُ إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ سُبْحَانَ الله - أَوْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا - لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لاَ أُحَدِّثَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا إِنَّمَا قُلْتُ إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا يُحَرَّقُ الْبَيْتُ وَيَكُونُ وَيَكُونُ ثُمَّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لاَ أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبَدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ". قَالَ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ الله r قَالَ:"فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلاَمِ السِّبَاعِ لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ أَلاَ تَسْتَجِيبُونَ فَيَقُولُونَ فَمَا تَأْمُرُنَا فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا - قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ - قَالَ - فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ثُمَّ يُقَالُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ - قَالَ - ثُمَّ يُقَالُ أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ فَيُقَالُ مِنْ كَمْ فَيُقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ - قَالَ - فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فانظر إلى هذا الواحد كيف نجى، واعلم أن هذا التفريق بين الخاسر والناجي لا يأتي إلا لطالب العلم، إذ بالعلم تكتشف حقيقَةَ ما عليه الناس؛ لأن الجاهل لا يكاد يميز، بل يفسد أكثر من ما يصلح، وكلما ازداد طالب العلم علماً؛ ازدادت غربته في الناس، لكثرة مخالفة ما عليه الرسول r وأصحابه.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ".

وفيه أيضا عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِنَّ الإِسْلاَمَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا".

وفي الصحيحين عَنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:" لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ".

وفي هذه الأحاديث بشارة لهؤلاء الصادقين الصُّبُر، وتوطين لهم على ما سيلقونه في هذه السبيل.

فأهل الإسلام في أهل الكفر غرباء، وأهل الإيمان في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في أهل الإيمان غرباء، وأهل العمل بالعلم في أهل العلم غرباء، وأهل التقوى والإخلاص في أهل العمل غرباء، وهكذا تستحكم الغربة في طالب العلم التقي المخلص لله تعالى، فاللهم نشهدك على حبهم فألحقنا بهم، يا كريم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله تعالى:{إلا الذين آمنوا}: هذا استثناء يتضمن التشريف والإكرام والتنويه بذكر هؤلاء العظماء، وبيانا لسبيل النجاة وترغيبا فيها، فإياك أن تحقر مؤمناً فإن الله أكرمه واختاره واصطفاه، ولو كان أعجمياً، أو عبداً حبشياً، صغيراً كان أم كبيراً، ذكراً كان أم أنثى، فإنما هو المؤمن.

قوله:{آمنوا}: أي صدقوا، و إنما فسرنا الإيمان بالتصديق؛ لاقترانه بالعمل هنا، ولو جاء وحده لقلنا هو قول وعمل، وهذا ما أجمع عليه السلف في تعريف الإيمان، من أنه قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وهذا التعريف التام والمنضبط للإيمان. وسيأتي الكلام عن الإيمان ومسائلة وخصاله فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:{وعملوا}: أي لا يكفي الإيمان وحده، بل لابد من العمل مع الإيمان. فلا يحصل الإيمان الذي به تكون النجاة من الخسران إلا مع العمل.

وليس ببعيد أن يقال إن هذا من عطف الخاص على العام، أو من عطف أفراد الشيء عليه، لإبرازه، بيانا لأهميته ولفتا للانتباه إليه، وهذا قول قوي ووجيه، وفيه الرد على من أخرج العمل من مسمى الإيمان كما سيأتي بيانه، وهذا العطف مستعمل في الكتاب والسنة، وهو أسلوب فصيح بليغ عند العرب، يعطفون العام على الخاص والعكس، فمن هذا العطف قوله تعالى:{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللهَّ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:٩٨]، فجبريل وميكال عليهما السلام، هم من جملة الملائكة، وأفردوا عنهم هنا؛ لأن النزاع وقع فيهما من قِبَلِ يهود مع المؤمنين.

ومن عطف العام على بعض أفراده قوله تعالى:{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:١١٠].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من صميم الإيمان، وأفرد بالسياق هنا تنبيها وتنويها وتشريفا.

الإيمان بالله تعالى يُحَدِّدُ مَعَالِمِه هو سُبحانه:

ولنعلم أنه ليس من حقنا أبدا، أن نزعم إيمانا، نحن نحدد مبادئه ولوازمه، ومقتضياته ومعالمه، بل الله تبارك وتعالى هو الآمر بالإيمان، وهو الذي يحدد معناه ومعالمه، ولن نكون مؤمنين عند الله تعالى ولا من الناجين إلا إذا طبقنا الإيمان الذي أمر الله تبارك وتعالى به وحدد معالمه، وإن نادانا الناس باسم الإيمان، فلنكن على حذر شديد فإن الله تبارك وتعالى، بَيَّنَ أن أقواما يزعمون الإيمان، وهم ليسوا منه في شيء، وإليك شيئا من هذه النصوص الدالة على هذه المسألة الجليلة الخطيرة العظيمة، قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُّ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٠-٦٥]، وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور:٤٧-٥١]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء:٩٧-٩٩].

فالله تعالى هو واضع الاسم، وهو الذي حدد معالمه ومن يستحقه، وأما الدعاوى فلا تغني عن العباد شيئا حتى يصدقوها بصالح العمل، قال تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج: ٧٨]. وقال النبي r :"آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ". أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة t .

قوله تعالى:{الصالحات}: قَيَّدَ سبحانه العمل بأن يكون من الصالحات، فخرج بذلك الطالحات، والبدع والغلو والأهواء إلى غيرها من الطالحات.{إِنَّ اللهَّ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس:٨١].

ولا يسمى العمل صالحاً إلا إذا كان خالصاً لله تعالى، موافقاً لسنة النبي r لقوله r :"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد". وسيأتي مزيد بيان لهذا إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى:{وتواصوا بالحق}: تقييد للتواصي بأن يكون بالحق، فخرج بذلك التواصي بالباطل، الذي كان يتعاطاه المشركون، كما قال تعالى:{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات:٥٢-٥٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا التواصي، دال على أن المؤمنين إذا آتاهم الله تعالى علما نافعا وعملا صالحا؛ فلابد حتى ينجوا من الخسران أن يكونوا داعيين إلى ذلك، فإنه علامة محبتهم لله تعالى، وإشفاقهم على الأمة ورحمتهم بها، وتأكيدا على عظيم اتباعهم للنبي r ، وهي علامة على عدم أَنَانِيَّتِهِم وبُخْلِهم بالحق أنْ يُقدموه للآخرين، كما قال تعالى عن نبيه r :{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}[التكوير:٢٤]، فهكذا أتباعه لابد أن يكونوا.

والتواصي بالحق يدخل فيه جميع فروع الدعوة إلى الله، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا هو التواصي بالحق، وهو دال على حرص المؤمن على نجاة العباد من عذاب الله تعالى، كما هي حال الأنبياء والمرسلين، كما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله قَالَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله r يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ:"رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ".

واعلم رحمك الله تعالى، أن من أعظم ما يتعين التواصي به، التواصي يطلب العلم الشرعي، والسعي فيه، لا سيما في زمانن حصل فيه زهد كبير في ميراث الأنبياء والمرسلين.

كما أن علينا أن نجتهد في إيجاد طلبة للعلم الشرعي، وأن نحثهم على ذلك، وأن نسعى في تفريغهم لتنتفع الأمة بهم، فمن عجز أن يَبْرَعَ في العلم الشرعي ويتفرغ له، فلا أقل من أن يكرم طلبة العلم ويَدْعَمَهُم، إن كان ذلك في وسعه، ولنتذكر أن الدال على الخير كفاعله، كما في الخبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوصية بطالب العلم:

واعلم أصلحك الله وهداك، أن الوصية بطالب العلم حَاضِرة بكثرة في كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام:٥٢]، وقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف:٢٨]، وقوله: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس:١-١٦].

البيعة على النصيحة للمسلمين:

وكان النبي **r** يوصي أصحابه **y** بالنصيحة خيرا، ويأخذ عليهم البيعة في ذلك، وهذا دال على عظمة الأمر وأهميته، لكل من أراد سبيل النجاة من الخسران، كما في الصحيحين عَنْ جَرِيرٍ قَالَ بَايَعْتُ النَّبِيَّ **r** عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فَلَقَّنَنِ:"فِيمَا اسْتَطَعْتَ" وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح البخاري عن جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ الله يَقُولُ يَوْمَ مَاتَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَامَ فَحَمِدَ اللهَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ حَتَّى يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمْ الْآنَ ثُمَّ قَالَ اسْتَعْفُوا لِأَمِيرِكُمْ فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ الْعَفْوَ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ r قُلْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ فَشَرَطَ عَلَيَّ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ فَبَايَعْتُهُ عَلَى هَذَا وَرَبِّ هَذَا الْمَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ".

وفي صحيح مسلم عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"الدِّينُ النَّصِيحَةُ" قُلْنَا لِمَنْ قَالَ:"لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ".

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ".

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ نَهَى رَسُولُ الله r عَنِ الرُّقَى فَجَاءَ آلُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ إِلَى رَسُولِ الله r فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله إِنَّهُ كَانَتْ عِنْدَنَا رُقْيَةٌ نَرْقِي بِهَا مِنَ الْعَقْرَبِ وَإِنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرُّقَى. قَالَ فَعَرَضُوهَا عَلَيْهِ. فَقَالَ:"مَا أَرَى بَأْسًا مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ".

وإنما صلاح الدنيا والدين بقيام هذا التواصي، وبه يحصل النصر والتمكين، وهو صمام الأمان في المجتمعات، وبه تتنزل الخيرات والبركات.

قوله تعالى:{وتواصوا بالصبر}: أي على ما تقدم، فهو ليس خاصاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، بل الإخلاص والإيمان يحتاج إلى صبر، والتواصي يحتاج إلى صبر، والعمل الصالح يحتاج إلى صبر،وكل شيء يحتاج إلى صبر، حتى قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض السلف، (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فمن لا صبر له فلا إيمان له)، ويروى مرفوعا عن النبي r وموقوفا على علي t ولا يصح.

قال المؤلف رحمة الله:(قال الشافعي رحمه الله: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم): الشافعي هنا هو محمد بن إدريس الشافعي المطلبي القرشي[1].

وهذه المقولة من الإمام الشافعي، جاءت بسياقات متنوعة، ولكنها متقاربة جدا، سيأتي ذكرها في طيات المنقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير وابن القيم.

وقوله هذا دال على عظيم فقهه رحمه الله، فإن هذه السورة بينت حقيقة النجاة والخسران، فبينت الإيمان والعمل الصالح والتواصي بذلك والصبر عليه، وضد ذلك هو الخسران، وليس مراده أن هذه السورة تكفي عن القرآن، بل لأنها ذكرت العديد من الأشياء المهمة التي هي أسباب النجاة، وقيل هناك معنى آخر: وهو أنه لو ما أنزل الله على عباده في باب الدعوة إليه إلا هذه السورة لكانت كافية، في بيان طريقة الدعوة، وحثهم على ذلك، والصبر عليه تعلما وتعليما ودعوة، وقيل معنى أخر: أي إنه لو لم

---

١ - أحد علماء الأمة الأفذاذ، وأحد الأئمة الأربعة الذين تدور المذاهب عليهم، وهو من علماء أهل السنة والجماعة، كان إمام تقيا ورعا عابدا حافظا متميزا بالضبط والإتقان، وهو من أوائل من قعد القواعد وألف في الأصول الشرعية وطريقة استنباط الأحكام، وثناء العلماء عليه أشهر من أن يذكر، وأظهر من أن ينكر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينزل الله على عباده في بيان معنى الدين إلا هذه السورة لكفتهم، أي في إقامة الحجة عليهم، وكلها أمور حَقَّةٌ، مُتَقَارِبة المعنى. والله أعلم.

وهناك معنى آخر دقيق، وهي أن هذه السورة تضمنت أسباب الشفاء للأدواء الحسية والمعنوية، وذلك لأن السيئات هي أسباب البلاء واللَّأوَاء، فمن سعى في التخلص منها عاش العافية والسلامة، ونجا من خسران الدنيا والآخرة، ولهذا روي عن ابن عباس أن حامل القرآن بحقه لا يخرف ولا يرد إلى أرذل العمر، وإن تطاول به العمر، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى هذا المعنى، حيث قال في كتاب (الاستقامة):[ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات، كما يقابل الطبيب المرض بضده، فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه، وذلك بشيئين: بفعل الحسنات، وبترك السيئات، وهذه أربعة أنواع، ويؤمر أيضا بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وإمكانه، قال تعالى:{والعصر *إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}سورة العصر، وروى عن الشافعي t أنه قال:(**لو فَكَّرَ الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم**)، وهو كما قال].اهـ.

وهناك معنى آخر اختاره ابن القيم، وهو أن هذه السورة تضمنت أسباب الكمال البشري، ولهذا كانت كافية لمن أراد أسباب الكمال، فقال كما في (مفتاح دار السعادة):[الوجه السادس والثلاثون: قوله تعالى:{والعصر * إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}، قال الشافعي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

t :(**لو فَكَّرَ النَّاسُ كلهم في هـذه السـورة لكفـتهم**)، وبيـان ذلـك أن المراتـب أربعـة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله،أحداها: معرفة الحق، الثانية:عمله به، الثالثـة: تعليمه من لا يحسنه، الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه، فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر، أن كـل أحـد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا بـه فهـذه مرتبـة، وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصـوا بالحق وصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشادا فهذه مرتبة ثالثة، وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبـة رابعـة، وهـذا نهايـة الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغـيره، وكمالـه بإصـلاح قُوَّتَيْهِ العِلْمِية والعَمَلِية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القـوة العمليـة بعمـل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه، وصـبره عليـه، وتَوْصِـيَتِه بالصـبر عـلى العلـم والعمـل، فهـذه السـورة عـلى اختصـارها هـي مـن أجمـع سـور القـرآن للخـير بحذافيره،والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه، شافيا من كل داء، هاديـا إلى كل خير]ا.هـ.

وهناك معنى آخر لطيف، وهو أن المقصود من كـلام الشـافعي رحمـه الله تعـالى، أن القرآن كله معجز، فلو لم ينزل من القرآن إلا هذه السـورة، وهـي مـن قصـار السـور؛ لكفتهم في بيان الإعجاز، وتَحَدِّيهِم أن يأتوا بمثلـه، ولـو كـان بعضـهم لـبعض نصـيرا وظهيرا، قال تعالى:{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُـرْآنِ لَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء:٨٨]، وهذا ما جاء في تفسير ابن كثير حيث قال:[والصواب:أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة.قال الشافعي، رحمه الله:**لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم**:{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [سورة العصر]. وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال:وما هي؟ فقال:{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليَّ مثلها، فقال:وما هو؟ فقال:يا وبْر يا وبْر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر فقر، ثم قال:كيف ترى يا عمرو؟، فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني لأعلم إنك تكذب]ا.هـ.

وقال ابن كثير في سياق آخر في تفسيره، معلقا على ما رد به عمرو بن العاص **t** على مسيلمة الكذاب، فقال:[فإذا كان هذا من مشرك[1] في حال شِرْكِه، لم يَشْتَبِه عليه

---

١ - قال محقق تفسير ابن كثير: سامي بن محمد سلامة، طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع:[وفي صحة هذه القصة نظر؛ فإن إسلام عمرو بن العاص متقدم على تنبئ مسيلمة، فإن مسيلمة الكذاب تنبأ سنة عشر من الهجرة، وكان قد وفد على النبي **r** مع قومه سنة عشرة من الهجرة، كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٤). وعمرو بن العاص أسلم سنة ثمان على الأصح كما في الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٢). ثم وقفت على ما نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة (٣/ ٢٢٥): أن عمر بن العاص

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَالُ محمد r وصِـدْقِه، وحَـالُ مسـيلمة -لعنـه الله -وكَذِبِـه، فكيـف بِـأُولِي البصـائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحِجَى؟![.اهـ.

قال المؤلف رحمه الله:(قال البخاري[1] رحمه الله: بـاب العلـم قبـل القـول والعمـل): البخاري هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم، أبو عبـد الله بـن أبى الحسن البخاري الحافظ.

قوله:(بابٌ) بالتنوين رفعاً على الخبرية، أي هذا بابٌ،فتقرأ:(بابٌ: العِلمُ قبل القول والعمل)، ويصح رفعها، بلا تنوين فيقال: (بابُ)، و(العِلمِ) بالخفض، على الإضـافة، فتقرأ:(بابُ العلمِ قبل القول والعمل)، ويمكن بالنصب، فيقال:(بابَ) على تقدير فعل

أرسله رسول الله r إلى البحرين وتوفي رسول الله r وهو هناك وأنه مـر عـلى مسـيلمة وأنـه أعطـاه الأمان ثم قال له: إن محمدا أرسل في جسيم الأمر وأرسلت في المحقرات.. فذكر نحو القصة، وعزاه لابن شاهين في الصحابة، فعلى هذا يكون ما جاء هنـا بعـد إسـلام عمـرو بـن العـاص ولـيس قبـل إسلامه، والله أعلم]ا.هـ.

١ - صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، وهو المعروف بصحيح البخاري، وهـو أحـد أعظـم جبال الحفظ والضبط في هذه الأمة، صاحب مذهب فقهي عرضه في صحيحه، عرضا بديعا تجـلى في تبويبات صحيحه، وما نقل من الآثار والأقوال، وهو أحد أئمة أهل السنة والجماعة. قال عنه الحافظ ابن حجر:[جبل الحفظ وإمام الـدنيا في فقـه الحـديث]ا.هــ.، وقـال عنـه الإمـام الـذهبي:[الإمـام صاحب"الصحيح" وكان إماما حافظا حجة رأسا في الفقه والحديث، مجتهدا، من أفـراد العلـم مـع الدين والورع والتأله]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محذوف تقديره (اقرأ) ونحوه، أو على الإغراء والحض، بتقدير:(هاك) ونحو ذلك، فتقرأ:(بابَ العلمِ قبل القول والعمل).

التربية على الاعتداد بأئمة الهدى من السلف:

وفي ذكر المؤلف رحمه الله تعالى لهذين الإمامين:(الشافعي والبخاري)، تربية للأمة على أن يحتجوا بِفُهُومِ السلف وعلومهم، وأن يقتدوا بهم، فمهما وجدنا قولا للسلف الصالح، صرنا إليه، وإن خالف بعض أقوال الخلف، وإن كنا نثق بعلمهم ونعترف بفضلهم، ولكن يبقى التقدم والسبق للسلف رحمهم الله تعالى.

والاحتجاج بقوله تعالى:{فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك}، احتجاجٌ بَيِّن ظاهر موفق، فالآية دالة على ما اسْتُدِلَّ بها عليه، حيث بدأ الله تبارك وتعالى بالعلم، ثم عطف بالعمل، وهو الاستغفار في هذا المقام، فأمر بالعلم ثم أمر بالعمل. ولهذا قال المؤلف رحمه الله تعالى نقلا عن البخاري:فبدأ بالعلم قبل القول والعمل[1].

الأصل في الإنسان الجهل:

وهنا تأتي القاعدة العظيمة الجليلة من الدين، التي من فقهها؛ زال عنه كثير من اللبس في مسائل الدين والإيمان، والعذر وإطلاق الأحكام وتنزيلها على الأعيان، ومن

---

١ - الذي في نسخ صحيح البخاري الموجودة الآن هو:[بَاب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى:{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ}، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَرَّثُوا الْعِلْمَ مَنْ أَخَذَهُ؛ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم يفقهها صارت تصوراته فاسدة في هذا الباب؛ فجاءت أحكامه جائرة عن الحق، بعيدة عن العدل والإنصاف الذي أمر الله تبارك وتعالى به عباده، فلا إفراط ولا تفريط، ولا وكس ولا شطط.

ألا وهي قاعدة: **أن الأصل في الإنسان الجهل**، حتى يُعَلِّمَهُ الله عز وجل، وأن العبد مهما تعبد الله تبارك وتعالى بشيء من عند نفسه وهواه، وتصوراته، بعيدا عن العلم الذي أنزله الله تبارك وتعالى، فإنه ليس على شيء، وكذلك كل علم يتعلمه بغير هذه السبيل، لا يصلح أن يكون حجة على العبد، باعتبار أخذ الله تبارك وتعالى به عباده، حتى يأتي العلم من الله تعالى بذلك، أمرا ونهيا؛ فتقوم الحجة، وتستبين المحجة؛ ولأجل هذا أنزل الله الكتب وأرسل الرسل، وهذه جمله ومعاني، وبسط هذا في غير هذا المقام، وسيأتي شيء من ذلك بإذن الله تعالى، وإليك جملة من النصوص الدالة على هذا المعنى الجليل الخطير، الذي زلت في أقدام وضلت فيه أفهام، حتى رمى المُخَالِفُ في ذلك غيره بالعظائم، وزعم أنه صاحب الغيرة على الدين، وما علم أنه إنما يرمي بذلك السلف أصالة، ويُزْرِي بهم علما وعملا وفقها:

قال الله تعالى: {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل:٧٨]، وقوله: {وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢١٦]، وقوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة:١٥١]، وقوله: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء:١١٣]، وقوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى:٥٢-٥٣].

وغير ذلك من النصوص الدالة على أنه ما من عبد، إلا وقد امتن الله تبارك وتعالى عليه، بتعليمه الكتاب والإيمان، فلله وحده الحمد والفضل والمنة.

فلا يصح أن يقال:إن هذا من الإيمان، إلا بعد العلم، الذي أرسل الله به الرسل وأنزل الكتب؛ ولهذا كانت البدعة مذمومة، من جهة كون صاحبها يريد أن ينسب ما فعل إلى الشرع، ويعتقده حقا وإيمانا وهدى، فكانت النتيجة أن رد الله تعالى عليه ذلك. كما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ".

وهذا عام في فروع الدين وأصوله، وتأمل ما قاله اللالكائي في كتابه الذي نقل فيه ما يعتقده أهل السنة وأجمعوا عليه، حيث في كتابه (اعتقاد أهل السنة):[باب جماع توحيد الله عز و جل وصفاته وأسمائه وأنه حي قادر عالم سميع بصير متكلم مريد باقي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سياق ما يدل من كتاب الله عز و جل وما روى عن رسول الله r على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته **بالسمع لا بالعقل:**

قال الله تعالى يخاطب نبيه r بلفظ خاص والمراد به العام: {فاعلم أنه لا إله إلا الله}، وقال تبارك وتعالى: {اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين}، وقال تبارك وتعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}، **فأخبر الله نبيه r في هذه الآية أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء قبله التوحيد**، وقال تعالى: {قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب}.

وقد استدل إبراهيم بأفعاله المحكمة المتقنة على وحدانيته بطلوع الشمس وغروبها وظهور القمر وغيبته وظهور الكواكب وأفولها، ثم قال: {لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين}؛**فعلم أن الهداية وقعت بالسمع، وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع.**

قال الله تبارك وتعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون}، وقال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا}، وقال تبارك وتعالى: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}، وقال تبارك وتعالى: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ ناديا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون * ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين} {وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتيهم بينة ما في الصحف الأولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى}، **فدل على أن معرفة الله والرسل بالسمع كما أخبر الله عز و جل وهذا مذهب أهل السنة والجماعة**]ا.هـ.

وقال البغوي في تفسيره:[{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} إقامة للحجة وقطعا للعذر، **وفيه دليل على أن ما وجب وجب بالسمع لا بالعقل**]ا.هـ.

تنبيه مهم ونافع للغاية في باب العذر بالجهل

واعلم أن إعلام الخالق تبارك وتعالى بالشيء، إعلاما محضا مجردا عن الأمر والنهي، لا يلزم به تكليف البتة، إلا إثبات ما ورد ذكره في الإعلام الرباني والإيمان به، أما التكليف فلا يجوز العمل إلا بعد مجيء الأمر والنهي، إذ به نعلم مراد الله تعالى، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه.

وإليك هذه الأمثلة، إن الله تعالى أعلمنا أنه هو خالقنا جل الله في علاه وهو رازقنا، إلا أن هذا القدر من الإعلام لا يفيدنا ما هو المراد منا، حتى أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، بما أفادنا الأمر بتوحيده والنهي عن الإشراك والكفر به، كما قال تعالى:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَاعْبُدُوا اللهَّ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: ٣٦]، وقوله:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦].

وكذلك أعلمنا الله تبارك وتعالى، أنه أمر إبراهيم الخليل عليه السلام أن يبني الكعبة، فهذا القدر من الإعلام لا يفيدنا أن نقيم مناسك الحج والعمرة، حتى أتانا إعلام آخر من الله تعالى بذلك، فلزم التكليف والعمل، لك من بلغه ذلك.

وكذلك إعلامه إيانا تبارك وتعالى أنه خلق السموات والأرض وخلق الملائكة، لا يفيدنا ما هو الواجب تجاه الملائكة، ولا الأمر بالتفكر والتدبر والاعتبار في ملكوت السموات والأرض، وعلاقة ذلك بالإيمان، والثواب العظيم في ذلك، وخطورة الإعراض، ونحو من المسائل التي ما أخذناها إلا من إعلام آخر جاء من الله تعالى بذلك؛ فلزم به التكليف والعمل لكل من بلغه.

فالخلق والإيجاد لا يعني حصول التكليف للعباد، حتى يأتيهم أمر الله تبارك وتعالى.

ومن هنا نعلم يقينا أن التكليف والمؤاخذة، تابع لحصول العلم به ووصوله إلى العبد، المبتغي للحق الطالب له.

فلا إله إلا الله عُلْمٌ يُتَعَلَّم، فمن أتاه عِلْمَهَا فأباه، أو تمكن من الوصول إلى علمها فأعرض عنه، أو استكبر وعاند؛ فهذا الذي لا تنفعه هذه الكلمة، إن تلبس بناقض من نواقضها، وإن نطق بها الليل والنهار، وإن صلى وصام، وزعم أنه مسلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى:أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً،فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً} [المزمل:١٥-١٦].

الشرح

قول المؤلف رحمه الله:(اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه الثلاث المسائل والعمل بهن): المؤلف رحمه الله بعد أن تكلم عن المسائل الأربع التي تتعلق بطريقة الدعوة إلى الله جل وعلا، وهي العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه، عاد ليتكلم عما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في باب الاعتقاد،من أن الإيمان قول وعمل، وأن القول والعمل لا يصحان بدون إخلاص، فبدأ المؤلف يفصل في حقائق العبودية لله جل وعلا، وهي تنبني على ثلاثة أمور، وهي:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ - **إفراد الله جل وعلا في العبادة.**

٢ - **إفراد النبي ﷺ بالاتباع.**

٣ - **البراءة مِن كل مَن عاداهما،** (أي من عادى الكتاب والسنة ومن عادى الله ورسوله)، وإثبات كيف تكون العلاقة مع الناس، وأن يجب أن تكون بناء على ذلك ولاء وبراء، حبا في الله وبغضا في الله.

وهذه هي المسائل الثلاث التي سيتكلم عنها المؤلف في جميع الكتاب فيما يأتي، وإنما أفردها هنا، من باب التَّوْطِئَةِ بكلمات موجزة، ليسهل حفظها على الجميع، ويسهل تداولها، وكذلك لعظيم أهميتها مع قلة العناية بها، فإن المرء لن يدخل في الإسلام ولن يثبت عليه إلا بالعمل بهذه المسائل الثلاث.

قوله:المسألة الأولى:(أن تعلم أن الله خلقنا ورزقنا): أي إن من أعظم منن الله جل وعلا على عباده أن خلقهم من العدم، وأسبغ عليهم وافر النعم، ويسر لهم أسباب وسبل معاشهم، وهذا من تقرير العباد بهذه الحقائق لأنه سينبني عليها الخطب العظم، فلابد من إرساء قواعده، والاعتراف به، ليكون قدرا مشتركا، ومقدمة، منها تنطلق اللوازم والتقريرات.

وهنا تذكير بأن الرزق لا يأتي بحذق العبد، ولا بسعة علمه، ولا بحسبه ونسبه، بل قد يُعْطى الجاهل، الوضيع في النسب، القليل في العقل، المال الكثير، ويُمَنعه غيره، ممن فُضِّلوا عليه في كثير من ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما قال تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء:٢٠-٢١]، وقال: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [العنكبوت:٦٢]، ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة.

إذن تكفل الله بالأرزاق لعباده، جنهم وإنسهم، بل ولكل دابة جل الله في علاه، كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود:٦].

والرزق من جهة حكمه ينقسم إلى قسمين:

١ - رزق محمود وهو الكسب الحلال. ٢ - رزق مذموم وهو الكسب الحرام.

فالكل مرزوق، ولكن الشأن أن ترزق بسبيل حلال، فلا يستوي من رُزِقَ بالبيع والشراء الحلال، ومن باع واشترى وتَكَسَّبَ بالحرام، ولا سَواء بين مَن يُرْزَقُ بِمِيرَاث، ومن يُرْزَقُ بالسرقة، والكل مرزوق. فتأمل.

والرزق الحلال من جهة العطاء ينقسم إلى قسمين:

١ - عطاء برضى. ٢ - عطاء بسخط.

فإن الله تعالى يرزق المطيع والعاصي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، وكل ذلك يكون بسبيل حلال، ولكنه يبارك في عطائه للمؤمنين المطيعين الأبرار، ويمحق مال العصاة والفجار والكفار، وهو لهم استدراج والعياذ بالله، فلا تغتر أيها المسلم، إلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالرزق الحسن، الذي يكون عطاء برضى، لا عطاء بسخط، وإن كان عندك منه القليل، فإن قليلا منه، خيرٌ من كثير كثير، مما يكون مَمْحُوقاً، والعياذ بالله.

قال ابن القيم في مدارج السالكين:[وأما تمييز النعمة من الفتنة فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر مفتون بثناء الجهال عليه مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح ذلك مبلغهم من العلم، فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة والمحنة في صورة المنحة فليحذر فإنما هو مستدرج.

ويميز بذلك أيضا بين المنة والحجة فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى، فإن العبد بين منة من الله عليه وحجة منه عليه ولا ينفك عنهما فالحكم الديني متضمن لمنته وحجته قال الله تعالى:{لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم}، وقال:{بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان}، وقال:{فلله الحجة البالغة}.

والحكم الكوني أيضا متضمن لمنته وحجته فإذا حكم له كونا حكما مصحوبا باتصال الحكم الديني به فهو منة عليه وإن لم يصحبه الديني فهو حجة منه عليه، وكذلك حكمه الديني إذا اتصل به حكمه الكوني فتوفيقه للقيام به منة منه عليه وإن تجرد عن حكمه الكوني صار حجة منه عليه فالمنة باقتران أحد الحكمين بصاحبه والحجة في تجرد أحدهما عن الآخر فكل علم صحبه عمل يرضى الله سبحانه فهو منة وإلا فهو حجة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة وإلا فهي حجة وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه والدعوة إليه فهو منة منه وإلا فهو حجة وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور فهو منة من الله عليه وإلا فهو حجة، وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه وإلا فهو حجة، وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوع للرب وذل وانكسار ومعرفة بعيب النفس والعمل وبذل النصيحة للخلق فهو منة وإلا فهو حجة، وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرة ومزيد في العقل ومعرفة في الإيمان فهي منة وإلا فهي حجة، وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل به السير إلى الله وإيثار مراده على مراد العبد فهو منة من الله وإن صحبه الوقوف عنده والرضى به وإيثار مقتضاه من لذة النفس به وطمأنينتها إليه وركونها إليه فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ويميز بين مواقع المنن والمحن والحجج والنعم فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فصل: الركن الثاني من أركان المحاسبة: وهي أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية والتزام الطاعة واجتناب المعصية وبين ما لك وما عليك فالذي لك هو المباح الشرعي فعليك حق ولك حق فأد ما عليك يؤتك ما لك، ولا بد من التمييز بين ما لك وما عليك وإعطاء كل ذي حق حقه]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أفضل الرزق وأبركه:

ولهذا كان أفضل الرزق وأجله وأبركه ما كان لأهل التقوى، وتضمن إعانة لهم على طاعة الله جل وعلا، فأهل التقوى وعدهم الله بالرزق الحسن، وأنه جل وعلا سيكون له كافياً ونصيراً، ورازقاً وظهيراً، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق:٢-٣]، وقال: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق:٤-٥].

فمن أراد الرزق الحسن والعطاء برضا؛ فعليه بالتقوى، فبقدر تقواك لله، يكن نصيبك من هذا الرزق الحسن.

فليس الشأن في كثرة العرض، ولكن بالتقوى، كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة:٦٥-٦٦]، وقال: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف:٩٦].

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والرزق فيما يتعلق بجسد الإنسان أيضا ينقسم إلى نوعين:

١ - **رزق القلوب**: وهذا يكون في تقوى الله وعبادته، وعلى العبد إن يسعى في تحصيله، وأن يسأل الله من فضله، فهو أشرف نوعي الرزق.

ولهذا كان من دعاء النبي r :"اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا"، أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله:عن النبي r أنه كان يقول:"اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى".

٢ - **رزق الأبدان**:وهذا يكون فيما سخره الله تعالى من أسباب المعايش لعباده، وهذا لا مزية فيه لعبد دون آخر، فالكل يعطاه ويهدى إليه، ولكن الشأن كل الشأن في رزق القلوب. وسيأتي الحديث إن شاء الله تعالى عن نوعي الهداية.

قال تعالى: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥)قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٣٦)وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ(٣٧)وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(٣٨)قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ:٣٥-٣٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال:[إن الله يعطي الدنيا مَنْ يُحِبُّ ومَنْ لا يُحِب، ولا يُعْطِي الإيمان إلا من يُحِب، فإذا أحَبَّ الله عبدا أعطاه الإيمان]. فأسأل الله من فضله العظيم.

تحقيق التوحيد هو سر كل بركة ورزق حسن:

واعلم رحمك الله تعالى، أن تحقيق التوحيد هو سر كل بركة ورزق حسن، ومن جميل ما قاله الإمام ابن القيم في بيان العلاقة الوطيدة بين الرزق وتحقيق التوحيد، ما ذكره في كتابه:(الفوائد):[فائدة: قول الله تعالى:{وإن من شيء إلا عندنا خزائنه}، متضمن لكنز من الكنوز وهو أن يطلب كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه وقوله:{وأن إلى ربك المنتهى} متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه فاجتمع ما يراد منه كله في قوله:{وإن من شيء إلا عندنا خزائنه} واجتمع ما يراد له كله في قوله:{وأن إلى ربك المنتهى} فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره وليس المراد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد]ا.هـ.

قال المؤلف رحمه الله:(ولم يتركنا هملاً): هذا هو اللازم العظيم الذي لم يلتزمه أكثر العباد، بل صاروا إلى قول الله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [النحل:٨٣].

فيقال: فلما كان الله تعالى خالقاً ورازقاً تبارك وتعالى، قيل: أفيكون خالقاً ورازقاً ويأذن أن يعبد غيره؟!، أفيكون خالقاً ورازقاً ونحن نقر بذلك ثم نعبد غيره؟!، أفيكون خالقاً ورازقاً، ويأذن أن يكون غيره مشرعا لعباده، حاكما فيهم آمراً ناهياً؟!، قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:٥٤].

أفيكون خالقاً ورازقاً ويكون الخلق قد خُلِقوا عبثاً وتركوا سدى؟!، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل إنما خلقنا وتكفل لنا بالأرزاق، لنعبده وحده لا شريك له، وقد أعلمنا بهذا الغاية في كتبه التي أنزلها، وعلى لسان رسله الذين أرسلهم.

ولهذا نزه الله نفسه الشريفة عن مثل هذا العبث فقال سبحانه وتعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون:١١٥-١١٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} استفهام إنكاري، ينكر الله جل وعلا فيه، على أصحاب العقول والقلوب السقيمة، الذين ظنوا بالله ظن السوء؛ فحسبوا أنهم خلقوا هكذا عبثا وتركوا سَبَهْلَلا، ثم قال بعدها سبحانه {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}، أي يتنزه الرب جل جلاله عن مثل ذلك. والمعنى أي لم أخلقكم عبثاً ولم أترككم سدى.

وقد أنكر الله تبارك وتعالى ذلك على المشركين بسياقات متنوعة في الذكر الحكيم، بنفس هذه السبيل، حيث يقررهم بمسألة الخلق والرزق، ليلزمهم بإفراده بالعبادة، كما في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [يونس: ٣١ - ٣٣]، وقوله: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سبأ:٢٤]، وقوله: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:٧٣-٧٤].

وفي آيات سورة النحل، ذكر الله تعالى جملة من نعمه، ثم بين أنه ما فعل ذلك بهم إلا ليحققوا الاستسلام له والانقياد لشرعه والقيام بحقه، ولكن أكثر العباد في غفلة عن ذلك، فيأخذون النعم، ويكفرون بالله عزل وجل، إما استظهارا بها واستعمالا لها في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إطفاء نور الله، أو بنسبتها إلى غير الله، تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيرا، قال تعالى: {وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [النحل:٨٠-٨٣].

وقال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [إبراهيم:٢٨-٣٠].

وفي الصحيحين عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله r صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ:"هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ". قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ.فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ".

قال المؤلف:(بل أرسل ألينا رسولاً):أي من رحمته سبحانه وتعالى، أنه لم يكتفِ بالعهد الأول المذكور في آية الإشهاد في سورة الأعراف في قوله تعالى:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف:١٧٢-١٧٣]، وهذا من فضله وعدله جل الله في علاه، فإنه ليس هناك أحد من بني آدم يتذكر ذلك العهد، المأخوذ في عالم الذر[1]، بل هو في حكم النسيان، والله تعالى وعد أن لا يؤاخذ عباده بالخطأ والنسيان، كما في صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ} قَالَ دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ النَّبِيُّ r :"قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا". قَالَ:"فَأَلْقَى اللهُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:{لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}(قَالَ:قَدْ فَعَلْت):{رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} (قَالَ:قَدْ فَعَلْتُ){وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا}(قَالَ:قَدْ فَعَلْتُ)". ورواه مسلم من حديث أبي هريرة y أيضا.

---

١ -كما في تفسير ابن أبي حاتم:حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، ثنا مِنْجَابُ بْنُ الْحَارِثِ، ثنا عَلِيُّ بْنُ مِسْعَرٍ، عَنِ الأَعْمَشِ، وَحَبِيبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدم مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ}، قَالَ:[لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدم أَخَذَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ ظَهْرِهِ كَهَيْئَةِ الذَّرِّ، ثُمَّ سَمَّاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَقَالَ: هَذَا فُلانُ ابْنُ فُلانٍ يَعْمَلُ كَذَا وَكَذَا، وَهَذَا فُلانُ ابْنُ فُلانٍ يَعْمَلُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ قَبْضَتَيْنِ، فَقَالَ: هَؤُلاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلاءِ فِي النَّارِ، فَمَضَتْ}. وسنده قوي.

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ" ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ t :{فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين؛ لتقوم الحجة على العباد إعذارا وإنذارا، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.فمن رحمته أنه أرسل الرسل ليجددوا العهد، ويذكروننا به.

قال المؤلف:(فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار): هكذا يُذَكِّر المؤلف بالأصل العظيم الذي لأجله يرسل الله الرسل، لتطاع بإذن الله،كما قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٤-٦٥].

وسيأتي الكلام عن النبي **r** وبيان صفته، وأنه لا يُعْرِضُ عن اتباعه إلا مجنون أو جاحد ظالم عال أو ناقص عقل، وقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة **t** أن النبي **r** قال:"كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى"، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبَى، قَالَ:" مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى"

حقيقة الأَبَيَان:

فنأخذ من هذا الحديث أن الأَبَيَان، يكون بالأحوال، كما يكون بالأقوال ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام:"فقد أبي"، ولم يقل:ومن عصاني دخل النار؛ لأن العبد قد يعصي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يدخل النار، فهو تحت المشيئة، إذا كانت معصيته، دون الشرك أو الكفر أو النفاق الأكبر، وهذا من عظمته r ، وكمال معرفته بالله جل وعلا.

وأما المؤلف رحمه الله تعالى، فإنه لما كان حديثه عن أصل الدين، لا عن آحاد الذنوب والمعاصي التي هي دون ذلك؛ جزم بدخول النار على من هذه صفته، أنه يُدْعى إلى التوحيد فيأبى، فهذا قطعا أنه من أصحاب النار. نسأل الله العافية والسلامة.

وهذا ظاهر في قوله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥].

وفي صحيح البخاري من طريق سَعِيدُ بْنُ مِينَاءَ حَدَّثَنَا أَوْ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ r وَهُوَ نَائِمٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنْ الْمَأْدُبَةِ وَمَنْ لَمْ يُجِبْ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلْ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ الْمَأْدُبَةِ فَقَالُوا أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا فَالدَّارُ الْجَنَّةُ وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ r فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا r فَقَدْ أَطَاعَ اللهَّ وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا r فَقَدْ عَصَى اللهَّ وَمُحَمَّدٌ r فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(والدليل قوله تعالى:{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا}): أي أن الرسول r شاهد على أمته، فيحق الحق ويبطل الباطل، بالكتاب والسنة، وفي هذا التحذير الشديد والتهديد الأكيد، فليحذر الإنسان من البدعة ومن الإحداث في الدين، والتبديل؛ فإن في ذلك الهلكة والعياذ بالله.

فإذا لقي عبد النبي r يوم القيامة بعمل مبتدع، وبتبديل للدين شهد عليه لا له؛ ولهذا في الصحيحين من طريق أَبِي حَازِمٍ قَالَ سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ" قَالَ أَبُو حَازِمٍ فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا فَقَالَ هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا فَقُلْتُ نَعَمْ قَالَ وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فِيهِ قَالَ:"إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ:"السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا". قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله قَالَ:"أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ". فَقَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ الله فَقَالَ:"أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلاَ يَعْرِفُ خَيْلَهُ". قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ:"فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَلاَ لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَوْضِيكَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلاَ هَلُمَّ. فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا".

وفي صحيح مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ حَوْضِي لأَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَذُودُ عَنْهُ الرِّجَالَ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ الإِبِلَ الْغَرِيبَةَ عَنْ حَوْضِهِ". قَالُوا يَا رَسُولَ الله وَتَعْرِفُنَا قَالَ:"نَعَمْ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ لَيْسَتْ لأَحَدٍ غَيْرِكُمْ".

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ فَقُلْتُ أَيْنَ قَالَ إِلَى النَّارِ وَالله قُلْتُ وَمَا شَأْنُهُمْ قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ قُلْتُ أَيْنَ قَالَ إِلَى النَّارِ وَالله قُلْتُ مَا شَأْنُهُمْ قَالَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ".

لأنهم بدلوا سنة النبي r ؛ ولهذا امتدح الله تعالى فريقا من عباده، فوصفهم جل وعلا بقوله: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب:٢٣]، فنعتهم بأظهر علاماتهم الدالة على عظيم إيمانهم، أنهم لم يبدلوا، فهي علامة الصدق والعمل.

مسألة: والراجح المختار أن نشهد على الكفار الأصليين بالنار على وجه العموم والتعيين، إذ هذا هو الأصل، ولنا ظاهر الحال، فمن عاش كافرا ولم نعلم منه إسلام؛ فنشهد عليه بالكفر والنار، ولا نتردد في ذلك، ولا نقول: إنا لا ندري بم ختم له؟؛ فإن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه المقولة إنما تصلح في أهل القبلة لا في الكفار الأصليين، وكما أننا لا ننتقل عن يقين الإسلام في أعيان المسلمين، إلا بعد توفر الشروط، وانتفاء الموانع، التي تحول دون الشهادة عليه بالكفر، فكذلك الكافر لا ننتقل عن شهادتنا عليه بالكفر إلا بيقين إسلامه، ولما كان هذا منتف هنا؛ تعين أن نبقى على الأصل، ومن المعلوم أن الشهادة عليه بالنار تابعة للشهادة عليه بالكفر، وعلى هذا ظواهر الأدلة من الكتاب والسنة، كما قال تعالى:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٣٩]، وقوله:{بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٨١]، وقوله:{وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} [غافر:٦]، وقد تكرر هذا اللفظ {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} في نحو من عشرين موضعا من الذكر الحكيم، وأما ما في معنى ذلك فكثيرا جدا.

وأما من السنة، فمن ذلك ما جاء في صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ t ، قَالَ كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ r فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ r يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ :"أَسْلِمْ" فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهْوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ r فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ r وَهْوَ يَقُولُ :"الْحَمْدُ للهِ الَّذِي **أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**".

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله r أَنَّهُ قَالَ:"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ **مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ:"لاَ يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ".

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله r تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلاَثًا ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ:"يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا". فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ r فَقَالَ يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يَسْمَعُوا وَأَنَّى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيَّفُوا قَالَ:"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا". ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ.

وكما أنه لا يشك أحد، في أن أبا جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وابن جدعان، وعقبة بن أبي معيط، وابن خطل، وكعب بن الأشرف؛ أنهم في النار قطعا، فكذلك من عَدَاهُم من أهل الكفر، وإلا فما الفرق؟!!.

فاليقين لا يزول إلا بيقين مثله.

قوله:{كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً}: أي ما أخلى الله تبارك وتعالى أمة من رسول ونذير، كما قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِير} [فاطر:٢٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأرسل الله إلى الأمم السابقة رسلاً إلى أقوامهم، بل لربما بعث الله في الأمة الواحدة أكثر من رسول، كما قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} [يس:١٣-١٤]، ومنهم موسى عليه السلام فقد أرسل هو وهارون إلى فرعون، كما قال تعالى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [طه:٤٢-٤٨].

وعليه فيكون قوله تعالى: {كما أرسلنا إلى فرعون رسولا}، إما على الجنس فيعم موسى وهارون، وإما ذكرا لمن أرسل ابتداء وهو موسى، لقوله تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي(٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي(٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي(٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي(٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي(٣١)وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا(٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا(٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا(٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [طه:٢٤-٣٦].

لماذا فرعون بالذات:

وتخصيص فرعون هذا الطاغية بالذكر هنا؛ لأنه والله أعلم، كان من أعتى الناس كفرا، فقد جمع ألوانا من الكفر بالله تعالى، فقد ادعى الربوبية في أول أمره، كما قال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [القصص:٣٨]، ثم لما رأى إفلاسه أمام الحجج الواضحات البينات، تنازل عن ادعاء التفرد، فقال فيما قصه الله تبارك وتعالى: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}[النازعات:٢٤]، وهذا تنازل منه على كِبْرٍ ومَكْر، أي إن ثبت، وسلمت بوجود رب لكم غيري، فأنا ربكم الأعلى، أي فأنا فيهم الأعلى، والمعنى أن السيطرة له، ومن عداه مقهور مربوب، عاجز ضعيف. تعالى الله عما قال علوا كبيرا، والأمر كما قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الزخرف:٥٤].

ثم إنه ادعى الألوهية كذلك، ووضع التشريعات الجاهلية، فنازع في التشريع كذلك، كما قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف:١٢٧].

وقيل إنه كان يعبد عجلا في السر، وكان يسوس مملكته بالسحر والسحرة، فهذه ألوان من المكفرات، لا تكاد تجتمع إلا في هذا الطاغية الجبار العنيد.

وهذا الطاغية ذو مال وجاه وسلطان، فلم يسعفه جاهه ولا ماله ولا سلطانه، في إتباع الحق، بل كان حائلاً دون ذلك، والعياذ بالله، وعلى هذا فليحذر الإنسان أن يكون ماله أو سلطانه أو جاهه حائلاً بينه وبين الهداية. نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن عظيم جبروته وإصراره على الكفر والطغيان، أنه رأى البحر ينفلق أمام عينيه، ورأت الشمس بقعة من الأرض كانت مغيبة بالماء من قبل، وصار الماء جامدا، كل فرق كالطود العظيم، ومع هذا كله لا فائدة مع هذا الطاغية، فلا تعجب من فراعنة العالم اليوم، والعظات والعبر تتوالى عليهم، وهم مستمسكون ببغيهم، وضلالهم. فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء:٦١-٦٧].

قوله: {فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا}: أي قابل فرعون الرسالة بالمعصية والنكران، والتعالي والاستكبار، وسعي في لبس الحق بالباطل، رغبة ورهبة، كما قال تعالى: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [يونس:٨٣]، ولبس مسوك الضأن في قلوب الذئاب، فادعى الصلح والإصلاح، كما قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} إلى قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٢٦ - ٢٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله تعالى:{فأخذناه أخذا وبيلا}، أكد الفعل بالمصدر، لإفادة شدة الأخذ وعظيم البطش. وفي صحيح البخاري معلقا:[قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {وَبِيلًا}:شَدِيدًا]ا.هـ.

فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، فما أهون العبد على الله إن عصاه، مع أن الله تعالى أعطاه الفُرصة تِلْوَ الفرصة وأملى له، فها هي تسع آيات مفصلات، لعله أن يؤمن ولكنه طغى، وقال أنا ربكم الأعلى، ولكن الله يمهل ولا يهمل.

وفي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى **t** قَالَ **t** قَالَ رَسُولُ اللهِ **r**:"إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قَالَ ثُمَّ قَرَأَ:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}". متفق عليه.

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو نارا نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الثَّانِيَةُ:أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً} [الجن: ١٨].

الشرح

قال المؤلف:(الثانية: أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ): المؤلف رحمه الله تعالى بعد أن بَيَّنَ أن الجنة حكرٌ على من أطاع الرسول r بالتوحيد، وأن طاعة الرسول r هي قرينة الإيمان بالله تعالى، بحيث لا يقبل من المرء إيمانٌ بدون طاعة الرسول r ، والمقصود بالرسول هنا، رسول كل أمة، فردّ المؤلف على كل من يزعم إيماناً مجرداً عن طاعة الرسل، وقرر أنه لا إيمان له، بل هو كحال فرعون وهامان وقارون وأُبي بن خلف.

شرع المؤلف رحمه الله يبين أن هذا الرسول الكريم r ، المأمور باتباعه، لا يجوز الغلو فيه، فإن الله تبارك وتعالى كما أنه لا يقبل إيمان بدون اتباع لرسوله، فكذلك لا يرضى أن يشرك معه جل وعلا في العبادة، كائن من كان مهما علا كعبه، أو قَرُبَت منزلته من الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى، لا من حملة العرش المقربين، ولا من الأنبياء والمرسلين، وإن كان هو خيرهم وسيدهم محمدا r ، فضلاً عن الأولياء الصالحين.

فهذه قضية محسومة تماما في نصوص الكتاب والسنة، التي بَيَّنَت أن هذا في غاية الامتناع؛ لأن حق الله تعالى، لا يقبل الله تعالى فيه منازعا أبدا، وإنما قدمنا بذكر الرسول r ؛ ليُعلم أن من عداه من باب أولى.

قوله:(أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ): هذا السياق دال على العموم، وهكذا أراد المؤلف، إذ ساقه بهذه الطريقة، فإن النكرة إذا جاءت في سياق النهي أو النفي؛ أفادت العموم، وهنا كلمة (أحد) نكرة جاءت في سياق النفي، فتفيد العموم المقصود هنا، ألا وهو امتناع أن يرضى الله تبارك وتعالى من أحد كائنا من كان أن يشرك معه آلهة أخرى.

قوله:(لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ)، مثل بالأشراف من خلق الله تعالى؛ ليدخل في الخطاب من دونهم من باب أولى؛ ولبيان أن الكل في هذا الباب سواء.

لا للغلو مهما كان:

فإن كثيرا من الذين يعبدون غير الله تعالى، يظنون أن لِمَنْزِلَةِ العبد تَأْثِيراً في استحقاق صرف العبادة إليه، فهم لا يتصورن أن يكون الولي كآحاد العباد في هذا الباب، بل الولي عندهم لابد أن تكون عنده خِصِّيْصَةٌ تميزه عن سائر العباد، وهذه الخصيصة لابد أن تكون من صفات الخالق تبارك وتعالى، وإلا فلا يكون وليا، عياذا بالله من الشرك والتنديد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا هو عين ما حذر الله تبارك وتعالى منه عباده، فقد بَيَّنَ تبارك وتعالى أنه لا أحد يستحق ذلك سواه، وأنه لا أحد أصلا يمكن أن يكون كذلك، وإن ادعاه من ادعاه، فإنه ليس بشيء، كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج:٦٢]، وقوله: {إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت:٤٢-٤٣]، وقوله: {أَلَا إِنَّ لله مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [يونس:٦٦].

وبيان هذا الامتناع ذكره الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من الذكر الحكيم، كقوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}[البقرة:٢٥٥]، وقوله: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء:٢٩]، وقوله: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} [النساء:١٧٢]، وقوله: {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة:١١٦-١١٧]، وقوله: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} [الفرقان:١٧-١٩]، وقوله: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ:٤٠-٤١]، وقوله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [الإسراء:٥٦-٥٧]، وقوله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ:٢٢- ٢٣]، ومثل هذا كثير في الذكر الحكيم، فهذه القضية من أظهر القضايا، وأصرحها في كتاب الله جل وعلا.

قوله:(لا يرضى)، هو دال على سخط الله جعل وعلا على من خالفه في ذلك، فركب ما لا يرضاه الله تعالى، والمنفي هنا هو الشرك، والمعنى أنه لا يرضى الشرك، وهذا دال على أن الواقع في ذلك قد بلغ من الله غاية المقت، والعياذ بالله، قال تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر:٧]، وفي الحديث الذي في صحيح مسلم عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ:"أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَـذَا كُـلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْـدًا حَـلاَلٌ وَإِنِّي خَلَقْـتُ عِبَـادِي حُنَفَـاءَ كُلَّهُـمْ وَإِنَّهُـمْ أَتَـتْهُمُ الشَّـيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْـرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْـزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللهَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَـرَبَهُمْ وَعَجَمَهُـمْ إِلاَّ بَقَايَـا مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِي بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْـرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ وَإِنَّ اللهَّ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ رَبِّ إِذًا يَثْلَغُـوا رَأْسِي فَيَـدَعُوهُ خُبْـزَةً قَالَ اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْـكَ وَابْعَـثْ جَيْشًـا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ. قَـالَ وَأَهْـلُ الْجَنَّـةِ ثَلاَثَـةٌ ذُو سُـلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِـيمٌ رَقِيـقُ الْقَلْـبِ لِكُـلِّ ذِي قُرْبَـى وَمُسْـلِمٍ وَعَفِيـفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ - قَالَ - وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ الضَّعِيفُ الَّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ الَّـذِينَ هُـمْ فِـيكُمْ تَبَعًا لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً وَالْخَائِنُ الَّذِي لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلاَّ خَانَهُ وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ".

من هم الحنفاء:

والشاهد من هذا الخبر قوله r :"فمقتهم عربهم وعجمهم" ثم استثنى فقال:"إلا بقايا من أهل الكتاب"؛ وهم الذين كانوا على دين إبراهيم، أو على أصولٍ صحيحة كُلِّية من دين عيسى، كحال ورقة بن نوفل، وهؤلاء كانوا يُدْعَونَ بالحنفاء، كقس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهم. فدل السياق إذن على أن هذا المَقْتَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنما كان من جراء انتشار الشرك بالله تعالى، وبهذا دمر الله الأمم من قبلنا، واقـرأ كتـاب الله ترى شواهد ذلك، أظهر من أن تذكر، وأشهر من أن تنكر، إلا من معاند مستكبر.

ولنذكر طرفا من حال هؤلاء الحنفاء **y**، ولنضرب مثلا بأحد أشهرهم، فقد جاء في صحيح البخاري:[باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل]:

حدثني محمد بن أبي بكر حدثنا فضيل بن سليمان حدثنا موسى بن عقبة حدثنا سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي **r** لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي **r** الوحي فقدمت إلى النبي **r** سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه. وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله. إنكارا لذلك وإعظاما له.

قال موسى حدثني سالم بن عبد الله ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر: أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشأم يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد ما أفر إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا وأنى أستطيعه ؟ فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا قال زيد وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لعنة الله قال ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا وأنى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا قال وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم.

وقال الليث كتب إلي هشام عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول يا معاشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يحيي الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أنا أكفيكها مؤونتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها. (انتهى من صحيح البخاري).

ومن الشعر الذي أثر عن أحد الحنفاء ألا وهو زيد بن عمرو بن نفيل:

أَرَبٌّ واحـد أم ألـف رب ... أديـن إذا تقسـمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أديـن ولا ابنتيها ... ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزُور

ولا غنمـا أديـن وكـان ربـا... لنا في الدهر إذ حلمي يسير

عجبت وفي الليالي معجبات...وفي الأيـام يعرفها البصير

بأن الله قـد أفـنى رجـالا ... كثـيرا كـان شأنهم الفجور

وأبقى آخـرين بـبر قـوم ... فيربـل منهم الطفل الصـغير

وبينا المرء يعثر ثاب يوما ... كمـا يتروح الغصـن النضير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبي الرب الغفور

فتقوى الله ربكم احفظوها...متى ما تحفظوها لا تبوروا

ترى الأبرار دارهم جنان ...وللكفار حامية سعير

وخزي في الحياة وإن يموتوا...يلاقوا ما تضيق به الصدور

كما أن في قوله:(لا يرضى) إثباتا لصفة الرضى لله جل وعلا، وهي صفة ثابتة بالكتاب والسنة، كما قال تعالى:{رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة:١١٩]، في أربعة مواضع من الذكر الحكيم هذا أحدها،وقال:{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الزمر:٧].

ومن السنة ما جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ" وهذه الصفة نثبتها إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل،كما قال تعالى:{ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

فمن اتخذ من دون الله أنداداً، أو وسائط،في عبادته تبارك وتعالى؛ فقد أشرك بالله جل وعلا، وأتى بالأمر الأعظم، والذنب الذي لا يغفر، كما قال تعالى:{إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النساء:٤٨]، وقوله:{إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} [النساء:١١٦-١١٧]، وقوله:{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:١٣]، وهذا هو الحِنْثُ العظيم.

وصاحبه عمله حابط، وهو في الآخرة من الخاسرين، ومن حطب جهنم خالدا فيها أبدا، كما قال تعالى بعد أن ذكر جملة من خيار خلقه، وهم الأنبياء والمرسلون، قال سبحانه:{وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام:٨٨]، وتأمل في هذه الآيات التي تكلم الله تعالى بها في سورة الإسراء –والقرآن كله كلام الله تعالى حقيقة- حيث ذكر تبارك وتعالى جملة من أوامره فعلا وتركا وأدب عبادة وأوصاهم ووعظهم، وذلك من قوله تعالى:{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا} [الإسراء:٢٢]، إلى قوله تعالى:{ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء:٣٩]، فتلاحظ أنه تبارك وتعالى استفتحها بحقه، وختمها بحقه، في بيان عام تام أنه لا شيء فوق حقه، ولا شيء يقدم على حقه تبارك وتعالى، وحقه هو التوحيد المتمثل في تحقيق الإيمان بالله تعالى والكفر بالطاغوت.

ومنه قوله تعالى:{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَّ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر:٦٥-٦٦]، {من الشاكرين}: أي من الموحدين، فإذا كان هذا الخطاب للرسول r ،بأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشـرك محبط للعمل، فما بَالُك بمن دونه r ، وهذا يسمى قياس الأولى، ويسمى بغايـة الامتناع، فإن النبي r معلوم أنه لم يشرك بربه قط، ولن يشرك بربـه قـط، ولكـن هـذا السياق لبيان غاية الامتناع.

أقسام الشرك

والشرك ينقسم إلى قسمين:

١ - **الشرك الأكبر**: وهو مخرج من الملة.

٢ - **الشرك الأصغر**: وهو غير مخرج من الملة، إلا إن اعتراه ما يتحول به إلى الأكـبر، كالاستحلال، أو اعتقاد استحقاق العبد أن يُفْعَلَ به هـذا الشـرك، كـالحلف بغـير الله تعالى، وكيسير الرياء والسمعة التي لا يسترسل معها العبد، وقول ما شاء الله وشـئت، ولولا فلان لما كان كذا وكذا، فإنه إن اعتقد أن هنـاك مـن المخلـوقين مـن يسـتحق أن يُحْلَفَ به تعظيما من دون الله أو مـع الله، أو أن هنـاك مـن يسـتحق أن نرائيـه بـالأعمال الصالحة، أو أن له مشيئة نافذة كمشيئة الله تعالى، أو أن لفلان من دفع البلاء أو رفعه ما لله تعالى، معه أو من دونه، فلا شك أن هذا كله من الشرك الأكـبر، والـذنب الـذي لا يغفر، إلا بالتوبة النصوح.

وتعريف الشـرك الأكبر: هو تسوية غير الله بالله، فيما هو مـن خصـائص الله تعـالى، ودليل هذا التعريف قوله تعالى في اختصام أهل النار: {تَاللهِ إِنْ كُنَّـا لَفِـي ضَـلَالٍ مُبِـينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء:٩٧-٩٨]، وقوله: {الْحَمْـدُ لله الَّـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَـلَ الظُّلُـمَاتِ وَالنُّـورَ ثُـمَّ الَّـذِينَ كَفَـرُوا بِـرَبِّهِمْ يَعْـدِلُونَ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[الأنعام:١]، وقوله:{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [النمل:٦٠].

لا يلزم في الشرك التسوية التامة:

واعلم رحمك الله، أن هذه التسوية لا يلزم أن تكون من كل وجه، وعلى كل حال، حتى يتحقق وقوع العبد في الشرك، بل لو سوى المخلوق بالخالق ولو في بعض ذلك، لكان واقعا في الشرك الأكبر، فمن نازع الله تبارك وتعالى في شيء من أسمائه أوصفاته أو أفعاله، فقد أتى الشرك الأكبر.

واعلم أن المشركين الأوائل لم يزعموا أن آلهتهم تفعل كفعل الله، أو أن جميع أسماء الله تعالى وصفاته حَلَّتْ فيهم، بل كانوا يُقِرُّون بأن آلهتهم ليست كذلك، حتى كانوا يقولون في تَلْبِيَتِهم :[لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك]، فهم كانوا مُقِرِّين بافتقار آلهتهم وضعفها، ومع ذلك سماهم الله تبارك وتعالى مشركين وكافرين.

كما في صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ - قَالَ - فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ r :"وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ". فَيَقُولُونَ إِلاَّ شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال العلامة ابن القيم في(إغاثة اللهفان):[فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك، فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن؛ لوحدوه حق توحيده؛ ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلا وندا، يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل له ويخضع له، ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته قال تعالى:{ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله}، وقال تعالى:{الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}، أي يجعلون له عدلا في العبادة والمحبة والتعظيم، وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبني آلهتهم، وعَرَفُوا وَهُم في النار أنها كانت ضلالا وباطلا، فيقولون لألهتهم وهم في النار معهم:{تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين}.

ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال ولا قالوا : إن آلهتهم خلقت السموات والأرض وأنها تحيي وتميت وإنما سووها به في محبتهم لها وتعظيمهم لها وعبادتهم إياها كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين، وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبدا، بل قد حَرَّمَ الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد، إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع].هـ.

شرك المتأخرين أغلظ وأفظع:

وليس بخاف أن حال المشركين الأوائل، كان أخف حالا من حال بعض مشركي هذا الزمان، كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في القواعد الأربع:[القاعدة الرابعة: **أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة ومشركوا زماننا شركهم دائماً في الرخاء والشدة**، والدليل قوله تعالى:{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (العنكبوت:٦٥)]ا.هـ.

واعلم رعاك الله، أن الأمر قد تطور في هؤلاء المشركين، فصار حالهم إلى ما هو أسوء من ذلك، حيث صار بعضهم ينسب إلى أوليائهم، صفة من صفات الله تبارك وتعالى، لم ينسبها أحد من المشركين على مر العصور والأزمان لآلهتهم، بل ما زالت آيات الذكر الحكيم تقررهم بهذه الصفة ؛ لإلزامهم بأن مستحقها هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ألا وهو صفة الخلق؟!!.

كما قال تعالى:{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [الزخرف:٨٤-٨٧]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}[الزمر:٣٨]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [العنكبوت:٦١]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [لقمان:٢٥]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيم} [الزخرف:٩].

أمثلة من الشرك المعاصر الموروث عن المشركين الأولين:

نعم بعد هذا كله؛ وجد في زماننا هذا من يدعي أن شيخه فلان أو فلان، يرزق الولد، ويخلق ويوجد من العدم، بل ويُغَيِّر حقائق الأمور، فَيَقْلِبُ الحَجَرَ بَشَراً، والعكس، ويقلب الشجرة أنثى، وتعيش معه زمنا، ثم تموت.

وقال أحد شعراء الشرك والضلالة، ممن تتنزل عليهم الشياطين، الذين قال الله تعالى فيهم: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} [الشعراء:٢٢١-٢٢٦].

قال وهو يمدح:أحمد الطيب بن البشير أحد زعماء الطريقة السمانية:

كإحيائه ميتا وكالبنت بعد ما ... أتت وهي أنثى للذكورة تقلب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد جاءه الأعرابي بالتمر زائرا ... وأنه للقرآن يهوى ويطلب

فعلمه إياه في الوقت فابتدا ... يرتله يا من سمعتم تعجبوا

ومن قال هذا قبر أحمد أولاً ... فصاحبه في القبر ليس يعذب

وقال آخر في قصيدة مشهورة وهي من قصائد محمد بن كنون المكي وهو صاحب أبي العباس أحمد التيجاني زعيم الطريقة وشيخها يقول:

لو شئت أن تحظي بكل مؤمل وتفوز بالإسعاد والإيناس

وتجار من ضيم الزمان وضيقه ومن المعرة والبلاء والبأس

فعليك بالحبر الهمام المنتقي قوس الورى أعني أبا العباس

ذاك التيجاني حاز كل فضيلة بالختم ميزه إله الناس

ويقول:

أصحابه مغفورة زلاتهم سيان في ذي عابد والناس

ويقول:

وأجور طاعة غيرهم تكتب لهم أضعافا وهم في حال نعاس

وإذا تصبك خصاصة فبه استغث مستنجداً ينجيك من إفلاس

واهتف بهم مستعطفاً ومنادياً إني ببابك يا أبا العباس

ويقول:

أنقذ غريقاً من بحار ذنوبه وأمنن عليه بفضلك ميا أس

ثم الصلاة علي النبي وأهله أهل المحبة والتقي والبأس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقول آخر في أحد شيوخ القادرية واسمه إبراهيم:

أنا لِمُرِيدي جامع لِشَتَاتِه وأخرجه من كل شيء وفتنة
تمسك بنا في كل هول وشدة أُغِثْكَ من الشداة طُرّاً بهمتي
مُرِيدِي إذا ما كان شَرْقاً ومَغْرِباً وإذا ما صَارَ فِي أيِّ بَلْدَتِي

ويقول:

أنا كنت مع نوح أشاهد في الورى بحاراً وطوفان على كَفِّ قُدْرَتِي
أنا كنت مع إبراهيم مُلْقي بِنَارِهِ وما بَرد النيران إلا بدعوتِي
أنا كنت مع يعقوب في غَشْوِ عينه وما برأت عيناه إلا بِتَفْلَتِي
أنا كنت مع موسى مناجاة ربه وموسى عصاه من عصاي اسْتَمَدَّتِ

ويقول:

أنا الواحد الفرد الكبير بذاته أنا القُطب إبراهيمُ شيخُ الطَّرِيقَةِ
وما قلته ذا القول عني وإنما أتى الإذن حتى يعرفون حقيقتي

ويقول محمد عبده البرهاني في كتابه:تبرئة الذمة:[الباب الأول في تنزل روحه القدسية في الحضرات الإلهية على المناظر العلية r : أخبرنا تُرجمان الأزل في مشهد المنن عن العلل أن صفات الله الأسنى وأسماءه الحسنى تقابلت في معاني الكمالات لإظهار حقائق الذات فأظهرت كل صفة ما يخصها من الجمال والجلال وأبرز كل اسم ما يقتضي معناه من الكمال وبقيت الذات الإلهية على ما هي عليه من البطون على حقيقة الكنزية في الكمون فاجتمعت حقائق تلك الأسماء والصفات حيث لا أين في مشهد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معنوي للذات يقول كل منها أنا، وإن أظهرنا هذا الكمال وأبرزنا هذا الجمال والجلال فإنما أخبرنا عن قطرة في بحر وحدثنا عن ذرة في قفر وهيهات هيهات أين منا ما حوته الذات فكيف السبيل إلى ظهور الشؤون الإلهية الذاتية المتعالية عن الحقائق الأسمائية والصفاتية فحينئذ برزت إشارة كنهية بعبارة منهية إني قد اختلست من ذاتي نسخة جامعة لأسمائي وصفاتي بمزيد من حقائق الكنه الذي لا يعبر عنه، أبرز فيه بروزا هو عين الكمون، وأظهر فيه ظهورا، هو عين البطون، متصورا بصورة بديعة، متنزلا في مشاهدي الرفيعة، تكون تلك الصورة مجلى لشأوكم الرفيع، ومظهرا لشأنكم البديع، تستأثر في نفسها بما لها في قدسها، من كنه لا يعرف، وحقيقة لا تدرك ولا توصف؛ فتكون نسبة ذلك المظهر الأكمل، والمجلى الأعز الأفضل، إلى مظاهركم العظيمة، ومجاليكم الكريمة؛ نسبة الذات إلى الصفات، يكمل ثنائي على علائي؛ فشققت من الحمد اسمها، إذ كان ذلك رسمها،**فسميته محمدا وأحمد ومحمودا وجعلته عابدا ومعبودا**.ا.هـ.

التعليق : هذه هي عقيدة الحلول والاتحاد والتي معناها أن الله تعالى قد حل في خلقه واختلط في مائه ودمه فأصبح المخلوق نسخة من الخالق بل هو عينه وأصبح الخالق حالا في المخلوق بل هو عينه، والمخلوق في العبارات المتقدمة هو النبي **r** ، وهذا كما تلاحظ هي نفس عقيدة النصارى الذين قالوا إن المسيح ابن الله وأن الله هو ثالث ثلاثة، أي حَلَّ الخالق في المخلوق، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وهذه العقيدة هي التي كان ينادي بها الزنديق المعروف بمحي الدين بن عربي ـ وهذا الزنديق هو غير ابن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عربي الفقيه المالكي رحمه الله تعالى ـ فأي كفر وردة وضلال أعظم من هذا؟!!، فكيف يصبح النبي r عابدا ومعبودا في آن واحد، مع أن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد}، وقوله تعالى: {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون}، مع أن النبي r إنما بعث؛ لينذر ويحذر من الشرك، ويدعو إلى إفراد الله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ربوبيته وملكه، كما قال سبحانه وتعالى: {اللهَّ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيد السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله أُوْلَئِك هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَّ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِه وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر ٦٢-٦٧]، ولكنه الغُلو الذي حذر منه النبي r أمته في غير ما حديث، فكما وقع النصارى في عبادة الأنبياء كعيسى عليه السلام، ووقعت اليهود في عبادة الأولياء كعزير رحمه الله؛ عبد بعض أفراد هذه الأمة محمدا r ، وهذا ما أخبر به النبي r أن هذه الأمة ستتبع اليهود والنصارى في كل شيء، وقد وقع، فها هو النبي r تعبده أهل هذه الطريقة، ويؤلهونه، ويضفون عليه سائر الصفات الإلهية، فهو محمد وأحمد ومحمود وهو العابد والمعبود. تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا إله إلا الله!!، ما هذا الشرك؟!، وما، هذه العقول؟!!، ولكن حقا، كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك:١٠-١١].

وهؤلاء يخادعون الناس باسم الكرامات، فيزعمون أن الله تعالى آتاهم إياها؛ لقربهم منه، وعلو منزلتهم عنده، فيوهمون الناس أن الكرامة إنما تعني مشاركة المخلوق خالقه جل وعلا في خصائصه، فيغتر كثير من العامة بما يرونه من أحوال على هؤلاء الشيوخ، فيصدقونهم في ذلك، فيصرفون العبادة لهم، من دون الله أو مع الله.

عقيدة أهل السنة والجماعة فيما يختص بالكرامات

واعلم رحمك الله تعالى، أن أهل السنة والجماعة يثبتون الكرامات ولكنهم، لا يجعلونها أبدا ذريعة إلى رفع المخلوق إلى منزلة الخالق تبارك وتعالى، كما أنهم يُفَرِّقُون بين كرامات الرحمن التي يَهَبُهَا لأوليائه، وبين ما يلقيه الشيطان على أتباعه؛ ليصد الناس عن التوحيد الخالص، وتسمى بكرامات أو لياء الشيطان، فإنه يخدمهم هو وجنوده؛ ليضلوا الناس، ليحتنك أكبر قدر ممكن من ذرية آدم معه إلى النار والعياذ بالله.

وكان السلف الصالح يعتبرون في ذلك، بحال العبد وقت الكرامة، وبما يدعو إليه بعد الكرامة، فإن اختل شيء من ذلك؛ فاعلموا أنه من إخوان الكهان ومن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولياء الشياطين، فإن الله تعالى آتى الشيطان إمكانات وقدرات، فتنة للعباد وابتلاء، بعد أن حذر عباده، وأوصاهم، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل الكتب، تبيانا لكل شيء، وأعظم ما بينه تبارك وتعالى، قضية التوحيد والشرك.

وإليك بيان ذلك، فإنها مسألة في غاية الخطورة، فبسبب الجهل بها، هلك أقوام بالشرك بالله تعالى، ووقعوا في شراك الشيطان وحبائله، عافانا الله وإياكم منه، ومن كيده ومكره، فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فنقول لابد أن يكون النظر في حالتين:

الحالة الأولى: من جهة حال من تظهر عليه الأحوال الخارقة للعادة:

جاء في كتاب الإمام اللالكائي:(اعتقاد أهل السنة):[أخبرنا علي بن محمد بن عمر أخبرنا عبد الرحمن بن أبي حاتم قال حدثنا أبي قال سمعت يونس بن عبد الأعلى قال قلت للشافعي تدري يا أبا عبد الله ما كان يقول فيه صاحبنا أريد الليث بن سعد أو غيره كان يقول لو رأيته يمشي على الماء لا تثق ولا تعبأ به ولا تكلمه قال الشافعي فإنه والله قد قَصَّر]ا.هـ. قلت:هذا إسناد صحيح.

وجاء في الفتاوى لابن تيمية:[وقال الشافعي لو رأيتم صاحب بدعة يطير في الهواء فلا تغتروا به]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في الفتاوى الفقهية الكبرى لابن حجر الهيتمي[١]:[قال الشَّافِعِيُّ رضي اللهُ تَعَالَى عنه لو رأيت صَاحِبَ كَبِيرَةٍ يَطِيرُ في الْهَوَاءِ لم أَقْبَلْهُ حتى يَتُوبَ من بِدْعَتِهِ]ا.هـ.

ونحو هذا كثير في كلام الأئمة، وعليه فلابد أن يكون صاحب الحال، قائما بكتاب الله وسنة رسوله، وأن تظهر عليه آثار السنة، قولا وعملا، مع التقى والورع.أما إذا كان مرتكبا للمخالفات الشرعية، معرضا عن هدي النبي r ، قولا وعملا، لا يلتفت إلى الأمر ولا النهي، بل يتبع هواه، فهذا مهما ظهرت عليه من أحوال فإنه لا يلتفت إليه، بل يبقى الحكم على العبد بما هو عليه من الحال مع الأمر والنهي والقيام بالدين.

---

١ - تنبيه: أحمد بن حجر الهيتمي هو من متأخري الشافعية، قد تكلم بعض الأئمة المتأخرين في عقيدته، من جهة بعض النزعات الصوفية والأشعرية، وتشنيعه على بعض أئمة السنة، الذين نافحوا عنها وردوا على المتصوفة والأشاعرة، كشيخ الإسلام ابن تيمية، ومما أخذ على الهيتمي، أنه جوز التوسل بذات النبي r بعد موته والاستغاثة به بسؤاله في قبره، وسحب ذلك على التوسل بالصالحين من بعده، ومما أخذ عليه تجويزه لبدعة المولد، ولبعض الأوراد الصوفية المبتدعة، وكذلك نفيه لعلو الله تعالى وأنه في السماء، وذهب مذهب التأويلات الباطلة، فهو ليس بمحمود الحال في هذه المسائل العقدية.

وابن حجر الهيتمي هو غير ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري، فهذا آخر، وإن كان ابن حجر العسقلاني أيضا قد أخذ عليه أهل العلم، قضايا عقدية خالف فيها أهل السنة والجماعة، ككلامه في مسألة استواء الله تعالى، وسلوكه مسلك التأويل الفاسد في بعض أسماء الله وصفاته، وتجويزه التبرك بالصالحين ونحو ذلك. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدين لا يُعْرَفُ بالكرامات ، والولاية كذلك، ولكن بالتقوى:

واعلم رحمك الله، أن الربط بين الأحوال التي تظهر على العبد والولاية؛ خطأ فادح، أورث فسادا عريضا، فليس كل من ظهرت عليه خوارق للعادات بالضرورة أن يكون وَلِياً لله، بل قد يكون من أولياء الشيطان. فانتبه.

ولأجل هذا لم يعبأ السلف بهذه الأحوال؛ لأن الولاية إنما تكون باتباع سبيل التقوى وتحقيق الإيمان، كما قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس:٦٢-٦٤].

إذا أولا ننظر في حال صاحب الكرامة فإن كان متقيا فيما يظهر لنا من اتباعه للأمر والنهي، مظهرا للسنة، عندها نقول هذه من كرامات عباد الرحمن، ولكن لابد من تقييد ذلك، بأمر مهم وعظيم وخطير، وهي الحالة الثانية:

الحالة الثانية: مدى استقراره على التقوى، وكيف حاله مع هذه الكرامة التي ظهرت.

وذلك لأن المتقي حقيقة، هو الذي يجتنب أسباب العذاب والسخط الإلاهي، ويحرص على تحقيق الإيمان في حياته، ويستمسك بذلك حتى يلقى الله تعالى به، سائلا الله تعالى الثبات على الأمر، والعزيمة على الرشد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما إن استعمل العبد تلك الكرامة، ليدعي ما ليس له، وأنه قطب، أو غوث، أو أنه يعلم الغيب، أو يرزق الولد، أو يفرج الكربات ويغيث اللهفات، ونحو ذلك من خصائص المولى تبارك وتعالى؛ فعندها تعلم يقينا أن هذا من رؤوس الزندقة والنفاق، وأنه إما كان مظهرا للتقوى مُتَصَنِّعا بها؛ ليتوصل بذلك إلى مراداته الشيطانية، وإما أنه استهوته الشياطين بعد ذلك فضل وغوى. واعتبر بحال بلعام بن باعوراء، نعوذ بالله.

أما أن يكون باقيا على إيمانه وتقواه، وَلِيّاً لله تعالى، ويفعل هذه الأفعال، ويَدَّعِي هذه الادعاءات، فهيهات هيهات، فإنما هو من إخوان الشياطين والكهان.

واعتبر بحال الدجال، فإنه يأتي ومعه خوارق كثير ومذهلة وعظيمة، كما في صحيح مسلم عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ الله r الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ:"مَا شَأْنُكُمْ". قُلْنَا يَا رَسُولَ الله ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَقَالَ:"غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً يَا عِبَادَ الله فَاثْبُتُوا". قُلْنَا يَا رَسُولَ الله وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ:"أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ". قُلْنَا يَا رَسُولَ الله فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ قَالَ:"لاَ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ". قُلْنَا يَا رَسُولَ الله وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ:"كَالْغَيْثِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِي كُنُوزَكِ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ. وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ.

فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ".

فتأمل في هذه الفتن التي يُؤْتَاهَا الدجال، ومع ذلك يبقى هو الدجال، لم يَتَغَيَّر الحكم فيه، لِما ظهر على يديه من الخوارق. فاعتبروا يا أولي الألباب.

ولهذا، إذا قال أحدهم بأنه ولي، أو زعم الناس فيه الولاية، فاختبر هذه المعاني؛ لتعلم المصلح من المفسد، ولا تغتر بظواهر الأحوال دون سَبْرٍ لحقائق الحال.

واعلم أرشدك الله لطاعته، أن الولاية لا تورث، ولا يَهَبُهَا مخلوق لمخلوق، وإنما هي عمل العبد بطاعة الله تعالى، والحرص على تقوى الله عز وجل، مما يوفق الله تعالى إليه العبد، فالولي هو العبد التقي النقي الخفي، الذي يسعى حثيثا جاهدا في إصلاح سريرته وعلانيته، فإن أعطي شكر، وإن أذنب استغفر، وإن ابتلي صبر. نسأل الله تعالى أن يلحقنا بهم، وأن يحشرنا في زمرتهم، وأن يتولانا برحمته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في :(بدائع الفوائد):[والذي يظهر لي من ذلك أن ولاية الله تعالى نوعان عامة وخاصة فالعامة ولاية كل مؤمن فمن كان مؤمنا لله تقيا كان له وليا وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه ولا يمتنع في هذه الولاية أن يقول أنا ولي إن شاء الله كما يقول أنا مؤمن إن شاء الله، والولاية الخاصة إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه مؤثر له على كل ما سواه في جميع حالاته قد صارت مراضي الله ومَحَابُه هي هَمُّهُ ومتعلق خواطره يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه وإن سخط الخلق فهذا إذا قال أنا ولي الله كان صادقا].ا.هـ.

دحض شبهة خطيرة:

واعلم رحِمَنا الله وإياك، أن هناك أقواما يتلاعبون بعقول الناس، فيحتجون بأفعال للأنبياء والملائكة، على أن ذلك يمكن أن يكون لهم كذلك، وهذه زندقة أخرى، فإن الله تبارك وتعالى جعل للملائكة وظائف يقومون بها، ولكنهم أبدا لا يَدَّعُونَ لأنفسهم شيئا من أفعال الله تعالى، بل يقفون عند حدود ما أمروا به وينسبون ذلك إلى أمر الله تعالى، والله تعالى أثبت ذلك لهم في القرآن، وكذلك الأنبياء والرسل، فما أثبته الله لهؤلاء الكرام البررة، لا يجوز لأحد أن يدعيه لنفسه، لأمور:

أولا: لأنهم ليسوا بأنبياء ولا ملائكة، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، على أن عطاء الله للملائكة والأنبياء والمرسلين وأحوالهم مع الله تعالى، يختلف تماما عن آحاد البشر، فلا يجوز لأحد أن ينازعهم في ذلك، ولا أن يدعي ذلك لنفسه، كما قال تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [إبراهيم:١٠-١١]، ومن ذلك لقاء النبي r للأنبياء عليهم السلام ليلة الإسراء والمعراج، فكل ما كان في تلك الليلة هو من خصائص الأنبياء والمرسلين، لا يشاركهم في أحوال تلك الليلة آحاد البشر أبدا؛ ولهذا لا تجد أحدا من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين ينسب إليه شيئا مما جرى في تلك الليلة، ولا يحتج بما وقع فيها من أحوال على إمكانية وقوع ذلك لآحاد الناس، ولا يُعَمِّمُون إمكانية وقوع ما جرى، أو شيئا منه، لآحاد البشر، كما يفعله الزنادقة والطواغيت الذي، يحتجون بذلك على ما يكون في عالم الأرواح، ونفع الموتى للأحياء، ونحو ذلك من الدجل والهرطقة التي يتلاعبون بها على البسطاء والسذج؛ ليصلوا بذلك إلى تأليه الأولياء والصالحين، عياذا بالله من الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر.

ثانيا: أن الله تبارك وتعالى، بَيَّنَ الضابط فيما يتعلق بهؤلاء الكرام البررة، من أنهم مُنَزَّهُونَ عن أن يَدْعُو أحَدا إلى الغلو فيهم، وأنهم لا يمكن بحال أن يَدَّعُوا شيئا ليس لهم؛ ولهذا لا تجدا أبدا، أن أمة من الأمم، عَبَدَت نبيا أو رسولا أو ملكا؛ بسبب أن أحد هؤلاء الكرام البررة، قد دَعَوْهُم إلى شيء من ذلك أبدا، بل القوم هم الذين يَغْلُونَ فيهم من عند أنفسهم، والأنبياء والمرسلون والملائكة، لا يرضون بذلك البَتَّة، بل ينكرون عليهم ذلك، ويفاصلونهم فيه، بخلاف هؤلاء الدجاجلة، فَما أَنْ يَظْهَرَ عليهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء من الأحوال، والتي غالبا ما تكون أحوالا شيطانية؛ حتى يُبَادِرُوا إلى دعوة الناس إليهم، أَنْ يَدْعُوهُم ويَسْتَغِيثُونَ بهم، ويَدَّعُونَ لأنفسهم علم الغيب، ورزق الولد،وإحياء الموتى، بل حتى الخلق ادعوه لأنفسهم، ويُمَجِّدُون أنفسهم، ويُطْرُونَها، ويَسْمَعُون الأشْعَارَ الشِّرْكِيَّة في الغلو فيهم ويُقِرُّونَها، بل ويُثْنُونَ على قَائِلِيهَا، ويَدْعُونَ الناس إلى ذلك، مَدْحاً ورَقْصاً، وخُطَباً وقَصَصا، حتى تَسْرِيَ بِدَجَلِهِمْ هذا الركبان، ويَتَّخَذَهُم أتْبَاعُهم آلهة من دون الله، فيأكلون أموال الناس بالباطل، بما زعموه لأنفسهم، تشبها تماما بحالة أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [التوبة: ٣٤]، تعالى الله عما يقول المشركون والمبطلون علوا كبيرا.

وإليك النصوص الدالة على حال الملائكة والأنبياء والمرسلين، مع هذا المقام الكبير الخطير، وتأمل الفارق بينهم، وبين إخوان الكهان والدَّجَالِين، الذين يَدَّعُونَ زُوراً وبُهْتَاناً وِلَايَة الله لهم، وإنما وَلِيُّهُم الشيطان الرجيم وأعوانه وأتباعه، عياذا بالله منهم ومن حالهم:

قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء:٢٦-٢٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال:{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٧٩-٨٠].

وقال:{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢].

وقال:{وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة:١١٦-١١٩].

وقال:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} [الفرقان:١٧-١٩].

وقال:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [سبأ:٤٠-٤٢].

ثالثا: أن هؤلاء الكرام البررة، من الملائكة والأنبياء والمرسلين، إذا آتاهم الله شيئا من المعجزات، إنما ليُعَبِّدُوا بها العباد لله تبارك وتعالى؛ ولهذا تَجِدُ أن الناس في زمان موسى عليه السلام مثلا عَبَدُوا فرعون، ولم يَعْبُد أتباع موسى، موسى عليه السلام، وما ذلك إلا لأن فرعون زعم لنفسه المعجزات؛ لِيُعَبِّدَ الناس له، وأما موسى عليه السلام، فإنما يَدْعُو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار، فإنه يعلم أن الله تبارك وتعالى إنما آتاه هذه الآيات؛ لِيَهْدِي العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، ولهذا قال النبي r كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

رابعا: أن الله تبارك وتعالى أعلمنا في كتابه، وبوحيه، أنه هو سبحانه وتعالى أجرى على أيدي هؤلاء الكرام البررة، هذه المعجزات تَأْيِيدا لهم؛ ولِيَهْتَدِيَ الناس بذلك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فإن ما يَجْرِي على أيديهم، دَالٌّ على قدرة وعظمة من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أرسلهم، فيكون هذا أهدى للناس وأقرب إلى تصديق الرسل وطاعتهم، في توحيد الله تعالى.

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم يَنْسِبُون ذلك إلى الله، لا إلى أنفسهم، كما قال تعالى في قصة البقرة مع موسى r :{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [البقرة:٧٣]، فالضرب وقع من العبد، وإنما الله هو المُحْي.

وقوله تعالى في شأن إبراهيم الخليل r :{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة:٢٦٠].

وقوله في شأن عيسى r :{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:٤٩]، وقوله:{إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [المائدة:١١٠].

فنقول لهؤلاء الأفاكين الدجالين: من أوْحَى إليكم بهذا؟!، ومن أين أخذتموه؟!، وكيف نسبتموه إلى الله تعالى؟!، ثم ادعيتم الولاية!!، أهو وَحْيٌ بعد موت النبي r ، وانقطاع الوحي؟!!.

ولهذا تجد هؤلاء الدجاجلة، يجتهدون في إقناع الناس أنهم يُوحَى إليهم، وأن الله تعالى يُحَدِّثُهم، وهم يُحَدِّثُونَه بقلوبهم، وأن مَنَامَاتِهم وَحْيٌ من الله، بل ويزعم بعضهم أنه دخل على الله، وجلس مع الله، وقَابَل الله، وآخرون يزعمون مثل ذلك مع رسول الله r ، فيما يسمى بالحَضْرَات، عياذا بالله من الزندقة والإلحاد.

والسؤال الذي يطرح نفسه، أهناك وَحْيٌ، بعد موت رسول الله r لآحاد البشر؟!، أم أهناك دِينٌ جَدِيد بعد موت رسول الله r ؟!.

إذن فأين تذهبون من قول الله تعالى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]، وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ t بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ الله r لِعُمَرَ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله r يَزُورُهَا. فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ فَقَالاَ لَهَا مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ r . فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ r وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ؛ فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فانقطاع الوَحْي أمر مقرر عند الصحابة y، والأمة مُجْمِعَةٌ على ذلك، {وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[المائدة:١٠٣].

خامسا: أن من المقطوع به أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها، هم الصحابة الكرام y، ويَتَقَدَّمُهُم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي y، ولاشك أنهم هم سادات الأولياء والصالحين، بعد الأنبياء والمرسلين، ومع ذلك لم نسمع أن أحدا منهم، ادعى شيئا من ذلك لنفسه، وحاشاهم أن يفعلوا، فأين هؤلاء الدجاجلة، من أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، حتى يَدَّعُوا لأنْفُسِهم، ما لم يُؤْتَهُ الصحابة الكرام y، ولكنها الزندقة والإلحاد، والتلاعب بدين العباد. نسأل الله العافية والسلامة.

بل وتطاول بعض هؤلاء الزنادقة، فادعى أن مَرْتَبَة الولاية، فوق مَرْتَبَة النُّبُوة، وأن أولياءهم أفضل من الصحابة، بل وأفضل من المرسلين.

ولأجل هذا قال الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ} [الأنعام:١٢٤]، نعم {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}، ولولا ذلك لَقَالَ مَنْ شَاء، ما شَاء، ولادَّعَى ما ادَّعَى من شَاء، فلله الحمد والفضل والمنة، تبارك وتعالى، وإلا لوقعنا في ضلال عظيم، وشر مستطير، وانظر إلى هؤلاء المشركين، لما ذَهلوا عن هذه الحقيقة؛ كيف وقعوا في الورطة العظمى، نسأل الله العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأصل المسألة وسِرُّها، أن هؤلاء يَدِينُون بعقيدة الحُلُولِ والاتِّحَاد، فَيَزْعُمون أن النُّور الذي خُلِق منه محمد r ، انتقل إليهم من النبي r ؛ فَحَلَّ فيهم؛ ولهذا هم يَرَونَ أنْفُسهم، من الله!!، بل صرح بعضهم، أنه هو الله!!، تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا!!، وهذه نَفس عقيدة اليهود والنصارى، حيث يقولون حَلَّ اللَّاهُوتُ في النَّاسُوت، أي حل الإله أو صفاته، أو بعضها في الإنسان؛ ولهذا قالت اليهود عزير، ابن الله، وقالت النصارى، عيسى بن الله، وهكذا يَتَوَارَثُ فُجَّارُ هذه الأمة ضَلَالَ اليَهُودَ والنَّصارى، مِصْدَقاً لقول النبي r فيما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ t أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ:"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟، قَالَ:"فَمَنْ".

ولهذا قال النبي r فيما أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعَ عُمَرَ t يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ".

حديث موضوع (خلق نبينا من نور):

وهم يحتجون على هذا الدجل والخرافة بحديث موضوع، يُسمى بحديث جابر في النور المحمدي، ورأيت بعض الدجالين المعاصرين، نسبه إلى البخاري، فلا أدري

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيقصد رجلا من بُخَارَى؟!!، أم أَحَدُ أعْوَانِه من الجِّن اسمه البُخَارِي، إذ ليس لهذا الحديث إسناد أصلا، بل هو حديث باطل موضوع[١].

---

١ - هذا بحث مختصر، في حديث جابر الموضوع، وفيه أن النبي r ، خلق من نور الله، نقلته بتصرف يسير من ملتقى أهل الحديث:

الحديث الأول:أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر – الحديث، قال العجلوني(٨٢٧):رواه عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله بلفظ قال:قلت:يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء، قال:يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك.

قلت:ولم أجده عند عبد الرزاق في المصنف، وأيضاً لم أجده في تفسيره المطبوع. بل وليس له وجود أصلا هذا الخبر لا عند عبد الرزاق ولا عند غيره، فلا يعرف له إسناد اصلا، بل هو من نسج بعض الوضاعين. وكذلك الحديث الثاني ولفظه:كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام. قلت:ولم أجده أيضاً بعد طول البحث.

وإليك هذا كلام حول الحديث لبعض طلاب العلم (الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:فهذه رسالة مختصرة كتبتها لبيان بطلان ما هو متداول بين الصوفية من حديث أولية النور المحمدي أبدؤها بذكر نص الحديث ثم تخريجه ثم الحكم عليه. ورأيت من تمام الفائدة ذكر بعض الشواهد الباطلة التي قد يتوهم بعض من لا علم عنده أنها تشهد لهذا الحديث الباطل المكذوب.

فصل:نص الحديث المكذوب عن جابر t قال:سألت رسول الله r عن أول شي خلقه الله تعالى؟ فقال:هو نور نبيك يا جابر؛ خلقه الله ثم خلق فيه كل خير وخلق بعده كل شيء، وحين خلقه أقامه قدامه من مقام القرب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام: فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام:فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرابع في مقام الخوف اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء:فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء، والقمر والكواكب من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء:فخلق العقل من جزء، والعلم والحكمة من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثني عشر ألف سنة، ثم نظر الله -عز وجل- إليه، فترشح النور عرقاً، فقطر منه مائة ألف أربعة وعشرون ألف قطرة من النور، فخلق الله من كل قطرة روح نبي أو روح رسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم الأولياء والشهداء والسعداء والمطيعين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون من نوري، والروحانيون والملائكة من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، وملائكة السموات السبع من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والتوفيق من نوري، وأرواح الرسل والأنبياء من نوري، والشهداء والسعداء والصالحون من نتاج نوري، ثم خلق الله اثني عشر ألف حجاب فأقام الله نوري، وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف سنة ، وهي مقامات العبودية والسكينة والصبر والصدق واليقين، فغمس الله ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما أخرج الله النور من الحجب ركبه الله في الأرض، فكان يضيء منها ما بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم، ثم خلق الله آدم من الأرض فركب فيه النور في جبينه، ثم انتقل منه إلى شيث، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب، ومن طيب إلى طاهر إلى أن أوصله الله صلب عبد الله بن عبد المطلب، ومنه إلى رحم أمي آمنة بنت وهب، ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة للعلمين، وقائد الغر المحجلين، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر.

هذا اللفظ من النفحات المكية واللمحات الحقية لمحمد عثمان الميرغني(ص/٢٨-٢٩)

فصل : تخريج الحديث المكذوب:لم أقف على من خرجه مسنداً، وعزاه لـ(مصنف عبد الرزاق): السيوطيُّ في الخصائص الكبرى والقسطلاني وابن عربي الصوفي وأحمد رضا البريلوي ومحمد عثمان عبده البرهاني وجماعة آخرون من المتصوفة، وذكره الديار بكري في "الخميس في سيرة أنفس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نفيس"، ولم أقف عليه في شيء من كتب الحديث حتى كتب الموضوعات بل مصنف عبد الرزاق العزو إليه إما وَهَم، وإما خلط بحديث آخر، وإما محض كذب وافتراء. والله أعلم. وهو حديث مشهور بين الصوفية ذكره غير واحد منهم. وله ألفاظ عديدة سيأتي ذكر بعضها.

وفي رسالة"صلاة الصفا في نور المصطفى" لأحمد البريلوي(ص/٣٣-مجموعة الرسائل)[كما في كتاب" البريلوية عقائد وتاريخ لإحسان إلهي ظاهير(ص/١٠٢-١٠٣)]، وزعم هذا المتنبيء الأفاك أن الأمة تلقت هذا الحديث بالقبول وهو زعم باطل إلا إن عنى بالأمة: أمتَه الضالة التي آمنت بنبوته، ومن كان على شاكلتهم من الصوفية.

وفي كتب: تبرئة الذمة لمحمد البرهاني(ص/٩). وقال: حديث صحيح!!!!! وعزاه هذا الأفاك الضال إلى كتاب" جنة الخلد" لعبد الرزاق ، ولا يعرف كتاب لعبد الرزاق بهذا الاسم. والله أعلم .

وفي كتاب المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير:تمة تخريج الحديث المكذوب.

ومن ألفاظه المشهورة: ما ماذكره القسطلاني في المواهب اللدنية ومحمد البرهاني في كتابه تبرئة الذمة واللفظ له:يا جابر إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول حملة العرش ومن الثاني الكرسي ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع إلى أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله ثم نظر إليه فترشح النور عرقاً!! فتقطرت منه مائة ألف قطرة. ثم ذكر نحوه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذكره علي بن محمد الإسماعيلي الباطني في كتابه"تاج العقائد"(ص/٥٤) ولكن بلفظ آخر وهو: ((إن الله تعالى خلقني وعلي نوراً بين يدي العرش نسبح الله ونقدسه قبل أن يخلق آدم بألفي عام فلما خلق آدم أسكننا في صلبه ثم نقلنا من صلب طيب إلى باطن طاهر لا تحتك فينا عاهة حتى أسكننا صلب إبراهيم ، ثم نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأ رحام الزكية لا يمسنا عار الجاهلية حتى أسكننا صلب عبد المطلب ثم افترق النور من عبد المطلب ثلاثاً ثلثان في عبد الله وثلث في أبي طالب فخرجت من ظهر عبد الله وخرج علي من ظهر أبي طالب ثم اجتمع النور مني ومن علي في فاطمة فخرج منها الحسن والحسين فهما نوران من نور رب العالمين.

فصل:الحكم على الحديث المكذوب:

الحديث موضوع لا أصل له في شيء من كتب الحديث وإنما هو مشتهر على ألسنة الصوفية ونحوهم، ورَدَ على السيوطي سؤال صيغته: هل الوارد في الحديث أن الله تعالى خلق نور محمد r فجزأه أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول العرش وخلق من الجزء الثاني القلم وخلق من الثالث اللوح ثم قسم الرابع وجزأه أربعة أجزاء وخلق من الجزء الأول العقل وخلق من الجزء الثاني المعرفة وخلق من الجزء الثالث نور الشمس والقمر وبور الأبصار ونور النهار وجعل الجزء الرابع تحت ساق العرش مدخوراً يقتضي أن نور الشمس غير نور النهار أم لا؟.

فكان مما أجاب: والحديث المذكور في السؤال ليس له إسناد يعتمد عليه.ا.هـ

قال عبد الله بن الصديق الغماري-معلقاً على كلام السيوطي: وهو تساهل قبيح بل الحديث ظاهر الوضع، واضح النكارة، وفيه نفس صوفي...إلى أن قال والعجب أن السيوطي عزاه إلى عبد الرزاق مع أنه لا يوجد في مصنفه ولا تفسيره ولا جامعه وأعجب من هذا أن بعض الشناقطة صدق هذا العزو المخطيء فركب له إسناداً من عبد الرزاق إلى جابر، ويعلم الله أن هذا كله لا أصل له فجابر t بريء من رواية هذا الحديث وعبد الرزاق لم يسمع به.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال أحمد بن الصديق الغماري:مستدركاً على السيوطي-أيضاً-: (وهو حديث موضوع لو ذكره بتمامه لما شك الواقف عليه في وضعه، وبقيته تقع في ورقتين من القطع الكبير؛ مشتملة على ألفاظ ركيكة ، ومعاني منكرة).

وحكم بوضعه الشيخ محمد أحمد عبد القادر الشنقيطي-رحمه الله- في رسالة خاصة سماها:"تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق ."وأقره عليه وقرظ رسالته الشيخ عبد العزيز ابن باز-رحمه الله .-

وما الخطأ الفاحش ما قاله اللكنوي: (قد ثبت من رواية عبد الرزاق أولية النور المحمدي خلقاً، وسَبْقته على المخلوقات سبقاً وقد اشتهر بين القصاص حديث:(أول ما خلق الله نوري) وهو حديث لم يثبت بهذا المبنى وإن ورد غيره موافقاً له في المعنى).

فقوله:(ثَبَتَ) هو قول باطل ومجازفة وتقليد أعمى مردود بما سبق بيانه.

وقوله:(ورد غيره موافقاً له في المعنى) باطل -أيضاً- فليس له مستند لا من الكتاب، ولا من السنة؛ بل هو مردود من وجوه:

الوجه الأول: أنه لم يرد فيما ادعاه نص من كتاب، ولا سنة؛ فهو قول على الله بلا علم.

الوجه الثاني: ما ورد من حديث أبي رزين t أنه قال: يا رسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال:"كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق عرشه على الماء"

فالحديث صريح في أن العرش أو الماء أول المخلوقات، ولو كان النور المحمدي- بزعمهم -مخلوقاً لما أغفله النبي r .

الوجه الثالث:أن المحققين من أهل العلم لم يقل أحد منهم-فيما وقفت عليه- بأن النور المحمدي- بزعمهم- أول مخلوق وإنما هو من دين الصوفية ومن قلدهم الذي فارقوا به جماعة المسمين والله أعلم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوجه الرابع:أنه على رواية (أول ما خلق الله نور نبيك من نوره) باطل لمعارضته لبشرية النبي - r - إذ من المقطوع به أن نبينا محمداً - r - من بني آدم وآدم خلق من طين لا من نور، وفي الحديث غير ما سبق ذكره من المخالفات وانظرها في رساله الأخ الصادق محمد إبراهيم الموسومة بـ"خصائص المصطفى بين الغلو والجفا"(ص/٨٣-٨٩).

وكذلك حديث أبي هريرة t عن النبي r :"كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث".فسنده ضعيف، والصحيح أنه عن قتادة مرسلاً.والله أعلم.

وأزيد على مذكرة الشيخ بأنه قد نبه على وضع هذا الحديث، جمع وكتبوا فيه، مع العلم أن في هؤلاء المؤلفين فيهم السلفي والأشعري وفيهم من فيه تجهم! وكلهم اتفقوا على وضعه، ومن هؤلاء عبدالله الصديق الغماري، في رسالة بعنوان: "مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر." وحسن السقاف، وله إرشاد العاثر لوضع حديث أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر. وكذلك هناك رسالة لأبي عمر محمد العطايا، حول هذا الحديث، وهي المنقولة هنا. ومحمد أحمد عبدالقادر الشنقيطي، في تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق. وكذلك رسالة (النور المحمدي) لعداب الحمش.

وهناك من تعرض له في معرض حديثه كالصادق محمد إبراهيم في رسالته " خصائص المصطفى بين الغلو والجفا." علماً بأن واضعه تارة ينسبه لمسند أحمد! وتارة إلى مصنف عبدالرزاق، وتارة إلى كتاب غير موجود ينسبونه لعبد الرزاق.

فائدة:وأما دعوى أن النبي r لا ظل له، فباطل قطعا لاأصل له ولا دليل عليه، بل وقد جاء في مسند أحمد حديث دال على إثبات الظل للنبي r وأنا لا أقصد الاحتجاج على ذلك ولكنه مقرر للأصل، وأنه r في هذه الأمور هو كبني آدم؛ لأنه منهم r ، فإنما هو بشر r كما قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} [فصلت:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا سمعت أحدهم يقول لك بأن أولياءَهم يرزقون الولد، كما أن جبريل عليه السلام، قال لمريم عليها السلام: {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} [مريم:١٩]، وأنهم يخلقون، ويحيون الموتى، كما فعل ذلك موسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام، كما في الآيات المتقدم ذكرها، فأجبه بالأوجه المتقدمة، تظفر بالحق، وتهدي إلى سواء السبيل. والله تعالى أعلى وأجل وأعلم، وله الحجة البالغة على خلقه.

الولي يبقى عبدا فلا يكون إلها بحال:

واعلم رحمك الله، أن كثيرا من الناس يعتقد أنه لا يكون العبد وليا حتى يكون إلها، بمعنى حتى يكون له من صفات الله تعالى شيء، وهذه نفس الورطة التي وقع فيها المشركون من قبل، وتأمل في هذا الآيات من سورة الإسراء لتعلم سر ذلك، قال تعالى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً{٩٠} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً{٩١} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً{٩٢} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً{٩٣} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً} [الإسراء:٩٠-٩٤].

٦]، وقوله: {لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} [الأنبياء: ٣]، وغير ذلك من الآيات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الشرك الأصغر: فهو ما سُمِّي شركا، ولم يبلغ حد الأكبر، فلا يخرج من الملة، وقد مثل له أهل العلم بالحلف بغير الله تعالى، وكيسير الرياء والسمعة التي لا يسترسل معها العبد، وقول ما شاء الله وشئت، ولولا فلان لما كان كذا وكذا، إلى غير ذلك مما مثل به العلماء. وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

ومن الشرك ما يكون مترددا بين الأكبر والأصغر بحسب حاله، ومن ذلك جعل الشيء سببا مما لم يشرعه الله ولم يأذن به، ومن أشهر أمثلته التوسل، فإنه إن كان متوسلا بالاسم متوجها به إلى الله تعالى، ويكون الطلب والسؤال من الله وحده، فهذا عده كثير من العلماء من الأصغر، وهو المعروف بالتوسل بالجاه، ولابد أن نعلم أنه ذريعة إلى الشرك الأكبر كذلك.

وأما إن توجه إلى المخلوق بالسؤال والطلب متوسلا بذلك إلى حاجته، فهذا شرك أكبر، كما سيأتي معنا بإذن الله تعالى.

التوسل عند أهل السنة والجماعة وأنواعه

والتوسل مأخوذ من التَّوَصُّل إلى الشيء، بجعله سببا وواسطة لحصول الشيء.

والتوسل ينقسم، إلى قسمين:

١ - توسل مشروع. **٢ - توسل ممنوع.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما التوسل المشروع، فينقسم، إلى ثلاثة أقسام:

أ- **التوسل بأسماء الله وصفاته وأفعاله**، وذلك بسؤال الله تبارك وتعالى بها، وهذا أشرف أنواع التوسل، كما قال تعالى:{وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف:١٨٠]، وقوله:{قُلِ ادْعُوا اللهَّ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} [الإسراء:١١٠]

وفي الحديث في صحيح مسلم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ رَسُولِ الله r أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ قَالَ:"وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ...الحديث".

وفي صحيح مسلم عن ابْن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله r كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلاَثًا ثُمَّ قَالَ:"سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ اللَّهُمَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ". وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ. وَزَادَ فِيهِنَّ:"آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ".

وفي صحيح مسلم من طريق سُهَيْل قَالَ كَانَ أَبُو صَالِح يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ:"اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ".وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ r .

وفي صحيح البخاري عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ إِذَا قَالَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ".

وعن ثوبان t قال كان رسول الله r إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال:"اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام". رواه مسلم، ومثل هذا كثير جدا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ب- **التوسل بالأعمال الصالحة**، ومن ذلك التوسل بمحبة النبي r ، ومحبة الصحابة الكرام y ، وهم سادات الأولياء بعد الأنبياء والمرسلين، والتوسل بعمل صالح قام به العبد، وصُوْرَتُه أن يتوجه المخلوق إلى الخالق تبارك وتعالى بذلك، طالبا قضاء حاجته، كقولك:اللهم بحبي لنبيك r ولأصحابه، وعباد الله الصالحين، فرج كربي واقض حاجتي، أو كقولك:اللهم أسألك بقيامي اللَّيلَ لك خالصا لوجهك، اشفني واشف أهلي، وأصلحنا يا كريم، ونحو ذلك.

ودليل ذلك ما جاء في الصحيحين عن عَبدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَّ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ قَالَ النَّبِيُّ r وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا قَالَ النَّبِيُّ r وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ الله أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ يَا عَبْدَ الله لَا تَسْتَهْزِئُ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ".

والسؤال الذي يطرح نفسه، ونحن بين يدي فتن كبار، وأحداث عصيبة، وأحوال هائلة مقبلة على هذه الأمة، هل لدينا رصيد من أعمال السِّر بيننا وبين الله تعالى، نحن مستوثقون منها، أنها كانت خالصة لله تعالى تماما، وموافقة لهدي رسول الله r ؛ نُعِدُّهَا لمثل هذا المَقَام؟.

ت- **التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح**، كأن يقع الإنسان في ضيق وشدة فيذهب إلى رجل من المسلمين من أهل الصلاح والتقوى، واتباع السنة، أو أهل الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعو له الله جل وعلا أن يفرج كربه أو يغيث لهفته ويقضي حاجته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا النوع هو الذي حصل فيه النزاع بين أهل السنة والجماعة، وأهل البدعة والشناعة، ولهذا ضبط سلف هذه الأمة الأخيار هذا النوع من التوسل بضوابط ملزمة واضحة بينة، وهذه الضوابط استخرجوها من استقراءهم لنصوص الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة وعلى رأسهم الصحابة الكرام البررة وإليك هذه الضوابط:

ضوابط التوسل بدعاء الصالحين

أولاً: أن يكون الشافع صالحاً مرضي العمل.

قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا}. [طه:١٠٩].

فإن قيل هذا في الدار الآخرة، فالجواب أن المشفوع لديه في الدنيا والآخرة هو الله رب العالمين، ولهذا المتأمل لتعامل السلف الصالح يجد أنهم ما كانوا يطلبون الدعاء من الفَسَقَة والمبتدعة والضالين والمنحرفين، وإنما كانوا يطلبونها ممن يعتقدون صلاحهم بما ظهر لهم من موافقة السنة النبوية، واتباع شريعة رب العالمين، وقد بين النبي r أن دعاء الفَسَقَة والمجرمين بعيد الاستجابة فعن أبي هريرة t قال، قال رَسُول الله r :"أيها الناس إن اللهَّ طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن اللهَّ أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً}. وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم}. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومَطْعَمه حَرَام ومَشْرَبه حرام وغُذِيَ بالحرام فَأَنَّى يستجاب لذلك؟"١.

ثانياً: أن يكون الشافع حياً، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ{٢٠}أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}النحل[٢٠-٢١]، وقوله تعالى: {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}[فاطر:١٤].

ثالثاً: أن يكون الشافع قادراً حاضراً.قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[الأعراف:١٩٤]. والمعنى أي إنما هم بشر مثلكم؛ فلا تسألوهم ما ليس لهم، مما اختص الله تبارك وتعالى به.

رابعاً : أن يكون موضوع التوسل أمراً مشروعاً أو مباحاً.

كما قال النبي **r** :"اعْرِضُوا عليّ رُقَاكُمْ. لاَ بَأْسَ بِالرّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ"٢.

وقوله عليه الصلاة والسلام كما في مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري قال النبي **r** :"مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ

---

١ - أخرجه مسلم.

٢ - أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك **t** .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِثْلَهَا"، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ:"اللهُ أَكْثَرُ". وجاء أيضا عن حديث عبادة بن الصامت t .١

وعليه فطلب الدعاء من المبتدعة والفساق، أو من الموتى، أو من الأحياء العاجزين، أو من الأحياء الغائبين، كل هذا من الأفعال القبيحة الذميمة، الدالة على نقص عقل فاعلها، وفساد تصوره، وسوء أو عدم فهمه لحقيقة التوحيد، الذي بُعِثت به الرسل كما قال تعالى:{قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} في مواضع متعددة من سورة الأعراف وهود.

وفي الحديث الذي في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ". فتأمل كيف قيد r الانتفاع بالدعاء بصلاح الولد.

ودليل جواز التوسل بدعاء الرجل الصالح هو ما جاء بأسانيد صحيحة عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يطلبون من الرسول r أن يدعو الله لهم أن يسقيهم.

كما في الحديث عن أنس بن مالك:"أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر، ورسول الله r قائم يخطب، فاستقبل رسول الله r قائما، فقال: يا رسول الله،

---

١ - أخرجه التِّرمِذِيُّ من حديث عبادة بن الصامت t ، وإسناد أحمد أصح، وَقَالَ عن حديث عبادة t : حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا. قال: فرفع رسول الله r يديه فقال:"اللهم اسقينا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا" قال أنس: لا والله، ما نرى في السماء من سحاب، ولا قَزَعَة، ولا شيئا، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار. قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت. قال: والله ما رأينا الشمس سبتا. ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله r قائم يخطب، فاستقبله قائما، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها. قال: فرفع رسول الله r يديه،ثم قال:"اللهم حَوالَينَا ولا علينا، اللهم على الآكَام والجبال، والآجَام والظَّرَاب، والأودية ومنابت الشجر" قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس. متفق عليه.

ومنها ما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ النّبِيّ r قَالَ:"يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ" وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ:"اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ" ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ:"سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ"١.

ومنها ما أخرجه البخاري أيضاً عن أنس t من استسقاء عمر t جهراً، والصحابة متوافرون بدعاء عم النبي r العباس t حيث أتى العباس ابن عبد المطلب t ، وطلب منه أن يدعو الله عز وجل أن يسقى الناس فعن أنس t :"أن عمر بن

١ - وهو في الصحيحين بأطول منه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطاب t : كان إذا قَحَطُوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب. فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال فيسقون".

وفي صحيح مسلم عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ نَعَمْ . قَالَ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ قَالَ نَعَمْ.

قَالَ فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ قَالَ نَعَمْ. قَالَ لَكَ وَالِدَةٌ قَالَ نَعَمْ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ". فَاسْتَغْفِرْ لِي. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ الْكُوفَةَ. قَالَ أَلاَ أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا قَالَ أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ. قَالَ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَوَافَقَ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ قَالَ تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r يَقُولُ:"يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ". فَأَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ لَقِيتَ عُمَرَ قَالَ نَعَمْ. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ. قَالَ أُسَيْرٌ وَكَسَوْتُهُ بُرْدَةً فَكَانَ كُلَّمَا رَآهُ إِنْسَانٌ قَالَ مِنْ أَيْنَ لأُوَيْسٍ هَذِهِ الْبُرْدَةُ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك ما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه بسند صحيح أن معاوية بن أبي سفيان t استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي فرفع يزيد يديه، ورفع الناس فدعا الله عز وجل.

ومنه ما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه أيضا بسند صحيح أن الضحاك بن قيس خرج يستسقي بالناس فقال ليزيد بن الأسود قم يا بكاء فدعا الله عز وجل فسقاهم الله جل في علاه.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا أكثر من أن تُحصر، فمنها دعاء النبي r لدوس، ولأم أبي هريرة رضي الله عنهما، ولِلأَمَةِ التي كانت تُصْرَع رضي الله عنها، وغير ذلك كثير كثير، وفيما ذكرناه إشارة وتنبيه على ما سواه. والعلم عند الله.

فهذه الأنواع الثلاثة من التوسل، جِمَاعُ أنواع التوسل المشروع راجِعٌ إليها، ورَحَاها يدور عليها، ولقد فَرَّعَ بعضُ أهل العلم تفريعات منها إلا أنَّ آخِيَّتَها إليها، وما سواها بَاطِل لا يجوز العمل به بإجماع الصحابة كما سنبينه إن شاء الله فيما يأتي؛ ولأنه ليس عليه دليل لا من الكتاب، ولا من السُّنةِ، وكما في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها قالت قال رَسُول الله r :"مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَد"، وفي رواية لمسلم "مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيه أَمْرُنَا فَهُو رَد".

والمتأمل لهذا الحديث العظيم الذي هو الأصل والضابط الدقيق في كل عبادة قولية كانت أو فعلية ظاهرة أو باطنة يجد أن هناك اختلافا في اللفظ في هذا الخبر، فَمَرَّةً قال عليه الصلاة والسلام:" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرنَا"، وَمَرَّةً قال:" مَنْ عَمِلَ عَمَلاً "،وهذا التباين هو بسبب اختلاف أحوال الناس مع البدع والضلالات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلما كان بعض الناس رأسا في الضلالة والابتداع بحيث يقوم هو بإحداث عبادات لم يشرعها الله تبارك وتعالى ولا رسوله r ويدعو الناس إليها ويُزَيِّنُها بزخرف القول الباطل، وبالاستدلالات الباطلة إما بأدلة ضعيفة أو موضوعة، وإما بأدلة صحيحة أساء فهمها خطأ أو عمدا فخالف فُهُومَ الصَّحَابَة وعُلُومَهُم في هذا الباب العظيم، أَعْنِي باب أصول الدين الكبار ومبانيه العظام، ألا وهو التوحيد الخالص لله رب العالمين؛ جاء الخطاب لهذا الصنف من الناس بقوله عليه الصلاة والسلام:" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا ".

وأما البعض الآخر فإنه قد لا يجرؤ، أو لا يقوى على الإحداث في الدين، ولكنه غِرٌّ سَاذَج، يَغْتَرُّ بِبَهْرَج المبطلين، الذين يَخْتِلُون الناس عن دينهم، بالشبه الباطلة، وتلبيسات الشياطين وأعوانهم، وليس لديه من نور العلم النبوي الصافي الزُّلال، ما ينجو به من هذه الضلالات والمنكرات، ويكشف به زيف هؤلاء المبطلين الْمُلَبِّسِين؛ فيتابعهم على ما أحدثوه من البدع والضلالات، فهؤلاء مخاطبون بقوله عليه الصلاة والسلام:"مَنْ عَمِلَ عَمَلاً ".

والمعنى إذن، أنَّ كُلَّ من أحدث في الدين ما ليس من شريعة رب العالمين، ولا من هدي سيد المرسلين، أو تابع غيره على ما أحدثه في الدين؛ فهو مردود على صاحبه كائنا من كان، التابع والمتبوع سواء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في:(الاستغاثة الكبرى):[فإنه بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن يدعو أحداً من الأموات ولا الصالحين ولا غيرهم لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه]ا.هـ.

وقال أيضا رحمه الله في (الاستغاثة الكبرى):[والاستغاثة بالرسول؛ بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه، لا ينازع فيها مسلم، كما أنه يستغاث بغيره بمعنى أن يطلب منه ما يليق به.

ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به، وإما مخطئ ضال، وأما بالمعنى الذي نفاه الرسول عليه الصلاة و السلام فهي أيضاً مما يجب نفيها.

ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو كافر، إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها].ا.هـ.

ومما ذكره العلماء من أنواع التوسل، التوسل بالعلم الذي وَرَّثَهُ لنا محمدٌ r ، والمعنى أن لا نتخذ وسيلة سواه لمعرفة حدود ما أنزل الله تبارك وتعالى، وهذا خارج عن مسألة التوسل بالدعاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التبرك وضوابطه عند أهل السنة والجماعة

وإن من المهم أن نَذْكُر ما يتعلق بالتبرك بآثار الصالحين، فإن هذه المسألة هي أحد أشد وأغلظ الذرائع التي يتوصل بها المبطلون إلى الإشراك بالمخلوقين، لا سيما أنهم يجدون في كلام بعض المتأخرين ما يُسوغ ذلك، وإن المتأمل في الأدلة الشرعية؛ يجد أن التبرك بآثار النبي r أمر ظاهر وهو معنى مجمع عليه، وعليه فلا إشكال أبدا عند أهل السنة والجماعة في هذه المسألة من جهة أصلها، ولكن وقع خلاف بين الصحابة y في مسألة تتبع منازل ومواقف النبي r ، التي نزلها في حربه وسِلْمِه، وحِلِّه وسَفَرِه، فذهب جماهير الصحابة y إلى المنع من ذلك، إلا ما تبث أن فيه معنى القصد والتعبد بحسب موارد الأدلة، وأما ما جرى بدون قصد من النبي r ؛ فلا يشرع التتبع فيه، وقد نُقِل إنكار أمير المؤمنين عمر r على من يفعل ذلك، ومنهم ابنه عبد الله بن عمر فقد كان ينكر عليه مثل هذا.

وأما التبرك بغير النبي r ، فهذا الذي ما فعله الصحابة y ، لا مع أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي، ولا مع أحد من المبشرين بالجنة، ولا مع من شهد أحدا أو بدرا، ولا مع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار y ؛ مما يدل دلالة واضحة على أن هذا الأمر كان خاصا بالنبي r ، وليس لأحد من بعده، وليس معنى هذا انتفاء البركة عن هؤلاء الأخيار الأطهار الأبرار y ، وإنما لأن التبرك حكم شرعي؛ فلا يجوز التوسع فيه إلا بدليل، وليس كون الشيء فيه بركة يعني بالضرورة جواز التبرك به،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالمسلم مبارك لا ينجس حيا وميتا، فهل نقول بجواز التبرك بكل مسلم، هذا لا يصح أبدا.

وقد جاءت أدلة في إثبات البركة لبعض الأعيان، كما في قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} [المؤمنون:٢٩]، وقوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} [ق:٩]، وكالأرض مثلا، كما قال تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} [فصلت:١٠]، وكما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ قِيلَ وَمَا بَرَكَاتُ الْأَرْضِ قَالَ زَهْرَةُ الدُّنْيَا فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ هَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ فَصَمَتَ النَّبِيُّ r حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ فَقَالَ أَيْنَ السَّائِلُ قَالَ أَنَا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ لَقَدْ حَمِدْنَاهُ حِينَ طَلَعَ ذَلِكَ قَالَ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرَةِ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ فَاجْتَرَّتْ وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ".

ثم جاء الدليل الدال على جواز التبرك بماء السماء أثناء نزوله كما في صحيح مسلم عنْ أَنَسٍ قَالَ أَصَابَنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ الله r مَطَرٌ قَالَ فَحَسَرَ رَسُولُ الله r ثَوْبَهُ حَتَّى أَصَابَهُ مِنَ الْمَطَرِ. فَقُلْنَا يَا رَسُولَ الله لِمَ صَنَعْتَ هَذَا قَالَ:"لأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي نفس الوقت دلت الأدلة السابقة على بركة الأرض، فهل نقول بجواز التمسح والتبرك بجبالها وسهولها، وهضابها وأحجارها، ونحو ذلك؟!، قطعا هذا معنى باطل.

واستعمل الصحابة y ألفاظا دالة على إثباتهم البركة في أعيان من الأمة، ومع ذلك لم يتبركون بهم ولا بآثارهم، فمن ذلك ما جاء في صحيحين عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ r قَالَتْ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله r فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي فَأَقَامَ رَسُولُ الله r عَلَى الْتِمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَالُوا أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ أَقَامَتْ بِرَسُولِ الله r وَالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ الله r وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ فَقَالَ حَبَسْتِ رَسُولَ الله r وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَقَالَتْ عَائِشَةُ فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَلَا يَمْنَعُنِي مِنْ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ الله r عَلَى فَخِذِي فَقَامَ رَسُولُ الله r حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَتَيَمَّمُوا فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَأَصَبْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ.

واعلم رحمك الله تعالى، أن جِمَاعَ هذه المسألة يتمثل في اتباع ما كان عليه النبي r والصحابة y، فما تبركوا به؛ تبركنا به، وما لا فلا، فالشأن في ذلك كغيرها من المسائل الشرعية، التي لا يجوز الإقدام عليها إلا بدليل صحيح وفَهْمٍ على فَهْمِ الصحابة الكرام y.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم):[وما أحسن ما قال مالك لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عُوِّضُوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك وغيره؛ ولهذا كره الأئمة استلام القبر وتقبيله وبنوه بناء منعوا الناس أن يصلوا إليه وكانت حجرة عائشة التي دفنوه فيها ملاصقة لمسجده وكان ما بين منبره وبيته هو الروضة ومضى الأمر على ذلك في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم وزيد في المسجد زيادات وغيروا الحجرة عن حالها هي وغيرها من الحجر المطيفة بالمسجد من شرقيه وقبليه حتى بناه الوليد بن عبد الملك وكان عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة فابتاع هذه الحجر وغيرها وهدمهن وأدخلهن في المسجد فمن أهل العلم من كره ذلك كسعيد بن المسيب ومنهم من لم يكرهه، قال أبو بكر الأثرم قلت لأبي عبد الله يعني أحمد بن حنبل قبر النبي r يمس ويتمسح به فقال ما أعرف هذا قلت له فالمنبر فقال أما المنبر فنعم قد جاء فيه قال أبو عبد الله شيء يروونه عن ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن ابن عمر أنه مسح على المنبر قال ويروونه عن سعيد بن المسيب في الرمانة قلت ويروون عن يحيى بن سعيد أنه حين أراد الخروج إلى العراق جاء إلى المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسنه ثم قال لعله عند الضرورة والشيء قيل لأبي عبد الله إنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر وقلت له رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسونه ويقومون ناحية فيسلمون فقال أبو عبد الله نعم وهكذا كان ابن عمر يفعل ثم قال أبو عبد الله بأبي هو وأمي r فقد رخص أحمد وغيره في التمسح بالمنبر والرمانة التي هي موضع مقعد النبي r ويده ولم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يرخصوا في التمسح بقبره وقد حكى بعض أصحابنا رواية في مسح قبره لأن أحمد شيع بعض الموتى فوضع يده على قبره يدعو له والفرق بين الموضعين ظاهر، وكره مالك التمسح بالمنبر كما كرهوا التمسح بالقبر، فأما اليوم فقد احترق المنبر وما بقيت الرمانة وإنما بقي من المنبر خشبة صغيرة فقد زال ما رخص فيه لأن الأثر المنقول عن ابن عمر وغيره إنما هو التمسح بمقعده، وروى الأثرم بإسناده عن العتبي عن مالك عن عبد الله بن دينار قال رأيت ابن عمر يقف على قبر النبي r فيصلي عليه وعلى أبي بكر وعمر، الوجه الثالث في كراهة قصد القبور للدعاء أن السلف y كرهوا ذلك متأولين في ذلك قوله r :"لا تتخذوا قبري عيدا" كما ذكرنا ذلك عن علي بن الحسين والحسن بن الحسن ابن عمه وهما أفضل أهل البيت من التابعين وأعلم بهذا الشأن من غيرهما لمجاورتهما الحجرة النبوية نسبا ومكانا، وقد ذكرنا عن أحمد وغيره أنه أمر من سلم على النبي r وصاحبيه ثم أراد أن يدعو أن ينصرف فيستقبل القبلة وكذلك أنكر ذلك غير واحد من العلماء المتقدمين كمالك وغيره ومن المتأخرين مثل أبي الوفاء بن عقيل وأبي الفرج بن الجوزي، وما أحفظ لا عن صحابي ولا عن تابعي ولا عن إمام معروف أنه استحب قصد شيء من القبور للدعاء عنده ولا روى أحد في ذلك شيئا لا عن النبي r ولا عن أحد من الأئمة المعروفين]ا.هـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٢٧ / ٢٢٣):[وَاتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمَسُّ قَبْرَ النَّبِيِّ r وَلَا يُقَبِّلُهُ، **وَهَذَا كُلُّهُ مُحَافَظَةً عَلَى التَّوْحِيدِ . فَإِنَّ مِنْ أُصُولِ الشِّرْكِ بِاَللهِ اتِّخَاذَ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ** كَمَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ فِي قَوْله تَعَالَى: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} قَالُوا : هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ . وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضَ هَذَا الْمَعْنَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ كَمَا ذَكَرَ قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ : إنَّ هَذِهِ الْأَوْثَانَ صَارَتْ إلَى الْعَرَبِ وَذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطبري وَغَيْرُهُ فِي التَّفْسِيرِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ . وَذَكَرَهُ غَيْرُهُ فِي "قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ" مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ . وَقَدْ بَسَطْت الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْمَسَائِلِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ]ا.هـ.

وقال أيضا في (الفتاوى الكبرى):[وأما القبور التي في المشاهد وغيرها فالسنة لمن أن يسلم على الميت ويدعو له بمنزلة الصلاة على الجائز كما كان النبي r يعلم أصحابه أن يقولون إذا زاروا القبور:"السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم عن قريب لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم"، وأما التمسح بالقبر أو الصلاة عنده أو قصده لأجل الدعاء عنده معتقدا أن الدعاء هناك أفضل من الدعاء في غيره أو النذر له ونحو ذلك فليس هذا من دين المسلمين بل هو مما أحدث من البدع القبيحة التي هي من شعب الشرك والله أعلم وأحكم]ا.هـ.

وقال أيضا في (مجموع الفتاوى):[وَأَمَّا التَّمَسُّحُ بِالْقَبْرِ - أَيَّ قَبْرٍ كَانَ - وَتَقْبِيلُهُ وَتَمْرِيغُ الْخَدِّ عَلَيْهِ فَمَنْهِيٌّ عَنْهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا بَلْ هَذَا مِنْ الشِّرْكِ قَالَ اللهُ تَعَالَى:{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} {وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا} وَقَدْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَقَدَّمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ كَانُوا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَأَنَّهُمْ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ مُدَّةً ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَصَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ. لَا سِيَّمَا إذَا اقْتَرَنَ بِذَلِكَ دُعَاءُ الْمَيِّتِ وَالِاسْتِغَاثَةُ بِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ وَبَيَانُ مَا فِيهِ مِنْ الشِّرْكِ وَبَيَّنَّا الْفَرْقَ بَيْنَ "الزِّيَارَةِ الْبِدْعِيَّةِ" الَّتِي تَشَبَّهَ أَهْلُهَا بِالنَّصَارَى و"الزِّيَارَةِ الشَّرْعِيَّةِ". وَأَمَّا وَضْعُ الرَّأْسِ عِنْدَ الْكُبَرَاءِ مِنْ الشُّيُوخِ وَغَيْرِهِمْ أَوْ تَقْبِيلُ الْأَرْضِ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ فِي النَّهْيِ عَنْهُ بَلْ مُجَرَّدُ الِانْحِنَاءِ بِالظَّهْرِ لِغَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْهِيٌّ عَنْهُ]ا.هـ.

وقال الشيخ العثيمين رحمه الله تعالى في كتابه؛(القول المفيد على كتاب التوحيد) في كلامه على (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما، وقول الله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى}. عن أبي واقد الليثي قال:خرجنا مع رسول الله r إلى حنين ونحن حُدَثَاءُ عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ويَنُوطُون بها أسلحتهم يقال لها ذَاتُ أَنْوَاط، فمررنا بسدرة؛ فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذَاتَ أنواط كما لهم ذَاتُ أنواط؛ فقال رسول الله r :"الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} ٢ لتركبن سنن من كان قبلكم". رواه الترمذي وصححه).

:[قوله: "تبرك": تفعل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من البركة بالكسر، والبركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين:

١ - الكثرة. **٢ - الثبوت.**

والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١. أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم؛ مثل القرآن، قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ}. فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أمما كثيرة من الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد....، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢. أن يكون بأمر حسي معلوم؛ مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يتبرك بعلمه ودعوته إلى الخير؛ فيكون هذا بركة لأننا نِلْنَا منه خيرا كثيرا. وقال أسيد بن حضير:(ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر)؛ فإن الله يجري على بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه على يد الآخر. وهناك بركات موهومة باطلة؛ مثل ما يزعمه الدجالون: أن فلانا الميت الذي يزعمون أنه ولي أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك؛ فهذه بركة باطلة، لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر، لكنها لا تعدو أن تكون آثارا حسية، بحيث إن الشيطان يخدم هذا الشيخ؛ فيكون في ذلك فتنة.

أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة أو الصحيحة؟ فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة؛ فإن الله قد يجعل على يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره.

ومن ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته. أما إن كان مخالفا للكتاب والسنة، أو يدعو إلى باطل؛ فإن بركته موهومة، وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده ويضحي مع أهل بلده.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:إن الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات، منها: عدم إتمام الحج، ومنها أنهم يمرون بالميقات ولا يحرمون منه]ا.هـ.

ثم اعلم أن للقوم شبهات[1]، يخادعون بها أتباعهم، ويستدلون عليها بآيات وبعض الأحاديث الصحاح، وبكثير من الضعيف والموضوع، والعامة لا يكادون يميزون، ويَلْوُون أعناقها، محرفين الكلم عن مواضعه، ومن بعد مواضعه، فيضلون الناس، ويحرفونهم عن الصراط المستقيم، فَلْنَتَسَلَّحْ بسلاح العلم، لِنُنْقِذ الأمة من بَرَاثِنِ هؤلاء الضالين المضلين، أولياء الشياطين، من أئمة الشرك والضلال، الداعين الناس إلى عبادة غير الله، والذي حملوا على عاتقهم، إحياء ملة عمرو بن لحي الْخُزَاعِي، التي لا تقوم إلا على أنقاض ملة إبراهيم r .

ففي الصحيحين من طريق ابْنِ شِهَابٍ قَالَ سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ إِنَّ الْبَحِيرَةَ الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ فَلاَ يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَأَمَّا السَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلِهَتِهِمْ فَلاَ يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ. وَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ الله r :"رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السُّيُوبَ". قُصْبَهُ: أي أمعاءه.

---

١ - للوقوف على مزيد المعلومات عن التوسل، وعلى أشهر هذه الشبهات وأظهرها، والرد عليها، راجع كتابي التوسل المشروع والممنوع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشِّرْكُ الأَكْبَر

وأما الشرك الأكبر فينقسم إلى أربعة أقسام، وما عداها متفرع منها:

١ - **شرك الدعاء**:وهو التوجه إلى غير الله تعالى بالمسألة، طلبا لتفريج كرب أو رفع ضر، أو قضاء حاجته، أو طلب تحقيق النصر والظفر، أو مجرد نداء لهم مُتَأَلِّها بِذِكْرِ اسمِهِم، راجيا المَدَدَ والبَرَكَة، كما يهتف المسلمون بربهم تبارك وتعالى، كما قال تعالى: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:٧١].

فبين الله سبحانه وتعالى أن هذه ردة عن الإسلام، فمن كانت هذه حالته انتقض إسلامه، فمن دعا مخلوقاً كان مشركاً الشرك الأكبر.

وهذا من أكثر ما وقع فيه عباد القبور، حتى إن فلانا ليقول:(قَبْرُ فُلان التِّرْيَاق المُجَرَّب) والعياذ بالله، وسواء في ذلك دعوت النبي r ، أو جبريل، أو الولي، أو الحجر، أو غير ذلك، فكلها سواء، والقاعدة في هذا الباب تقول:(كل عبادة ثَبَتَتْ بالكِتَاب أو السُّنَّة فَصَرْفُها لغير الله تعالى شرك أكبر)، وسيأتي مزيد إيضاح وبيان بإذن الله تعالى.

٢ - **شرك النية والإرادة والقصد**: وهو إرادة الدنيا بعمل الآخرة، كما قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود:١٥-١٦].

وهذا دليل على أن شرك النية، ويدخل فيه الرياء والسمعة، منه ما هو شرك أكبر:(كأن يقول حجوا لله ولفلان، أو ينوي بدفع ماله تقرباً إلى الله وإلى فلان، أياً كان ذلك الفلان، وكأن ينوي مثلاً أن يذبح لله ولفلان ... إلى غير ذلك، من أنواع العبادات).

وأما قوله تعالى:{نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ}، فقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية منسوخة، بقوله تعالى:{مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى:٢٠]،قوله:{منها}، (من) هنا تبعيضية، أي تؤته بعض الحظ، مما أراد من حطام الدنيا، فأما قوله تعالى:{نُوَفِّ} فهذا منسوخ، وقال آخرون ليس هناك نسخ لعدم ثبوت ذلك، ولكن تنوع السياق دال على تنوع الحال، فالأمر كله من باب الاستدراج، والاستدراج درجات، فربما أُعْطِيَ شيئاً، كقوله تعالى:{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٥]، وربما لم يعط البَتَّة.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة:٢٦٤]، وقال: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء:٣٨-٤٢].

وفي قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ١٣٤]، طمأنة للموحدين الذين لا يبتغون بأعمالهم سوى الله والدار الآخرة، فاللهم اجعلنا منهم، واحشرنا معهم، فإنا نشهدك يا ربنا على حبهم، وقد وعدت أن المرء مع من أحب؛ فألحقنا بهم يا أكرم الأكرمين.

أحوال العمل مع الرياء:

ويدخل في ذلك الرياء والسمعة، إذ ليس كل رياء وسمعة شركاً أصغر، بل قد يكون شركا أكبر؛ ولهذا يمكن تقسيمه إلى أقسام:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ- أن يُنْشِأ العمل مما يتقرب به إلى الله تعالى، يريد بذلك عرضاً من الدنيا، وهـذا لا يصدر إلا من منافق خالص، والعياذ بالله، ونسأل الله العافيـة والسـلامة. وهـذا شرك أكبر، وصاحبه منافق في الدرك الأسفل من النار ولن تجد له نصيرا.

وكما قال بعضهم: لا تكن في الخلوات **إبْلِيسَا** وبين الناس **قِدِّيسَا**.

ومن جميل ما نقله ابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح:

ذِئْـبٌ تَـرَاهُ مُصَـلِّيـا ... فَـإِذَّا مَـرَرْتَ بـه رَكَـعْ

يَـدْعُـو وَجُلُّ دُعَائِـه ... مَا لِلْفَـرِيسَـةِ لا تَـقَـعْ

وإذا الفَرِيْسَةُ خليت ... ذَهَبَ التَّنَسُّكُ والوَرَعْ

ب- ما طرأ على العبادة، بعد أن كان أصـلها أُرِيـدَ بهـا وجـه الله تعـالى، فهـذا هـو الشـرك الأصغر، فإن رده ودافعه فله حظ وافر من قوله تعالى: {وَأَمَّا مَـنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات:٤٠-٤١].

ت- أن تكون العبادة لله ثم يطرأ عليها الرياء، ويسترسل معـه العبـد، فقيـل يحـبط عمله كله أي هذا وغيره، وهذا من خطورة الأمر. وقيل يحبط ذلك العمل بعينه. وقيل يعامله الله بأصل نيته فضلاً منه وكرماً.

وقيل بالتفصيل، فإن كانت العبادة مما ينبني بعضها على بعـض، مـن ناحيـة مبناهـا وقبولها، كالصلاة مثلا، فأشرك في بعضها؛ حبطت كلها؛ لأنها مبنية على بعضها، وأمـا إن كانت العبادة غير مبنية على بعضها، كالزكاة والصدقة مثلا، وصيام شهر رمضـان، أي قابلة للتبعيض، أي يتصور قبول البعض ورد البعض، فأشرك في بعض مالـه، أو في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض أيام رمضان؛ حبط ما شرك فيه، وقُبل ما أخلص فيه. وهـذا أرجـح الأقـوال في نظري والله أعلم.

جاء في:(ترتيب المدارك وتقريب المسالك) لأبي الفضل القاضي عياض بـن موسـى اليحصبي:[قال ابن وهب كان في كم مالك منديل مطوي على أربع طاقات فإذا سـجد سجد عليه فقيل له في ذلك فقال أفعله لئلا يؤثر الحط على جبهتي فيظن الناس أني أقوم الليل.

قال ابن وهب وكـان أكثـر عبـادة مالـك في السـر بالليـل والنهـار حيـث لا يـراه أحد]ا.هـ.

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من طريق حُصَيْنُ بْنُ عَبْـدِ الـرَّحْمَنِ قَـالَ كُنْـتُ عِنْـدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ قُلْتُ أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: **أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاَةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ.**

قَالَ فَمَاذَا صَنَعْتَ قُلْتُ اسْتَرْقَيْتُ. قَالَ فَمَا حَمَلَـكَ عَـلَى ذَلِـكَ قُلْـتُ حَـدِيثٌ حَـدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. فَقَالَ وَمَا حَدَّثَكُمُ الشَّعْبِيُّ قُلْتُ حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ الأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ لاَ رُقْيَةَ إِلاَّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. فَقَالَ قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَـا سَـمِعَ وَلَكِـنْ حَـدَّثَنَا ابْـنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ وَالنَّبِـيَّ وَمَعَـهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيـلَ لِي هَذَا مُوسَى r وَقَوْمُهُ وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيـلَ لِي انْظُـرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ. فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ"، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله r . وَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله r فَقَالَ:"مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ". فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ:"هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ". فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ:"أَنْتَ مِنْهُمْ" ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ ادْعُ اللهَّ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ:"سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ".

فتأمل في قول حصين رحمه الله تعالى : **أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاَةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ.**

وجاء في حلية الأولياء:[وقال عبد الله: اثنتان منجيتان، واثنتان مهلكتان، فالمنجيتان النية والنهي، فالنية أن تنوي أن تطيع الله فيما يستقبل، والنهي أن تنهى نفسك عما حرم الله عز و جل، والمهلكتان العجب والقنوط]ا.هـ.

مكر شيطاني:

وعلينا أن نحذر من تلبيس الشيطان على بعض العباد، حيث يحملهم على ترك العمل الصالح؛ خشية الرياء، فإن هذا منهم رياء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في:(الفتاوى الكبرى:[وَمَنْ كَانَ لَهُ وِرْدٌ مَشْرُوعٌ مِنْ صَلَاةِ الضُّحَى، أَوْ قِيَامِ لَيْلٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُصَلِّيهِ حَيْثُ كَانَ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَدَعَ وِرْدَهُ الْمَشْرُوعَ لِأَجْلِ كَوْنِهِ بَيْنَ النَّاسِ، إذَا عَلِمَ اللهَّ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ يَفْعَلُهُ سِرًّا للهَّ مَعَ اجْتِهَادِهِ فِي سَلَامَتِهِ مِنْ الرِّيَاءِ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَمُفْسِدَاتِ الْإِخْلَاصِ، وَلِهَذَا قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: تَرْكُ الْعَمَلِ لِأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، وَالْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ.

وَفِعْلُهُ فِي مَكَانِهِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ مَعِيشَتُهُ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللهَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَفْعَلَهُ حَيْثُ تَتَعَطَّلُ مَعِيشَتُهُ، وَيَشْتَغِلُ قَلْبُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ كُلَّمَا كَانَتْ أَجْمَعَ لِلْقَلْبِ وَأَبْعَدَ مِنْ الْوَسْوَاسِ كَانَتْ أَكْمَلَ.

وَمَنْ نَهَى عَنْ أَمْرٍ مَشْرُوعٍ بِمُجَرَّدِ زَعْمِهِ أَنَّ ذَلِكَ رِيَاءٌ، فَنَهْيُهُ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ الْأَعْمَالَ الْمَشْرُوعَةَ لَا يُنْهَى عَنْهَا خَوْفًا مِنْ الرِّيَاءِ، بَلْ يُؤْمَرُ بِهَا وَبِالْإِخْلَاصِ فِيهَا، وَنَحْنُ إذَا رَأَيْنَا مَنْ يَفْعَلُهَا أَقْرَرْنَاهُ، وَإِنْ جَزَمْنَا أَنَّهُ يَفْعَلُهَا رِيَاءً، فَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ قَالَ اللهُّ فِيهِمْ: {إنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَّ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَّ إلَّا قَلِيلًا}.

فَهَؤُلَاءِ كَانَ النَّبِيُّ r وَالْمُسْلِمُونَ يُقِرُّونَهُمْ عَلَى مَا يُظْهِرُونَهُ مِنْ الدِّينِ، وَإِنْ كَانُوا مُرَائِينَ، وَلَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ الْفَسَادَ فِي تَرْكِ إظْهَارِ الْمَشْرُوعِ أَعْظَمُ مِنْ الْفَسَادِ فِي إظْهَارِهِ رِيَاءً، كَمَا أَنَّ فَسَادَ تَرْكِ إظْهَارِ الْإِيمَانِ وَالصَّلَوَاتِ أَعْظَمُ مِنْ الْفَسَادِ فِي إظْهَارِ ذَلِكَ رِيَاءً ؛ وَلِأَنَّ الْإِنْكَارَ إنَّمَا يَقَعُ عَلَى الْفَسَادِ فِي إظْهَارِ ذَلِكَ رِئَاءَ النَّاسِ.

الثَّانِي: لِأَنَّ الْإِنْكَارَ إنَّمَا يَقَعُ عَلَى مَا أَنْكَرَتْهُ الشَّرِيعَةُ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله r : {إنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَنْ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ}. وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَجَبْنَاهُ، وَوَالَيْنَاهُ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا شَرًّا أَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ زَعَمَ أَنَّ سَرِيرَتَهُ صَالِحَةٌ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثَّالِثُ: أَنَّ تَسْوِيغَ مِثْلِ هَذَا يُفْضِي إِلَى أَنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ يُنْكِرُونَ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرِ وَالدِّينِ إِذَا رَأَوْا مَنْ يُظْهِرُ أَمْرًا مَشْرُوعًا مَسْنُونًا، قَالُوا: هَذَا مُرَاءٍ، فَيَتْرُكُ أَهْلُ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ إِظْهَارَ الْأُمُورِ الْمَشْرُوعَةِ، حَذَرًا مِنْ لَمْزِهِمْ وَذَمِّهِمْ، فَيَتَعَطَّلُ الْخَيْرُ، وَيَبْقَى لِأَهْلِ الشِّرْكِ شَوْكَةٌ يُظْهِرُونَ الشَّرَّ، وَلَا أَحَدَ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ مِثْلَ هَذَا مِنْ شَعَائِرِ الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ يَطْعَنُ عَلَى مَنْ يُظْهِرُ الْأَعْمَالَ الْمَشْرُوعَةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

فَإِنَّ النَّبِيَّ r لَمَّا حَضَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ عَامَ تَبُوكَ جَاءَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ يَدُهُ تَعْجِزُ مِنْ حَمْلِهَا، فَقَالُوا: هَذَا مُرَاءٍ، وَجَاءَ بَعْضُهُمْ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: لَقَدْ كَانَ اللهُ غَنِيًّا عَنْ صَاعِ فُلَانٍ، فَلَمَزُوا هَذَا وَهَذَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ذَلِكَ، وَصَارَ عِبْرَةً فِيمَنْ يَلْمِزُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ للهِ وَرَسُولِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ]ا.هـ.

الفرق بين العُجْب والرياء

كما يجب علينا الحذر من العُجْب؛ فإنه مفسد للعمل:قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى:[وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الإشراك بالخلق والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر فالمرائي لا يحقق قوله: {إياك نعبد} والمعجب لا يحقق قوله: {إياك نستعين} فمن حقق قوله: {إياك نعبد} خرج عن الرياء ومن حقق قوله: {إياك نستعين} خرج عن الإعجاب]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في :(الفوائد):[فصل: ذكر ابن سعد في الطبقات عن عمر بن عبد العزيز أنه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العُجْب؛ قَطَعَهُ، وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مَزَّقَهُ، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي فيه مرضاة الله مطالعا فيه مِنَّةَ الله عليه به وتوفيقه له فيه وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن فالذي مَنَّ عليه بذلك هو الذي مَنَّ عليه بالقول والفعل فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يحضره العُجْب الذي أصله رؤية نفسه وغيبته عن شهود مِنَّةِ ربه وتوفيقه وإعانته، فإذا غاب عن تلك الملاحظة؛ وثَبَت النفس وقَامَت في مقام الدَّعْوَى فوقع العُجْب؛ ففسد عليه القول والعمل، فتارة يُحَالُ بينه وبين تمامه، ويقطع عليه، ويكون ذلك رحمة به؛ حتى لا يغيب عن مشاهدة المِنَّةِ والتوفيق، وتارة يتم له، ولكن لا يكون له ثمرة، وإن أثمر؛ أثمر ثمرة ضعيفة، غير محصلة للمقصود، وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه، ويَتَوَلَّدُ له منه مفاسد شَتَّى بحسب غَيْبَتِه عن ملاحظة التوفيق والمِنَّةِ ورؤية نفسه وأن القول والفعل به.

ومن هذا الموضع يصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها، أو يفسدها عليه ويمنعه ثمرتها، فلا شيء أفسد للأعمال من العُجْبِ ورؤية النفس، فإذا أراد الله بعده خيرا أشهده مِنَّتَه وتوفيقه وإعانته له في كل ما يقوله ويفعله، فلا يُعْجَبُ به، ثم أَشْهَدَهُ تقصيره فيه، وأنه لا يرضى لربه به؛ فيتوب إليه منه، ويستغفره، ويستحي أن يطلب عليه أجرا، وإذا لم يشهده ذلك وغَيَّبَهُ عنه فرأى نفسه في العمل ورآه بعين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكمال والرضا؛ لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة، فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهدا فيه مِنَّتَهُ وفضله وتوفيقه، مُعْتَذِرا منه إليه، مستحييا منه، إذ لم يُوَفِّهِ حَقَّهُ، والجاهل يعمل العمل لِحَظِّهِ وهَوَاه نَاظِرا فيه إلى نفسه، يَمُنُّ به على رَبِّه، راضيا بِعَمَلِه فهذا لَوْنٌ وذَاك لَوْنٌ آخر]ا.هـ.

٣- **شرك المحبة:** وهو أن يحب المخلوقُ مَخْلُوقاً مثله، كحبه لله أو أعظم والعياذ بالله،سواء كان من الأحياء أو من الأموات أو الجمادات وغير ذلك، كما قال تعالى: قال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعَذَاب} [البقرة:١٦٥].

واختلف في هذه الآية في قوله:{يحبونهم كحب الله}، فمنهم من قال أي:إن الكافرين يحبون أندادهم كما يحبون الله تعالى،فكان شركهم من جهة التسوية، وبهذا المعنى يكون قد أثبَتَ لهم محبة لله، وقيل أي:إن الكافرين يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، وبهذا المعنى يكون قد نفى عنهم محبتهم لله. والراجح هو القول الأول؛ فإنما ذُمُوا فقط عندما ساووا محبة المخلوق بمحبة الخالق.

فكيف لو أحب المخلوق مخلوقا أعظم من محبته للخالق تبارك وتعالى، كما هو حال الكثير من عباد القبور والأولياء، فإن أحدهم على استعداد أن يحلف بالله كذباً، ولا يجترئ ولا يرضى أبدا أن يحلف بالولي والغوث كذباً؛ لما قام في قلبه من عظيم المحبة والتعظيم لهذا المخلوق، أعظم من محبته لله، والعياذ بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رحمك الله، أن التعظيم يكون بالجوارح والأعمال الظاهرة كما يكون بالقلب، فمن عَظَّم آلهة المشركين بقلبه، أو بالأعمال الظاهرة؛ كان بذلك واقعا في الشرك الأكبر، عياذا بالله من الخذلان.

ومن ذلك ما يفعله بعض المسلمين الذين يأتون معابد الكفار للسياحة – زعموا- فيفعلون الطقوس التي تكون في هذه الزيارة، من تَبْخِيرٍ للأصنام، ومَسْحٍ لها ونحو ذلك.

ومن المحبة الشركية ما يقع من العشق الشركي لمعشوقيهم، وما أكثر هذا اليوم في الذين يحبون الفنانين، والممثلين، والأندية الرياضية، واللاعبين، حتى إنه يترك الصلوات لأجلهم، وحتى إن بعضهم يبلغ به الحال أن ينتحر لأجلهم، بل وبعضهم يسجد لهم أو يركع من شدة حبه لهم إذا رآهم، ويكون ذلك أيضا في محبة النسوان والمردان. نسأل الله العافية والسلامة.

قال ابن القيم في (القصيدة النونية):

والله ما سَاوَوْهُمُ بالله في ... خلق ولا رزق ولا إحسان

فالله عندهم هو الخلاق والرزاق مولى الفضل والإحسان

لكنهم سَاوَوْهُمُ بالله في ... حب وتعظيم وفي إيمان

جعلوا محبتهم مع الرحمن ما ... جعلوا المحبة قط للرحمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمحبة من جهة العموم تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: محبة الله تعالى، وهذه عبودية من أجل العبوديات.

القسم الثاني: المحبة الشركية كما تقدم.

القسم الثالث: محبة من يُحِبُ الله. كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين والشهداء والصديقين،وهذه والتي تليها هي عقيدة الولاء والبراء، وستأتي.

القسم الرابع: محبة ما يحبه الله. كمحبة الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وذكر الله تعالى وغير ذلك من الأعمال الصالحة، فإن الله تعالى يحبها ولهذا أمر بها وحث عباده عليها.

وعلينا أن ننظر في الأدلة الشرعية؛ لنتعلم من يحب الله، وما يحبه الله؛ لنحبه، ونواليه، ونعمل به.

وفي المقابل ننظر ما أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه لا يحبه، وما أخبرنا أنه يبغضه؛ لنبغضه ونعتزله ونحاربه ونسعى في إزالته.

كقوله تعالى:{قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠]، وقوله:{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة:١٩٥]، وقوله:{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُّ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة:٢٠٥]، وقوله:{إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة:٢٢٢]، وقوله:{يَمْحَقُ اللهُّ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُّ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} [البقرة:٢٧٦]، وقوله:{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران:٥٧]، وقوله جل وعلا: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران:٧٦]، وقوله: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:١٤٦]، وقوله: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩]، وقوله: {إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء:٣٦]، وقوله: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [النساء:١٠٧]، وقوله: {لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} [النساء:١٤٨]، وقوله: {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة:٤٢]،وقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [المائدة:٨٧]، وقوله: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف:٣١]، وقوله: {لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [النحل:٢٣]، ونحو ذلك من الآيات.

القسم الخامس:المحبة الفطرية، وهي، كمحبة الوالدين، والأهل، من زوجة، وولد، والأقارب والأصدقاء ونحو ذلك، والواجب في هذه المحبة ألا تطغينا على حق الله تعالى، فإن وقع ذلك؛ وقعنا في الإثم، ثم هذا الإثم بحسب نوع الطغيان الذي وقع، فربما كان معصية دون الشرك، وربما كان شركا، والعياذ بالله من الضلال كله. وهناك تكون الهلكة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وانظر نفسك عند مَعَاقِدِ الخُصُومات، بين مَنْ تُحب ومَا تُحب، وبين أمر الله تعالى، أيهما تقدم؟؛ تعرف هناك خطورة المسألة، فإياك إياك.

وتأمل في هذه النصوص، الدالة على هذا المعنى: كما قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران:١٤-١٥]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن:١٤-١٥]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:٢٧-٢٨]، وقوله: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ:٣٥-٣٧]، وقوله: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٦-٣٨]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون:٩]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة:٢٣-٢٤]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الزهد والورع والعبادة :[وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه والذين يبغضونه كأعدائه فالذين يحبونه يجذبونه إليهم فإذا لم تكن المحبة منهم له لله كان ذلك مما يَقْطَعُه عن الله والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشغلونه بأذاهم عن الله ولو أحسن إليه أصدقاؤه الذين يحبونه لغير الله أوجب إحسانهم إليه محبته لهم وانجذاب قلبه إليهم ولو كان على غير الاستقامة وأوجب مكافأته لهم فيقطعونه عن الله وعبادته خلاص القلب من الفتنة فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز و جل فيكون حبه لله ولما يحبه الله وبغضبه لله ولما يبغضه الله وكذلك موالاته ومعاداته وإلا فمحبة المخلوق تجذبه وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه ثم قد يكون هذا أقوى وقد يكون هذا أقوى فإذا كان هو غالبا لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه ولا محبوباته إليها لكونه غالبا لهواه ناهيا لنفسه عن الهوى لما في قلبه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من خشية الله ومحبته التي تمنعه عن انجذابه إلى المحبوبات وأما حب الناس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقوتهم إليهم فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته وإلا جذبوه وأخذوه إليهم كحب امرأة العزيز ليوسف فإن قوة يوسف ومحبته لله وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها هذا إذا أحب أحدهم صورته مع أن هنا الداعي قوي منه ومنهم فهنا المعصوم من عصمه الله وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم ولهذا قال رسول الله r :"لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان" حال الموالية لغير الله وقد يحبونه لعلمه أو دينه أو إحسانه أو غير ذلك فالفتنة في هذا أعظم إلا إذا كانت فيه قوة إيمانية وخشية وتوحيد تام فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم إن لم يفعلها وإلا نقص الحب أو حصل نوع بغض وربما زاد أو أدى إلى الانسلاخ من حبه فصار مَبْغُوضَا بعد أن كان محبوبا فأصدقاء الإنسان يحبون استخدامه واستعماله في أغراضهم حتى يكون كالعبد لهم وأعداؤه يسعون في أذاه وإضراره وأولئك يطلبون منه انتفاعهم وان كان مضرا له مفسدا لدينه لا يفكون في ذلك وقليل منهم الشكور فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره وإنما يقصدون أغراضهم به فإن لم يكون الإنسان عابدا الله متوكلا عليه مواليا له ومواليا فيه ومعاديا وإلا أكلته الطائفتان وأدى ذلك إلى هلاكه في الدنيا والآخرة وهذا هو المعروف من أحوال بني آدم وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والاختلاف والفتن قوم يوالون زيدا ويعادون عمروا، وآخرون بالعكس لأجل أغراضهم فإذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبوه من زيد انقلبوا إلى عمرو وكذلك أصحاب عمرو كما هو الواقع بين أصناف الناس وكذلك الرأس من الجانبين يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه وهم إذا لم تكن الموالاة لله أضر عليك من أولئك فإن أولئك إنما يقصدون إفساد دنياه إما بقتله أو بأخذ ماله وإما بإزالة منصبه وهذا كله ضرر دنيوي لا يعتد به إذا سلم العبد وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم فهم لا يبالون بذلك وأما دين العبد الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه ضرر الموالاة لأجل المصلحة وأما أولياؤه الذين للأغراض فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضهم وغير ذلك]ا.هـ.

ضَابِطُ المحبة الفِطْرِية:

فضابط هذه المحبة الفطرية، مع محبة الله جل وعلا، مبين في قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:٣١-٣٢]، وذلك بتقديم أوامر الله تعالى وطاعته، على أوامر وطاعة من سواه، من النفس والمال، والوالد والولد، والجاه والسلطان، وغير ذلك، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة t عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى r قَالَ:"تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ"؛ فانظر إلى هذا العبد الذي صار من التعساء، لأن ماله أطغاه عن محبة الله جل وعلا، واتباع الهدى.

لا تعارض بين المحبة الفطرية، وعدم تولي الكفار وبغض دينهم:

ومن المحبة الفطرية، محبة الأب والأم الكافرين، ومحبة الزوج المسلم لزوجته الكتابية، ولكن بشرط أن يبغض دينهم، وألا تطغى هذه المحبة على حق الله تعالى، فإن وقعت هذه المعارضة بينهم وبين حق الله تعالى، تعين تقديم حق الله تعالى، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤]، مع أن الله تبارك وتعالى أمر بالإحسان إلى الأبوين في مواضع، ولكن بهذا القيد المعتبر، كما قال تعلى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [العنكبوت: ٨]، وقوله تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٥].

وقال في شأن نكاح نساء أهل الكتاب: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: ٥]، فختم الآية بالتذكير بالشهادة عليهن بالكفر، وحبوط العمل، فإن شك في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك أو صحح مذهبها؛ فقد كفر بالله العظيم، وإن نطق بالشهادتين وصلى وصام وحج كل عام.

وتأمل في هذه الآيات، قال تعالى:{لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: ٨، ٩].

فلنتنبه لهذا المقام العظيم، فلا نخلط بين المحبة الفطرية المتضمنة حسن المعاشرة بالمعروف، مع البر والإقساط، وبين محبة دين الكافرين، أو ترقيق ذلك، أو تصحيح مذهبهم، أو تَوَلِّيهِم ومُوَالَاتِهم، أو مناصرتهم على المسلمين، أو تقديمهم عليهم، تعظيما وتقديرا، فإن هذا كفر بالله تعالى. عياذا بالله. وأما تهنئتهم بأعيادهم الجاهلية، فمتردد بين الكفر والضلال المبين، بحسب الحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أول كتابه، الجليل القدر، العظيم الفائدة:(اقتضاء الصراط المستقيم):[بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا ، وأتم علينا نعمته، ورضي لنا الإسلام دينا، وأمرنا أن نستهديه صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم غير المغضوب عليهم: اليهود، ولا الضالين: النصارى. وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدين القيّم، والملة الحنيفية وجعله على شريعة من الأمر، أمر باتباعها، وأمره بأن يقول: {هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي}، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما. وبعد: فإني كنت قد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نهيت : إما مبتدئا أو مجيبا عن التشبه بالكفار في أعيادهم، وأخبرت ببعض ما في ذلك: من الأثر القديم، والدلالة الشرعية، وبيَّنت بعض حكمة الشرع في مجانبة الكفار، من الكتابيين والأميين، وما جاءت به الشريعة من مخالفة أهل الكتاب والأعاجم .

وإن كانت هذه قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة، كثيرة الشّعَب، واصطلاحا جامعا من أصولها كثير الفروع، لكني نبهت على ذلك بما يسر الله تعالى وكتبت جوابا في ذلك لم يحضرني الساعة، وحصل بسبب ذلك من الخير ما قدّره الله سبحانه، ثم بلغني بأخرة أن من الناس من استغرب ذلك واستبعده؛ لمخالفة عادة قد نشؤوا عليها، وتمسكوا في ذلك بعمومات وإطلاقات اعتمدوا عليها، فاقتضاني بعض الأصحاب أن أعلق في ذلك ما يكون فيه إشارة إلى أصل هذه المسألة؛ لكثرة فائدتها ، وعموم المنفعة بها، ولما قد عمَّ كثيرا من الناس من الابتلاء بذلك، حتى صاروا في نوع جاهلية، فكتبت ما حضرني الساعة، مع أنه لو استُوفي ما في ذلك من الدلائل، وكلام العلماء، واستُقريت الآثار في ذلك، لوُجد فيه أكثر مما كتبته. ولم أكن أظن أن من خاض في الفقه، ورأى إيماءات الشرع ومقاصده، وعلل الفقهاء ومسائلهم، يشك في ذلك، بل لم أكن أظن أن من وقر الإيمان في قلبه، وخلص إليه حقيقة الإسلام، وأنه دين الله، الذي لا يقبل من أحد سواه - إذا نبَّه على هذه النكتة - إلا كانت حياة قلبه، وصحة إيمانه، توجب استيقاظه بأسرع تنبيه، ولكن نعوذ بالله من رَيْنِ القلوب، وهوى النفوس، اللذَيْن يصدان عن معرفة الحق واتباعه]ا.هـ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى:[فَصْلٌ :وَلَا بُدَّ مِنْ التَّنْبِيهِ عَلَى قَاعِدَةِ تَحَرُّكِ الْقُلُوبِ إلَى الله عَزَّ وَجَلَّ فَتَعْتَصِمُ بِهِ فَتَقِلُّ آفَاتُهَا أَوْ تَذْهَبُ عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ بِحَوْلِ الله وَقُوَّتِهِ. فَنَقُولُ اعْلَمْ أَنَّ مُحَرِّكَاتِ الْقُلُوبِ إلَى الله عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثَةٌ : الْمَحَبَّةُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ . وَأَقْوَاهَا الْمَحَبَّةُ وَهِيَ مَقْصُودَةٌ تُرَادُ لِذَاتِهَا لِأَنَّهَا تُرَادُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِخِلَافِ الْخَوْفِ فَإِنَّهُ يَزُولُ فِي الْآخِرَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى { أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } وَالْخَوْفُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالْمَنْعُ مِنْ الْخُرُوجِ عَنْ الطَّرِيقِ فَالْمَحَبَّةُ تَلْقَى الْعَبْدَ فِي السَّيْرِ إلَى مَحْبُوبِهِ وَعَلَى قَدْرِ ضَعْفِهَا وَقُوَّتِهَا يَكُونُ سَيْرُهُ إلَيْهِ وَالْخَوْفُ يَمْنَعُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ طَرِيقِ الْمَحْبُوبِ وَالرَّجَاءُ يَقُودُهُ فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ فَإِنَّهُ لَا تَحْصُلُ لَهُ الْعُبُودِيَّةُ بِدُونِهِ وَكُلُّ أَحَدٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله لَا لِغَيْرِهِ].ا.هـ..

٤- **شرك الطاعة**: وهذا النوع هو أعظم وَرَطَات أهل هذا الزمان، وهو طاعة المخلوق في معصية الخالق في تحريم الحلال، وتحليل الحرام.

واعلم، أن أهل الكتاب من قبل قد وقعوا في نفس هذه الورطة، لما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، كما قال تعالى:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ الله وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة:٣١].

وهذه الأمة أخذت مأخذهم، مصداقا لما أخبر به الصادق المصدوق **r**، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ **t** أَنَّ **r** قَالَ:"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ:"فَمَنْ".

وتأمل في قوله تعالى: {أَرْبَابًا} ولم يقل آلهة؛ لأن شرك هؤلاء، متعلق بالربوبية، وهي أفعاله تبارك وتعالى، فهو الذي له الخلق، وله الأمر وله الحكم والتشريع، جل الله في علاه، فشرك هؤلاء، عند جماعات من المحققين، أعظم وأغلظ من شرك أهل الجاهلية في الألوهية؛ وذلك لأن الشرك في الربوبية، أعظم من الشرك في الألوهية، فهؤلاء قد نازعوا الله جل وعلا في ربوبيته، إذ إنه سبحانه وتعالى هو الحكم وإليه الحُكم، كما قال تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف:٤٠]، وقال: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء:١٠٥]، وقال: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤].

فمن بدل الشرع المنزل، أو حَكَّمَ الشرع المبدل في رقاب العباد والبلاد، أو سوغ الحكم به، أو أمر به، الكل كفار بالله تعالى، الكفر الأكبر، ولا فرق في مسائل التشريع العام، بين المسألة أو المسألتين، فلو بدل مسألة واحدة، وجعل حكمها بين العباد جارياً متبعاً (سبيلا وسنة)؛ لكان خارجاً عن الإسلام. بل وإن لم يحكم بها، فإنه إذا بدل كفر، حكم أو لم يحكم، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه أنواع الشرك وجماعه، والله تعالى يقول: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [المائدة:٧٢].

قوله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً})، هذا تأكيد لما تقدم مرارا، من اعتماد الشيخ طريقة إعطاء المعلومة، ثم التأكيد على صحتها بالاستدلال الصحيح، الدال على صدقها، إذ ليس الشأن أن تستدل، ولكن الشأن كل الشأن أن يكون استدلالك صحيحا، من حيث ثُبُوتِه أولا، ثم من حيث مطابقته في الدلالة لما تقول به وتذهب إليه ثانيا، وإلا فالكل يستدل، وكما قيل:لن يعدم المبطل استدلالا، ولكن لابد أن تسألك نفسك سؤالين:هل الدليل صحيح ثابت؟، ثم هل فهمك إياه هو موافق لفهم النبي r وأصحابه y والسلف الصالح؟، أم أنك تريد أن تمرر هواك على كل حال، وتريد الانتصار لشيخك أو قولك أو مذهبك، وإن خالفت السلف الصالح، فانتبه رعاك الله، فإنها مَزَلَّةُ أقدام، ومَظَنَّةُ هَلَكَةٍ. وتأمل في قوله تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [البقرة:٢٦]، فالضمير هنا عائد على المثل الذي ضربه الله في القرآن، فهناك من يقرؤه يريد الهدى؛ فيوفق له، وهناك من يقرؤه يريد اتباع الهوى، فيضرب بعضه ببعض، ويتبع المتشابه، ويترك المُحْكَم؛ فيضل والعياذ بالله، وفي الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ تَلَا رَسُولُ الله r هَذِهِ الْآيَةَ: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَـذَّكَّرُ إِلَّا أُولُـو الْأَلْبَـابِ} قَالَـتْ قَـالَ رَسُـولُ اللهِ r :"فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ".

قوله:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ} تقرير للاختصاص، والمعنى أنها خالصة لله تعالى خاصة به، فلا يجـوز الافتئـات عليهـا، لا بالشـرك ولا بالبـدع، ولا بالمعـاصي والمنكـرات، ولا بالمحرمات ولا الفواحش، ولا يجوز لأحد أن يتحكم فيها أو يحكم فيها بغير ما يـرضي الله تبارك وتعالى، ولا أن يدخل فيها ما يسخط الله، فإنما هي بيوته جل الله في علاه، كما قال تعالى:{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [النور:٣٦]، ولقد أدخل كثير من الناس في بيوت الله كثيرا من ذلك، إن لم يكـن كلـه، فهناك مساجد حولت إلى مقابر، فدفنوا فيها أولياءهم وصالحيهم، ثم عبدوها من دون الله أو مع الله فدخل الشرك، إلى تلك المساجد، فصارت محرمة الصلاة فيهـا، وبعضـها بني على القبر، وهذه مساجد ضرار لا يجوز دخولها ولا الصلاة فيها، بل حقها أن تهدم، ودخلت البدع والخرافات، من الطبول والأشعار الشـركية، فيما يسمى بالنُوبَات، وهي المدائح الصوفية، التي يضربون فيها الدفوف ويرقصـون، ويغمـرون، ويخـتلط النسـاء بالرجال، في بيوت الله، عياذا بالله.

وآخرون أدخلوا فيها آلات التصـوير، زعمـوا لتصـوير المحـاضرات والصـلوات، ونسوا أن الله تعالى حرم تصاوير ذوات الأرواح، وآخرون زخرفوها كما فعلت اليهـود والنصارى، وجعلوا فيها ألوانا مـن الأصـباغ، وامـتلأت الجـدران بالكتابـات، حتـى صارت في بعض البلدان مزارا للسُّـيَّاح حتـى مـن الكفـار، يأتونهـا للتفـرج والتقـاط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصور، وكل ذلك مَنْهِي عنه مُحَذَّرٌ منه، فالله المستعان، فما أشد غربة الإسلام بين أهله، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لَجَانُ المسَاجد بدعة:

وآخرون أسسوا ما يعرف اليوم بـ **(لجنة المسجد)**، وهذه في حد ذاتها بدعة وضلالة، ثم إنها صارت في الغالب سببا لصد الناس عن سبيل الله، فإنما هي فكرة شيطانية أحدثها الطاغوت وأعوانه؛ ليتحكموا في بيوت الله، ليتم توجيهها مع مصالحهم، فكم من درس ودورة شرعية أوقفوها بهذه الدعوى الباطلة، وكم من إمام على السُّنة عزلوه بهذه اللجان الفاسدة، قاتلهم الله أنى يؤفكون، وإذا كان لا يؤذن للعبد أن يفعل ما يشاء في منزله، مما يخالف شرع الله تعالى، بل هو مأمور بعبادة الله وتحقيق الاتباع للرسول r ، حتى في منزله، فكيف ببيوت الله تبارك وتعالى.

قوله: {المساجد}، يراد بها معانٍ وكلها داخلة في عموم الكلمة في هذه الآية:

١ - دور العبادات وهي المساجد والمعروفة.

٢ - أعضاء السجود السبعة، فلا يجوز لأحد أن يسجد لغير الله، فإن هذا من الشرك بالله تعالى، ويدخل في ذلك الانحِنَاء لغير الله، كما يحصل في بعض الألعاب الرياضية، وما يفعله بعض عشاق الغناء مع الفنانين، فلنكن على حذر.

٣- بقع العبادات كلها، لقوله r :"وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ" متفق عليه من حديث جابر t .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليس تقييد السجود بأن يكون لله، هو خاص بالمساجد فحسب، بل لو سجد في المقبرة مثلاً لأصحاب القبور فقد وقع في الشرك الأكبر، ولو سجد في المسجد لغير الله وقع في الشرك الأكبر، ولو انحنى تعظيماً لغير الله وقع في الشرك الأكبر، وهكذا.

قوله: {فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً}، نفس القاعدة الماضية، أن النكرة إذا جاءت في سياق النفي أو النهي أو الشرط أفادت العموم، فهنا النكرة كلمة {أحداً} جاءت في كلام تضمن نهياً وهو قوله: {فلا تدعوا}، فأفادت العموم، ودخل فيها كل أحد دون الله جل وعلا.

وأما الكلام عن الدعاء وما يتعلق به، فسيأتي بإذن الله تعالى، ولكن المهم أن نعلم أنه طالما أن الله تعالى بَيَّنَ أنَّ الشيء عبادة؛ فصرفه لغير الله تعالى كفر أكبر، فنقول هنا الدعاء عبادة، فمن صرفه لغير الله تعالى؛ فقد كفر أو أشرك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

الثَّالِثَةُ:أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله :(الثالثة: أن من أطاع الرسول وحد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب): أي المسألة الثالثة المتممة للمسائل الثلاث، التي يجب على كل مسلم ومسلمة تعلمها ولا يسعه الجهل بها، إذ الجهل بها هو جهل بأصل الدين الذي لا يقبل الله سواه.

فأراد المؤلف أن يبين أن من مستلزمات توحيد الله تعالى وطاعة رسوله r ، البراءة من الشرك وأهله، ومن كل من عادى التوحيد وأهله، أو عادى الله ورسوله r ، فلو أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحداً لم يُعَادِ التوحيد، ولكنه لم يتبع الرسول r لكان من حَصَبِ جهنم، لأن التوحيد لا يقبل التبعيض، فاسم التوحيد ينتظم هذه الأمور الثلاثة؛ ولهذا قال المؤلف رحمه الله (أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ).

ولهذا في الحديث الذي في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله r أَنَّهُ قَالَ:"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"، وإنما ذكرت بهذا؛ لأن هناك بعض الطوائف في بلاد العجم، يقولون: نحن نؤمن بأن الله تعالى واحد أحد، ولكننا لا نريد اتباع الرسول r ، فنقول لهم ولغيرهم لن تنتفعوا بهذا التوحيد المُشَوَّه المُجْتَزَأ، لأن الله تعالى لا يقبل ذلك، ولأنه لا سبيل إلى عبادة الله إلا بشريعة محمد r ، فمن عبد الله على شريعة غير شريعة محمد r من هذه الأمة، فلن يقبل منه، وهو كافر بالله تعالى، قال تعالى:{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء:٨٠]، وقال:{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]، وهو r رسول هذه الأمة كافة جِنِّهم وإنْسِهم، كما قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨]. فهؤلاء إنما يعبدون أهوائهم بغير علم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال أبو الوفا بن عقيل رحمه الله:[إذا أردت أن تنظر إلى محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى ازدحامهم في أبواب المساجد، ولا إلى ضجيجهم بلبيك، ولكن انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة]ا.هـ.

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله:

ومَن كان ذا حُب لِمَولاه إنما ... يتم بِحُبِّ الدِّينِ دِينِ مُحَمَّدِ
فَعَادِ الذي عادى لِدِين محمد ... وَوَال الذي والاه من كل مهتدي
وأحْبِبْ رسول الله أكْمَلَ مَن دَعا ... إلى الله والتقوى وأكمل مرشدي
وما الدين إلا الحب والبغض والوَلَا ... كَذاك البَرا مِنْ كُلِّ غَاوٍ ومُعْتَدي

ويقول أيضا:

نَعَمْ لو صَدَقْتَ الله فيما زَعَمْتَه...لَعَادَيْتَ من بالله ويْحَكَ يَكْفُرُ
ووالیت أهل الحق سرًّا وجهرة...ولما تُهَاجِيهم ولِلْكُفْرِ تَنْصُرُ
فما كل من قد قال ما قلت مسلم...ولكن بأشْرَاطٍ هَنالِك تُذْكَرُ
مُبَاينَة الكفار في كل موطن...بذا جاءنا النص الصحيح المُقَرَّرُ
وتكفيرهم جهرا وتسفيه رأيهم...وتَضْلِيلُهم فيما أَتَوْهُ وأَظْهَرُوا
وتَصْدَعُ بالتوحيد بين ظهورهم...وتَدْعُوهُموا سِرّاً لِذَاكَ وتَجْهَرُ
فهذا هو الدين الحنيفي والهدى...ومِلَّة إبراهيم لوكُنت تَشْعُرُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمعنى أن هذه الأمور الثلاثة يترتب بعضها على بعض، وينبني بعضها على بعض، فلا يُتَصَوَّرُ في ميزان الشرع أصلا انفكاك أحدها عن الأخرى؛ ولهذا سماها الله تبارك وتعالى في كتابه بالعروة الوثقى، ونعتها بأنها لا انفصام لها، أي غير قابلة للتجزئة أصلا.

المعنى العام للعروة الوثقى:

واعلم أرشدك الله، أن العروة الوثقى وردت في موضعين من الذكر الحكيم، وبمجموعهما نعلم يقينا، أن هذه الثلاث لا يمكن انفكاكها، فمن انْفَصَمَت عنده؛ فليكبر على إيمانه أربعا للوفاة.

قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٥٦]، وقال: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [لقمان:٢٢-٢٣].

ففي الآية الأولى، الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وفي الآية الثانية الاتباع بإحسان، وهو طاعة الرسول r، وقيده بالإحسان في تذكير بأن هناك من يزعم اتباعا ويتنسب إليه ولكنه اتباع بإساءة، وسيأتي الحديث عن هؤلاء، من أصحاب الهوى، والرأي المذموم، وأصحاب المصالح والمفاسد، والراضخين لضغط الواقع، وغيرهم ممن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينتسب إلى هذا الرسول r ، ولكنه لا يتبعه بإحسان، وإنما اتباع شعارات براقة، وزخرف من القول، والعياذ بالله.

جاء في كتاب:(الإبانة الكبرى) لابن بطة، في بيان ما كان عليه الصحابة من الحرص على إقامة الدين بطاعة الله ورسوله، لا بالهوى والرأي في مقابلة النقل، كما يفعله المبطلون:[قال الشيخ:فلله در أقوام دقت فطنهم وصفت أذهانهم، وتعالت بهم الهمم في اتباع نبيهم، وتناهت بهم المحبة، حتى اتبعوه هذا الاتباع، فبمثل هدي هؤلاء العقلاء إخواني فاهتدوا، ولآثارهم فاقتفوا ترشدوا، وتنصروا وتجبروا.

حدثنا أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد، قال:حدثنا الحسن بن علي، قال:حدثنا عمرو الناقد، قال:حدثنا يعقوب بن محمد، قال:حدثني أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، أن عائشة، قالت: إن أبا بكر t ، قال:«لست تاركا شيئا كان رسول الله r يعمل به إلا عملت به، وإني لأخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ» قال الشيخ: **هذا يا إخواني الصديق الأكبر يتخوف على نفسه الزيغ إن هو خالف شيئا من أمر نبيه r ، فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم وبأوامره، ويتباهون بمخالفته، ويسخرون بسنته**، نسأل الله عصمة من الزلل ونجاة من سوء العمل]ا.هـ.

الإقْبَال على البِدَع يُزَهِّدُ في هَدْي النبي r :

وإليك هذا النقل النفيس عن شيخ الإسلام ابن تيمية، يشخص فيه خطورة الإقبال على الأهواء والبدع، وأنها تورث العبد عدم تعظيم الحق وعدم اتباعه، بل ينغلق عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وينطمس عياذا بالله من الخذلان، فقال في اقتضاء الصراط المستقيم:[فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعْتَاضَ من غيره، بخلاف من صَرَفَ نَهْمَتَهُ وهِمَّتَهُ إلى المشروع، فإنه تَعْظُمُ محبته له ومنفعته به، ويتم دينه ويكمل إسلامه.

ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه؛ تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه، ومن أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها؛ لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة، ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم؛ لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير.]ا.هـ.

قوله:(لا يجوز): أي لا ينبغي أن يقع ذلك، إذ هو مناف تماما للإسلام الذي ينتسب إليه، وهذا دال على أن التلاعب بذلك، ناقض من نواقض الإسلام، وهو كذلك.

فالله جل وعلا جعل توحيده وطاعته، وطاعة رسوله، في تضادٍ تام مع محبة أعداءه وأعداء دينهم ورسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي مالك الأشجعي قال قال النبي r :"مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فبين أنه لن يُعصم الدم والمال إلا بتحقيق هذين الأمرين[١]:

١ - الإيمان بالله . **٢ - الكفر بالطاغوت.**

كما قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا}، والعروة الوثقى هي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) كما تقدم، ومفهوم الآية و لازمها، أن من زعم الإيمان بالله، ولا يريد أن يكفر بالطاغوت؛ فلم يعرف الإيمان، ولن تنفعه لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فائدة: لازم القول ثابت في الكتاب والسنة، وليس بثابت ولا لازم في كلام البشر.

إن استدلال المؤلف بهذه الآية، دال على عمق فهم المؤلف رحمه الله لحقائق التوحيد، فهذه الآية هي من أصرح الآيات في الكتاب العزيز، الدالة على المعنى المراد تقريره هنا، ومعنى الآية: أي لا يمكن بحال من الأحوال أن تجد أقواماً هذه صفتهم الإيمان بالله واليوم الآخر، وهم في نفس الوقت يوآدون الذين يحاربون الله ورسوله، أي هذان ضدان لا يجتمعان، كما أن الحوت والضب لا يجتمعان في مكان واحد.

وتذكر أن الذي قرر هذه الحقيقة هو الذي قال في كتابه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير} [الملك: ١٤].

---

١ - ويستثنى من ذلك، ثلاثة أصناف، وهم المستأمن، والمعاهد، والذمي، كما دلت على ذلك النصوص، والآثار المنقولة في ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا تَتْعَب فَلَن تَجد:

أي لا تبحث ولا تتعب نفسك فإنك لن تجد إيماناً ينفع صاحبه، مع كونه مقيما على عدم الكفر بالطاغوت،وإن زعم أنه مسلم، وإن ناداه الناس بذلك، فإنه في الحقيقة الشرعية والميزان الرباني، ليس بمؤمن، وإن صلى وصام وحج وفعل سائر العبادات والقربات حتى يكفر بالطاغوت، وفي صحيح مسلم قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ الله r مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ:"أَنَا نَبِيٌّ". فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ:"أَرْسَلَنِي اللهُ". فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ قَالَ:"أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ"...الحديث. فبين له r من أول وهلة حقيقة هذا الدين، وأنه ينبني على أنقاض الجاهلية، فإنما يقوم التوحيد على تحطيم الأصنام والأوثان والقضاء على الطواغيت، في القلوب وفي الواقع، فمن أراد أن يبحث عن قلب فيه إيمان وعدم كفر بالطاغوت، هو كالذي يبحث عن جذوة نار في البحر، كما قال قائلهم:

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

وهذه الحقيقة كان يعلمها حتى الكفار، فهذا أبو سفيان t قبل أن يسلم، وفد على هرقل، وجرى بينهما حوار وسؤال عن النبي r ومن معه، فكان مما قال هرقل لأبي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سفيان، كما في صحيح البخاري من حديث ابن عباس:"وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَّ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ".

فإذا عُلم هذا؛ عرفنا ما عليه كثير من الناس من الضلال العظيم، والجهل المبين بأصل الدين.

قوله:{يوادون}:أي يحبون، والمودة تكون في القلب، وتظهر آثارها في الجوارح وهو التَّوَدُّد، وأما الموالاة فتكون في الأعمال والأقوال، والتولي مرتبة أشد وأعظم، فهي المناصرة بالقول أو الفعل أو المال، وكل من التولي والموالاة فيهما حظ من المناصرة والمؤازرة، والمؤمن مطالب باجتناب ذلك كله؛ تحقيقا لعقيدة الولاء والبراء.

من أعظم مقاصد الجهاد:

وما شرع الجهاد في سبيل الله إلا لتقرير هذه المسألة العظيمة، فإن أقواما امتلأت قلوبهم إيماناً بالله واليوم الآخر؛ لابد أن تمتلئ بغضاً لأعداء الله والملة؛ مما يستلزم دعوتهم إلى التوحيد، فإن أبوا فالجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا فالسيف، إلا إن كانوا أهل عهد أو أمان، وكانوا ملتزمين بالشروط العمرية– التي سيأتي ذكرها لاحقا- فهؤلاء لابد من الوفاء لهم، وهذا الكلام كالخيال في هذا الزمان، ولكنه في نهاية المطاف هو دين الله تبارك وتعالى، وهذه هي ثوابت الإسلام وحقائقه، التي لا تقبل التغيير ولا التبديل، مهما كانت التكاليف، ومهما كان خلاف الواقع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والجهاد المعني في الإسلام هو جهاد الطلب، وجهاد الدفع، وقد أُمِرنا بكليهما، مهما استطعنا إلى ذلك سبيلا، فلابد أن ندافع الذين أشركوا ونافقوا وكفروا، فإن كان ثمة شوكة ظاهرة، أُمِرْنا أن نطلبهم حيث كانوا؛ حتى يكون الدين كله لله، قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَّ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الأنفال:٣٩-٤٠]، وقال: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩]، وغيرها من الآيات التي تتحدث عن ذلك.

وفي صحيح مسلم من حديث بريدة t قال: كان رسول الله r إذا أراد أن يبعث جيشاً أو سرية أوصاهم بتقوى الله ... إلى أن قال: "فإذا نزلت بساحتهم فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك أمسك عنهم، ادعهم إلى الإسلام ثم ادعهم إلى الجزية عن يد وهم صاغرون فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم".

وإن كان هذا مع الذين أشركوا ونافقوا، فإن هناك قدراً مع الذين ظلموا وفسقوا، باجتنابهم واعتزالهم حال باطلهم، مع دعوتهم، والنصح لهم، مع عدم الركون إليهم، ولابد من تجديد هذه المعاني في القلوب، فإن كثرة الإمْسَاسِ تُفْقِدُ الإحْسَاس، وهذا حقيقة الولاء والبراء، التي قامت على الحب في الله والبغض في الله، وفي الصحيحين من حديث أنس t عن النبي r قال: "ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"، وتأمل لترى أن مدار هذا الحديث عن الحب في الله والبغض في الله، فكل أجزاء الحديث تدور حول هذا المعنى الجليل، والعقيدة العظيمة.

اجتماع الحب والبغض في المسلم العاصي:

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة، أنه يجتمع في المرء المسلم، حب وبغض، فنحبه على قدر ما فيه من الطاعة، ونبغضه بقدر ما فيه من المعصية التي علمناها عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ تَجِبُ مُوَالَاتُهُ وَإِنْ ظَلَمَك وَاعْتَدَى عَلَيْك وَالْكَافِرُ تَجِبُ مُعَادَاتُهُ وَإِنْ أَعْطَاك وَأَحْسَنَ إلَيْك ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ فَيَكُونُ الْحُبُّ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْبُغْضُ لِأَعْدَائِهِ وَالْإِكْرَامُ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْإِهَانَةُ لِأَعْدَائِهِ وَالثَّوَابُ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْعِقَابُ لِأَعْدَائِهِ . وَإِذَا اجْتَمَعَ فِي الرَّجُلِ الْوَاحِدِ خَيْرٌ وَشَرٌّ وَفُجُورٌ وَطَاعَةٌ وَمَعْصِيَةٌ وَسُنَّةٌ وَبِدْعَةٌ : اسْتَحَقَّ مِنْ الْمُوَالَاةِ وَالثَّوَابِ بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْ الْخَيْرِ وَاسْتَحَقَّ مِنْ الْمُعَادَاتِ وَالْعِقَابِ بِحَسَبِ مَا فِيهِ مِنْ الشَّرِّ فَيَجْتَمِعُ فِي الشَّخْصِ الْوَاحِدِ مُوجِبَاتُ الْإِكْرَامِ وَالْإِهَانَةِ فَيَجْتَمِعُ لَهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا كَاللِّصِّ الْفَقِيرِ تُقْطَعُ يَدُهُ لِسَرِقَتِهِ وَيُعْطَى مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يَكْفِيهِ لِحَاجَتِهِ . هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَخَالَفَهُمْ الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَيْهِ فَلَمْ يَجْعَلُوا النَّاسَ لَا مُسْتَحِقًّا لِلثَّوَابِ فَقَطْ وَلَا مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَابِ فَقَطْ]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنت ترى فيمن حولك، وربما في نفسك خللا ما في تطبيق ذلك، فلنجاهد أنفسنا على ذلك.

الجَوْرُ في الميزان:

وهناك من تجده يبتسم في وجه العصاة ويلين معاشرتهم، في حين أنك تراه مقطب الجبين مُزْورّاً عن أهل الصلاح والخير، وهذا من الضلال والعياذ بالله، فكن على حذر من أن تقدم الفساق على الصالحين، فإن هذا من علامة ضعف الإيمان في القلب، فإذا كان بغضا لدين الصالحين، أو لصلاحهم؛ صار ردة عن الإسلام والعياذ بالله، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٩].

فلابد أن تكون كل محبة تابعة لمحبة الله ورسوله r ، هذا هو الأصل، وبهذا تتحدد العلاقات مع الآخرين، إقبالا وإدبارا، حبا وبغضا، ولاء وبراء.

ولهذا والله أعلم شُرِعَت قراءة سورتي الإخلاص والكافرون في فجر كل يوم في راتبة الفجر، كما في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة t ، أو قراءة الآية من سورة البقرة: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة:١٣٦]، وفي الأخرى الآية من آل عمران[1]: {فَلَمَّا

---

١ - وأما قراءة الآية من آل عمران: {قُلْ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .....الآية} فقد روى ذلك مسلم في صحيحه وأشار إلى شذوذها، وبين ذلك البيهقي في سننه الكبرى، حيث قال: أَخْبَرَنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢]؛ كما في صحيح مسلم من حديث ابن عباس t .

لكي تذكر نفسك كل صباح بهذه الحقيقة العظمى، التي لا يقوم الدين إلا بها، ولذلك شرعت في المجامع، وفي الحج والعمرة خلف المقام، شرع قراءة سورتي (الكافرون والإخلاص) أيضاً، لتذكر نفسك أن هذا الدين قام على هذه الحقيقة إيمانا بالله وكفرا بالطاغوت، وأن هذه هي الآصرة الحقيقية بين المسلمين كلهم، فبقدر ما يحقق العبد من الطاعة والاستقامة على هذين الأمرين بقدر ما يُحَب، وهكذا بالنسبة

عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ ح وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو الْوَلِيدِ الْفَقِيهُ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ قَالاَ حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ حَكِيمٍ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ يَسَارٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ r كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فِي الأُولَى مِنْهُمَا الآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) الآيَةَ كُلَّهَا وَفِي الآخِرَةِ (آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ قُتَيْبَةَ عَنْ مَرْوَانَ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْمُقْرِئُ أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الأَحْمَرُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ r يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) الآيَةَ وَفِي الثَّانِيَةِ (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ.**وَرَوَاهُ زُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ وَعِيسَى بْنُ يُونُسَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ نُمَيْرٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حَكِيمٍ بِمَعْنَى رِوَايَةِ مَرْوَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْفَزَارِيِّ.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للبغض، ولهذا أمرنا أن نفرغ وسعنا في محاربتنا لأعداء الله، وفي الحديث عن أنس t قال:قال رسول الله r :"جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"وإسناده صحيح على شرط مسلم[١].

فكل من حاد الله ورسوله؛ فهو لنا عدو، لو كان أقرب قريب ، وكل من أطاع الله ورسوله؛ فهو لنا حبيب، ولو كان في الهند والسند، فالقضية ليست قضية أراضي، أو حدود، أو أشكال وألوان، وإنما هو الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

إيمانا بالله العظيم، (دخولا في السلم كافة، وكفرا بالطاغوت) كل طاغوت.

ولهذا لما فقه الصحابة y هذه الحقيقة، لم يتورعوا عن قتل الآباء والأبناء، إذا لقوهم في ساحات القتال في خندق الطاغوت، يحاربون دين الله تبارك وتعالى.

وهان عليهم هجران العشيرة والقبيلة، وترك الأزواج والأموال، ابتغاء مرضات الله تعالى؛ فقامت فيهم حقيقة الدين،وتمثل في واقعهم أسمى معاني الكفر بالطاغوت؛ فأعلاهم الله تعالى ورفع شأنهم ورضي الله عنهم.

وتأمل فيما قاله عمر t في قصة الأُسَارَى، كما في حديث ابن عباس في صحيح مسلم:قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ الله r لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ:"مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاَءِ الأُسَارَى". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا نَبِيَّ الله هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ

١ - أخرجه أحمد وأبوداود وألنسائي والدارمي وأبو يعلى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فِدْيَةً فتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ". قُلْتُ لاَ وَالله يَا رَسُولَ الله مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ - نَسِيبًا لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا فَهَوِيَ رَسُولُ الله r مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ الله r وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ الله r :"أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ". شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ الله r . وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} إِلَى قَوْلِهِ"{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا} فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ".

وأنت مع من تَوَلَّيت:

واعلم رحمك الله تعالى، أن هناك أقواما أمْعَنُوا في تولي الذين كفروا، حتى صاروا منهم، بل ومن أشد الناس حبا لهم، وتوليا إياهم، وسعيا في مراضيهم، وتثبيتا لعروشهم، وهذا ما وقع فيه فئام من حكام الأرض اليوم، من المنافقين المنتسبين إلى الإسلام زورا وبهتانا، وإنما هم الدعاة على أبواب جهنم، حتى فتحوا السجون والمعتقلات لأولياء الله الصالحين، من العلماء الربانيين، والمجاهدين الصُّبُر الصادقين، والمنفقين المتقين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله رب العالمين، فساموهم العذاب الأليم، وشردوهم في الأرض، وملئوا الأرض ضجيجا من حولهم، تشويها وتنفيرا،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالزور والبهتان، إرضاء لأوليائهم الأمريكان، ومن جرى في ركابها من الغرب الكافر، بل فعلوا ما لم يكن في خلد أعداء الله تعالى، حتى صار الكفار إذا أرادوا أن يستخلصوا معلومة من أحد هؤلاء المجاهدين الثلاثة، عزَّ عليهم أخذها منه؛ أرسلوا به إلى سجون هؤلاء المنافقين المارقين، وسرعان ما تأتيهم الأخبار والمعلومات المتتابعة، بأدق تفاصيلها، بل وفوق ما كانوا يطلبون ويأملون، فأي إلحاد وتول لأعداء الله تعالى فوق هذا؟!!، والله تعالى يقول:{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة: ٥١].

وتأمل فيما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مع بعض حكام زمانه، وقارنه مع حكام اليوم؛ لترى البون الشاسع، والحكم الصائب، قال في (مجموع الفتاوى):[وَجَعَلَ غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُولُ لِي: أَتُخَالِفُ الْمَذَاهِبَ الْأَرْبَعَةَ فَقُلْت: أَنَا مَا قُلْت: إلَّا مَا يُوَافِقُ الْمَذَاهِبَ الْأَرْبَعَةَ، وَلَمْ يَحْكُمْ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْ الْحُكَّامِ إلَّا ابْنُ مَخْلُوفٍ وَأَنْتَ كُنْت ذَلِكَ الْيَوْمَ حَاضِرًا. وَقُلْت لَهُ أَنْتَ وَحْدَك تَحْكُمُ أَوْ أَنْتَ وَهَؤُلَاءِ. فَقَالَ: بَلْ أَنَا وَحْدِي فَقُلْت لَهُ: أَنْتَ خَصْمِي، فَكَيْفَ تَحْكُمُ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: كَذَا وَمَدَّ صَوْتَهُ وَانْزَوَى إلَى الزَّاوِيَةِ. وَقَالَ: قُمْ، قُمْ. فَأَقَامُونِي وَأَمَرُوا بِي إلَى الْحَبْسِ ثُمَّ جَعَلْت أَقُولُ: أَنَا وَإِخْوَتِي غَيْرَ مَرَّةٍ: أَنَا أَرْجِعُ وَأُجِيبُ وَإِنْ كُنْت أَنْتَ الْحَاكِمُ وَحْدَك. فَلَمْ يُقْبَلْ ذَلِكَ مِنِّي. فَلَمَّا ذَهَبُوا بِي إلَى الْحَبْسِ حَكَمَ بِمَا حَكَمَ بِهِ وَأَثْبَتَ مَا أَثْبَتَ وَأَمَرَ فِي الْكِتَابِ السُّلْطَانِيِّ بِمَا أَمَرَ بِهِ فَهَلْ يَقُولُ أَحَدٌ مِنْ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى دَعْ الْمُسْلِمِينَ إنَّ هَذَا حُبِسَ بِالشَّرْعِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ: شَرْعُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله. وَهَذَا مِمَّا يَعْلَمُ الصِّبْيَانُ الصِّغَارُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِشَرْعِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله. وَهَذَا الْحَاكِمُ هُوَ وَذَوُوه دَائِمًا يَقُولُونَ فَعَلْنَا مَا فَعَلْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِشَرْعِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله. وَهَذَا الْحُكْمُ مُخَالِفٌ لِشَرْعِ الله - الَّذِي أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ - مِنْ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ وَجْهًا. ثُمَّ النَّصَارَى فِي حَبْسٍ حَسَنٍ : يُشْرِكُونَ فِيهِ بِاَلله وَيَتَّخِذُونَ فِيهِ الْكَنَائِسَ فَيَا لَيْتَ حَبْسُنَا كَانَ مِنْ جِنْسِ حَبْسِ النَّصَارَى وَيَا لَيْتَنَا سُوِّينَا بِالْمُشْرِكِينَ وَعُبَّادِ الْأَوْثَانِ بَلْ لِأُولَئِكَ الْكَرَامَةُ وَلَنَا الْهَوَانُ . فَهَلْ يَقُولُ مَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِهَذَا. وَبِأَيِّ ذَنْبٍ حَبَسَ إِخْوَتِي فِي دِينِ الْإِسْلَامِ غَيْرَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ فُعِلَ بِالشَّرْعِ، فَقَدْ كَفَرَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ]ا.هـ.

قوله:{من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم}، هذا بيان من الله تبارك وتعالى، وأمر منه جل وعلا، ألا تكون بيننا وبين من أعلن الحرب على دين الله تبارك وتعالى أي مودة ، بل لابد أن نجاهرهم العداء، فنحن أحق بذلك منهم وأولى.

جاء في تفسير ابن كثير:[وقيل في قوله:{وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ} نزلت في أبي عبيده قتل أباه يوم بدر {أَوْ أَبْنَاءَهُمْ} في الصديق، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، {أَوْ إِخْوَانَهُمْ} في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} في عمر، قتل قريبا له يومئذ أيضًا، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، والله أعلم]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفوق ذلك هجرة الخليلين، إلى الله تعالى، والخليلان هما (إبراهيم ومحمد) عليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقد هجرا الديار والأهل وكل شيء ابتغاء مرضاة الله تعالى، وتغليبا لوشيجة محبة الله على محبة الأهل والأوطان، فقال تعالى في خليله إبراهيم r :{وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت:٢٦]، وقال:{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات:٩٩]، وقال في خليله محمد r :{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة:٤٠].

الولاء والبراء عند الكفار:

واعلم تولانا الله وإياك، أن للكفار ولاء وبراء في الطاغوت، والآيات واضحة في ذلك، فكيف أنت أيها المؤمن، أين وَلَاؤُكَ وبَرَاؤُكَ في الله جل جلاله؟!.

قال تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦]، وقال:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [سبأ:٣١]، وقال:{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر:٢٥]، وقال:{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر:٤٣-٤٥]، وقال:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنفال:٣٦]، وقال:{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف:١٢٧]، وقال:{فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [طه:٦٢-٦٤]، وقال:{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} [ص:٤-٧]، وقال:{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:٤٨-٤٩].

ومثل هذا كثير في القرآن العظيم، يقص الله تبارك وتعالى علينا، جمهرة الباطل وتحالفهم على إطفاء نور الله ولكن هيهات هيهات، قال تعالى:{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٢-٣٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأين نحن من ذلك عباد الله؟!، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟!، فلماذا هذا التَّخَاذُل، والمُدَاهَنَة؟!، وتأمل في قول الله تعالى: {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١١٩]. فهل من معتبر.

أنواع المحادة لله والرسول:

قوله:{من حاد الله ورسوله}: في ذلك عدة معاني:

١- قيل هو من استعمال الحديد، وهو السيف، وهذا أشد ما تكون العداوة، إذ يعمد أعداء الله ورسوله، إلى القتال؛ ليطفئوا نور الله.

٢- وقيل هو مأخوذ من الحَدّ، وذلك أن أعداء الله تعالى يتعصبون لباطلهم، ويتحزبون ويتناصرون، ويعقدون الولاء والبراء في ذلك، حتى يكونوا حَدّاً في مقابلة حَدَّ المؤمنين، وهذا هو المعروف بالمفاصلة، والمباينة.

٣- وقيل هو مأخوذ من التحدي، وهو إظهار العناد والمشاقة، والمجاهرة بالعداوة، والمحاولة الجادة لدحض الحق، والاستعلان بذلك، وإرهاب الفئة المؤمنة، وإسقاطها.

٤- وقيل هو مأخوذ من الاحْتِدَاد، وهو الإغلاظ في القول، ورفع الصوت، مع التَّعَنُّتِ، والصَّلَفِ والكِبْر.

والله تعالى يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة:٥-٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَبَعْدَ هذا أيها المسلم تحبهم، أو تحدث نفسك بذلك؟!، فاتق الله في إيمانك، واعلم أنه لن تقوم له قائمة، وأنت تواد أو توالي من هذه صفته، كُلّاً أو بعضا، فلتتق الله في إسلامنا، فإن الله تبارك وتعالى، وهبنا إياه دون أن نسأله، وحَمَّلَنا مسئولية المحافظة عليه، ثم أوصانا خيرا بأنفسنا، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران:١٠٢].

ومن أجمع الأبيات لهذه المعاني قول أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حَدِّه الحَدُّ بين الجِّد واللَّعب

قوله:{أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه}، أي ثبت الله الإيمان في قلوبهم، وهذا من شكر الله تعالى لعباده، فإن الله تعالى وعد من استمسك بشرعه، وشكر نعمة الله عليه بالمزيد، والنصر والتأييد، كما قال تعالى:{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، وقال:{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، ولا شك أن أعظم ذلك وأظهره أن يحفظ الله تعالى على عبده إيمانه حتى يوافي الله تعالى به، نسأل الله تعالى من فضله العظيم، كما قال تعالى:{يُثَبِّتُ اللهُّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُّ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُّ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جاء في تفسير ابن كثير:[أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته.وقال السدي:{كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ}، جعل في قلوبهم الإيمان.وقال ابن عباس:{ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ}، أي:قواهم]ا.هـ.

وفيه أن الكفر بالطاغوت من أعمال القلوب والجوارح، فالبغض بالقلب وهو جهاده، وهناك جهاد الجوارح كذلك، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو حقيقته، فأعظم منكر ينهى عنه، هو الكفر والشرك والنفاق، ثم يتدرج إلى آحاد الذنوب والمعاصي، وكما أن أعظم ما يؤمر به، هو التوحيد وطاعة الله ورسوله، ثم باقي الطاعات والقربات.

وهؤلاء لهم التأييد والنصر، والتمكين والفرج القريب من الله، في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فلا يخرجون منها أبد الآبدين نسأل الله من فضله، كما قال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر:٥١-٥٢]، وقال:{كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة:٢١]، وقال:{إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج:٣٨]، وقال:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات:١٧١-١٨٢].

وجاء في تفسير السعدي:[ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر، من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب، بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المَحَاب الجليلة، والمقامات النبيلة]ا.هـ.

وفوق ذلك كله يحل عليهم رضوان الله تبارك وتعالى، فإذا رضي الله عنك؛ فأبشر بكل خير، فليس الشأن أن يرضى عنك الناس، ولكن الشأن أن يرضى عنك رب الناس جل الله في علاه، فما يغنيك رضى الناس، وأنت عند الله وضيع، مغضوب عليك، واعلم أن أعظم رضى الله أن يكشف الحجاب عن وجهه سبحانه، فتراه مع المؤمنين عيانا في جنات النعيم، نسأل الله ألا يحرمنا ذلك بفضله ومنه وكرمه.

أعظم نعيم وأعظم عذاب:

كما أن أعظم عذاب أهل النار من الكفار، حِجَابُهم عن رؤية الله جل جلاله، فكذلك أعظم نعيم أهل الجنة، رؤيتهم الباري تبارك وتعالى، نسأل الله من فضله العظيم.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"إِنَّ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذَلِكَ قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا".

ثم يعطيهم أعظم من ذلك، كما في صحيح مسلم عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ r قَالَ:"إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ - قَالَ - فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ".

قوله:{أولئك حزب الله}: أي أنصار دينه، الذين تحزبوا، أي تجمعوا وتآزروا وتناصروا وتواثقوا، على القيام بدين الله تعالى، وتقديم الغالي والنفيس في سبيل ذلك، لا يقدمون على حق الله تعالى ونصرة رسوله، لا نفسا ولا مالا ولا تلدا، ولا أهلا ولا عشيرة، ولا شيئا، بل هو الله ورسوله قبل كل شيء.

قوله:{حزب الله}: أضافهم الله تبارك وتعالى إلى نفسه، إضافة التشريف والإكرام.

نَوْعَي الإضَافَة إلى الله تعالى:

واعلم وفقك الله، أن هذه الإضافة، هي من إضافة المخلوق إلى خالقه، لإفادة معنى الرفعة والمكانة، وهناك إضافة الصفة إلى المُتَّصِفِ بها، وقد وقع خلط بين الإضافتين عند بعض الطوائف المنحرفة، فصاروا إلى الحلول والاتحاد، أو التجهم والتعطيل، عياذا بالله من الزندقة، والإلحاد والكفر بالله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال ابن القيم في قصيدته النونية:[فصل: في التفريق بين ما يضاف إلى الرب تعالى من الأوصاف والأعيان]:

والله أخبر في الكتاب بأنه مُنْهُ ... ومجرور بِمِنْ نوعان
عين ووصف قائم بالعين كالـ ... أعيان خلق الخالق الرحمن
والوصف بالمجرور قام لأنه ... أولى به في عرف كل لسان
ونظير ذا أيضا سواء ما ... يضاف إليه من صفة ومن أعيان
فإضافة الأوصاف ثابتة لمن ... قامت به كإرادة الرحمن
وإضافة الأعيان ثابتة له ... ملكا وخلقا ما هما سِيَّان
فانظر إلى بيت الإله وعلمه ... لما أضيف كيف يفترقان
وكلامه كحياته وكعلمه ... في ذي الإضافة إذ هما وصفان
لكن نَاقَتَه وبيت إلهنا ... فكعبده أيضا هما ذاتان
فانظر إلى الجهمي لما فاته الـ ... حق المبين الواضح الفرقان
كان الجميع لديه بابا واحدا ... والصُّبح لَاحَ لمن له عينان

والخلاصة، أنه إذا ورد في السياق إضافة إلى الله تبارك وتعالى، فإن كانت من الأعيان فإنها من إضافة المخلوق إلى خالقه، وإن كانت من الأوصاف فهي من إضافة الصفة إلى صاحبها المتصف بها، وهو الله رب العالمين.

كقوله:{ناقة الله}، وقوله:{عبد الله} وقول:{وعباد الرحمن}، ونحو ذلك، فكلها من إضافة المخلوق إلى خالقه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قوله: {أنزله بعلمه}، وقوله: {ويدخلهم في رحمة منه وفضل}، وقوله: {كلام الله}، ونحو ذلك، فهذه كلها صفات لله تبارك وتعالى قائمة به جل الله في علاه.

وفي قوله: {حزب الله}: تذكير بما قضاه تعالى لهم من النصر والتمكين والعاقبة الحميدة، وفيه تَهْيِيجٌ للعباد أن يدخلوا في هذا الحزب، فإن له الغلبة والعلو، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٦]، وقال: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٣٩].

التَّحَزُّبُ على غَير الحق ضَيَاعٌ وهَلَكَةٌ:

كما أن في **قوله: {حزب الله}**، تذكيرا بوجود أحزاب أخرى، كما قال تعالى: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون:٥٣]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى الله ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام:١٥٩]، وقوله: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة:١٩].

وهذه الأحزاب كلها ليست على شيء، وعاقبتها إلى خبال وبوار، فإنما وليهم الشيطان، والله تعالى يقول: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان:٢٧-٢٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{المفلحون}: أي الفلاح حاصل متحقق لحزب الله، فمن أراد الفلاح فعليه بطاعة الله ورسوله والبراءة من كل من يُضَاد ذلك.

كما أن في قوله: {المفلحون}، تذكيرا بمفهوم المخالفة، إلى خسران وبوار من عداهم، وقد جمع الله بين الفريقين وميز بينهما تبارك وتعالى في مواضع من الذكر الحكيم، ومن أظهر ذلك قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم:٣٠-٣٢]، وقوله:{قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ} [القصص:١٧].

وقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ الله بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [القصص:٨٦-٨٨]، وقوله:{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم:٣٥-٤٢]، ومثل هذا كثير في آي الذكر الحكيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَحَبَّةُ الله هي المُحَرِّك:

وعلينا أن نتذكر دائما أن قضية الولاء والبراء، ومراغمة الأعداء، هي فرع عن محبة العبد لربه تبارك وتعالى، وتأمل في ما قاله العلامة ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:[ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه: أحدها قوله:{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة} سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغما يراغم به عدو الله وعدوه والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته كما قال تعالى:{ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين}.

وقال تعالى في مَثَلِ رسول الله وأتباعه:{ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار}.

فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له فموافقته فيها من كمال العبودية وشرع النبي للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال:"إن كانت صلاته تامة كانتا تُرْغِمان أنف الشيطان" وفي رواية:"تَرْغِيَا للشيطان"، وسماها المُرْغِمَتَين.

فمن تعبد الله بِمُرَاغَمَةِ عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بين الأخوة الإيمانية وأخوة النَّسَبِ والقَبيلَة والوَطَن:

فصل: في بيان أن الأخوة الإيمانية مقدمة أبدا على أخوة النسب والوطن والقبيلة والعشيرة، وهذا المقام من آكد ما يتعين بيانه ومعرفته، لاسيما في هذا الزمان، لكثرة الملبسين على المسلمين في ذلك، فلا يخفى أن هناك ممن ينسبون أنفسهم إلى العلم والمعرفة، يقولون بل وينادون بما يسمى بأخوة الوطن، بل وذهب بعضهم إلى ما هو أبعد من ذلك حيث ادعوا أن اليهود والنصارى إخوة لهم، عياذا بالله من الردة والكفر البواح الصراح، وربما إذا ضُيِّقَ عليهم في المقال وأنكر البعض قولهم الكفري الخبيث، قالوا: إنما أردنا أخوة الوطن والقبيلة، ثم يحتجون بآيات وردت في كتاب الله تعالى في هذا المعنى، كقوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} في موضعين، وقوله: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا} في موضعين، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ} [النمل:٤٥]، وقوله: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} في ثلاث مواضع، وقوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء:١٠٥-١٠٦]، وقوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء:١٦٠-١٦١].

وبيان ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن الشرع إذْ أثبت هذه الأخوة، بَيَّنَ أنها لم تنفع ولم تغن عن أصحابها شيئا لما تنكبوا صراط الله المستقيم، بل دَعَا عليهم أنبياؤهم الذين نعتهم الله تعالى بوصف الأخوة لهم في الآيات المتقدمة، وفي هذا تقرير واضح المعالم أن الأخوة الإيمانية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أعلى وأعظم من سائر الأُخُوَّات، وأنها متى عارضت الشرع طُرِحَت، ولم تبق لها قيمة عند تحقيق عقيدة الولاء والبراء.

قال تعالى عن نوح عليه السلام وقومه إذ دعا عليهم لما عارضوا دعوة الحق وثبتوا على الكفر والاستكبار في الأرض: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر:٩-١٦]، وقال: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء:١١٦-١٢١]، وقال: {قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} [المؤمنون:٢٦]، وقال: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [نوح:٢٦-٢٧].

وقال تعالى عمن جاء من بعد نوح من الأمم: {ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [المؤمنون:٣١-٤٤].

الوجه الثاني: أن مما ذكرت لأجله هذه الأخوة لبيان أن النبي يبعث في قومه، فهو منهم، وهذا أدعى للقبول لو كانوا يعقلون.

الوجه الثالث: قول الله تعالى: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة:١١-١٢].

الوجه الرابع: أن إثبات هذه الأخوة لا يعني أبدا إثبات الولاء لهم، ولا جعل ذلك معيارا لتقييم المواقف من العباد، **ولا يرفع عنهم مسمى الكفر والإشراك، بل لم يزالوا كافرين مشركين بالله تعالى**، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون} [الحجرات:١٣-١٥]، وقال:{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنفال:٥٥]، وقال:{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**} [المائدة:٥].

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله r جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ:"أَلاَ إِنَّ آلَ أَبِي- يَعْنِي فُلاَنًا - لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ". وفي لفظ للبخاري:"وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا يَعْنِي أَصِلُهَا بِصِلَتِهَا".

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} دَعَا رَسُولُ الله r قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ:"يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبهذه النصوص الواضحات، وغيرها في الكتاب والسنة؛ انهدم صنم كبير، يسعى في تعظيمه وإحيائه ونشره الطواغيت وأعوانهم، ألا وهو طاغوت المواطنة والوطنية، والتقارب الديني، والتعايش السلمي، القائم على مساواة المسلم بالكافر.

لطيفة واستنباط من قول الله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء:١٧٦-١٧٧].

فإن المتأمل في كتاب الله تعالى؛ يجد أن أخوة شعيب عليه السلام لقومه لم تذكر إلا إذا ذُكرت مدين، بخلاف ما إذا ذُكر أصحاب الأيكة.

وهذا يرجح أن قومه وعشيرته هم أهل مدين خاصة؛ ولهذا ذُكرت أُخوتُه لهم، بخلاف أصحاب الأيكة، وهذا يرجح أحد القولين، أنه عليه السلام بعث في قومه وهم مدين، وفي أقوام آخرين، فإذا ذُكر قومه خاصة؛ ذُكرت أخوة النسب والعشيرة، وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم تُذكر هذه الأخوة، ويؤيده الحديث الذي أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق بإسناده قال:[عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله r ذات يوم:"إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيب النبي r "، وقال قتادة: في قول الله عزّ وجلّ " وأصحاب الرّسّ " قال: قوم شعيب وقيل: إن الأيكة ومدين هما واحد. والله أعلم].ا.هـ.

قلت: وهذا الحديث فيه ضعف، وقد رجح بعضهم وقفه، وعلى كل فهو أولى من الرأي المجرد، وأوفق لظاهر القرآن. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}.[الذاريات:٥٦].وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ:يُوَحِّدُونِ، وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ:إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ، وَهُوَ:دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}[النساء:٣٥].

الشرح

قوله رحمه الله:(اعلم أرشدك الله لطاعته)، تقدم الكلام عن فائدة وتأثير الدعاء وإلقاء العلم بصيغة الأمر في شحذ الهمم وتفريغ الذهن لتلقي المأمور به.

قوله:(أرشدك الله لطاعته): الرشد:ضد الغواية والسَّفَه، وقد بين الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز حقيقة الرشد، فمن لم يتصف بما ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه، كان فيه حظ من الغواية والسفه، بقدر ما ترك من ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) }فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: ٥١-٦٧].

من هم وما هي صفات عباد الله الراشدين:

وإليك هذه الجملة من صفات عباد الله الراشدين، أن يكونوا قائمين لله بالتوحيد، داعيين إلى الله رب العالمين، يغضبون لحق الله تبارك وتعالى، ويسعون في اجتثاث الباطل مهما استطاعوا، إلى ذلك سبيلا، مع ثبات عظيم الشأن، وإعلان للبراءة، من الشرك والمشركين، مع التَّحَلِّي بالعلم والحلم، والمجادلة بالتي هي أحسن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل هذه الصفات، نعت الله بها عبده وخليله إبراهيم r الذي وصفه بأنه آتاه رشده.

وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَّ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات:٧].

وهذه صفات أخرى تضمنتها هذه الآية، لابد أن نسعى في التحلي بها لنكون من الراشدين، بحق وحقيقة، فإن هناك من يعظمه الناس وينسبونه إلى الحكمة والرَّشَد، وهو إلى السَّفَه ما هو، وإلى الطيش أقرب.

التحول من أبي الحكم إلى أبي الجهل:

واعتبر بحال أبي الحكم، فقد بَلَغَ من المنزلة عند قومه، أن نَعَتُوه بأنه أبو الحكمة، ولكن اكْتُشِفَ في نهاية الأمر أنه هو أبو الجهل والسَّفَه والطَّيْش، فلا تغتر بالألقاب والأوسمة البَرَّاقة، ومخادعة البشر وأحكامهم، والتفت إلى حكم الله وقوله، فإنه أصدق قيلا وأحسن حديثا، فلا تخادع نفسك.

كما أن الناس ربما نعتوا الفئة المؤمنة الصابرة الصادقة، بالطيش والتسرع، والسفه في الرأي، ولكن الحمد الله الذي قضى في المسألة بحكمه، وبَيَّنَ ما هو الرَّشَد، وكيف يكون، ومن هم أهله، والعكس كذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه الآية دالة على أن الراشدين هم الذين، يطيعون الله ورسوله، ويحبون الإيمان وأهله، ويكرهون الكفر وأهله، والفسوق بكل أنواعه، وكذلك يكرهون العصيان، فهؤلاء هم الراشدون عند الله تبارك وتعالى، بالموازين الربانية، لا بموازين البشر.

وتأمل في هذه الآية كيف جعل الله تعالى فيها التِّبْيَانَ والفَيْصَل بين الغواية والرشد، الاستمساك بالعورة الوثقى وتحقيقها، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦].

ثم ذكر الله تعالى بعدها، حال المؤمنين أصحاب العروة الوثقى، وحال الكافرين الذين تنكبوا صراطها، فقال سبحانه: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢٥٧].

ثم ضرب مثلا لِلمُسْتَمْسِكين بها بالخَليل إبراهيم r ، ولِلمُفَرِّطِين فيها، المُعَانِدِينَ لها بالنُّمْرُود، المُحَاجِّ إبراهيم في ربه، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٢٥٨]. فسبحان القائل عن كتابه: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:٤١-٤٢].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلف يعلمون أبناءهم ويُلَقِّنُونَهُم العقيدة:

وقد كان السلف يلقنون أبناءهم هذه العقيدة، التي تمثل العروة الوثقى، الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، كما في مصنف ابن أبي شيبة حدثنا حاتم بن إسماعيل عن جعفر عن أبيه قال كان علي بن الحسين يعلم ولده يقول قل:"**آمنت بالله وكفرت بالطاغوت**". وسنده جيد.

وهو يعكس لك عظيم عناية السلف بالعقيدة وسلامتها وتفقد الأهل فيها.

أنواع الهداية والإرشاد

والإرشاد، إما أن يكون إرشاد دلالة وبيان، وإما أن يكون إرشاد توفيق وإلهام، فالأول مما كلف الله جل وعلا به عباده الصالحين، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون والعلماء والدعاة والمصلحون، ومنه قوله تعالى:{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى:٥٢-٥٣]، وقوله:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:٤٣].

وأما الثاني، فخاص بالله جل وعلا، ومنه قوله تعالى:{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص:٥٦]، وقوله:{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران:٨].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا نفى الله تعالى هداية عبد لعبد مثله، فالمقصود النوع الثاني الذي اختص الله به، وهو إدخال الهداية إلى القلوب، وتثبيت العبد عليها، نسأل الله من فضله العظيم، وحيث أثبت الله تعالى الهداية للنبي r - ويدخل في ذلك تباعا العلماء والدعاة والمصلحون – فالمقصود بها هداية الدلالة إلى الحق، وبيانه والأمر به، والتحذير من الباطل وبيانه والنهي عنه.

ولهذا قال تعالى: {وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة:٤١]، وقوله: {وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٧٦]. نعوذ بالله من الخذلان.

وأعظم أنواع الرشد، الاهتداء إلى طاعة الله جل وعلا؛ ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام للخضر عليه الصلاة والسلام: { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً} [الكهف:٦٦].

وبهذا نَتَبَيَّنُ أن حقيقة الرشد طاعة الله جل وعلا، ولن تحصل الطاعة إلا بالعلم الصحيح، فمن تعلم وعمل فقد أطاع الله جل وعلا، إذ حقيقة الطاعة امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهي حقيقة العبودية، وهي حقيقة التقوى، ولن تكون عابدا بحق، ولا متقيا بحق، حتى تتعلم حدود ما أنزل الله على رسوله r ، إذ حقيقة التقوى فعل المأمور بعد العلم به، واجتناب المحظور بعد العلم به، وهي حقيقة العبادة كذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم رعاك الله، أن من أعظم ما تسأله الله تعالى، الرشد، كما قال تعالى مذكرا بذلك في سياق قصة الفِتْيَةِ أصحاب الكهف، إذ قال تعالى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [الكهف:١٠].

قوله:(إلى طاعته): خرج بذلك، المعصية، فإن العبد قد يستدرج، وتُزين له، فيقع في الورطة، واعتبر بقوله تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [البقرة: ٢١٢]، وقوله: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام:١٢٢]، وقوله: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة:٣٧]، وقوله: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر: ٨].

تعريف الحنيف:

قول المؤلف رحمة الله:(أن الحنيفية ملة إبراهيم): **الحنيف لغة**: هو المائل، يقال: رجل أنفه حنيف، وساقه أحنف: إي فيهما ميلان، جاء في لسان العرب:[(حنف) الحَنَفُ في القَدَمَينِ إقْبالُ كل واحدة منهما على الأُخرى بإبْهامها، وكذلك هو في الحافر في اليد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والرجل، وقيل هو ميل كل واحدة من الإبهامين على صاحبتها حتى يُرى شَخْصُ أَصلِها خارجاً، وقيل هو انقلاب القدم حتى يصير بَطنُها ظهرَها، وقيل ميل في صدْر القَدَم، وقد حَنِفَ حَنَفاً، ورجُل أَحْنَفُ، وامرأَة حَنْفاء، وبه سمي الأَحْنَفُ بن قَيْس، واسمه صخر؛ لِحَنَفٍ كان في رجله}ا.هـ.

واصطلاحا: هو المائل عن سبل الضلال إلى صراط الله المستقيم، وهذا هو المراد هنا، فالمقصود هنا العدول عن سبل الضلالة والغواية، إلى سبيل الهداية والرشد. قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:١٥٣].

وجاء في تفسير الطبري قوله:[وأما"الحنيف"، فإنه المستقيم من كل شيء. وقد قيل: إن الرجل الذي تقبل إحدى قدميه على الأخرى، إنما قيل له"أحنف"، نظرا له إلى السلامة، كما قيل للمهلكة من البلاد"المفازة"، بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة، وكما قيل لِلَّدِيغِ:"السليم"، تفاؤلا له بالسلامة من الهلاك، وما أشبه ذلك]ا.هـ. قلت:وقيل الحنيف:المخلص حكاه الطبري في تفسيره.

جاء في تاج العروس من جواهر القاموس:[والْحَنِيفُ، كأَمِيرٍ: الصَّحِيحُ الْمَيْلِ إِلى الإِسْلاَمِ، الثَّابِتُ عَلَيْهِ، وقال الراغِبُ: هو المائلُ إِلى الاسْتِقَامةِ. وقال الأَخْفَشُ: الحَنِيفُ: الْمُسْلِمُ، قال الجَوْهَرِيُّ:وقد سُمِّيَ الْمُسْتَقِيمُ بذلك، كما سُمِّيَ الغُرابُ أَعْوَرَ، وقيل:الحَنِيفُ هو الْمُخْلِصُ، وقيل:مَن أَسْلَمَ لأَمْرِ الله، ولم يَلْتَوِ في شَيْءٍ. وقال أَبو زَيْدٍ:الحَنِيفُ:الْمُسْتَقِيمُ، وأَنْشَدَ:(تَعَلَّمْ أَنْ سَيَهْدِيكُمْ إِلَيْنَا... طَرِيقٌ لاَ يَجُوزُ بِكُمْ حَنِيفُ)،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

.....إلى قوله:الحَنِيفُ: مَن كَانَ علَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وعلَى نَبِيِّنا وسَلَّمَ، في اسْتِقْبَالِ قِبْلَةِ البَيْتِ الحَرَامِ، وسُنَّةِ الاخْتِتَانِ. قال أَبو عُبَيْدَةَ:وكانَ عَبَدَةُ الأَوْثَانِ في الجاهِلِيَّةِ يقولون:نحنُ حُنَفَاءُ على دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فلَمَّا جاءَ الإِسلامُ سَمَّوُا المُسْلِمَ حَنِيفاً، وقال الأَخْفَشُ:وكان في الجاهِلِيَّةِ يُقَال:مَن اخْتَتَنَ، وحَجَّ البيتَ، قيل له:حَنِيفٌ، لأَنَّ العربَ لم تَتَمَسَّكْ في الجاهِلِيَّةِ بشَيْءٍ مِن دِينِ إِبْرَاهِيمَ غير الخِتانِ، وحَجِّ البيتِ، وقال الزَّجَّاجُ:الحَنِيفُ في الجاهِلِيَّة مَنْ كان يحُجُّ البيتَ، ويغْتَسِلُ مِن الجَنابَةِ، ويَخْتَتِنُ، فلمَّا جاءَ الإِسْلاَمُ كان الحَنِيفُ:المُسْلِمَ، لِعُدُولِه عن الشِّرْكِ]ا.هـ.

وجاء في لسان العرب:[وجمع الرّاكِع رُكَّع ورُكُوع، وكانت العرب في الجاهلية تسمي الحَنِيف راكعاً، إذا لم يَعْبُد الأَوثان، وتقول رَكَع إِلى الله، ومنه قول الشاعر إِلى رَبِّه رَبِّ البَرِيّةِ راكِع]ا.هـ. وبهذا نفهم أحد معاني قوله تعالى:

إبراهيم الخليل وإمامة الحنيفية:

وإنما أُضيفت الملة إلى إبراهيم عليه السلام؛ لأنه قام بحقيقتها في قومه، فنابذهم وحاورهم وجادلهم، ثم اعتزلهم،وكسّر أصنامهم، وسَفَّهَ أحلامهم، ووبخ عقولهم، ثم خرج مغاضباً لهم هجرةً إلى الله جل وعلا، لا يطلب سوى إقامة الدين، والبراءة من الشرك والمشركين، فصار علما عليها متصفا بها، فلا تُذْكَرُ إلا ويُذْكر معها، فصار عَلَماً عليها، وهاديا إليها، شكرا من الله تعالى له؛ لما قدمه في الانتصار لحق الله تعالى، وما قام به في جنب الله تعالى، متحملا ما يصيبه في ذلك، صابرا لله مقبلا غير مدبر r ؛ ولهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أوحى الله تبارك وتعالى إلى نبيه محمد r بقوله:{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل:١٢٣].

فإبراهيم r هو أبو الحنفاء، ومحمد r أمامهم ومُقَدَّمَهُم، فلهذه القَوْمَة العظيمة التي قام بها إبراهيم عليه السلام في قومه سماه الله حنيفاً.

ولما زعمت اليهود والنصارى أنهم على الحق ودعوا الناس إلى ذلك، أمر الله تعالى نبيه r وأصحابه أن يجيبوهم، بأنهم مستمسكون بملة الحنيف إبراهيم، الذي أنتم تنتسبون إليه زورا وبهتانا، أما نحن فنحققها قولا وعملا، كما قال تعالى:{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } [البقرة:١٣٥-١٣٩].

جاء في تاج العروس من جواهر القاموس:[وقال الزَّجَّاجُ في قَوْلِه تعالَى:{بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً} نَصَبَ: حَنِيفاً، عَلَى الحالِ، والمَعْنَى:بل نَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبراهِيمَ في حالِ حَنِيفِيَّتِهِ، ومعنى الحَنِفِيَّةِ في اللُّغَةِ:المَيْلُ، والمعنى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حَنِفَ إِلى دِينِ اللهِ، ودِينِ الإِسْلامِ].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقيقة ملة إبراهيم:

ثم اعلم رحمك الله، أن ملة إبراهيم، هي الأيمان بالله والكفر بالطاغوت، وتأمل في هذه الآيات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة:١ - ٤].

ثم اعلم بارك الله فيك، أن الإبداء والإعادة في هذا الشأن، أمر مهم ومفيد، ذلك لأن المتأمل في كتاب الله تبارك وتعالى؛ يجد أن الله تعالى أبدى فيه وأعاد، لأن أكثر الأمم إنما هلكت من هذا الباب، وطالما أن الشيطان يعقد ولاءاته في الضلال ويُكَثِّرُ أعوانه وأنصاره، ويُقْلِقُهم إلى ذلك، فلا تسأم أيها المسلم من ترداد هذه المسألة، بل اجعلها هُجَيِّرَاك، تسعى في نشرها وإظهارها، بقلمك، ولسانك، وحَدِّكَ وسِنَانِك، وتنفق في ذلك أنفس مَالِك، فإنما هو دين الله تبارك وتعالى، وهو الدين الذي لا نجاة، ولا عز،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا فلاح لك إلا به، ومهما سمعت بِدَرْسٍ في ذلك، أو حلقة تعليم في هذا الصَّدَد هنا أو هناك؛ فِطِرْ إليها كل مَطَار واصبر عليها، أيَّما صبر، فإنما هي قضيتك، ووظيفتك التي لأجلها خُلِقْت، ومَن أحَبَّ شيئا لم يسأم من ترداده، ولا تقل قد عَلِمْتُ، فالنسيان وارد، والغفلة ممكنة، والشيطان حاضر، ومكر الله قائم.

مسألة:فإن قال قائل: ألم يَقُم الأنبياء كلهم بهذه الحنيفية، فلم خُصَّ بها إبراهيم r ؟.

قيل: نعم، ولكن هم في ذلك درجات، فقد رفع الله جل وعلا بعض النبيين على بعض، كما قال تعالى:{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} [البقرة:٢٥٣] ، وإنما خُصَّ إبراهيم بالذكر هنا؛ لأن كفار مكة، واليهود والنصارى، كلهم كانوا ينتسبون إليه،ويقولون هم على دين إبراهيم، فبين الله كذبهم، وأنهم لا يعرفون من ملة إبراهيم شيئاً مما تكون به النجاة ويحققون به التوحيد، ثم جَلَّاها الله في كتابه، وعلى لسان نبيه r ؛ ليظهر الصادق من الكاذب.

قوله:(أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين): العبادة:اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة.

وهذا من أجمع التعاريف وأشملها، وهو ما قاله ابن تيمية رحمه الله. وستأتي تعريفات أخرى إن شاء الله تعالى.

قوله:(وحده): لأن من العباد من يعبد الله ويعبد معه غيره. فدل على ضرورة إفراد الله بذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:(مخلصاً): لأن من العباد من يعبد الله وحده، ولكنه لا يخلص في عمله، فالإخلاص هو استنقاذ العمل من كل ما يشوبه، لا سيما ما يكون سببا في بطلانه، وهو الشرك ونواقض الإسلام الأخرى، قال تعالى:{إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر:٤٠]، وفي القراءة السَّبْعِيَّة:{ الْمُخْلِصِينَ} بكسر اللام، وبذلك نعلم يقينا أنه لا خلاص بدون إخلاص، وأن السلامة والنجاة في الإخلاص، كما قال تعالى:{كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف:٢٤].

قوله:(له الدِّين):لأن من العباد من يعبد الله وحده، ويخلص في تلك العبادة لربه،لكنه لا يذل وينقاد لأمر الله ورسوله، وهو الدِّينُ المَعْنِيُّ هنا، فهو على غير سبيل، بل يعبد الله على جهل، واتباع هوى، فجاء المؤلف بقوله:(الدين) ليبين أن الذل والانقياد لابد أن يكون على هدي الأنبياء والمرسلين، لا بالهوى، وكل أمة بحسب نبيها، ولهذا لو أن يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً وحَّدَ الله، وصلى لله مخلصاً، ولكنه دان بغير شريعة محمد r ، ولم يَذِلَّ لدين النبي r وينقاد له، فهذا مشرك بالله كافر، كما تقدم.

ولهذا قال تعالى:{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:٣١-٣٢].

قوله:(وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها): أي بهذه الحنيفية ولها، والتي هي عبادة الله والكفر بالطاغوت، فمن تعبد الله بعبادات ولم يكفر بالطاغوت فليس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمسلم، ومن كفر بالطاغوت ولم يعبد الله؛ فليس بمسلم،وأمة النبي r كلها، أعني أمة الدعوة، كلها مخاطبة بهذا الأمر، فمن امتثل كان من أمة الإجابة، وإلا كان من الخالدين في النار.

قوله:(وخلقهم لها): أي لا غاية من خلق الخلق وراء ذلك، فإذا قيل لك لماذا خُلِقْتَ؟، فقل: لأعبد الله، فإذا قيل وكيف تعبد الله؟، فقل بتحقيق الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

فأعظم أمْرٍ أمَرَ الله به التوحيد، وأعظم نهي نهى الله عنه الشرك، وإذا قرأت القرآن بترتيب المصحف العثماني الذي بين أيدينا، وجدت أن أول أمر في سورة البقرة، هو الأمر بالتوحيد، وأول نهي هو النهي عن الشرك، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢١-٢٢].

قوله:(كما قال تعالى:{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون})، الخلق المراد به في هذه الآية الإيجاد من العدم. وقد يأتي بمعنى التقدير، كما في قوله تعالى:{فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون:١٤].

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان):[وقوله في هذه الآية:{أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} أي الْمُقَدِّرِين، والعرب تطلق الخَلْقَ وتُرِيدُ التَّقْدِير. ومنه قول زهير:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولأنت تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْـ ... ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي

فقولـه:يخلـق ثـم لا يفـري: أي يُقَـدِّرُ الأمـر، ثـم لا يُنْفِـذُهُ لِعَجْـزِهِ عنـه، كـما هـو معلوم]ا.هـ.

قوله:{الجن}، خَلْقٌ خُلِقُوا من النَّار من لهبها، وهو مَارِجُها، وسُمُّوا بـذلك؛ لأنهـم يَسْتَجِنُّونَ عن الأنظار، أي يسترون، ومنه قوله r :"والصيام جُنة"أي ستر ودرع بـين العبد وعذاب ربه، وقد خُلِقُوا قبل الإنـس؛ ولهـذا قُـدِّموا في هـذه الآيـة، والله أعلـم، والدليل قوله تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْـنُونٍ (٢٦) وَالْجَـانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} [الحجر:٢٦-٢٧].

قوله {الإنس}: هم بنو آدم ذكوراً وإناثاً، وقد تطلق كلمة الناس ويدخل فيها الجـن كذلك، كقوله تعـالى:{ الَّـذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُـدُورِ النَّـاسِ (٥) مِـنَ الْجِنَّـةِ وَالنَّـاسِ} [الناس:٥- ٦]، قال ابن كثير في تفسيره:[وقوله:{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُـدُورِ النَّـاسِ} هل يختص هذا ببني آدم -كما هو الظاهر -أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبا.وقال ابن جرير:وقد استعمل فيهم(رجَالٌ منَ الجنَ) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم.

وقوله:{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}، هل هـو تفصـيل لقولـه:{الَّـذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُـدُورِ النَّاسِ} ثم بينهم فقال:{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} وهذا يقوي القول الثاني. وقيل قوله:{مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْجِنَّـةِ وَالنَّـاسِ} تفسـير للـذي يُوسـوس في صـدور النـاس، مـن شـياطين الإنـس والجن]ا.هـ.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ الله r :"خُلِقَـتِ الْمَلاَئِكَـةُ مِـنْ نُـورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ".

قوله:{إلا}: أداة حصر.**وقولـه:{ليعبـدوا}** هـذا هـو المَحْصُـور، والـلام للتعليـل، والمعنى، خَلْقُكُم مُحْصُور في هذه الوظيفة، فهي الغاية من الخلق.

كثير من الكتاب والمثقفين يجهلون حقيقة التوحيد:

قوله:{إلا ليعبدون}، أي إفراد الله تعالى بجميع أنواع التوحيد، وبعض من لا علـم عنده بحقائق التوحيد، يُعَرِّفُ العبادة بأنها معرفة الله بأفعاله، وهذا موجود في كثير مـن الكتب، فعندهم إذا عرف العبد أن الله هو الخالق الرازق المحيـي المميـت؛ فقـد حقـق العبودية لله، وليت شعري أكان يجهل أبو جهل هذا الأمر، أو كان يجحده؟!، كلا والله، بل كان أكثرهم يقر بذلك.

ولكن كثيرا من هؤلاء الكُتَّاب يجهلون، حقائق التوحيـد ولـيس عنـدهم التعظـيم الحقيقي لحق الله تبارك وتعالى؛ ولهذا من عظيم جهلهم، أنهم يقولون إن التوحيد يفرق النَّاس، ويحدث الفتن؛ فيجب ألا نتكلم عن الشرك وفروعه، بل نبدأ بـذكر عظمـة الله جل وعلا، ثم الناس يفهمون التوحيد وحدهم، وهـذا جهـل عظـيم بـدعوة الأنبيـاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمرسلين، فما من نبي بعثه الله تعالى، إلا جاء ليقول لقومه:{اعبدوا الله مالكم من إله غيره}، فخاطبوهم ابتداء بتوحيد الألوهية، وفيه وقعت أكثر الخصومة.

لا يرجون لله وقَارَا:

وهناك أحزاب، وطوائف، وطرق، وعلماء ودعاة، لا يرجون لحق الله وقارا، يعظمون سلامة الدنيا، ولو بتعطيل حق الله جل وعلا، فتراهم تواطأت كلمتهم، مع تفرقهم في الأمصار، على أن الدعوة إلى التوحيد الخالص، وبيان الشرك وحقائقه، وتحذير الناس منه، مَدْعَاة للفتنة، وسبب لفرقة المسلمين، وتشتيت جهودهم،وأن الواجب جمع الكلمة وتوحيد الصف -لا توحيد الرَّب-، وليت شعري، أي فتنة أعظم من الشرك، وأي اجتماع متوهم هذا، بعيدا عن التوحيد الخالص، هذه حرب دَاحِس والغَبْرَاء، شَاهِدَةٌ على فساد تصوراتكم، حرب ضَرُوس، دَامَت سنين، بين الأوس والخزرج، على فَرَس، ولما جاءت دعوة التوحيد، التي بعث بها النبي r ، اجتمعت قلوبهم، وتآلفت، وصاروا إخوة في الله متحابين بجلاله، كما قال تعالى:{وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال:٦٢-٦٣]، وقال:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران:١٠٢-١٠٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولنعلم أن كل اجتماع قام على غير تحقيق التوحيد، فإنه صائر إلى فُرْقَة، وعما قليل ستعلمون، وانظر إلى حال الأمة، اليوم كم فيها من الآلام والجراحات، وما ذلك إلا لأنها ضيعت حق الله تعالى، ظنا منها أنها ستقيم دنياها بذلك، فضيعهم الله تعالى، وسلط بعضهم على بعض، فحكمهم الطواغيت بالطاغوت، فلم يلتفتوا إلى ذلك، حتى إذا ارتفعت الأسعار، وضاقت المعايش؛ ضجوا، وتجمهروا، وتعاركوا، وتقاتلوا مع هؤلاء الطواغيت، فإذا أعطوهم ما يرضيهم من فتات هذه الدنيا؛ عادوا إلى بيوتهم، وكأن شيئا لم يكن، هذا وحق الله مُضَيَّعٌ مُسْتَخَفٌ به[1].

وبلاد أخرى، فيها من الاختلاف العقدي الشيء العظيم، مما لا يمكن وجوده من مسلم أصلا، ومع ذلك ترى أكثر الناس لا يَلْوُون على ذلك، بل المهم عندهم أن تبقى العلاقات حسنة، بين أفراد المجتمع الواحد، وأما حق الله تعالى فليذهب، {لكم دينكم ولي دين}، هكذا يفهمون القرآن على أهوائهم، لتمرير المجاملات والمحافظة على اللُّحْمَة الوطنية، والنسيج الاجتماعي، زعموا، ثم ما يلبثون أن تنكشف الحقائق، وتظهر المُخَبَّئات؛ فيهجم عليهم أصحاب العقائد الفاسدة، ويَسَومُونَهم العذاب والنكال الشديد، ويقع الاحْتِراب، وترتفع معدلات القتلى إلى أعلى مستوياتها، وكأنها حرب عالمية، وعندها تفيق الأمة، وتكتشف أن هؤلاء كانوا أعداء لها، والآن يعلمون

---

١ - وتذكر ما جرى في تونس ومصر وليبيا واليمن، في حكم الطواغيت ابن علي وحسني ومعمر وعلي. والدور على البقية آت لا محالة. بإذن الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقينا، أن عَدُوَّ عقيدتك، هو عَدُوٌّ أصِيلٌ لك[١]، وأنك وإن رضيت به وعنه، فإنه لا يرضى بك ولا عنك،{هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ}[آل عمران:١١٩]. هكذا تعيش الأمة أيام خداعها لأنفسها، {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩]، والله تعالى يقول:{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا}[النساء:٤٥].

ودول رفعت شعار الشريعة، ثم تنكرت له، وأخرى رفعته ثم نَكَلَت عنه، زاعمة أن ذلك يحافظ لها على ملكها، وما علمت أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:٢٦].

وأخرى تنتسب إلى حركة إسلامية لما مُكِّن لها، ولكن بسبيل خبيثة، ألا وهي الديمقراطية المأفونة الفاجرة الكافرة، تمادت في غيها، ونادت باحترام الحريات، ومساواة الجميع كفارا ومسلمين، فاليهودي والنصراني والمسلم، عندهم سواء في جميع الحقوق والواجبات، كل هذا بدعوى درء الفتنة، وتجاوز الحرب الطائفية، وما يسمى بالحروب الأهلية، وما علموا أن الله تعالى أبدا قضى، أن الأمن والأمان، لا يكون إلا بتطبيق شرعه، وإقامة حقه، وإلا فإنما هو الخوف والهرج والتخبط، فهؤلاء إنما يجرون

١ - واعتبر بما جرى في العراق بين الرافضة وأهل السنة،وما يجري في سوريا، بين النصيرية وأهل السنة، وما جرى في لبنان بين الرافضة والدروز من جهة وأهل السنة من جهة أخرى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وراء سراب، قال الله تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥]، أفرضي هؤلاء لأنفسهم صفة والكفر والفسوق، عياذا بالله من الخذلان.

يا هؤلاء جميعا، اعلموا أنكم عبثا تحاولون، ووراء سراب تهرولون، وعن خيال تبحثون، فاعلموا أنه أبدا لن يكون، أمن ولا أمان، ولا رغد ولا استقرار، إلا بالتوحيد الخالص، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]، وقال: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف:٩٦-١٠٢].

فكل اجتماع على غير التوحيد؛ فإلى فرقة وشتات،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكل تفرق لأجل إقامة التوحيد؛ فأهله إلى عِزٍّ ونَصَرٍ وتَمْكِين.

إن الأمر في غاية الوضوح في كتاب الله تعالى، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل هؤلاء ما قرؤوا القرآن؟، أم قرؤوه وهم عنه غافلون؟، أم له معاندون؟، أم به مكذبون؟!!.

القرآن والسلطان يقتتلان:

وتأملوا أيها الناس - لاسيما من وَلِيَ من الأمر شيئا– سؤال سلمان الفارسي **t** لزيد بن صوحان، وانظروا في حالكم، ففي مصنف ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق طارق بن شهاب قال: قال سَلْمان لِزَيد بن صُوحَان:(كيف أنت إذا **اقتتل القرآن والسلطان؟)** قال: إذاً **أكون مع القرآن**، قال:**(نعم الزَّيْدُ إذاً أنت)**.

وفيه أيضا من طريق عامر بن مطر بسند قوي قال:كنت مع حذيفة فقال:(كيف أنت يا عامر بن مطر، **إذا أخذ الناس طريقا والقرآن طريقا، مع أيهما تكون؟)** فقلت: **مع القرآن، أحيا معه أو أموت، (**قال:**فأنت إذا)**.

وفي متن كتاب الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة لابن بطة العكبري (ص:١٥٤):[وَقَالَ اَلْحَسَنُ:(سَيَأْتِي أُمَرَاءُ يَدْعُونَ اَلنَّاسَ إِلَى مُخَالَفَةِ اَلسُّنَّةِ فَتُطِيعُهُمْ اَلرَّعِيَّةُ خَوْفًا عَلَى ذَهَابِ دُنْيَاهُمْ فَعِنْدَهَا سَلَبَهُمْ اَللَّهُ اَلْإِيمَانَ وَأَوْرَثَهُمْ اَلْفَقْرَ وَنَزَعَ مِنْهُمْ اَلصَّبْرَ وَلَمْ يَأْجُرْهُمْ عَلَيْهِ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ:(إِذَا خَالَفَ اَلسُّلْطَانُ اَلسُّنَّةَ وَقَالَتْ اَلرَّعِيَّةُ قَدْ أُمِرْنَا بِطَاعَتِهِ أَسْكَنَ اَللهُ قُلُوبَهُمْ اَلشَّكَّ وأَوْرَثَهُمْ اَلتَّطَاعُنَ)].ا.هـ.

أَنَّى تُنْصَرُون؟!:

أتظن الأمة أنها تضيع حق الله تبارك وتعالى، ويُقِيمُ اللهُ تعالى لها دُنْيَاهَا، على أحسن ما يكون؟!.

هيهات هيهات، فإنها سنة الله التي لا تحابي أحدا، قال تعالى:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود:١٠٢-١٠٣].

واعتبر بحال أهل الكتاب من قبلنا،- فإن هذه الأمة أشبه الأمم بهم-، لما خالفوا شرع الله تعالى واستكبروا على أمره، وعادوا رسله والحق الذي جاؤوا به، وحاربوا أولياءه وضيقوا عليهم وكادوا لهم؛ ضرب الله عليهم الذلة والصاغر، وصاروا إلى ما ذكر الله تعالى عنهم في كتابه، والنبي r في سنته، حتى إن أهل الجاهلية الذين لا كتاب لهم، كانوا يذلونهم ويقهرونهم، ويغلبونهم في الحروب ونحوها، كما قال تعالى:{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [البقرة:٦١]، وقوله:{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [آل عمران:١١٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَأَمَّا مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَنْ الْيَهُودِ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْصَرُونَ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ شَاذٌّ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ الْآثَارِ الْمَعْرُوفَةِ فِي هَذَا الْبَابِ فَإِنَّ الْيَهُودَ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّهَا غَلَبَتْ الْعَرَبَ بَلْ كَانُوا مَغْلُوبِينَ مَعَهُمْ وَكَانُوا يُحَالِفُونَ الْعَرَبَ فَيُحَالِفُ كُلُّ فَرِيقٍ فَرِيقًا كَمَا كَانَتْ قُرَيْظَةُ حُلَفَاءَ الْأَوْسِ وَكَانَتْ النَّضِيرُ حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ . وَأَمَّا كَوْنُ الْيَهُودِ كَانُوا يَنْتَصِرُونَ عَلَى الْعَرَبِ فَهَذَا لَا يُعْرَفُ بَلْ الْمَعْرُوفُ خِلَافُهُ وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}. فَالْيَهُودُ - مِنْ حِينِ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ - لَمْ يَكُونُوا بِمُجَرَّدِهِمْ يَنْتَصِرُونَ لَا عَلَى الْعَرَبِ وَلَا غَيْرِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَ حُلَفَائِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَالذِّلَّةُ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ حِينِ بُعِثَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَذَّبُوهُ]ا.هـ.

جماعة التبليغ في ميزان السُّنَّة:

وآخرون يخرجون – زعموا – لتبليغ دين الله تعالى، تسموا بـ (جماعة التبليغ)، بعضهم أربعة أيام، وبعضهم أسبوعا، وبعضهم أربعة أشهر، فيجوبون الأمصار،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقطعون الفيافي والقفار، ثم يقدمون للناس فضائل الأعمال، ويُـأَمِّنُونَ عـلى مـا عنـد الناس من صالح الأعمال، ولا ينهونهم عن المنكـرات التـي تلبسـوا بهـا، وأمـا دعـوة التوحيد عندهم فإنها رسم بلا أثر، وحبر عـلى ورق، فيجعلـون مـن أصـولهم (تحقيـق الكلمة الطيبة)، وهم من أبعد الناس عن الدعوة إليها بل هم كغيرهم، ممن ذكرنـا مـن قبل، يرون أن الدعوة إلى التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، يرون ذلك فتنة وتَكَلُّـماً في أمراض الأمة، وهذا ممنوع في دعوتهم البَتَّة، ومتى ما شعروا بأحد الخـارجين يـتكلم في هذا الموضوع، سارعوا إلى احتوائه بعد أن يفرغ، لتعديل قناعاته، فإن تعذر علـيهم، تركوه وابتعدوا عنه، فلن يخرج معهم وهو على هذه الوتيرة أبدا، وكثير منهم في معظـم البلدان صوفية، وبعضـهم ديوبنديـة، وهـم عـلى اسـتعداد تـام أن ينزلـوا في مسـاجد الضِّرَار، التي بُنِيَت على القبور، وتمارس فيهـا الأعـمال الشركيـة مـن عبـادة للأوليـاء وأصحاب القبور، وفوق ذلك لا يَنْبِسُونَ بِبِنْتِ شَفَةٍ عن التوحيد، وبيان ما عليه هؤلاء من الشـرك بالله رب العالمين، ومع ذلك يزعمون أنهم ما خرجوا في سبيل الله - زعموا – إلا رحمة للعباد، فأين الرحمة يا هؤلاء؟!!، إن الله تعالى سـمى نبيـه r رحمـة؛ لأن الله تعالى أرسله بالتوحيد الخالص؛ ليخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، فلم يبدأ بشـيء قبل ذلك، فيا سبحان الله، أَنَنْتَسِبُ إلى الرحمة المهداة r ، ونحـن نخالفـه في أصل دعوته؟!!، الله المستعان.

على جرأة فيهم عجيبة، فهم يجوبون الأمصار، ويعترفون بـأنهم ليسـوا بعلـماء، ولا طلبة علم، ومن العجائب أن عامة الطوائف لديها علماء بارزون إلا هـذه الجماعـة، فيـا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبحان الله لا علم، ولا دعوة للتوحيد، فعلام تخرجون إذاً؟!!. لا حول ولا قوة إلا بالله.

وآخرون من أهل العلم، لا يكادون يتكلمون عن التوحيد، ويقول أحدهم:إن سُئِلْت أجبت، وإلا فلا. سبحان الله ما هذا التلبيس، وما هذا الضياع.

قال الله تعالى:{وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}[آل عمران:١٨٧].

وقال:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:١٥٩٠-١٦٠].

فهل من توبة نصوح، وصدق مع الأمة في حق ربها تبارك وتعالى، قبل حلول الأجل.

وبهذا نعلم يقينا أن الله تبارك وتعالى عندما يأمرنا بإقامة حقه، وإظهار ذلك، وعدم تقديم شيء عليه البتة، إضافة إلى أنه هو حقه الواجب علينا القيام به، فكذلك لأنه تبارك وتعالى إنما يريد بذلك رحمتنا، والإحسان إلينا، كما قال تعالى:{وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء:٢٧-٢٩].

فيا دعاة الإسلام، ارحموا الأمة، بالتوحيد الخالص، لا تقدموا على التوحيد شيئا، فإن فعلتم فاعلموا أنكم تُخَادِعُونَ الأُمَّةَ وتَخْدَعُونَها، وتَغُشُّونها، وتُهَيِّئُونَها لأسباب العذاب، وأشد النكال، فراجعوا أمر ربكم، واعملوا بهدي نبيكم r ، الذي بُعِثَ في أقوام، بل في عَالَم، يَعُجُّ بالضلالات والانحرافات، وألوان الاحْـتِراب، فـإنما هـي شريعـة الغَـاب، القوي فيها يأكل الضعيف، فلم يُعَرِّج على شيء من ذلك، قبل حق الله تبـارك وتعـالى، وشكى منه قومه، ورَمَوْهُ بأنه يدعو إلى الفتنة، والتفريق بين الـزوج وزوجتـه، والوالـد وولده، والرجل وعشيرته، فلم يلتفت إلى ذلك، بل مضى لله صابرا محتسبا؛ لعلمه بـداء الأمة ودوائها، فداؤها الحقيقي الشـرك بالله تعالى، ولا دواء لها سـوى تحقيـق التوحيـد الخالص لله رب العالمين لا شريك له، وإن وقعت تضحيات وجراحات، وإن سُـفِكَت دماء، وذَهَبت مُقَدَّرَات، ولكن العاقبة للمتقين، والنتائج حميدة.

حيلة شيطانية: إسقاط العالم لإسقاط دعوته:

واعلم رحمك الله تعالى، أن أعداء دعوة التوحيد يسـعون جاهـدين في تشـويه هـذه الدعوة، من خلال إسقاط دعاتهـا، ومحاربـة أئمتهـا، حتـى إذا وصـموهم بالعظـائم، ورموهم بالقبائح؛ نفروا الناس عنهم؛ لينفروا تباعا لـذلك عـن دعـوة التوحيـد التـي يحملونها، ويسعون في تبليغها وإقامتها، وهذه طريقة المشركين منذ القدم، كـما قـرر الله تبارك وتعالى ذلك في آيات متكاثرة من الذكر الحكيم، فمنها ما قاله قوم نوح لنوح عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلام: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} [الشعراء:١١١]، وقال قوم هود عن هود عليه السلام: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [هود:٥٤]، وقال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: {وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [الأعراف:٩٠]، وقال عن فرعون في تنفيره عن موسى عليه السلام: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر:٢٦]، وقال: {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} [الشعراء:٢٧]، وقال المشركون عن نبينا عليه الصلاة والسلام: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الحجر:٦-٧]، وقال: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} [القلم:٥١]، ونحو ذلك.

وإلى يومنا هذا يستعمل أعداء التوحيد هذه الشِّنْشِنَةِ الشيطانية، فترى كثيرا منهم يطعن في دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية، ودعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ويرمونها بالعظائم وأسوء الأوصاف، تنفيرا للناس عن الدين الحق والصراط المستقيم، حتى إنهم يقولون عن كل من دعا إلى التوحيد بأنه (وهابي) أو (حشوي) أو (مجسمة) أو (خامسي)؛ ليربطوا دعوة التوحيد بهذه المسميات ونحوها، والتي سبق أن ربطوها مثلا في هذا الزمان بالشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، الذي شوهوه عند اتباعهم، فصارت شعارا عند هؤلاء المشركين لدى أتباعهم، فما أن يتكلم أحد بالتوحيد الخالص، ويدعو إليه؛ حتى يقولوا عنه (وهابي) وكذا وكذا مما تقدم؛ ليكون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك كافيا تماما؛ لينفر الأتباع ويفروا من هذا الداعية، الـذي يـدعو إلى إقامـة حـق الله تبارك وتعالى.

وكأن هذا التوحيد الذي تكلم به هؤلاء الأئمـة، وهـذا الداعيـة أو ذاك، هـو ملـك لأحد دون غيره، وما علموا أن هذه هي دعوة الأنبياء والمرسلين، ولكـن المفسـدين في الأرض يبغونها عوجا، ويصدون عن سبيل الله تعالى، فالله المستعان.

ولخطورة هذا الكيد والمكر الكبار، جرى التنبيه والتحـذير، عافانـا الله وإيـاكم مـن ذلك.

فلنسع جادين جاهدين في تبين هذه الحقيقة للناس؛ لإبطال هذا الكيد والمكر الكبار، مقررين أن هذا التوحيد ليس ملكا لأحد، بل هو دين الله تعالى في أرضه، وهو حـق الله تعالى على عباده، بغض النظر عمن تكلم به، فلا نربطه بأشخاص، بل علينا أن نعـرض ما يطرح من الدعوات على كتاب الله تعالى وسنة رسوله r على هدي وطريقة وسـبيل الصحابة الكرام y، فنقبل ما يوافقها ونرد ما سواها.

ولنعلم أن عامة المشركين، كانوا يُقِرُّونَ بكثير من توحيد الربوبية، إلا القليل مـنهم، ومع ذلك لم ينتفعوا من ذلك بشـيء وحكـم الله علـيهم بـالكفر والشـرك، وأحـبط أعمالهم، كـما قـال تعـالى: {وَقَـدِمْنَا إِلَى مَـا عَمِلُـوا مِـنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنَـاهُ هَبَـاءً مَنْثُـورًا} [الفرقان:٢٣]، وقال: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِـكَ الَّـذِينَ كَفَـرُوا بِآيَـاتِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف:١٠٣-١٠٦].

ولقد وقعت أشد الخصومات في توحيد الألوهية، كما قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمر:٣٨].

فلنعلم أنه لن يغني عن العباد شيئا، أن يعظموا خالقهم بأفعاله، وهم يصرفون العبادة إلى غيره.

تنبيه: الخلل في المشركين حاصل في جميع أنواع التوحيد، ولكن بنسب متفاوتة، ومن أقبح الخطأ ما يتصوره البعض من أن مشركي العرب كان شركهم فقط في الألوهية، وأنهم كانوا موحدين في الربوبية لا خلل عندهم في ذلك، فإن هذا القول لا دليل عليه، بل الأدلة قامت على خلافه، قال تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس:٧٨-٧٩]، وقال: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [التغابن:٧]، وقال: {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:٤٩-٥٢]، وقال:{وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف:١٨٠]. إلى غير ذلك من الأدلة.

وقد أورث هذا الفهم الخاطئ للتوحيد والخلل فيه خطأ آخر أقبح وأشنع، حيث حصر أقوام الشرك في نوع واحد وهو توحيد الألوهية، وقللوا من غيره من جهة الوقوع في الكفر وتنزيل الأحكام على الأعيان، كما سيأتي بيانه، والسبب في هذا الخلل ما يوجد في بعض كتب أهل العلم لاسيما المتأخرين، عندما يقررون أن الخصومة بين الرسل وأعدائهم إنما وقعت في توحيد الألوهية، ولأجله بعثت الرسل ولأجله سُلَّت سيوف الجهاد، مع إغفال تام لأنواع التوحيد الأخرى، التي لا تَقِلُّ شأنا عن توحيد الألوهية بل العلاقة كما سيأتي متلازمة.

نعم كان أكثر الخصومة في توحيد الألوهية، ولكن الخلل حاصل في توحيد الربوبية، بل كونهم ما قدروا الله حق قدره هو الذي قادهم إلى تعطيل حقه تبارك وتعالى، فلما عَظُمَ غَيْرُه سبحانه وتعالى في قلوبهم وأنظارهم؛ صرفوا إليهم العبادة من دون الله تعالى، قال تعالى:{وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُّ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُّ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام:٩١]، وقال:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَّ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج:٧٣-٧٤]، وقال:{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَّ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر:٦٥-٦٧].

ولهذا جاء القرآن ليعالج الخلل في جميع أنواع التوحيد معا؛ لسد كل ثغرة؛ والإجابة على كل تساؤل وسؤال، فالشيطان عدو مبين، يسعى جاهدا في التلبيس والتدليس، عياذا بالله منه.

قال المؤلف:(ومعنى يعبدون يوحدون): هذا هو أحد تعريفات العبادة الواردة عن الأئمة وقد تقدم تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال كما في مجموع الفتاوى:[الْعِبَادَةُ: هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُّ وَيَرْضَاهُ : مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ]ا.هـ.

وعرفها بعضهم: بأنها فعل المأمور وترك المحظور، أي إلا لآمرهم فيمتثلوا، وأنهاهم فينتهوا، أو نحو ذلك.

وعرفها ابن كثير في تفسيره فقال:[وفي الشرع:**عبارة عما يَجْمَعُ كَمَالَ المَحَبَّةِ والخُضُوع والخَوْف**]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعرفها ابن القيم: بغاية الحب مع غاية الخضوع والذل، فقال في نونيته:

وعبـادة الرحمـن غايـة حبـه ... مـع ذل عـابـده همـا قُطْبـان
وعليهـما فَلَكُ العبـادة دَائِـر ... مـا دَارَ حتى قَـامَت القُطبـان
ومَـدَارُه بالأمْـرِ أَمْرِ رسـوله ... لا بالهـوى والنفس والشيطان
فقيـام ديـن الله بالإخـلاص ... والإحســان إنهمـا له أصلان
لم يَنْجُ من غضب الإله ونَارِه ... إلا الذي قـامت به الأصْـلَان
والناس بعد فَمُشْرِكٌ بإلاهِـه ... أو ذُو ابْتِدَاع أو لَهُ الوَصْفَــان
والله لا يرضـى بكثرة فعلنا ... لكِـنْ بأحْسَـنِهِ مـع الإيمـــان
فالعارفون مُرَادُهُم إحْسَانُه ... والجَاهلون عَمُوا عن الإحسان

وجاء في تفسير القرطبي، جملة من الأقـوال، أذكرهـا باختصـار غـير مخـل إن شـاء الله:[وقيل: {إلا ليعبدون} أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعا أو كرها، رواه عـلي ابـن أبي طلحة عن ابن عباس. وعـن مجاهـد: إلا ليعرفـوني.وعـن مجاهـد أيضـا: إلا لآمُـرهم وأنهاهم.وعن الكلبي:إلا ليوحدون، فأما المـؤمن فيوحـده في الشـدة والرخـاء، وأمـا الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخـاء، يـدل عليـه قولـه تعـالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الـدين} الآيـة.وقـال عكرمـة:إلا ليعبـدون ويطيعـون فأثيـب العلبـد وأعاقـب الجاحـد.وقيـل: المعنـى إلا لأسـتعبدهم.والمعنـى متقارب، تقول:عبد بين العبودة والعبودية، وأصل العبودية الخضوع والـذل.والتعبيـد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التذليل، يقال:طريق معبد.والعبادة:الطاعة، والتعبد التنسك.فمعنى (ليعبدون) ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا]ا.هـ..

وأما في لغة العرب فتدور على خمسة معان:أحدها:الخضوع، والثاني:الذل، ومنه قولهم طريق معبد أي مذلل، والثالث:الطاعة، والرابع: ملكة اليمين، والخامس:النُسُك أو التَّنَسُّك، والنَّاسِكُ هو العابد.

والملاحظ أن تعريف العبادة لغة وشرعا فيهما تقارب وتداخل، وإليك هذه النقولات من بعض كتب اللغة الدالة على هذا المعنى:

جاء في لسان العرب جمعتها من مواضع متقاربة من الكتاب:[العبد الإِنسان حرّاً كان أَو رقيقاً يُذْهَبُ بذلك إِلى أَنه مربوب لباريه جل وعز] [والعَبْدِيَّةِ وأَصل العُبودِيَّة الخُضوع والتذلُّل] [والعابد المُوَحِّدُ].

[وقال الزجاج في قوله تعالى:{وما خلقتُ الجنّ والإِنس إِلا ليعبدون} المعنى ما خلقتهم إِلا لأَدعوهم إِلى عبادتي وأَنا مريد للعبادة منهم وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ممن يكفر به ولو كان خلقهم ليجبرهم على العبادة لكانوا كلهم عُبَّاداً مؤمنين].

قال الأَزهري وهذا قول أَهل السنَّة والجماعة] [وتَعَبَّدَ اللهُ العَبْدَ بالطاعة أَي استعبده] [والتَّعَبُّدُ التَّنَسُّكُ والعِبادَةُ الطاعة] [ومعنى العبادةِ في اللغة الطاعةُ مع الخُضُوعِ ومنه طريقٌ مُعَبَّدٌ إِذا كان مذللاً بكثرة الوطءِ].ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في كتاب:(الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي):[والنسك العبادة، والناسك العابد الذي يخلص عبادة الله ولا يشرك به، وأصله من النسيكة، وهي النقرة المذابة المصفاة من كل خلط، والنسيكة أيضا القربان الذي يتقرب به إلى الله تعالى، وجمعها نسك]ا.هـ.

وجاء في كتاب:(التعريفات) للجرجاني قال:[العبادة:هو فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه]ا.هـ.

وجاء في كتاب:(التوقيف على مهمات التعاريف):[العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه، وقيل تعظيم الله وامتثال أوامره، وقيل هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض]ا.هـ.

قوله:(وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّركُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ)، تقدم الحديث عن هذه الجمل والمعاني، وكما تقدم معنا، فلأن هذا المقام عظيم فإن الإبداء فيه والإعادة، أمر مهم ومطلوب دائما.

وهنا يذكر المؤلف بتعريف التوحيد، وأنه مرادف لمعنى العبادة، فقد دل عليها مطابقة والتزاما واشتمالا.

وفي هذا التذكير بالرد على من يجتزئون العبادة ويختزلونها، في قوالب معينة؛ ليقدموها بطريقة معينة؛ ليأخذوا منها ما يَرُوقُ لهم، وذلك كما تقدم في أحوال بعض الطرق والأحزاب، وبعض الدعاة والعلماء، مع دعوة التوحيد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأدلة على إطلاق لفظة (التوحيد) على معنى تحقيق العبودية لله تعالى:

ففي حديث ابن عباس المخرج في الصحيحين، جاء في أحد طرقه في صحيح البخاري ذكر التوحيد مكان (شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ) وما ذلك إلا لأنها هي كلمة التوحيد، وهي معنى تحقيق العبادة لله الواحد القهار.فعن ابن عباس قال لما بعث النبي r معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له:"إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن **يوحدوا الله تعالى** فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم.....الحديث"، وقد تقدم.

كما أفاد هذا الخبر ورود التسمية بالتوحيد لفظا، كما دلت على ذلك الشهادتان معنى، وقد جاءت أخبار وآثار في ذلك، واستعملها السلف بلا أنى تردد لا نكير، كما في صحيح مسلم في ذكر جابر t لقصة حجة النبي r في الحديث الطويل، وفيه قال:(فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ r فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللهِ r بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ وَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ **فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ**:"لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ". وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللهِ r عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْهُ وَلَزِمَ رَسُولُ اللهِ r تَلْبِيَتَهُ...الحديث).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء في سنن أبي داود في نفس سياق خبر جابر t ، في ذكر الركعتين خلف المقام، حيث سميت سورة الإخلاص بالتوحيد:[وَأَدْرَجَ فِي الْحَدِيثِ عِنْدَ قَوْلِهِ (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) قَالَ فَقَرَأَ فِيهَا بِالتَّوْحِيدِ وَ (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)]ا.هـ.

وقال البخاري في صحيحه :[كتاب التوحيد. باب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ r أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى]ا.هـ.

وفي سنن الترمذي عن جابر قال: قال رسول الله r :"يعذب ناس من **أهل التوحيد** في النار حتى يكونوا فيها حمما ثم تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة قال فترش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل ثم يدخلون الجنة"، قال: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن جابر.ا.هـ.

وجاء في سنن الترمذي:[وروى محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي r قال:"من قتل نفسه بسم عذب في نار جهنم"، ولم يذكر فيه :"خالدا مخلدا فيها أبدا"، وهكذا رواه الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي r ، وهذا أصح؛ لأن الروايات إنما تجيء بأن **أهل التوحيد** يعذبون في النار ثم يخرجون منها، ولم يذكر أنهم يخلدون فيها]ا.هـ.

وفي سنن الترمذي أيضا:[باب ما جاء أن للنار نفسين وما ذكر من يخرج من النار **من أهل التوحيد**]ا.هـ.

وفي سنن الدارمي أخبرنا إبراهيم بن إسحاق عن بن المبارك عن الأوزاعي قال:[قال إبليس لأوليائه: من أي شيء تأتون بني آدم فقالوا من كل شيء قال فهل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تأتونهم من قبل الاستغفار فقالوا هيهات ذاك شيء قرن **التوحيد** قال لأُثَنَّ فيهم شيئا لا يستغفرون الله منه قال فبث فيهم الأهواء]ا.هـ. قلت:وسنده جيد.

وفي مصنف ابن أبي شيبة بسند جيد عَنْ إبْرَاهِيمَ، قَالَ : إذَا أَشَارَ الرَّجُلُ بِإِصْبَعِهِ فِي الصَّلاَة فَهُوَ حَسَنٌ وَهُوَ التَّوْحِيدُ.ا.هـ.

وفيه أيضا بسند جيد أيضا عَنْ إبْرَاهِيمَ فِي السَّبِيِّ يُسْبَى مِنْ أَرْضِ الْعَدُو ، وَقَالَ : إذَا أَقَرَّ **بِالتَّوْحِيدِ** وَبِالشَّهَادَتَيْنِ صُلِّيَ عَلَيْهِ.ا.هـ.

وفي مصنف عبد الرزاق بسند جيد عن قتادة في قوله :{واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا} يقول سل أهل الكتاب أكانت الرسل تأتيهم **بالتوحيد** أكانت تأتيهم بالإخلاص.ا.هـ.

ومثل هذا كثير جدا، ولو ذهبت أستقصيه؛ لطال الأمر جدا، وفيما ذكرت كفاية للمنصف، وإنما قررت ذلك؛ لأن هناك بعض الجهلاء ادعى أن إطلاق كلمة التوحيد على معنى تحقيق العبودية لله تعالى، هو استعمال حادث لا دليل عليه، ولولا أنه جهل قد قيل، ويخشى أن يعرض على الناس فيقبل، في زمان كثر فيه اتباع الهوى، والحانقين على التوحيد؛ لما قررت ذلك؛ لأنه واضح المعالم في الأدلة الشرعية، وإطلاقات الصحابة والسلف الصالح **y**.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن قوله:(وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ.... وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّـركُ): دال على أن المأمورات والمَنْهِيات درجات، وأنه لا شيء أعظم من الأمر بالتوحيد، ولا شيء آكد من النهي عن الشرك، والمعنى فاحذر أن تقدم على ذلك شيئا؛ فتكون من الظالمين.

وقوله:(وَهُوَ:دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ): بيان لما تقدم، من تساوي العباد في هذا الباب، إذ هذا مقام انتصار لحق الخالق تبارك وتعالى، وإنه لمن السَّفَه والطَّيش، أن يقوم العبـد مـدافعا عن حق المخلوق بالافتئات على حق الخالق تبارك وتعالى، وذلـك لأن بعـض الجهـلاء المفتونين، يظنون أن في قول أهل التوحيد:**[إنه لا يجوز صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى، حتى وإن كان هو سيد الأولين والآخرين محمد r ، وأن هـذا الفعـل شرك أكـبر وذنب لا يغفر]**؛ فيظن هذا المسكين، أن في ذلك تَنَقُّصاً لِقَدْرِ النبي **r** ، وما علم هذا أن هذا من إكرام النبي **r** غاية الإكرام، فإنه ما بعث إلا لبيان حق الله تعالى، وأنه لا يجـوز المساس به أبدا، وبهذا بُعِثت جميع الرسل وأنزلت الكتب.

لا للألفاظ المُوهِمَة في مقام التوحيد:

وهكذا كان الأنبياء والمرسلون يغضبون لربهم تبارك وتعالى، إذا أحسوا، أو سمعوا أحدا يَرْمِي إلى رفعهم إلى مقام الخالق تبارك وتعالى، كما في صحيح البخاري من حديث الرُّبيع بنت معوذ بن عفراء قالت:جاء النبـي **r** فـدخل حـين بُنِـيَ عَـلَيَّ فجلـس عـلى فراشي، كمجلسك مني، فجعلت جُوَيْرِيَاتٌ لنَا يَضْرِبْنَ بالدف، ويَنْدُبْنَ مَـنْ قُتِـلَ مِـنْ آبَائِي يَومَ بَدْر، إذ قالت إحداهن: وفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ ما فِي غَدٍ، فقـال:"دَعِـيْ هَـذَا وقُـولِي بِالذِي كُنْتِ تَقُولِين".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتأمل كيف زَجَرَها النبي r ، لَمَا تَعَدَّتْ على حق الله تبارك وتعالى، بالكلام المُوهِم؛ لأن التَّعْمِيم هنا باطل قطعاً، فَذَبَّ النبي r عن حق ربه تبارك وتعالى، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة، إن شاء الله تعالى.

وفي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ومثله قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢].

قوله:(والدليل قوله تعالى:{واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً}): كما تقدم معنا، القاعدة تقول:إن النكرة إذا جاءت في سياق النهي فإنها تفيد العموم، و{شيئاً} هنا نكرة جاءت في الآية في جملة متضمنة للنهي؛ فأفادت العموم، أي لا تشركوا به، لا شركا أصغر ولا أكبر، فالشرك كله مذموم.

مسألة: هل يَغْفِرُ الله تعالى الشرك الأصغر؟:

وهل يغفر الله الشرك الأصغر، أو لا يغفره، على قولين لأهل العلم، إلا أن المقطوع به أن الله تعالى لا يغفر الشرك الأكبر إلا بالتوبة.

والخلاف مبني على معنى قوله تعالى: {إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:٤٨]، مع أن الظاهر أنها في الشرك الأكبر. والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والذين قالوا، بأنه لا يغفر، لا يعنون أن صاحبه مخلد في النار، كأصحاب الشرك الأكبر، وإنما يقولون لابد له من دخول النار، وهم يقولون إن آية النساء عامة، في الأكبر والأصغر، وأن كل أنواع الشرك لا يغفر، إلا بالتوبة النصوح منه. والعلم عند الله تعالى.

واعلم رحمك الله تعالى، أن الأدلة كثيرة على قبول توبة المشرك - ما لم تأت العلامات التي لا تُقبل معها التوبة -، وسيأتي ذكرها، فمن هذه الآيات، قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:٥٤]، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} [النساء:٦٤]، وقوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة:٦٤-٦٦]، وقوله: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة:٧٢-٧٤].

وفي قوله:{وَاعْبُدُواْ اللهَّ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً}، بيان وتأكيد لمقام التوحيد، وتنبيه إلى أن العبادة إن خالطها الشرك فسدت، وأحبطت غيرها من العمل، كما أن الآية، دالة على أن البعض قد يعبد الله تعالى ولكنه واقع في الشرك في مقام آخر، وهذا كقوله تعالى:{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف:١٠٦].

فالحذر الحذر، فالأمر عظيم والخطب جسيم، نسأل الله تعالى لنا ولكم العافية والسلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

* الأصل الأول *معرفة الرب: فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟.

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢]. وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

الشرح

قوله:(فإذا قيل لك ما الأصول الثلاثة التي يجب على العبد معرفتها فقل معرفة العبد ربه ودينه ونبيه r): شرع المؤلف في تفصيل ما أجمل من قبل، لما ذكر المسائل الأربع، فقال في المسألة الأولى العلم وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخذ الآن في تفصيل هذه الجمل، إذ بمعرفتها وضبطها، والعمل بمقتضاها؛ نجاة العبد، وسعادته في الدنيا والدار الآخرة، وإنما سماها أصولاً؛ لأن الأصل: هو ما ينبني عليه غيره، وذلك لكي يُبين أنه لا غنى للعبد عن معرفة هذه الأصول الثلاثة، فمعرفة الرب أصل في الإيمان والعبودية، ومعرفة الدين أصل في الذل والطاعة، ومعرفة النبي r أصل في تحقيق المتابعة والانقياد، فمن عرف ربه ولم يعرف دين الله؛ كان من الهالكين، ومن عرف ربه، ولم يعرف رسوله فهو كذلك.

المعَلِّم الرَّبَاني: وفي ذكره للأصول، أولا نصحا منه للمتعلم وللأمة، فإن العالم الرباني، إنما يبدأ بالأصول قبل الفروع، وبالأهم قبل المهم، وهكذا، قال تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران:٧٩]، وهذا أحد معاني الربانية.

وفي وقوله:(الثلاثة)، تذكير بأهميتها على قلة عددها، فإياك أن تَمَلَّ من تعلمها، والعمل بها، فإنها هي قضيتك ووظيفتك التي وكلت بها، وأمرت بها.

قال المؤلف:(فإذا قيل لك من ربك): **هذا** تذكير بأن العبد سيسأل ولابد عن هذه الأصول الثلاثة، وهذا السؤال قد يقع للعبد في هذه الحياة من بعض العباد، إما للتعليم أو للامتحان، أو نحو ذلك، ولكنه قطعا ولابد أنه سيقع بعد الممات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن أسئلة القبر الثلاثة أولها:(من ربك)، وتلاحظون أن هذه الأصول الثلاثة هي أسئلة القبر بعينها، فالمؤلف رحمه الله يريدك أن تتعلمها اليوم رحمة منه بك، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، وَلَاتَ حِينَ مَنْدَم

.أسئلة سَهْلَةٌ والمُجِيبُونَ عنها قَليل:

ولكن الذي يجب أن يُعْلَم، وألا يغيب عن الذهن أبدا، أنه لن يجيب على هذه الأسئلة في القبر، إلا من كان عارفاً بها، عاملاً بمقتضاها قبل الموت، فإن الإجابة هناك إنما هي إجابة علم وعمل، لا إجابة معرفة وحفظ، فلو كان العبد لديه أعلى الشهادات، أو كان من أعلم الناس بهذه الأصول، في هذه الحياة الدنيا، ولو كان أحفظ أهل زمانه وأتقنهم، وهو لم يعمل بمقتضاها، ولم يحقق معناها ولوازمها؛ فإنه لن يستطع أن يجيب على هذه الأسئلة في القبر.

فمع سهولتها، إلا أنها ممتنعة على المتخذين دينهم لهوا ولعبا وهزوا.

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وغيره١، وقال فيه البيهقي رحمه الله:هذا حديث صحيح الإسناد عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ r فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ

١ -عزاه السيوطي في جامع الأحاديث(٧/ ٣٨٤) إلى: أبي داود الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، وابن منيع، والرويانى، وهناد بن السرى في الزهد، وابن خزيمة، وأبو عوانة، وابن منده فى كتاب الإيمان، والحاكم، والبيهقى فى شعب الإيمان وصححه، والضياء. قلت:وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه.وقال ابن منده:هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت على رسم الجماعة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ الله r وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ:"اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ:"إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ الله وَرِضْوَانٍ قَالَ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَالَ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى قَالَ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِيَ الْإِسْلَامُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ الله r فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا عِلْمُك فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْجَنَّةِ قَالَ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ قَالَ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي قَالَ وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ الله وَغَضَبٍ قَالَ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله r :{لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ:{وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُك الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ رَبِّ لَا تُقِمْ السَّاعَةَ".

وفي الصحيحين عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا قَالَتْ أَتَيْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ r حِينَ خَسَفَتْ الشَّمْسُ فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ يُصَلُّونَ وَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ تُصَلِّي فَقُلْتُ مَا لِلنَّاسِ فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَتْ سُبْحَانَ اللهِ فَقُلْتُ آيَةٌ فَأَشَارَتْ أَيْ نَعَمْ قَالَتْ فَقُمْتُ حَتَّى تَجَلَّانِي الْغَشْيُ فَجَعَلْتُ أَصُبُّ فَوْقَ رَأْسِي الْمَاءَ فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ r حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ مَا مِنْ شَيْءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ أَوْ قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ لَا أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ يُؤْتَى أَحَدُكُمْ فَيُقَالُ لَهُ مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُوقِنُ لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ r جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا وَاتَّبَعْنَا فَيُقَالُ لَهُ نَمْ صَالِحًا فَقَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ لَا أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ".

شؤوم التقليد والتعصب الأعمى:

وفي هذه الأحاديث إشارة إلى شؤم التقليد في العقيدة، وأنها رزية على العبد، وذلك عندما يسأل في قبره فيقول:(ها ها لا أدري)، فإذا عُلم هذا؛ عرفنا معنى قول المؤلف رحمه الله، (التي يجب على الإنسان معرفتها) إذ أن الجهل بها، و التقليد الأعمى فيها، لا ينجي صاحبه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(فإذا قيل لك من ربك؟)، بدأ المؤلف بالتفصيل، في الأصل الأول؛ لأنه الأعلى والأهم، وفي هذا أيضا أسلوب تربوي جميل،كما تقدم معنا،وهو أسلوب التعليم بطرح السؤال، وهذا الأسلوب مستعمل في الكتاب والسنة، كقوله تعالى:{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لله} [الأنعام:١٢]، وقوله:{ءإله مع الله}، ومن السنة قوله r لمعاذ:"أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله، وقد تقدم تخريجه، وفي صحيح مسلم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله r :"يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ". قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ:"يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ"، قَالَ قُلْتُ:{اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ:"وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ"، وشواهد هذا كثيرة من الكتاب والسنة.

وإنما تعظم الأسئلة بعظمة المسئول عنه، وعليه فلا سؤال أعظم من السؤال عن الرب تبارك وتعالى، ورسوله وشرعه، إذ لا شيء أعظم ولا أكبر من الله جل جلاله.

قال المؤلف:(فقل ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه – وفي بعض النسخ بنعمته -) التربية هي العناية، وإصلاح حال المُرَبَّى، والقيام على مصالحه، وبيان ما ينفعه ويضره، والله تبارك وتعالى،فعل ذلك بعباده جل الله في علاه، فله الحمد والشكر، والفضل والمنة، فقد ربى عباده بنوعين من أنواع التربية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نوعي التربية:

النوع الأول: رباهم بأن علمهم وألهمهم ما يكون به أسباب معاشهم في الحياة الدنيا، وتكون هذه التربية مرادفة في المعنى للهداية العامة، كما قال جل وعلا: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} [طه:٥٠-٥١].

ويدخل فيها عناية الرب تبارك وتعالى، بعباده قبل ولادتهم، وهم في أرحام أمهاتهم، إذ هيأ لهم الغذاء في الأرحام، وحفظهم حتى خرجوا إلى الحياة الدنيا.

ويدخل في هذا جميع العالمين، إنسهم وجِنِّهم، والهوام والدواب والسباع، فهي تربية عامة شاملة للخلائق، منذ لحظات الحياة الأولى، بل وقبل ذلك.

فَمَن الذي أَلْهَمَ الرَّضِيعَ، أن يَلْتَقِمَ ثَدْيَ أُمِّهِ، لِأَوَّلِ لحظات حياته؟!، إنه الله الذي علمه ما لم يكن يعلم.

وهذا النوع من التربية، لا مزية فيه لمخلوق عن مخلوق، فالكل يشتركون في ذلك، وليس في ذلك عنصر يتفاضلون به،إلا من جهة طيب المطعم، كما تقدم، ولهذا كان المعول في التفاضل على التربية الثانية.

النوع الثاني: التربية بالهداية والتوفيق:وهذه من أعظم نوعي التربية، وبها يتمايز العباد ويتفاضلون، وهي مرادفة لقوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم}، وهي مرادفة للتقوى، ومرادفة لمعنى الإرشاد المتقدم تقريره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكثير من العباد همته مصروفة إلى تربية الأبدان، ولو بخراب القلوب، والعياذ بالله، وفي مثل هذا يقول الناظم:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران

انهض إلى الروح واستكمل فضائلها ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

قال المؤلف:(وهو معبودي ليس لي معبود سواه): تقدم تقرير ذلك في بيان قوله تعالى:{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، إذ حَرَّمَ الله جل وعلا، أن يُعبَد غيره، وبَيَّنَ أن هذا من أعظم الظلم، إذ كيف يخلق خلقاً، ويربيهم بنعمه، ثم يشكرون سواه ويعبدون غيره، ما أعظم هذا اللؤم، والله تعالى يقول:{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠].

فالله خلقنا لعبادته، وأنعم علينا لنشكره، ونتوجه بذلك إليه جل وعلا، ونعامله بما هو أهله، كما قال تعالى في شأن سليمان عليه السلام، مع عرش بلقيس:{قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل:٤٠].

ولله المثل الأعلى:

وقد ضرب الله جل وعلا الأمثلة في كتابه بآيات متكاثرة، علينا أن نتدبرها، وأن نعمل بمقتضاها، كقوله تعالى:{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لله الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللهُّ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللهُّ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلله غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} [النحل:٧٣-٧٧].

فَذَكَرَ الذين عبدوا غيره، ثم ضرب لهم مثلا، يَأْنَفونَ عن قبوله في حَقِّهم، فتضمن الخطاب تَقْرِيعَهُم، إذ كيف تَرْضَونَه لربكم، ولا تقبلونه لأنفسكم، وهو الله رب العالمين؟!!، ثم عطف بعلم الغيب؛ ليعلم الكل أنه لا أعلى من المثل الذي يضربه عالم الغيب والشهادة، فأنى لصاحب العلم القاصر، أن يضرب مثلا لعلام الغيوب؛ ولهذا قدم قوله:{فَلَا تَضْرِبُوا لله الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}.

وكذلك قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [الروم:٢٧-٢٩].ونحو ذلك من الأمثلة، والله تعالى يقول:{إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت:٤٢-٤٣].

فأعظم نِعَمِ الله جل وعلا علينا، ما ربَّانَا به من نعمة الإيمان والهداية إلى السراط المستقيم. فنسأله تعالى الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

قال المؤلف:(والدليل قوله تعالى:{الحمد لله رب العالمين}): ما زال المؤلف رحمه الله تعالى يؤكد على ضرورة التزام الدليل ليسير العبد إلى ربه على بصيرة، فلابد من الاستدلال من الكتاب والسنة على فهم السلف، لكل ما نقوله وما نأتي وما نذر، فلا نقدم على كتاب الله وسنة رسوله r على سبيل الصحابة y أحد كائنا من كان، أميرا كان أو عالما أو حاكما.

لا تَعَصُّبَ إلا للحق:

ومن جميل ما حفظناه من شيخنا العلامة المحدث سليمان بن ناصر العلوان –حفظه الله ورعاه وسدد على الخير خطانا وخطاه- وكان كثيرا ما يردد حتى حفظناه عنه:

وقول أعلام الهدى لا يُعْمَلُ ... بقولنا بدون نَصٍّ يُقْبَل
فيه دليل الأخذ بالحديث ... وذاك في القديم والحديث
قال أبو حنيفة الإمام ... لا ينبغي لمن له إسلام
أخذ بأقوالي حتى تُعرَضَا ... على الكتاب والحديث المُرْتَضَى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومـالك إمــام دار الهـجـــرة ... قـال وقـد أشار نَحْوَ الحُجْـرَة
كـل كـلامٍ مِنْـهُ ذُو قَبُـــــولِ ... ومنه مردود سِـــوى الرَّسـول
والشـــافعي قـــال إن رَأَيْتُمُوا ... قـــولي مخـالفـا لما رَوَيْـتُـــم
من الحديث فاضـربوا الجِدَارا ... بِقَـوْلِي المُخَـالِفَ الأَخْبَـــارا
وأحمـد قـال لهـم لا تَكْتُبُـــوا ... مَا قُلْتُه بَل أصـلُ ذلك اطْلُبوا
فاسمع مَقَالات الهُدَاة الأربعة ... واعمـــل بهـا فـإن فيها منفعة
لِقَمْعِهـــا لكـــل ذِي تَعَصُّـب ... والمُنْصِفُـــونَ يَكْتَفُـون بالنبي[1]

وهذه الأبيات، دالة على ضرورة التجرد للحق، والإخلاص لله تعالى في طلبه، بعيدا عن أي التعصب المذموم، لا لجماعة، ولا حزب، ولا شيخ، ولا حـظ نفـس، ولا أهـلا ولا مالا، ولا سـلطانا، ولا عشـيرة ولا قبيلـة، ولا أي شيء أبـدا دون الحـق، بـل هـو السعي الجاد في إصابة الحق والقول به، والصبر عليه والدعوة إليـه، ولـو عـلى الـنفس والأقربين، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَـوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء:١٣٥].

---

١ -هذه القصيدة عُثِر على مخطوطتها وهي تسمى:رسالة الهدى في اتباع النبي المقتدى r وهـي مـن نظم الشيخمحمدسعيد بن محمد أمين صفرالمدنيالحنفي رحمه الله١١١٤ – ١١٩٤. وقد ذكر بعضهم أنه قد شرحها بعض علماء اليمن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ اللَّازِمِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ "حُكْمُ الْحَاكِمِ" وَلَوْ كَانَ الْحَاكِمُ أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ؛ بَلْ حُكْمُ الْحَاكِمِ الْعَالِمِ الْعَادِلِ يُلْزِمُ قَوْمًا مُعَيَّنِينَ تَحَاكَمُوا إلَيْهِ فِي قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ لَا يَلْزَمُ جَمِيعَ الْخَلْقِ وَلَا يَجِبُ عَلَى عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَلِّدَ حَاكِمًا لَا فِي قَلِيلٍ وَلَا فِي كَثِيرٍ إذَا كَانَ قَدْ عَرَفَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ بَلْ لَا يَجِبُ عَلَى آحَادِ الْعَامَّةِ تَقْلِيدُ الْحَاكِمِ فِي شَيْءٍ؛ بَلْ لَهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ مَنْ يَجُوزُ لَهُ اسْتِفْتَاؤُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَاكِمًا وَمَتَى تَرَكَ الْعَالِمُ مَا عَلِمَهُ مِنْ كِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَاتَّبَعَ حُكْمَ الْحَاكِمِ الْمُخَالِفِ لِحُكْمِ الله وَرَسُولِهِ **كَانَ مُرْتَدا كَافِرًا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**، قَالَ تَعَالَى:{المص} {كِتَابٌ أُنْزِلَ إلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}. وَلَوْ ضُرِبَ وَحُبِسَ وَأُوذِيَ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى لِيَدَعَ مَا عَلِمَهُ مِنْ شَرْعِ الله وَرَسُولِهِ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَاتَّبَعَ حُكْمَ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِعَذَابِ الله بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَإِنْ أُوذِيَ فِي الله فَهَذِهِ سُنَّةُ الله فِي الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ قَالَ اللهُ تَعَالَى:{الم} {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} وَقَالَ تَعَالَى:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} وَقَالَ تَعَالَى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ}. وَهَذَا إذَا كَانَ الْحَاكِمُ قَدْ حَكَمَ فِي مَسْأَلَةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ قَدْ تَنَازَعَ فِيهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ فَحُكْمُ الْحَاكِمِ بِقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سُنَّةٌ لِرَسُولِ الله r تُخَالِفُ مَا حَكَمَ بِهِ فَعَلَى هَذَا أَنْ يَتَّبِعَ مَا عَلِمَ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ الله r وَيَأْمُرَ بِذَلِكَ وَيُفْتِيَ بِهِ وَيَدْعُوَ إلَيْهِ وَلَا يُقَلِّدَ الْحَاكِمَ. **هَذَا كُلُّهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.** وَإِنْ تَرَكَ الْمُسْلِمُ عَالِمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ عَالِمٍ مَا عَلِمَ مِنْ أَمْرِ الله وَرَسُولِهِ r لِقَوْلِ غَيْرِهِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعَذَابِ قَالَ تَعَالَى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْحَاكِمُ قَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ هَذَا النَّصُّ - مِثْلَ كَثِيرٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ تَكَلَّمُوا فِي مَسَائِلَ بِاجْتِهَادِهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ سُنَّةٌ لِرَسُولِ الله r تُخَالِفُ اجْتِهَادَهُمْ - فَهُمْ مَعْذُورُونَ لِكَوْنِهِمْ اجْتَهَدُوا و {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا}، وَلَكِنْ مَنْ عَلِمَ سُنَّةَ رَسُولِ الله r لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ السُّنَّةِ إلَى غَيْرِهَا قَالَ تَعَالَى: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} وَمَنْ اتَّبَعَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ كَانَ مَهْدِيا مَنْصُورًا بِنُصْرَةِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {إنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } وَإِذَا أَصَابَتْ الْعَبْدَ مُصِيبَةٌ كَانَتْ بِذَنْبِهِ لَا بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ r ، بَلْ بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ r يُرْحَمُ وَيُنْصَرُ، وَبِذُنُوبِهِ يُعَذَّبُ وَيُخْذَلُ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}؛ وَلِهَذَا لَمَّا انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانُوا مَعَ النَّبِيِّ r وَاسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمْ الْعَدُوُّ بَيَّنَ اللهُ لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ بِذُنُوبِهِمْ قَالَ تَعَالَى: {إنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} وَقَالَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعَالَى:{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ حِكْمَةَ ابْتِلَائِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى:{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} وَقَالَ تَعَالَى:{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}، وَاللهُ قَدَّرَهَا وَقَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ].ا.هـ.

وكما قيل: الحق لا يعرف بالرجال، ولكن الرجال يعرفون بالحق.

واعرف الحق تعرف أصحابه.

لا تَلَازُم بين رَدِّ الخَطأ وإسْقَاط فَاعله:

واعلم رحمك الله، أننا لا نعني أبدا إسقاط أقوال الأئمة، بل هم مصابيح الدُّجَى، ومفاتيح العلم لمن بعدهم، ولكنَّا متى ظهر لنا الحق عند غيرهم؛ تركناهم إلى الحق الذي ظفرنا به، مع حبنا إياهم وإجلالنا لهم، وحفظ سابقتهم في الدين، ولا نفعل كما تفعل بعض النساء، تَكْفُرُ العَشِير، كما قال النبي r ، كما في الصحيحين عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ r :"أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ قِيلَ أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ قَالَ يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل نحفظ لهم الوُدَّ، ونُكِنُّ لهم الاحترام والقَدْر، ولكن الحق أحب إلينا منهم، ولابد من التحلي بالعدل والإنصاف في إطلاق الأحكام، فلا نُبَدِّعُهم، ولا نُجَرِّمُهُم، ولا نُجَرِّحُهم، إذ الفُجُورُ في الخُصُومة من خصال المنافقين، أعاذنا الله وإياكم منهم.

والضابط في ذلك أن العالم إذا كان من أهل السنة والجماعة، بحيث هو على ما كان عليه النبي r وصحابته الكرام y في جميع أبواب الدين، أصوله وفروعه، بما في ذلك باب الأسماء والصفات، وأسماء الدين والإيمان والتوحيد، وباب النبوات، وباب الصحابة؛ فهذا يجب تَوَلِّيهِ، والذَّبُّ عنه، وحفظ حقه، والاعتراف بفضله، مع رد ما وقع فيه من الخطأ، إذ ليس معصوم بعد رسول الله r وسبيل الصحابة y .

قال الإمام الذهبي في كتابه:(سير أعلام النبلاء) في ترجمة الإمام المحدث المُفَسِّر قتادة بن دعامة السدوسي:[ثُمَّ إِنَّ الكَبِيْرَ مِنْ أَئِمَّةِ العِلْمِ إِذَا كَثُرَ صَوَابُه، وَعُلِمَ تَحَرِّيهِ لِلْحقِّ، وَاتَّسَعَ عِلْمُه، وَظَهَرَ ذَكَاؤُهُ، وَعُرِفَ صَلاَحُه وَوَرَعُه وَاتِّبَاعُه، يُغْفَرُ لَهُ زَلَّهُ، وَلاَ نُضِلِّلُهُ وَنَطْرَحُهُ وَنَنسَى مَحَاسِنَه.نَعَم، وَلاَ نَقتَدِي بِهِ فِي بِدعَتِه وَخَطَئِه، وَنَرجُو لَهُ التَّوبَةَ مِنْ ذَلِكَ]ا.هـ.

وانتبه لهذا الكلام الخطير:

قال الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي في كتابه:(التبيان في آداب حملة القرآن):[قال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله، اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، **أن لحوم العلماء مسمومة وعادة**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب،{فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}].ا.هـ.

قلت: فإذا كانت لحوم العلماء مسمومة، فكيف بلحوم أطهر الأمة وأشرفها بعد النبي r ، ألا وهم الصحابة الكرام y ، فقبح الله الرافضة، ألا لعنة الله على الرافضة.

قال المؤلف:(الحمد لله رب العالمين): الحمد لغة الثناء على الجميل الاختياري، والألف واللام فيها للاستغراق، أي جميع أنواع المحامد مُسْتَحَقَّةٌ مُسْتَغْرَقَةٌ للرب تبارك وتعالى.

الفرق بين الحمد والثناء والشكر: واختلف أهل العلم في الفرق بين الحمد والثناء والشكر[1]، فمنهم من قال الحمد هو الثناء، والشكر هو المدح مقرون بعمل، ولكن

---

١ -فالحمد:هو الثناء على المحمود لكمال ذاته وصفاته، ولو لم يصلك منه شيء، وليس هذا الحمد المطلق إلا لله؛ لأن كمال الذات خاص بالله سبحانه، وهو منزه عن النقص:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}؛ ولهذا يقول العلماء: ال (في قولك) الحمد:للاستغراق،فاستغرقت جميع المحامد، وأضافتها لله سبحانه.

والثناء:هو امتداحك الشخصلحسن فعاله،هناك، أي الحمد، لكمال ذاته ولولم يأتك ولا غيرك منه خير، ولولم يصدر منه فعل،وهنالحسن فعاله تثني عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الشكر :فيكون لمنصنع لك معروفاً،ولو لم يصل لغيرك منه شيء.

وجاء في موقع الإسلام سؤال وجواب:السؤال: هل هناك فرق بين الحمد والشكر؟.

الجواب:الحمد لله، اختلف أهل العلم في الحمد والشكر هل بينهما فرق؟، على قولين:القول الأول:أن الحمد والشكر بمعنى واحد، وأنه ليس بينهما فرق، واختار هذا ابن جرير الطبري وغيره.قال الطبري رحمه الله:"ومعنى(الْحَمْدُ لله):الشكر خالصًا لله جل ثناؤه، دون سائر ما يُعبد من دونه ....."، ثم قال رحمه الله بعد ذلك:"ولا تَمَانُع [أي:اختلاف] بين أهل المعرفة بلغات العرب من الحُكْم لقول القائل:"الحمد لله شكرًا" بالصحة، فقد تبيّن - إذْ كان ذلك عند جميعهم صحيحًا - أنّ الحمد لله قد يُنطق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع موضعَ الحمد؛ لأن ذلك لو لم يكن كذلك، لما جاز أن يُقال:"الحمد لله شكرًا""انتهى من "تفسير الطبري" (١/ ١٣٨).

القول الثاني:أن الحمد والشكر ليسا بمعنى واحد، بل بينهما فروق، ومن تلك الفروق:

١. أن الحمد يختص باللسان، بخلاف الشكر، فهو باللسان والقلب والجوارح.

٢. أن الحمد يكون في مقابل نعمة، ويكون بدونها، بخلاف الشكر لا يكون، إلا في مقابل نعمة.

قال ابن كثير رحمه الله – في معرض رده على كلام ابن جرير السابق – (١/ ٣٢):"وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين:أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعمّ الحمد، أو الشكر على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقولحمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية، كما تقدم. وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشكل على هؤلاء ما أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة t قال قال رسول الله r :"قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:{الْحَمْدُ للهِ رَبِّ

الصفات المتعدية:لا يقال شكرته لفروسيته، وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إليّ ، هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين والله أعلم " انتهى .

وعلى ذلك بنى أبو هلال العسكري تفريقه بين الأمرين،قال رحمه الله:"الفرق بين الحمد والشكر: الحمد هو الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبر.والشكر:فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لأجل النعمة، سواء أكان نعتا باللسان، أو اعتقادا، أو محبة بالجنان، أو عملا وخدمة بالأركان.وقد جمعها الشاعر في قوله .. [فذكر البيت السابق] فالحمد أعم مطلقا، لانه يعم النعمة وغيرها، وأخص موردا إذ هو باللسان فقط، والشكر بالعكس، إذ متعلقه النعمة فقط، ومورده اللسان وغيره.فبينهما عموم وخصوص من وجه، فهما يتصادقان في الثناء باللسان على الإحسان، ويتفارقان في صدق الحمد فقط على النعت بالعلم مثلا، وصدق الشكر فقط على المحبة بالجنان لأجل الإحسان".انتهى." الفروق اللغوية" (٢٠١-٢٠٢).

وقال ابن القيم رحمه الله "مدارج السالكين" (٢/٢٤٦):"والفرق بينهما:أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.ومعنى هذا:أن الشكر يكون:بالقلب خضوعا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقيادا.ومتعلقه:النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال:شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله.والشكر يكون على الإحسان والنعم، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان."انتهى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْعَالَمِينَ}. قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ:{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}. قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ:{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}. قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}. قَالَ:هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ".

قالوا فَفَرَّقَ الله تعالى في هذا الحديث بين الحمد والثناء هنا، وهذا قول قوي وَوَجِيه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى:[مسألة:في الحمد والشكر ما حقيقتهما؟ هل هما معنى واحد؟ أو معنيان؟ وعلى أي شيء يكون الحمد؟ وعلى أي شيء يكون الشكر؟.

الجواب: الحمد لله رب العالمين الحمد يتضمن: المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر، فمن هذا الوجه:الحمد أعم من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان، فإن الله تعالى يُحْمَدُ على ماله من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة والأولى؛ ولهذا قال تعالى:{وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا}، وقال:{الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور}، وقال تعالى:{الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة}، وقال:{الحمد لله فاطر السماوات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء}.

وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

ولهذا قال تعالى: {اعملوا آل داود شكرا}، والحمد إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعم من جهة أسبابه، وفي الحديث:"الحمد لله رأس الشكر"[1]، فمن لم يحمد الله لم يشكره، وفي الصحيح عن النبي r أنه قال:"إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأَكْلَةَ؛ فيحمده عليها ويشرب الشَّرْبَةَ فيحمده عليها". والله أعلم]ا.هـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:[الشكر: يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلا في مقابلة نعمة؛ فسببه أخص من سبب «الحمد»؛ ومتعلَّقه أعم من متعلق الحمد؛ فيختلفان إذاً من حيث السبب؛ ويختلفان من حيث المتعلق؛ سبب الحمد كمال المحمود، وإنعام المحمود؛ فإذا كان سببه إنعام المحمود كان «الحمد» من «الشكر»؛ أما «الشكر» فسببه واحد؛ وهو نعمة المشكور؛ وأما متعلق «الحمد» فيكون باللسان

---

١ - أخرجه عبد الرزاق في المصنف، ولكنه منقطع؛ لأنه من رواية قتادة عن ابن عمر ولم يسمع منه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقط؛ وأما متعلق «الشكر» فثلاثة: يكون باللسان، والقلب، والجوارح؛ وعليه قول الشاعر: أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

فـ«يدي» هذا الشكر بالجوارح؛ و«لساني» هذا الشكر باللسان، يعني القول؛ و«الضمير المحجبا» يعني القلب]ا.هـ.

وملخص ذلك فيما يظهر والله أعلم، أن يقال:بأن الحمد مُتَعَلَّقُه المحبة والإجلال، على ما قام بالمحمود من الصفات،الموجبة للمدح والإجلال، وأما الشكر فمتعلقه أخص من جهة العمل، في مقابلة النعم؛ لعموم قوله تعالى:{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:١٣]، فلا يكون العبد شاكرا بحق حتى يكون ذلك منه باللسان والجنان والأركان (أي:الجوارح)، وأما الثناء: فهو ذكر ما قام بالمُثْنَى عليه من الصفات التي لا مْدفَع لها، لاتصاف صاحبها بها وإن أنكرها من أنكرها، فهي شهادة بما علم المُثْنِي من صفات، ولا يستلزم محبة، وبينه وبين الحمد عموم وخصوص.

ويكون الثناء بالخير وبالشر، كما في الحديث المخرج في الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقَالَ نَبِيُّ الله r :"وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ". وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقَالَ نَبِيُّ الله r :"وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ". قَالَ عُمَرُ فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتَ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ. وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقُلْتَ وَجَبَتْ وَجَبَتْ فَقَالَ رَسُولُ الله r :"مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد حمد الله جل وعلا نفسه في مواضع من كتابه فهو أهل الثناء والمجد جل وعلا، كما قال تعالى: {الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١]، وقوله: {الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [الكهف:١]، وقوله: {الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [سبأ:١]، وقوله: {الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فاطر:١]، ونحو ذلك من الآيات.

وأمر عباده بأن يحمدوه وأن يكثروا من ذلك، كما قال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء:١١١]،وقال: {قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل:٥٩]، وقوله: {وَقُلِ الْحَمْدُ لله سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [النمل:٩٣]، وقوله: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [المؤمنون:٢٨] ونحو ذلك من الآيات.

وامتثل فريق من عباده ذلك، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون والملائكة، ومن تبعهم من المؤمنين المتقين، كما قال تعالى: {الْحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩]، وقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} [النمل:١٥]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمر:٧٥].

بل ويَمْتَدُّ حَمْدُهُم لله تعالى ويستمر إلى يوم القيامة، وفي جنات النعيم نسأل الله من فضله العظيم، كما قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف:٤٣]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس:٩-١٠]، وقوله: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر:٣٤]، {وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر:٧٤]، ونحو ذلك من الآيات.

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ r يَقُولُ:"إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ". قَالُوا فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟، قَالَ:"جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ". نسأل الله من فضله العظيم، الفردوس الأعلى.

وفي الصحيحين عن سَعْد بْنِ عُبَادَةَ، قال: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عَنْهُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله r فَقَالَ:"أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَالله لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُـذْرُ مِـنَ اللهِ مِـنْ أَجْـلِ ذَلِـكَ بَعَـثَ اللهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْـلِ ذَلِـكَ وَعَـدَ اللهُ الْجَنَّةَ".

قوله (لله): اللام للاستحقاق، أي أعظم من استحق الحمد هو الله جـل وعـلا، وإن قيل للاختصاص، كان المعنى أي أن الحمد المطلق المستغرق لجميع المحامد، خاص بالله جل وعلا، فلا يجوز إطلاقه على غيره من هذا الوجه، فإن المخلوق قد يمدح من وجه، ولا يمدح من وجوه أخرى، فمهما بلغ من الصفات والنعوت الحسنة، فإنه يبقى ذلـك متعلقا بما قام به من الصفات الحسنة، وإذ هو مخلوق، فلابـد أن لا تقـوم بـه جملـة مـن الأوصاف التي لا تليق إلا بالخالق جل وعلا، بل والمخلـوق ربـما حُمِـدَ عـلى شيء مـا، ويكون في حَقِّه كمالا، ولكنه دال أيضا عـلى نقصـه، وافتقـاره، كالولـد مـثلا، فـالعُقْمُ مذموم في المخلوق، ولهذا قال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّـذِي لَمْ يَتَّخِـذْ وَلَـدًا وَلَمْ يَكُـنْ لَـهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء:١١١]، وقوله: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَـقَ كُـلَّ شَيْءٍ وَهُـوَ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام:١٠١]، فعدم الولد والزوجة كمال في حق الخالق سبحانه، يحمـد عليه جل وعلا، إذ هو دال على كمال الغنـى والقـوة، والقـدرة والبقـاء، وهـو في حـق المخلوق نقص وعيب، إذ المخلوق فقير محتاج مربوب، وهو صائر إلى الموت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الله جل جلاله فكل ما يحمد به فهو كمال مطلق في ذاته، لا تعلق لـه بافتقـار ولا نقص ولا عيب، جل الله في علاه، ولهذا كان لله تعالى الحمد المطلـق؛ لكمالـه وجلالـه، جل الله في علاه.

(الله): عَلَمٌ على ذات الله جل وعلا، **وهو أعرف المعارف سبحانه وتعالى**، ولا يجـوز تسمية المخلوق به أبدا، فهو من الأسماء المختصة بالخالق جل وعلا،والأسماء تنقسم في الجملة إلى ثلاثة أقسام:

أقسام الأسماء:

١- **قسم خـاص بـالله جـل وعـلا**، لا يجـوز إطلاقـه عـلى المخلـوق كاسـم (الله، والرحمن،والقهار،ومالك الملك، والمحي المميت، والوهاب، والحي القيوم، والقدوس، وعـالم الغيـب والشـهادة، وعـلام الغيـوب، وفـالق الإصـباح، ومكـور الليـل عـلى النهار)وغير ذلك.

٢- **قسم خاص بالمخلوق**، لا يليق بالخالق تبارك وتعالى، كأسـماء العبـاد:(محمـد، وصالح، وعكرمة)، وغير ذلك.

٣- **قسم مشترك من جهة الحروف لا تماثل المعاني**، بين الخالق والمخلوق، فهـذه لله تعالى منها الكمال المطلق، وللعبد منهـا الـنقص والتقصـير، كاسـم(الملـك، والجميـل، والحي، والرب) ونحو ذلك. فملك المخلوق قاصر ناقص، فهـو لا يملـك كـل شيء، وربما مَلَكَ ولم يحكم، وربما حَكَم ولا يملك من يحكمهم، بل وحتى ملكه موهوب له،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك جمال المخلوق قاصر محدود، وكذلك حياته، وأما الله تبارك وتعالى، فله الكمال المطلق جل الله في علاه.

الأسماء والصفات توقيفية:

وأسماء الله جل وعلا توقيفية، فلا يقبل إلا ما صح به الدليل، وعليه فإنه ليس من أسماء الله تعالى:(الرشيد، ولا المنتقم، ولا الحنان، والرافع، والخافض، والنافع ، والضار) وفي (المنان) اختلاف إذ أن الأحاديث الواردة في ذلك فيها لين وضعف، إذ لا تخلو من مقال، وأما:(الصانع، العارف، المخترع) فهذه ليست من أسماء الله، واستعمال بعض الأئمة لها، فهو من باب أن الوصف أعم من الاسم، فيتوسعون في ذلك، وإن كان الأصل التقيد بما وَرَدَ وَصَحَّ.

قوله:(رب العالمين): تقدم معنى الرب. و(العالمين) جمع عَالَم، واللفظ دال على تعدد العَوَالِم، وهو دال على عظمة الرب وقدرته جل الله في علاه، وإضافتها إلى الرب دال على أنه هو القائم على مصالحها، وهو الموجد لها من العدم، وهو المتكفل بأرزاقها وحوائجها، وهو القادر عليها المتصرف فيها، وهي ذليلة مفتقرة إليه، جل الله في علاه، وهذا أخص بالربوبية؛ ولهذا أضيفت إلى اسم الله (الرب) في هذا المقام، وهو وحده تبارك وتعالى المختص بذلك كله، لا ينازعه في ذلك أحد، جل الله في علاه، وهو سبحانه له الحكم فيه، وإليه يرجعون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام:٣٨]، وقال سبحانه: {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} [البقرة:١٦٤]، وقال: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود:٦]، وقال: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود:٥٦]، وقال: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل:٤٩]، وقال: {وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [النور:٤٥]، وقال: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [العنكبوت:٦٠]، وقال: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [لقمان:١٠-١١]، وقال: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [الشورى:٢٩].

قوله: (وكل ما سوى الله عَالَم، وأنَا واحد من ذلك العالم): هذا إقرار من المخلوق بعظمة الخالق واستحقاقه أن يُعْبَد وحده لا شريك له، فلابد أن تُمَرَّ هذه الجمل بمعانيها على القلوب، وأن تَتَنَزَّلَ على أرض الواقع، عملا بالجوارح، وأن تظهر آثار ذلك، على حياة العبد، وفي تعامله مع الرب جل جلاله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليس الأمر مجرد إقرار واعتراف فحسب، وإنما هو القول الذي يسعى العبد في تحقيقه، ومطابقته لواقع الحال.

الابتلاء في الأقوال بتحقيقها:

فالأقوال المجردة عن التطبيق العملي لا تغني عن صاحبها شيئا، وقد أبى الله جل وعلا إلا أن يمتحن العباد ويبتليهم فيما يقولون، كما قال تعالى: {الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت:١-٣]، وفضح الله أقواما يريدون أن يَقْتَصِروا على المَقَال، وأن يَتَخَلَّفُوا عن الفِعَال، فقال تعالى في شأنهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [النساء:٦٠-٦١] الآيات، والزعم هو القول، يحتاج إلى برهان وإثبات.

وتأمل هذه الآيات: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور:٤٧-٥٤].

فما أيسر الأقوال إذا كانت ستبقى رهن اللسان فحسب، فلا أثر لها في الواقع، ولا حظ لها من العمل، وهذه الطريقة، لا تمت إلى سبيل النجاة بصلة، واعتبر بحال المنافقين، الذين حكم الله تعالى عليهم، بأنهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم أرادوا الاقتصار على الأقوال دون الفعال، بل وعملوا بضد ما قالوا فأكذبهم الله تعالى، كما في قوله جل الله في علاه وتعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}[المنافقون:١-٣].

كما أن أقوالا بهذا الاعتبار لا قيمة لها أصلا، وقد كان المشركون أعقل من هؤلاء المنافقين وأمثالهم، إذ فقهوا أن كلمة التوحيد تتضمن الإقرار بمعانيها ومدلولاتها، والالتزام بما أفادته ودلت عليه؛ ولهذا أبوا أن يقولوها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟.

فَقُلْ:بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ،وَمِنْ آيَاتِهِ:اللَّيْلُ،وَالنَّهَارُ،وَالشَّمْسُ،وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[فصلت:٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف:٥٤]. وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة:٢١-٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشرح

قال المؤلف رحمه الله:(فإذا قيل لك: بما عرفت ربك؟): أراد المؤلف رحمه الله أن يقرر، بِمَ تكون معرفة الرب تبارك وتعالى، وأنها لا تتوقف فقط على الدليل الشرعي، ولا فقط على الدليل العقلي، بل كذلك بشاهد الدليل الكوني، الدال على وجود الرب تبارك وتعالى، ولو لم يبعث الله جل وعلا الرسل، ولم ينزل الكتب؛ لكان في ما بثه الله تبارك وتعالى في كونه، دليل كاف، على إثبات وجوده تبارك وتعالى ووحدانيته خلقا وتقديرا وتدبيرا، متفرداً بذلك جل وعلا، ولهذا قال قائلهم:

تَأَمَّل في نبات الأرض وانْظُر ... إلى آثار ما صَنَعَ المَلِيكُ
عُيونٌ من لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هي الذَّهَبُ السَّبِيكُ
على قُضُبِ الزُّبُرْجُدِ شَاهِداتٌ ... بأن الله ليس له شَرِيكُ

ويقول الآخر:

تَأَمَّل سُطُورَ الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رَسَائِلُ
وقد خُطَّ فيها لو تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا ... ألا كُلُّ شَيء ما خَلَا اللهَ بَاطِلُ

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ النَّبِيُّ r :"أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ".

وكم قيل:

وليس يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دليل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأمر الله تبارك وتعالى العباد، أن يستدلوا على عظمته وقدرته ووحدانيته، بالتفكر والنظر في ملكوت السموات والأرض، كما قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لله كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام:١١-١٢]، وقال: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام:٩٩-١٠١]، وقال: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس:١٠١]، وقوله: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [سبأ:٩]، وقوله: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق:٦-١١]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} [الذاريات:٢٠-٢٣]، ونحو ذلك من الآيات.

يا فوز المُتَفَكِّرين المُعْتَبِرين:

وامتدح الله جل وعلا هذا الصنف من العباد، الناظرين في ملكوت الله جل وعلا؛ المتفكرين المعتبرين، الذين سخروا عقولهم في أشرف المعلومات على الإطلاق، كما قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة:١٦٤]، وقال: {وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [آل عمران:١٨٩-١٩٥]، وقوله:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [يونس:٥-٦].

وهَدَّدَ الذين يَمُرُّونَ على هذه الآيات بلا تفكر ولا اعتبار، ونَعَتَهُم بأنهم من الصُّم البُكْم الذين لا يعقلون، وإن كانوا سَادَةً في أقوامهم، وإن كانت لهم مكانة في أقوامهم، أيّاً كانت تلك المكانة، كما قال تعالى:{أَلَا إِنَّ لله مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٦٦ - ٧٠]، وقال:{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [يوسف:١٠٥-١٠٧]، وقوله:{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ} [الروم:٧-١٣]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء:٣٠-٣٣]، وقوله: {مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:٣- ٦]، وقوله: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال:٢٢-٢٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعليه فإن وحدانية الله جل وعلا خلقا وتدبيرا يدل عليها الشرع المُنَزَّل، والعقل السليم، والفطرة المستقيمة؛ ولهذا كان المتعين عليهم أن يبادروا إلى تصديق الرسل واتباعهم، لَمَّا جاءوهم بمراد الله تعالى منهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، ولكن لما فسدت فِطَرُ الكافرين، وسَقُمَتْ عُقُولهم - كما هو في حال الحضارة الغربية الكافرة الماثلة اليوم - لم يهتدوا إلى الله جل وعلا، مع كثرة نظرهم في هذا الكون، واشتغالهم بأجزائه، إلا أنهم نظروا إليه بِعَينِ البَصَرْ، لا بِعَينِ البِصِيرَة النافذة؛ فاكتفوا منها بالشكل الظاهر، ولم يَعْتَنُوا باللُّبَاب؛ ولهذا ما زادتهم إلا طغياناً وعتواً وكِبراً كبيرا نسأل الله العافية والسلامة.

الصُّمُّ البُكْمُ الَّذين لا يَعْقلُون:

أُسْوَتُهم في ذلك حالُ أسْلافِهم من أهل الجاهلية، الذين نَعَتَهم الله تعالى بأنهم يَرَونَ ولكن لا يبصرون، ويسمعون ولكنهم لا يعقلون، فالآلَة سَلِيمة من جهة إدراك مجريات الحياة الدنيا، ولكنها مُعَطَّلة عن إدراك الحق وفَهْمِهِ وعَقْلِه، فلا تعجب إذا رأيت أن الله تعالى يثبت لهم السمع والبصر والقلب (وهو محل العقل)، وفي نفس الوقت يَنْفِيهِ عنهم، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف:١٩٧-١٩٨]، وقوله: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف:١٧٩]،وقوله: {وَلَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال:٢١-٢٣]، وقوله: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢)وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} [يونس:٤١-٤٣].

وهناك صنف من العباد لا ينفع معه الدليل السمعي، ولا شاهد الكون، كالملاحدة الدَّهريين، والشَّاكِّين في وجُود الله تبارك وتعالى، عُبَّاد الطبيعة، بل عباد الشيطان والهوى، بما يسمون اليوم بالشيوعيين (الماركسيين)، ومن شايعهم من العقلانيين والعلمانيين واللبراليين، فهؤلاء يخاطبون بما قرره الله تبارك وتعالى من خبايا المخلوقات، وأسرار الكائنات، التي لا يطلع عليها إلا علام الغيوب، خالق الخلق ومالك الملك جل الله في علاه، فَتُقَرِّرُهم بوجود الرب تبارك وتعالى، ووحدانيته، بهذه السبيل، التي لا يتعالى عليها إلا معاند عرف الحق واستكبر عنه، وتعالى عليه،فها هو دُونَهُم عظيم صنعة الله تعالى، وجميل تدبيره في كونه، ودِقَّة إحْكَامِه خَلْقَه جل الله في علاه[١].

١ - ولمعرفة المزيد عن هذه الطريقة من القرآن والسنة، لإقناع وإفحام هؤلاء الملاحدة، راجع كتابي الاستنباطات البهية من الأدلة الشرعية، الاستنباط الرابع والأربعون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ}[فصلت:٥٢-٥٤]، وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج:٣-٥]، وقوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} [المؤمنون:١٢-١٧]، وقوله: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} [الفرقان:٤٤-٥٥]، وقوله:{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [النبأ:٦-١٦]، وقوله:{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [عبس:١٧-٣٢]، ونحو ذلك من الأدلة الدالة على أن وراء هذا العالم خالق ، عظيم، ومدبر حكيم، عليم غني قوي عزيز رحيم، خلق هذا الكون كله، له الأسماء الحسنى والصفات العلا، جل الله ربي في علاه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(فقل: بآياته): هذا أسلوب تربوي رفيع في التعليم، وهو تلقين المُتعلم المعلومة الصائبة؛ ليصدر بِعَطَن؛ ولتكون الأمور في غاية الوضوح والظهور، فهذا سلاح العلم الصحيح، بالحجج الظاهرة، التي تدمغ الباطل، وبه ينهدم بنيانه، وهذه هي التربية العلمية الربانية، وبها يُعَلِّم العَالِمُ الرَّباني طُلَّابَه، وهذا الأسلوب كثير في الكتاب والسنة، فمنها قوله تعالى:{فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران:٢٠]، وقوله:{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ الله عَلَى الْكَاذِبِينَ} [آل عمران:٦١]، وقوله:{فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١٤٧-١٥٠]، وقوله:{فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} [التوبة:٨٣]، وقوله:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:٨٥]، وقوله:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [طه:١٠٥-١١٢]، ومثل هذا كثير في الكتاب العزيز.

ومن السنة ما في صحيح البخاري من حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قصة غزوة أحد في الحديث الطويل وفيه: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ r أَنْ يُجِيبُوهُ ثُمَّ قَالَ أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ قُتِلُوا فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ قَالَ يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ أُعْلُ هُبَلْ أُعْلُ هُبَلْ. قَالَ النَّبِيُّ r :"أَلَا تُجِيبُوا لَهُ" قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَقُولُ، قَالَ:"قُولُوا اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ". قَالَ إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ r :"أَلَا تُجِيبُوا لَهُ" قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَقُولُ. قَالَ:"قُولُوا اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا وُفِّق العبد إلى معلم، يلقنه الحجج الصائبة، والمعلومة الصحيحة؛ كان ذلك من فضل الله على هذا المتعلم، وإلا كانت الهلكة، وحصل التلبيس والتدليس، والتلاعب بشرع الله تبارك وتعالى، فإن وُفِّقْتَ إلى أمثال هؤلاء، من أمثال المؤلف رحمه الله تعالى، أصحابِ العقيدة السليمة، والتصور الصحيح لدين الله تبارك وتعالى؛ فاحمد الله كثيرا، وسل الله العافية والسلامة، والسداد والثبات حتى الممات.

والآية لغة هي العلامة، وهي هنا المراد بها الآية الدالة على واضعها وموجدها، وهو الله رب العالمين.

أنواع الآيات:

والآيات التي استدل الله تبارك وتعالى بها على عباده على وحدانيته أنواع:

١ - **الآيات المَتْلُوَّةُ:** والتي هي كلام الله تبارك وتعالى، فالقرآن كلام الله تعالى، كقوله تعالى: { تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ}، في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم [البقرة:٢٥٢]، [آل عمران: ١٠٨] [الجاثية: ٦]، والسُّنَّة وَحْيٌ من الله تعالى، كما قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:٣-٤].

٢ - **الآيات المخلوقة العامة:** وهي الشواهد الكونية التي خلقها الله تبارك وتعالى، وبثها في كونه، دلالة على وحدانيته، وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله، ولعل المؤلف أراد هذا النوع، في هذا المقام.

٣ - **الآيات المخلوقة الخاصة:** وهي ما أيد الله تبارك وتعالى به رسله، من المعجزات الدالة على صدقهم، وما أَيَّدَ به أتباع الرسل من الكرامات،ومنها ما جعلها الله تبارك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعالى عبرة للعباد، تحصل لهم بها الهدايات، كما قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} [هود:٦٤]، وقوله تبارك وتعالى: {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [الأعراف:١٣٢]، وقوله: {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [آل عمران:٤١]، وقوله: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة:٢٤٨]، وقوله: {قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} [مريم:٢١]، وقوله: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:٩١]، وقوله: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفرقان:٣٧]، وقوله: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [العنكبوت:٣٥]، وقوله: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:٢٥٩]، وقوله: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْأَبْصَارِ} [آل عمران:١٣]، وقوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [يونس:٩٢]. ونحو ذلك من الآيات.

قال المؤلف:(ومخلوقاته): عطف على آياته، إذ أن كل المخلوقات، هي من آيات الله جل وعلا، الدالة على وجوده ووحدانيته، وقد يقال إن هذا من عطف الشيء على نفسه، إذا أردنا بالآيات هنا، الآيات المخلوقة، إذ الآيات بهذا الاعتبار مخلوقة، فالآيات من جملة المخلوقات، والمخلوقات بهذا الاعتبار، هي آيات كذلك.

فالآيات مخلوقات، والمخلوقات آيات، ويكون هذا من تنويع العبارة لاتساع المعلومة، أو للإثراء المعرفي.

وهنا نُكْتَةٌ لطيفة، في وجه التفريق بين الآيات والمخلوقات، وهي أن من لا بصر له يرى به آيات الله جل وعلا، كالأعمى،قد يجادل بأنه لا يرى هذه الآيات، في السموات والأرض، فنقول تأملها في نفسك، كيف كنت من قبل؟، وما أنت عليه الآن؟، وما سوف تكون عليه بعد ذلك؟، فما في جسمك من النِّعم والآيات، كاف لك لو أراد الله هدايتك، كما قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان:١-٣]، وقوله: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات:٢١]، فخلق الله كافٍ في ذلك، لو أراد الله هدايتك، بفتح بصيرتك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المؤلف:(ومن آياته): من تبعيضية، فالمؤلف أجمل ثم أخذ يفصل، وهذا كما تقدم يسمى بأسلوب اللف ثم النشر.

قال المؤلف:(الليل والنهار والشمس والقمر): قال تعالى:{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات:٤٩]، وقال:{وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} [الفجر:١-٣]، فقد فسر بعض أهل العلم هذه الآيات، بأن الله تعالى خلق من كل نوع زوجين:(ظلمة وضوء – ليل ونهار – شمس قمر – ذكر أنثى - إنس و جن)، وأما الوِتْرُ الصمد، فهو الله الواحد الأحد جل وعلا؛ ولهذا فسر بعضهم قوله تعالى: {والشفع والوتر}، بأنه إقسام بالخلق والخالق،فالشفع الخلق، والوتر الخالق تبارك وتعالى.

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان):[{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}:ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولا ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلا.

أما جُمْلَةً: فقالوا إنما الوتر هو الله للحديث: "إن الله وتر يحب الوتر" وما سواه شفع كما في قوله تعالى:{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}، فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق كما في عموم :{فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ}.

أما التفصيل: فقالوا المخلوقات إما شفع كالحيوانات أزواجا والسماء والأرض والجبل والبحر والنار والماء وهكذا ذكروا لكل شيء مقابله ومن الأشياء الفرد كالهواء وكلها من باب الأمثلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والواقع أن أقرب الأقوال عندي والله أعلم أنه هو الأول لأنه ثبت علميا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة.

فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات، والذرة لها نواة ومحيط، وبينهما ارتباط وعن طريقهما التفجير الذي اكتشف في هذا العصر حتى في أدق عالم الصناعة كالكهرباء فإنها من سالب وموجب وهكذا لا بد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أي جهاز كان حتى الماء الذي كان يظن به البساطة فهو زوج وشفع من عنصرين أكسجين وهدروجين ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة أي الغليان ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء وهكذا.

ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب فلم يبق في الكون شيء قط فردا وترا بذاته إلا ما نص عليه الحديث: "إن الله وتر يحب الوتر" ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغني بذاته عن غيره والواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت إلخ بخلاف المخلوق وقلنا المستغني بذاته عن غيره لأن كل مخلوق شفعا فإن كل عنصر منه في حاجة إلى العنصر الثاني ليكون معه ذاك الشيء والله سبحانه بخلاف ذلك ولهذا كان القول الأول وهو أن الوتر هو الله والشفع هو المخلوقات جميعها هو القول الراجح وهو الأعم في المعنى]ا.هـ..

ودلالة الليل والنهار والشمس والقمر، على وحدانية الخالق ووجوده، كونها مُتَصَرَّفٌ فيها، فهي مقهورة مربوبة، تذهب وتجيء، وتظهر وتختفي، والليل يغلب النهار فيذهب به، والنهار يقهر الليل فيذهب به، والشمس والقمر كل في فلكه يسبح،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي أوان معلوم يظهر، لا تملكان من أمرهما شيئا، وبهذه المقدمة احتج إبراهيم عليه السلام على قومه كما قال تعالى: {إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام:٧٤-٨٣]. وقد تقدم بيان ذلك مستوفى ولله الحمد والمنة.

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء:٣٣]، وقوله: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٣٧-٤٠].

قال المؤلف رحمه الله:(وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا): وهذا أمر مُجمع عليه، أن السماوات سبعاً، وأن كل سماء هي أوسع من التي تحتها، وبين كل سماء والتي تليها مسافة لا نعلمها؛ إذ لم تثبت الأخبار الدالة على ذلك، ولكن القرآن دَلَّ على تَفْتِيقِها، وفوقهن عرش الرحمن جل جلاله، والله جل جلاله مستوى على عرشه، لا تخفى عليه خافية، فالقريب والبعيد عنده سواء، لا يشغله سمع عن سمع، ولا بصر عن بصر، ولا يحول دونه ودون خلقه حجاب، (أي بالنسبة لسمعه وبصره وعلمه)، وكذلك الأمر في الأرض فإنهن سبع، كما قال تعالى:{اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق:١٢].

وفي صحيح البخاري :[بَاب مَا جَاءَ فِي سَبْعِ أَرَضِينَ، وَقَوْلِ الله تَعَالَى:{اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} {وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ} السَّمَاءُ {سَمْكَهَا} بِنَاءَهَا الْحُبُكُ اسْتِوَاؤُهَا وَحُسْنُهَا {وَأَذِنَتْ} سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ {وَأَلْقَتْ} أَخْرَجَتْ مَا فِيهَا مِنْ الْمَوْتَى وَتَخَلَّتْ عَنْهُمْ {طَحَاهَا} دَحَاهَا {بِالسَّاهِرَةِ} وَجْهُ الْأَرْضِ كَانَ فِيهَا الْحَيَوَانُ نَوْمُهُمْ وَسَهَرُهُمْ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ أَخْبَرَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْمُبَارَكِ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُنَاسٍ خُصُومَةٌ فِي أَرْضٍ فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَذَكَرَ لَهَا ذَلِكَ فَقَالَتْ يَا أَبَا سَلَمَةَ اجْتَنِبْ الْأَرْضَ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ".

قوله:(وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا)، تنبيه على أن هذه السموات السبع، والأرضين السبع، وما فيهن وما بينهما، كلها مخلوقات لله جل وعلا، وأنه لا يعلمها ويحيط بها إلا الله جل وعلا، وهذا كقوله تعالى:{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[البقرة:١٦٤]، وقوله:{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} [لقمان:١٠]، وقوله:{ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية:٣-٦].

وهذا دال على كمال الخالق وقدرته، وتمام ملكه وعمومه، وانفراده بالتصرف والتدبير، وإذ لا شريك له في ذلك كونا، فقد أمر تعالى ألا يكون معه شريك في عبادته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شرعا، فالحقيقة الكونية، مُوَطِّئَةٌ للحقيقة الشرعية، وملزمة بها، بعد بعثة الرسل، إذ بهم تكون الحجة التكليفية.

فالحجج المطلقة كثيرة جدا، ولكن الحجة التي بها يؤخذ العباد هي الحجة التكليفية، وهي التي تكون ببعثة الرسول وإنزال الكتاب، تبيانا لمراد الله تعالى من خلقه.

قال المؤلف رحمه الله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، هذا من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فإذا تَبَيَّنَ أن خالق هذه الأشياء هو الرب تبارك وتعالى، لزم كل من أقر بذلك، ألا يعبد سواه، فإن الله خالق العالم هو الآمر بعبادته وحده لا شريك له.

والسجود يطلق يُرَادُ به ما يكون على الأعضاء السبعة، كما تقدم، ويُطْلَقُ ويُرَاد به الذُّلُّ والانْقِياد العام، وهذا أشبه بسياق الآية، فإن الله تبارك وتعالى قال:{وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٣٧-٤٠].

والمعنى أنه إذا كانت هذه المخلوقات الكِبَار، على حجمها الهائل وما استودع الله فيها من الطاقات، كلها ذليلة منقادة لأمر الله تبارك وتعالى، فلا يَجْتَرِئُ شيء منها على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يَخْرُج عن أمر الله وقدرته، بل كل في فلكه سابح، مستسلم تمام الاستسلام، وبانضباط تام، لا يستقدمون ولا يستأخرون، فنحن أولى بذلك، والمعنى إذن هو ما قاله ربنا تبارك وتعالى، في سورة البقرة، وما في معناها من آي الذكر الحكيم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة:٢٠٨-٢٠٩].

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ يَوْمًا:"أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ"، قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ.....الحديث".

السجود بمعناه العام والخاص:

والتحذير من هذا السجود في الآية، وإن كان قد ذكر الله تعالى فيه مخلوقات بعينها، فإن المقصود العموم قطعا ولاشك، لأن الجامع في هذه المسألة الذل والانقياد للخالق للأشياء، فإذا تقرر أنه لا خالق إلا الله، فلا معبود إذن بحق إلا الله، فإن الله تبارك وتعالى علق الحكم على ذلك؛ لإفادة العموم. والله أعلم.

وهذا المعنى العام للسجود، يدخل فيه ضمنا وضرورة المعنى الخاص، وهو السجود على الأعضاء السبعة، في الصلاة، وفي سجود التلاوة، والشكر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن هناك أقواما يتعلقون بالمعنى العام زاعمين، أن من وصل إلى المعنى العام؛ جاز له ترك المعنى الخاص، كما يفعله الزنادقة الذين يزعمون أنهم قد تم لهم الوصول إلى الله، وإلى روح الدين، فلا يلزمهم بعد ذلك العبادات الجوارحية، من صلاة وصيام وحج وجهاد وغير ذلك.

وهذا من الردة والكفر الصراح البواح، وهو كذلك من التلاعب بعقول الأتباع، فإن الذي زعم أنه حقق المعنى العام؛ كان لزاما عليه أن يعلم أن من ضرورات تحقيقه له، تمام الانقياد لأفراده، بحسب مواقعها من الشرع، فما الدين إلا الأمر والنهي، ظاهرا وباطنا، فهناك أعمال قلبية، وهناك أعمال بالجوارح، فتنبه لهذا المقام فإنه مزلة أقدام.

كما أن الآية نبهت على شيء يمكن وقوعه، ألا وهو عبادة هذه المخلوقات، لِمَا قد يَغُرُّ به الشيطان العباد في هذه المخلوقات، من كِبَر حجمها، أو سرعة جريانها، واتساقها، أو ما فيها من القدرات، وغير ذلك، ولاشك أن العموم مقصود هنا كذلك.

فالقاعدة واحدة، فمهما بلغ المخلوق من الطاقات والقدرات، والحجم الهائل والإمكانات، فإنه يبقى ذليلا منقادا، عابدا لله جل وعلا، وهذا هو المراد من سياق هذه الآيات وأمثالها في الكتاب العزيز.

والسجود غاية في التذلل، ولهذا كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ". **فكلما كان العبد أذل لله تعالى؛ كان منه أقرب. فَلْنُشَمِّر.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سجود التحية والإكرام:

مسألة: من قوله تعالى:{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف:١٠٠]، فإن هذه الآية دالة على أن هذا النوع من السجود، وهو المعروف بسجود التحية، كان مشروعا في شريعة يوسف عليه السلام، وأما في شريعتنا فلا يسجد أحد لأحد، بل السجود لله الواحد القهار، فَمُنِعَ في شرعنا حتى سجود التحية، وهذا من باب سد الذرائع؛ ولهذا كان شرعنا أكمل الشرائع في هذا الباب وغيره. وأما الحديث الذي رواه أحمد في مسنده من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ: قَدِمَ مُعَاذٌ الْيَمَنَ، أَوْ قَالَ: الشَّامَ، فَرَأَى النَّصَارَى تَسْجُدُ لِبَطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا، فَرَوَّى فِي نَفْسِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r أَحَقُّ أَنْ يُعَظَّمَ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُ النَّصَارَى تَسْجُدُ لِبَطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا، فَرَوَّأْتُ فِي نَفْسِي أَنَّكَ أَحَقُّ أَنْ تُعَظَّمَ، فَقَالَ:"لَوْ كُنْتُ آمُرُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا".....الحديث. فهذا الحديث لا يكاد يَسْلَمُ من ضعف على كثرة طريقه، فقد جاء من حديث عائشة وأبي هريرة وقيس بن سعد، ولا يصح من ذلك شيء.

وبما أن الشرك لا يباح بحال في أمة من الأمم؛ علمنا يقينا أن السجود منه ما يكون تحية، ومنه ما يكون عبادة، وذلك إذا تضمن معنى التقرب، ولما منع في شرعنا أن يسجد أحد لأحد؛ كان الأصل في كل سجود لغير الله تعالى في شرعنا أنه من الشرك بالله تعالى، إلا إن تصورنا وجود من يجهل هذه الحقيقة، فيُعلم، أما إذا كان المَسْجُودُ له مما يعبد من دون الله تعالى؛ كان السجود له شركا أكبر على كل حال، كالقبور والتماثيل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصُّلْبَان والأصنام ونحو ذلك، فالسجود لغير الله من جهة النوع في شرعنا هو من الشرك الأكبر، فلا يعرف في شرعنا سجود تحية حتى نجعله نوعين.

فالتوحيد واحد، عند جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن الشرائع تختلف، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨]، وقوله: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا} [الجاثية:١٨]؛ وعليه فلا سجود للتحية في شريعتنا، وإن كانت هي من شريعة يعقوب ويوسف عليهما السلام.

بل هو في شريعتنا كله عبادة وقربة، ففعله لغير الله تعالى، والتقرب بذلك لغير الله تعالى، كله من الشرك الأكبر، عياذا بالله من الخذلان.

عبادة الكواكب، وحجة الخليل الدامغة:

وعبادة الكواكب قد ظهرت في زمن إبراهيم عليه السلام، فَحَجَّهُم بالدليل العقلي النظري، بأن هذه المخلوقات مسيرة مقهورة، فأخذ يستفهم منهم،استفهام تقرير وإنكار، فيقول: {هذا ربي}، أي أهذا ربي؟!، الذي تزعمون وتعبدون، حتى إذا أفل الكوكب بين لهم سخف عقولهم، وأن رباً هذه صفته، ليس هو الإله الذي يعبد ويُوَحَّد، حتى قال الله تعالى: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه}، وهذا قد تقدم تقريره، والصحيح في هذه الآيات أن إبراهيم كان مُنَاظِرا، لا نَاظِراً.

قوله: {إن كنتم إياه تعبدون}: أي إن كنتم حقيقة إنما تقرون بالعبادة لرب هذه المخلوقات، فاعلموا إذن أنه هو الله رب العالمين، وأما إقراركم النظري الظاهري،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المجرد عن تحقيق لازمه ومقتضاه، وهو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة دونما سواه، فلن يُجْدِيَ عنكم شيئا، واعلموا أنكم حينئذ تتبعون أهواءكم، وأنكم مشركون بالله تعالى ، ولن ينفعكم إثبات ربوبية الله جل وعلا على خلقه، طالما أنكم تَتَنَصَّلُونَ عن عبادته؛ لأن لازم الربوبية إثبات الألوهية، ومعاملة الله تعالى بها.

وقد بين تبارك وتعالى أنه مع تعليمه لعباده، وبيانه لكل هذه الآيات والمخلوقات، وإرساله الرسل، وإنزاله الكتب، مع هذا كله كفر الكافرون، وأشرك المشركون، ونافق المنافقون، فهم لا يستفيدون من ذلك بشيء، بل هم من الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون، بل وأخطر من ذاك كله، أن الله تبارك وتعالى، قَرَّرَ في كتابه، أن أكثر خلقه من المكلفين كذلك كانوا، ويصيرون إلى ذلك، كما قال تعالى:{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ} [الروم:٤٢]، وقال:{وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٠٢]، وقوله:{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف:١٠٣].

أغلى ما نَمْلك:

وهذا يفيدك ضرورة الخوف على دينك، ودين أهلك، ومن حولك، ويفيدك الجد والاجتهاد في تعلُّم العلم النافع والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على ذلك، والإلحاح على الله تبارك وتعالى في المسألة أن نكون أجمعين أهلا وذرية، ووالدين وأقارب، وأشياخ وطلاب، وأصحاب وأحباب، جميعا من الناجين، فإن السلامة قليلة، والله هو الهادي إلى سواء السبيل، فاللهم اهدنا أجمعين، وخلِّصنا من مضلات الفتن، ما ظهر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منها وما بطن، ودافع عنا يا كريم، فإنا نستودعك ديننا، وأمانتنا، وخواتيم أعمالنا، وألحق بنا ذرياتنا، يا أرحم الراحمين.

وتأمل في هذه الآيات؛ لترى كيف هو تَعَنُّتُ كثير من الناس، عن قبول الحق، مع ظهوره وبيانه؛ ولترى مدى نُفْرَتِهم عنه، مع أن فيه عِزُّهُم وأمَانُهم، وفيه خير الدنيا والآخرة وبركاتها، قال تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} [الأنعام:٤]، وقوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام:٢٥-٢٦]، وقوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام:١٠٩-١١٠]، وقوله: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام:٣٧-٣٩]، وتأمل في هذه الآية،أنهم لما طلبوا آية؛ ليَتَحَقَّقُوا بها من صدق الرسل، أجابهم الله تبارك وتعالى، بأن الله تعالى على ذلك قادر، ولكن المشكلة أنهم لا يستفيدون منها، وإن جاءتهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عقوبة لا يُفْطَنُ لها:

أليس بين أيديهم آيات؟!!، الجواب بلى، فهذه دواب في الأرض، وتلك طيور تقلب أجنحتها في السماء، وهي أمم أمثالكم، وفيها من العجائب واللطائف ما الله تعالى به عليم، ترون كثيرا منها بين أيديكم، وتتعاملون معها، أليس في ذلك عبرة ودلالة على الحق؟، فما ذا صنعتم معها؟، لقد مَرَرْتُم عليها وكأن شيئا لم يكن، فحقيقة الأمر أن الذين كذبوا بآيات الله {صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ} والله يهدي من يشاء، **فليست المشكلة إذن أنه لا آيات، ولكن المشكلة أنهم في الظلمات.**

وهذه عقوبة يعاقب بها العبد، عند إمْعَانِه في الغواية، واستكباره على الحق، كما قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف:١٤٦-١٤٧]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} [النساء: ١٣٧]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١٦٧-١٧٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلا، للفريقين، الفريق الذي ينتفع، والـذي لا ينتفـع، قال تعالى: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُـمْ بِـالْآخِرَةِ هُـمْ كَـافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِـزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَـا كَـانَ لَهُـمْ مِـنْ دُونِ اللهِ مِـنْ أَوْلِيَـاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَـنْهُمْ مَـا كَـانُوا يَفْـتَرُونَ (٢١) لَا جَـرَمَ أَنَّهُـمْ فِي الْآخِـرَةِ هُـمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّـمِيعِ هَـلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [هود:١٩-٢٤].

قال المؤلـف رحمـه الله:(والـدليل قولـه تعـالى:{إن ربكـم الله}) : قولـه: {إن ربكـم الله}:تقرير لأمر متفق عليه؛ لِتَرْتِيبِ حُكْمٍ ومَعْلُومَة مُلْزِمَةٍ عـلى ذلـك،والمعنى أن هـذا الرب الذي أثبتم قدرته وسعة علمه، وأن الخلق خلقه هو الذي يجب أن يُؤْلَه ويُعْبَد، إذ لا يمكن أن يخلق ويَرْضَى أن يعصى ويعبد غيره؛ ولهذا كان الشـرك نقصـا في العقـل، وقدحا في الرب تبارك وتعالى. فمعنى قولـه: {إن ربكـم الله}:أي اعلمـوا أن خـالقكم وموجدكم، هو المستحق وحده للعبادة.

فهذه الآية، في سياقها تقرير لهذا المعنى العظيم؛ وهذا يدل على التوفيق الذي حظـي به المؤلف رحمه الله تعالى، من الله تعالى في انتقاء الآيات المناسبة للمقام، وهذا بحمد الله تعالى مُطَّرِد في استدلالات المؤلف، فنسأل الله من فضله العظيم، وكما قال تعالى: {وَمَـا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَّ رَمَى} [الأنفال:١٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام}: أي إن الذي خلق تلك السماوات وهذه الأرض؛ هو ربكم وإلاهكم، إذ ليس لآلهتكم المزعومة حظ، ولا نصيب من ذلك، وهذه الآية لو تدبرها الناس؛ لما أشركوا بالله جل جلاله، لأنها دالة على كمال التصرف والاقتدار، وهذا فعل الخالق وحده، فكيف يُعْبد غيره، وقد أمرنا ألا نعبد إلا إياه؟!!.

غُلَامٌ يَفْدي دِينَ الله بنَفْسه:

ولهذا في صحيح مسلم في قصة الغلام والملك، أَظْهَرَ اللهُ تعالى ضَعْفَ هذا الملك، الذي يزعم أنه ربهم، فَأَظْهَرَ الله سُبحانه ضعف هذا الملك الكذاب، وقلة حيلته، حيث عجز أن يقتل هذا الغلام، حتى أخبره الغلام، أنه لن يستطيع قتله حتى يقول:(بسم الله رب الغلام)، فقالها تخلصا من حرج الموقف الذي هو فيه، فلما لم يستطع أن يقتل الغلام إلا بعد أن قال هذه الكلمات العظيمة؛ علم الناس أنه ليس إلاهاً، وإنما الإلاه الحق هو الله رب العالمين، فأُتي الملك في مَقْتَل، من حيث لا يشعر، فَآمَنَ النَّاسُ كُلُّهم، ودَخَلوا في دين الله؛ فقتلهم هذا الطاغية، فأدخلهم الله الجنة، وتلك هي قصة أصحاب الأخدود، أهْلِ الفوز الكبير، والثبات العظيم على التوحيد.

كما في صحيح مسلم عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ الله r قَالَ:"كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي. قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ فَجِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ.

فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: **بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ**.ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ **بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ**. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ **آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ**.فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ.

فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العمليات الفدائية (الاستشهادية):

وتأمل كيف فَدَى هذا الغلام دين الله تعالى بنفسه، وهذا الحديث دليل صريح على مشروعية **العمليات الفدائية (الاستشهادية)**، وأنه لا سواء بين من يسعى في التخلص من نفسه بغضا للحياة وضيقا بها، والذي يفدي دين الله تعالى بنفسه، وهو متطلع للحياة، ولكن دين الله أعظم عنده من نفسه، وتأمل كيف قدم هذا الغلام البطل العظيم مصلحة هداية الناس، على مصلحة الإبقاء على نفسه، وكيف تعلم الناس من هذا الغلام أن المحافظة على الدين أغلى وأعظم من المحافظة على الدنيا، وتأمل كيف يفعل بعض الدعاة اليوم، حيث يدعون الناس إلى أن يَفْدُوا دنياهم بدينهم، حيث يدعونهم إلى الديمقراطية الخبيثة، الكافرة الفاجرة، وآخرون، يُفْتُون بدخول المدارس والجامعات على ما فيها من عظيم الخبث والضلال، الذي يصل أحيانا إلى حد الكفر والزندقة، ويقولون بكل بساطة لمن استفتاهم:**(ادخل واتق الله ما استطعت؟!!)**، عياذا بالله من هذا الضلال المبين.

وهل من التقوى في شيء المكوث والبقاء في أماكن الخبث والضلال؟!!، وهل من التقوى في شيء أن تفتي بهذا أنت تعلم ما في العباد من عظيم الجهل بالشرع؟!!، ولكنه التعظيم للحياة الدنيا وتقديمها، ولو على حساب الدين.

ومن الأدلة على هذه العمليات المباركة، التي أَنْكَتْ في العدو أيَّما نِكَاية، وأَقْلَقَت أمريكا وحلفاءها وأذنابها أيَّما إقلاق، ما جاء في سنن الترمذي من طريق أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ، قَالَ: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ. فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَتُؤَوِّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلاَمَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ r : إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلاَمَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ r يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلاَحِهَا، وَتَرْكَنَا الغَزْوَ فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ، شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

قوله:{الذي خلق}:كلمة الخلق، تعني الإيجاد من العدم، بعد أن لم يكن، فإن كان على غير مثال سابق، فهو الفَطْر، ومنه قوله تعالى:{فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} في ستة مواضع من الذكر الحكيم. وهذه من الصفات المشتركة من جهة الاستعمال اللغوي، كما قال تعالى:{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ } [آل عمران: ٤٩] ، وقوله:{وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي} [المائدة: ١١٠] ، ولكن كما تقدم للخالق منها الكمال المطلق، وللمخلوق منها النقص والتقييد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وربما سيقت على المعنى المتقدم، في نعت الكذابين والأفاكين والدجالين، من المشركين وغيرهم، كما قال تعالى: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا} [العنكبوت:١٧]. وهو الكلام الواضح الكذب، فلا حقيقة له إلا على لسان المتكلم به، فهو يوهم وجود شيئ غير موجود زورا وبهتانا، كما قال الشاعر:

لي حيلة في من يَنُمُّ ... وليس لي في الكذب حيلة

من كان يخلق ما يقول ... فحِيلَتِي فيه قليلة

وفي الحديث في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ r قَالَ:"أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ". قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:"ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ". قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ:"إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ".

وأما البَرْء، فهو إخراج ما استودع من القدرات في المخلوقات بالقوة إلى الفعل، وهذا فعل الرب تبارك وتعالى، إذ هو من استودعها وهو من يخرجها، ومنه اسم الله البارئ. جل الله في علاه.

قوله:{في ستة أيام}:قيل هي الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس واجتمع الخلق في يوم الجمعة، وفيه خلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه. وسُمِّيَ السَّبْتُ سَبْتاً؛ لانقطاع الخلق فيه.

وقيل وهو الراجح عندي، والعلم عند الله، أن خلق السموات والأرض ابتدأ يوم السبت وانتهى يوم الخميس، ثم خلق الله تعالى آدم في آخر يوم الجمعة بعد العصر، وهذا ما أفاده حديث أبي هريرة في صحيح الإمام مسلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ أَخَذَ رَسُولُ الله r بِيَدِي فَقَالَ:"خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ"١.

---

١ - قال الإمام البخاري في (التاريخ الكبير):[وروى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد الأنصاري عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي r قال:"خلق الله التربة يوم السبت" وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح]ا.هـ.

وجاء في جامع الأصول:[أخرجه مسلم رقم (٢٧٨٩) في صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، وهذا الحديث من أفراد مسلم، ورواه أيضاً أحمد في"المسند"٢/٣٢٧ رقم (٨٣٢٣)، وكذلك رواه النسائي في التفسير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.قال الحافظ ابن كثير بعد إيراده١/٦٩:وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم فيه ابن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب، وإنما اشتبه، على بعض الرواة، فجعله مرفوعاً، وقد حرر ذلك، البيهقي، وقال ابن كثير أيضاً٣/٤٨٨:وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال:{في ستة أيام}، ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعاً، وقال أيضاً٧/٣٢٦:وهو من غرائب الصحيح، وقد علله البخاري في"التاريخ" فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة t ، عن كعب الأحبار، وهو الأصح،وقال المناوي في:(فيض القدير):وقال بعضهم: هذا الحديث في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام، وهذا خلاف القرآن، لأن الأربعة خلقت في أربعة أيام، ثم خلقت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الحديث قد تكلم في إسناده بعض أهل العلم، كما في الحاشية المتقدمة، وأما من جهة من صححه كالإمام مسلم، فليس في معناها إشكال عند التأمل؛ لأن البعض ذهب إلى تضعيفه لأجل أن ظاهره يعارض القرآن، وفي ذلك نظر، وذلك لأن الله تبارك وتعالى بَيَّنَ تفاصيل خلق السموات والأرض في كتابه، حيث قال تعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) } فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت:٩-١٢] ، وقال سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء:٣٠]، وقال: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ

السموات في يومين، وقد سكت عن الحديث النووي في "شرح مسلم"، وممن صحح الحديث، الشوكاني في "فتح القدير" وقد تكلم عليه العلماء من جهة متنه، ورأوا أنه معارض للقرآن، ومن صححه كالشوكاني وغيره، رأوا أنه لا تعارض بينه وبين نص القرآن، فإن القرآن ذكر أن الله تعالى خلق السموات والأرض جميعاً في ستة أيام، وخلق الأرض وحدها في يومين، والحديث إنما بين أن الله تعالى خلق ما في الأرض في سبعة أيام، ويحتمل عند بعض من صححه أن تكون هذه الأيام السبعة غير الأيام الستة التي ذكرها الله تعالى في خلق السموات والأرض، وحينئذ لا تكون معارضة، وإنما الحديث فصل كيفية الخلق على الأرض وحدها، والله تعالى أعلم]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}[النازعات:٢٧-٣٣]، فهذه الآيات دالة على تداخل زمن الخلق، وأن هذه المدة كانت زمنا لخلق السموات والأرض، فمنه المتقدم ومنه المتأخر، فكانت الأيام الستة زمنا لخلق السموات والأرض، كما في صحيح البخاري معلقا: وَقَالَ طَاوُسٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} أَعْطِيَا {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} أَعْطَيْنَا وَقَالَ الْمِنْهَالُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ قَالَ {فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَقَالَ: {أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا إِلَى قَوْلِهِ دَحَاهَا} فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ {أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ إِلَى قَوْلِهِ طَائِعِينَ} فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ.....إلى أن قال:وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ وَدَحْوُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْجِمَالَ وَالْآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ {دَحَاهَا} وَقَوْلُهُ {خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} فَجُعِلَتْ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَخُلِقَتْ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ.....إلى أن قال: فَلَا يَخْتَلِفْ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللهِ....انتهى.

وعليه فلا إشكال أن يكون ابتداء خلق السموات والأرض، يوم السبت وانتهاؤه يوم الخميس، ثم اجتمع خلق آدم يوم الجمعة، ولم يقع شيء من خلق السموات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأرض في يوم الجمعة، وهذا هو **سِرُّ المسألة ونُكْتَتُهَا**، وهذا صريح حديث أبي هريرة المتقدم في صحيح مسلم، فإن الله تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ولم يحدد سبحانه وتعالى في أدلة القرآن هذه الأيام الستة، كما أنه سبحانه وتعالى لم يذكر فيها خلق آدم عليه السلام في هذه الأيام، وعليه فلا تعارض البَتَّة، فخلق السموات والأرض وقع في الأيام من السبت إلى الخميس، وانتهى خلق السموات والأرض في يوم الخميس، وخُلِقَ آدم في يوم الجمعة، ولم يكن في السبت الذي يليه خلق أصلا. والله أعلم.

والله قادر على أن يخلقها في ما شاء فيما دون ذلك، فالأمر كما قال تعالى:{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل:٤٠]، وقوله:{مَا كَانَ لله أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [مريم:٣٥]، ونحوها من الآيات.

وقد قال بعض أهل العلم:ومن هذا يتعلم العباد، التأني في الأمور والحلم، والإتقان. ولله تعالى المثل الأعلى.

وفي صحيح مسلم من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَعْرَجُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ الله r :"خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا".

وفي صحيح البخاري عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ r وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ الله قَالُوا جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ" فَنَادَى مُنَادٍ ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ فَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ t قَالَ: سَمِعْتُ، رَسُولَ اللهِ r يَقُولُ:"كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

والظاهر أن هذه الأيام الستة هي من أيام الدنيا؛ لأن الحديث سماها بأعيانها، وخاطب بها الناس بما يعقلون ويعلمون.

قوله:{ثم استوى على العرش}، (ثُمَّ) هنا تفيد الترتيب والتعقيب والتراخي، والمعنى أنه جل وعلا، بعد أن فرغ من خلق السموات والأرض،استوى على عرشه سبحانه وتعالى.

معنى الاستواء عند السلف الصالح:

والاستواء من الصفات التي نَازَعَ فيها أَهْلُ البِدْعَةِ، أَهْلَ السنة والجماعة، بل إن حقيقة نفي الاستواء يتضمن نفي تعظيم الرب تبارك وتعالى، بل وهو تكذيب لله جل جلاله في خبره الذي أخبر به عن نفسه، وهذا كفر بالله جل وعلا، فإن الدواب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والبهائم إذا تَأَلَّت رفعت بصرها إلى السماء، فعقيدة العُلُو، أي علو الله على خلقه، مستقرة في الفطرة السليمة، ولكن بسبب قراءة بعض المبتدعة - كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة - في كتب اليونان الفلاسفة الضالين المُهَرْطِقين؛واعتدادهم بعقولهم السقيمة، وأفهامهم الفاسدة التي ورثوها عن هؤلاء الضالين؛ فوقعوا في سوء الظن بالله تبارك وتعالى؛ ووقعوا في تحريف صفات الرب تبارك وتعالى.

والاستواء جاء في القرآن الكريم على معاني:

المعنى الأول: القَصْدُ والعَمْد، ويدخله فيه معنى الارتفاع، كما في قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٩]، وقوله:{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت:١١]، فهنا الاستواء بمعنى القصد.

المعنى الثاني: وهو الذي نازع فيه المبتدعة وهو بمعنى الاستقرار والعلو والفوقية على العرش، وهذا هو معنى هذه الصفة، وأما الكيفية فكما تقدم هي مجهولة بالنسبة لنا؛ لأن الله تبارك وتعالى أخبرنا أنه استوى على عرشه ولم يخبرنا كيف استوى، فنحن نقف عند حدود ما علمنا فإن عقولنا قاصرة عن إدراك ذلك ومعرفته، إلا بخبر توقيفي من الله جل جلاله، وهذا كما تقدم عام في كل صفاته، علينا أن نؤمن بها، ونثبت ومعانيها، وأما كيفيتها فمجهولة، فنفوض ذلك إلى عالمها، وهو الله سبحانه وتعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس معنى ذلك أنه ليس هناك كيفية، فإن هذا المعنى باطل قطعا، ولكننا لا نعلم الكيفية، وعدم علمنا بها لا ينفي وجودها، إذ أن نفي وجود كيفية البتة هو نفي للصفة من أصلها، فتنبه.

وقد رَاوَغَ المُبتدعة في إثبات هذه الصفة، حتى اضطُرُّوا أن يفزعوا إلى قول شاعر نصراني، قيل هو الأخطل، فَحَرَّفُوا الكَلِمَ عن مَوَاضِعِه، ومِنْ بعد مَوَاضِعِه، حيث قالوا استوى بمعنى استولى، وهذا باطل لغة وشرعا، وعقلا، إذ ليس للعرش خصوصية في الاستيلاء، فالرب تبارك وتعالى مستول على كل شيء، على أن هذه التعبير باطل كذلك لأن استولى، تفيد أن هناك من ينازع الله في عرشه؛ ولهذا احتاج الله تعالى إلى أن يستولي عليه، وأن يغلب ويقهر من نازعه، وهذا وحده في حد ذاته كفر وزندقة؛ ولهذا قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} [الإسراء:٤٢-٤٣].

وقد تشبه هؤلاء باليهود الذين قيل لهم قولوا: {حِطَّة}، فحرفوها وقالوا:(حنطة)، فزادوا النون تحايلا وعنادا، وكذلك هؤلاء،فالله تعالى قال: {استوى}، فزادوا حرف اللام، فقالوا:(استولى)، وقد فَنَّدَ شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك من وجوه في مجموع الفتاوى، فقال:[السَّابِعُ:أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ أَنْ لَفَظَ اسْتَوَى فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى اسْتَوْلَى ؛ إذْ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ عُمْدَتُهُمْ الْبَيْتُ الْمَشْهُورُ:

ثُمَّ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ * * * مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَمْ يَثْبُتْ نَقْلٌ صَحِيحٌ أَنَّهُ شِعْرٌ عَرَبِيٌّ وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ أَنْكَرُوهُ وَقَالُوا : إِنَّهُ بَيْتٌ مَصْنُوعٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ احْتَجَّ بِحَدِيثِ رَسُولِ الله r لَاحْتَاجَ إِلَى صِحَّتِهِ فَكَيْفَ بِبَيْتٍ مِنْ الشِّعْرِ لَا يُعْرَفُ إسْنَادُهُ وَقَدْ طَعَنَ فِيهِ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ ؛ وَذَكَرَ عَنْ الْخَلِيلِ كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو الْمُظَفَّرِ فِي كِتَابِهِ " الْإِفْصَاحِ " قَالَ:سُئِلَ الْخَلِيلُ هَلْ وَجَدْت فِي اللُّغَةِ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوْلَى؟ فَقَالَ:هَذَا مَا لَا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ؛ وَلَا هُوَ جَائِزٌ فِي لُغَتِهَا وَهُوَ إمَامٌ فِي اللُّغَةِ عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ حَالِهِ فَحِينَئِذٍ حَمْلُهُ عَلَى مَا لَا يُعْرَفُ حَمْلٌ بَاطِلٌ]ا.هـ.

وقد نظم ابن القيم في نونيته الرد على هؤلاء وكشف عوارهم فقال:

أُمِـرَ اليهـود بـأن يقولوا حِطَّةٌ.... فَـأَبَـوْا وَقَالُوا حِنْطَةٌ هِـوَان
وكذلك الجَهْمِيُّ قِيْلَ لَهُ اسْتَوَى .... فَأَبَى وَزَادَ الحَـرْفَ للنُّقْصَان
قال اسْتَوَى اسْتَوْلَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ .... لُغَةً وَعَقْـلاً ما هما سِـيَّان
عِشْرُونَ وَجْهاً تُبْطِلُ التَّأْوِيلَ بِاسْـ.... تَوْلَى فَلا تَخْرُجْ عِنِ القُـرآن
قَـدْ أُفْرِدَتْ بِمُصَنَّفٍ هُوَ عِنْدَنَـا .... تَصْـنِيفُ حَبْرٍ عـالم رَبَّـانِي
وَلَقَدْ ذَكَـرْنَا أَرْبَعِـينَ طَرِيقَـةً قَدْ.... أَبْطَـلَـتْ هَـذَا بِحُسْنِ بَيَان
هِيَ فِي الصَّوَاعِقِ إنْ تُرِدْ تَحْقِيقَهَا .... لا تَخْتَفِي إلا عَـلى العُـمْيَان
نُـوْنُ اليَهُـودِ ولَامُ جَهْمِيٍّ هُمَـا .... في وحْيِ رَبِّ العَرْشِ زَائِدَتَان

المعنى الثالث: التمام والنضج والفتوة، وذلك في قوله تعالى في وصف موسى عليه السلام:{وَلَمَّا بَلَـغَ أَشُـدَّهُ وَاسْـتَوَى آتَيْنَـاهُ حُكْـمًا وَعِلْـمًا وَكَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ} [القصص:١٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي المعنى الثاني يقول ابن القيم، مدافعا عن حق الله تعالى، وعن عقيدة الصحابة y، والسلف في ذلك، في متن القصيدة النونية:

واقرأ تَفَاسِيرَ الأئمة ذَاكِرِي الإسْـ..... ـنـاد فَهْيَ هِدَايَةُ الحَيْرَان

وانظر إلى قولِ ابن عباسٍ بِتَفْسِـ .... ـيرِ استوى إن كنت ذا عِرْفَان

وانظر إلى أصحابه من بعده كَمُجَـ .ـاهِدٍ ومُقَاتِلٍ حَبْرَان

وانظر إلى الكَلْبِيِّ أيضا والذي قد قاله من غير ما نُكْرَان

وكذا رُفَيْعُ التَّابِعيُّ أَجَلُّهُم ذاك الرِّيَاحِيُّ العظيم الشَّان

كَمْ صَاحِبٍ أَلْقَى إليه عِلْمَه فَلِذَاك ما اخْتَلَفَتْ عليه اثْنَان

فَلْيَهْنْ مَنْ قَدْ سَبَّه إذ لم يُوا فِقْ قَوْلَه تَحْرِيفَ ذي البُهْتَان

فلهم عِبَارَات عليها أَرْبَعٌ قد حُصِّلَتْ للفَارِس الطَّعَان

وهي اسْتَقَرَّ وقَدْ عَلا وكذلك ارْ تَفَعَ الذي ما فِيه مِنْ نُكْرَان

وكَذَاكَ قَدْ صَعَدَ الذي هو رَابِعٌ وأبو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَاني

يَخْتَارُ هَذَا القَوْلَ في تَفْسِيرِه أَدْرَى من الجَهْمِيِّ بِالقُرْآن

والأَشْعَرِيُّ يقول تفسير اسْتَوَى بِحَقِيقَةِ اسْتَوْلَى مِن البُهْتَان

هو قول أهل الاعتزال وقول أَتْـ بَاعِ جَهْمٍ وَهْوَ ذُو بُطْلَان

وانْظُر كَلامَ إمَامِنَا هُوَ مَالِكٌ قَدْ صَاحَ عَنْ قَوْلٍ لِذِي إِتْقَان

في الاسْتِواء بِأَنَّه المَعْلُوم لكن كَيْفُهُ خَافٍ على الأَذْهَان

ورَوى ابْنُ نَافِعٍ الصَّدُوقُ سَمَاعَهُ مِنْهُ على التَّحْقِيقِ والإتْقَانِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله:{على العرش}: ومعناه لغة ما جاء في القاموس المحيط:[سَرِيرُ المَلِكِ]ا.هـ.

وقد وردت هذه الكلمة مضافة إلى الله تعالى في الكتاب العزيز في إحدى وعشرين موضعا، ووردت مقيدة باستواء الرب على العرش، في سبعة مواضع من الذكر الحكيم.

والعرش خلق عظيم من مخلوقات الله تبارك وتعالى، فإذا كان الكرسي الذي هو موضع قدمي الجبار جل جلاله، قد وسع السموات والأرض، كما قال تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة:٢٥٥]، فكيف بالعرش الذي استوى عليه الرب تبارك وتعالى؛ ولهذا قال بعض أهل العلم إنه أكبر مخلوقات الله تبارك وتعالى. والله أعلم.

ما ورد عن الصحابة في معنى الكرسي والعرش:

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدِ بْنُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ، ثنا أَبُو أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَمَّارٍ الدُّهْنِيِّ، عَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ، عَنِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "الْكُرْسِيُّ: مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ"]ا.هـ.وفي تفسير ابن كثير قال:[قد رواه وَكِيع في تفسيره: حدثنا سفيان عن عمار الدُّهْنِي عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:"الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره"].ا.هـ. قلت:وهذا إسناد صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ذكر الله تبارك وتعالى عرشه، وعرش المخلوق في سياق قصة واحدة، وهذا دال على أن الاشتراك في المسمى لا يستلزم التطابق والتماثل، قال تعالى: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل:٢٣-٢٦]؛ ولهذا كان من عظيم فقه السلف الصالح أن أثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه، مع نفي أن يكون ما أثبته لنفسه، مُمَاثِلاً لما عند خلقه؛ ولهذا قال مالك المقولة المشهورة ، وقد سَأَلَهُ سائل، عن الاستواء كيف هو؟!: فقال الاستواء معلوم والكيف غير معقول (وفي رواية:والكيف مجهول) والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، وهذا القول متواتر عن السلف، فهو منسوب إلى ربيعة، وأحمد وغيرهم.

وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"مَنْ آمَنَ بِالله وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ الله أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا" (وفي راوية:"جَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا")، قَالُوا يَا رَسُولَ الله: أَفَلَا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ (وفي رواية:"أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ")، قَالَ:"إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان):[قوله تعالى:{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} الآية، هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله:{يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} ونحو ذلك، أشكلت على كثير من الناس إشكالاً ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى التعطيل وقوم إلى التشبيه، سبحانه وتعالى علواً كبيراً عن ذلك كله، والله جل وعلا أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال، وحاصل تحرير ذلك أنه جل وعلا بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين:**أحدهما**: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الحوادث في صفاتهم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله r ؛ لأنه لا يَصِفُ اللهَ أَعْلَمَ بِاللهِ مِنَ الله:{أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ}، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله r ، الذي قال فيه:{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}، فمن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبته له رسوله r زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جل وعلا، فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله جل وعلا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ!.

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق، فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله r مع تنزيهه جل وعلا عن مشابهة الخلق، فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا؛ هي قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، فنفى عن نفسه جل وعلا مماثلة الحوادث بقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، فصرح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال. والظاهر أن السِّر في تعبيره بقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، دون أن يقول مثلاً: {وهو العلي العظيم} أو نحو ذلك من الصفات الجامعة؛ أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فبين أن الله متصف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى، وبين صفات خلقه، ولذا جاء بقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ، بعد قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة البتة، وسنوضح إن شاء الله هذه المسألة إيضاحاً تاماً بحسب طاقتنا، وبالله جل وعلا التوفيق]ا.هـ.

لا تعارض بين أسماء الله وصفاته:

واعلم رحمك الله، أن ما يتصوره البعض من تعارض الصفات، إنما وقع لهم؛ لأنهم قاسوها على أنفسهم الحقيرة الضعيفة، أما الخالق تبارك وتعالى، فإنه إذا أخبر عن نفسه بشيء؛ فإنه كمال قال سبحانه وتعالى، إذ {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

فلا تعارض بين إخباره جل وعلا، من أنه ينزل إلى السماء الدنيا إذا بقي ثلث الليل الآخر، وإخباره سبحانه أنه مستوى على عرشه، وإنما هذا في حقنا نحن؛ ولهذا لم يشكل على الصحابة **y** ذلك أبدا؛ لفهمهم لهذه الحقائق الكبار، فلم يقل أحد منهم: إن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النزول يلزم منه خُلُوُّ العرش، ويلزم منه كذا كذا، مما تكلم به أهل الضلال والانحراف.

ولكن أعود وأقول: أين الذين يعتدون بفهم الصحابة والسلف، والله المستعان.

قوله:{يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً}: أي هو المتصرف في تدبير الليل والنهار، وحده لا شريك له، فيدخل هذا على هذا والعكس، والمعنى أنه ليس لآلهتكم الباطلة حظ في ذلك وقسط منه، بل هو الله وحده، مكور النهار على الليل، ومكور الليل على النهار،كما قال تعالى:{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} [الزمر: ٥]، فيدخل الليل على النهار، والنهار على الليل، وهذا معنى الغشيان .

وفي قوله:{يطلبه حثيثا} دليل على سرعة استجابة المخلوقات، ومسارعتها في مراضي الله تبارك وتعالى وطاعته، وفي هذا تَهْيِيجٌ للعباد أن يسلكوا هذه السبيل، وفي الذكر الحكيم قال الله تعالى عن موسى عليه السلام:{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه:٨٣-٨٤] ؛ ولهذا قال تعالى:{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: ١٣٣]، وقال:{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١]، وأما في شأن الدنيا قال سبحانه:{هُوَ الَّذِي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك:١٥]، وقال :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة:٩-١٠] ، وقال:{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص:٧٧]، فجعل الدنيا تابعة، والآخرة وما عند الله، هو الأصل.

فالليل والنهار مخلوقان لله تعالى، وهما دالان على هذه المعاني الكبار؛ ولهذا كان ذَمُّهُمَا، وسَبُّهُمَا، أَذِيَّةً لله تبارك وتعالى، إذ لا حول لهما ولا قوة، بل هما مُمْتَثِلان لأمر ربهما تبارك وتعالى، فَلِمَ يَلْحَقُهُمَا هذا التنقص؟!!؛ ولهذا في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ t قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ r :"قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ".

لا تثبت ما لم يثبته الله:

واعلم رحمك الله تعالى، أنه من الأخطاء الشائعة في هذا المقام نسبة المشيئة والإرادة للأيام والليالي، وكذلك للأقدار والظروف، فتسمع هنا أو هناك من يقول: شاءت الأيام، أو شاءت الأقدار، أو شاءت الظروف، وهذا كله من الرجم بالغيب، ومن تَكَلف ما لا علم لنا به، فإن الله تعالى لم يثبت لهذه الأشياء مشيئة؛ حتى ننسبها إليها، فلا نقول: شاءت الأيام والأقدار والظروف، ولكن نقول: شاء الله تعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وننبه في هذا المقام على بيت ينسب إلى الشافعي، ولا أظنه يثبت عنه:

دع الأيام تفعل ما تشاء ... وطِب نفسا إذا حكم القضاء

ولكن نقول:

هو الرَّحمن يفعل ما يشاء ... فِطِب نفسا إذا حَكَمَ الإله

قوله: {والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره}: أي وكذلك الشمس والقمر، بل والنجوم كذلك، الكل مسخر بأمره، أي مقهور مسير مربوب، للذي خلقها وخلق كل شيء، ألا وهو الله الواحد القهار.

قال الإمام الشنقيطي في (أضواء البيان): [قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة أشياء عظام، فيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا هو، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول على أنه الواحد المستحق لأن يعبد وحده. والخمسة المذكورة هي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم.

وكرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء، وأنها من أعظم أدلة وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده؛ كقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}]، وإغشاؤه الليل النهار: هو تسخيرهما، وقوله: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالنَّهَارَ}، وقوله: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}، وقوله: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ} الآية، وقوله: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، إلى غير ذلك من الآيات]ا.هـ.

وفي قوله: {مسخرات}: تذكير بنعمة الله تعالى علينا، بأنه ذللها لنا، فلا تتأخر عما فيه مصالحنا، كما قال الشنقيطي في(أضواء البيان): [والتسخير في اللغة: التذليل]ا.هـ.

وبالتالي فإن هذا من تمام قيام الحجة على العباد، فإن الله تبارك وتعالى قد قطع أعذارهم، من جهة المعاش والمعاد (أي كونا وشرعا)؛ لتكتمل البينة وتقوم الحجة.

أما من جهة المعاش: فبتسخير المخلوقات لهم، عُلْوِيُّهَا وسُفْلِيُّهَا، دَقِيقُها وجَلِيلُها، كبيرها وصغيرها[1]، كما قال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم:٣٢-٣٤]؛ ولهذا ذكر بعد هذه الآيات دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، أن يُجَنِّبَهُ وبَنِيهِ عِبَادَةَ الأصنام، والمعنى أنه وَمَعَ ظُهورِ التَّسْخِيرِ، وتَمَام النِّعمة من

---

١ - ومن أراد معرفة المزيد عن مسألة التسخير، وحُجِّيَّتها على العباد؛ فليراجع كتابي:(الإنسان والأمانة الكبرى).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله على خلقه، إلا أن إبراهيم الخليل، رأى أن كثيرا من الناس على الضلال، عندها عَلِمَ شِدَّةَ الوَرَطَةِ وخُطورَةَ المسألة؛ فَأَشْفَقَ على نَفْسِه وذُرِّيَّتِه، فسأل الله تعالى، له ولِبَنِيه النجاة،كما قال تعالى{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم:٣٥-٣٦].

فيالله ما ذا نقول نحن؟!!؛ ولهذا قال إبراهيم التيمي:ومن يأمن البلاء بعدك يا إبراهيم.

وقال تعالى:{وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) }

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النحل:٥-١٤] الآيات، في هذه السورة التي لو سُمِّيَت بسورة النِّعَم؛ لما كان بعيدا، كما لو سُمِّيَت سورة الأنعام بسورة التَّوحِيد كذلك.

وقال تعالى في آيات جامعة لذلك: {اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الجاثية:١٢-١٣].

وأما من جهة المعاد: فقد أرسل الله تبارك وتعالى الرسل وأنزل الكتب مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:١٦٤-١٦٥]، وقال: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأنعام:٤٨-٤٩]؛ فحصل بذلك الإعْذَارُ والإنْذَار، فلله الحمد والمنة، فاللهم أعِنَّا على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبَادَتِكَ.

قوله: {ألا له الخلق والأمر}: بعد أن ذكر تبارك وتعالى بعض أكبر مخلوقاته، بَيَّنَ تبارك وتعالى، أنه لا شيء يخرج عن قهره وأمره، فلا العرش، ولا السموات وما فيها، ولا الأرض وما عليها، ولا ما بين ذلك، الكل خلقه، والملك ملكه، كما قال تعالى: {لَهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} [طه:٦]، فهو المتصرف فيه بلا منازع له في أمره تبارك وتعالى.

و تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر والقصر، فَيَخْرُجُ بذلك كل ما سوى الله تبارك وتعالى، وبهذه الآية وأمثالها، احتج أهل السنة والجماعة، على أن القرآن منزل وليس مخلوق.

كما قال الإمام اللالكائي في كتابه (اعتقاد أهل السنة) والذي ذكر فيه ما أجمعوا عليه:[استنباط آية أخرى من كتاب الله وهي قوله: {ألا له الخلق والأمر}، فَفَرَّقَ بَيْنَهُما، والخَلقُ هو المخلُوقَات، والأمْرُ هو القُرآن.

أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن العباس قال أخبرنا عبد الله بن محمد البغوي قال حدثنا سعيد بن نصير أبو عثمان الواسطي الشعيري في مجلس خلف بن هشام البزار قال سمعت ابن عيينه يقول: ما يقول هذا الدُّوَيْه؟!، يعني بشر المريس، قالوا يا أبا محمد بن أبي عمران: القرآن مخلوق، قال:فقد كذب قال الله عز وجل: {ألا له الخلق والأمر}، فالخلق خلق الله، والأمر القرآن.

وكذلك قال أحمد بن حنبل ونعيم بن حماد ومحمد بن يحيى الذهلي وعبد السلام بن عاصم الرازي وأحمد بن سنان الواسطي وأبو حاتم الرازي]ا.هـ.

وقال أيضا في نفس المرجع :(اعتقاد أهل السنة) بعد أن ذكر خلقا كثيرا من الأئمة والعلماء في مختلف الأمصار والأقطار، ثم قال:[قالوا كلهم:القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق؛ فهو كافر، فهؤلاء خمس مائة وخمسون نفسا، أو أكثر، من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التابعين وأتباع التابعين والأئمة المَرْضِيين، سوى الصحابة الخَيِّرين، على اختلاف الأعصار ومُضِيِّ السنين والأعوام، وفيهم نحو ممن مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم، وتَدَيَّنُوا بمذاهبهم، ولو اشتغلت بنقل قول المحدثين لَبَلَغَت أسماؤهم أُلُوفًا كثيرة، لكني اختصرت، وحذفت الأسانيد للاختصار، ونقلت عن هؤلاء عَصْراً بَعْدَ عَصْرٍ، لا يُنْكِرُ عليهم مُنْكِر، ومَنْ أنْكَرَ قَوْلَهُم اسْتَتَابُوه أو أمَرُوا بِقَتْلِه أو نَفْيِه أو صَلْبِه، ولا خلاف بين الأمة، أن أول من قال القرآن مخلوق، جعد بن درهم في سِنِيٍّ نَيِّفٍ وعشرين، ثم جهم بن صفوان، فأما جَعْدٌ، فقتله خالد بن عبد الله القَسْرِي، وأما جَهْمٌ فَقُتِلَ بَمَرْو، في خلافه هشام بن عبد الملك]ا.هـ.

قوله:{تبارك الله رب العالمين}: تبارك: في هذا المقام صيغة كَثْرَةٍ وامتلاء ودوام، أي كثير البركة دائمها جل الله في علاه، ولها معان أخرى عظيمة، كما جاء في تفسير البغوي حيث قال:[{تَبَارَكَ اللهُ} أي:تعالى الله وتعظم. وقيل:ارتفع. والمبارك المرتفع. وقيل:تبارك تفاعل من البركة وهي النماء والزيادة، أي:البركة تكتسب وتنال بذكره.

وعن ابن عباس قال:جاء بكل بركة. وقال الحسن:تجيء البركة من قِبَله وقيل:تبارك: تقدس. والقدس:الطهارة. وقيل:تبارك الله أي:باسمه يتبرك في كل شيء. وقال المحققون:معنى هذه الصفة ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. وأصل البركة الثبوت. ويقال:تبارك اللهُ ولا يقال:متبارك ولا مبارك، لأنه لم يرد به التوقيف]ا.هـ.

وجاء في تفسير ابن كثير:[وقوله تعالى:{ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} أي:يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حثيثًا، أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، فقوله: {وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} أي:لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: {يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ}، منهم من نَصَبَ، ومنهم من رَفَعَ، وكلاهما قَريب المعنى، أي:الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال منبِّها: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}؟، أي:له الملك والتصرف، {تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، كما قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا}]ا.هـ.

قوله:(والرب هو المعبود): هذا بَيَانٌ لِوَقْتِ التَّكْلِيف، وقيام الحجة على العباد، ودلالة على المراد بالخلق، والمقصود الأعظم من إيجاد العباد، أن لا يعبدوا إلا الله، فما بَثَّهُ الله تبارك وتعالى في العالم، من الشواهد والمخلوقات والآيات، كل ذلك دال على وجود الخالق العظيم، وتفرده بالحكم والأمر والتصرف، جل الله في علاه، ولكن العَبد ومع هذه الدلائل كلها؛ يبقى خاليا ذِهْنُهُ تماما، عما يُرادُ منه، وما يُرادُ به، فشاهد الكون من حوله أقام حُجَّةَ وجود الخالق العظيم، ودَلَّ على بعض صفاته تبارك وتعالى، ثم أرسل الله الرسل وأنزل الكتب فقامت حجة الله على خلقه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحُجَّةُ التي يُحاسَبُ بها العبَاد:

وبهذه الحجة يأخذ الله تبارك وتعالى عباده، أما شاهد الفطرة، وشاهد الكون، كل ذلك لا يتضمن ما يُرادُ من العبد أن يقوم به في هذا العالم، حتى أتاه العلم من الله تبارك وتعالى، فمن أعرض، أو عاند أو استكبر بعد ذلك، كان من الكافرين، وحقت عليه كلمة العذاب. نعم شاهد الفطر يدل على أنه، إن كان هناك معبود، وكان هناك أمر بالعبادة؛ فلا أحق من الله الخالق الرازق بذلك، ولكن يبقى بيان ذلك والإلزام به، أمرا متعلقا بنصوص الوحي، التي توجه الإنسان إلى ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه.

وهذه المسألة عند من لم يفقهها، أحدثت خللا واضحا في التصور، وفسادا في التعامل مع العباد في مسألة، متى تقوم الحجة، وبم تقوم الحجة.

فإن البعض يعتقد أن شاهد الكون والفطرة، كاف في إقامة الحجة على العباد، فإن سألته، هل هذا الشاهد فيه الأمر بعبادة الله؟، وهل فيه أن لا نعبد أحدا سواه؟، وما هي هذه العبادة التي يريدها الله؟، وما أنواعها؟، وما عقوبة المخالف لذلك؟، ومن أين علمنا أن هناك عقوبة أصلا؟، وما هو بالتحديد الشيء الذي لو صرف لغير الله تعالى؛ كان شركا أكبر؟، وما عقوبة الشرك الأكبر؟، وهل الله تعالى منع عباده منه؟ وحرمه عليهم؟، هل هذه المعلومات يتلقاها العبد من هذا الشاهد؟!!. أم لابد من البيان الصريح الصحيح من الله تبارك وتعالى إلى خلقه؛ لتقوم الحجة ويقع التكليف؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أوَلَيس الكل مُتَّفِقٌ على أن العبادة لا يجوز تحديدها بالأهواء، ولا الآراء، ولا بفعل الناس، ولا بإملاءات الواقع، وأحواله؟.

أوَلَسْنا مُتَّفِقِين على أن الأصل في العبادة الحظر والمنع والتحريم، حتى يأتي الدليل الصحيح الصريح عن الله تبارك وتعالى ورسوله r .

إذن فلنعلم أن القول بأن شاهد الكون والفطرة، كاف في قيام الحجة، قول باطل، وصاحبه حجيج نفسه، إن احتكم إلى أصوله التي بني عليها معتقده ودينه، ومن ذلك ما يتعلق بمعنى قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:١٥٣]، فالآية دلت، على منازعة الشياطين صراطَ الله تعالى بين يدي العباد، بالسبل المنحرفة الضالة، فمن أين لنا أن نعلم أن هذا صراط الله؟، وأن ذاك سبيل الشيطان؟، لا سبيل إلى ذلك إلا بما أنزله الله تعالى في كتابه، وما أوحى به إلى نبيه r من الحكمة.

أولم يأت الذم الصحيح الصريح في الكتاب العزيز، للظن والرجم بالغيب؟، وأن كل مَنْ بَنَى دينه على ذلك؛ فإنه ضال منحرف؟، ونحن نعلم يقينا، أن كل إنسان مُعْتَدٌّ بعقله وفهمه ورأيه، فمن أين لنا أن نميز، بين قول فلان وفلان، وهوى فلان وفلان، ورأي فلان وفلان؟، إلا أن يكون بيننا حكم عدل، هو حجة على الجميع، ألا وهو شرع الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [الشورى:١٠]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩].

فعاد الأمر كله مبدأً ومنتهى، إلى العلم الشرعي، وجودا وعدما، فمن بلغه هذا العلم، وبُيِّن له مراد الله تبارك وتعالى فقد قامت عليه الحجة، وكذلك من سمع به ولم يأته، فقد قامت عليه الحجة، ومن باب أولى المعاند والمستكبر، وأما من كان طالبا للحق سائلا عنه، ولديه استسلام عام له، فهو مهما أتاه من الحق قبله، ومتى ما أزيلت عنه الشبة أذعن وانقاد، فهذا معذور، فيما ما لم يبلغه من العلم، سواء في ذلك أصول الدين أو فروعه، وهذا الذي يسميه العلماء بالعذر المعتبر، كالجهل والتأويل، والخطأ والنسيان والإكراه، ونحو ذلك من الأعذار المعتبرة شرعا، وأجمع عليها السلف الصالح.

فالأصل في الإنسان، الجهل بما يُرَادُ منه وما يُرَادُ به، حتى يأتيه العلم، فتقوم الحجة ويقع التكليف. وهذا ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة، وهذا ما نقله الأئمة عنهم، وهذا عام في فروع الدين وأصوله، وتأمل فيما قاله اللالكائي في كتابه الذي نقل فيه ما يعتقده أهل السنة وأجمعوا عليه، حيث قال في كتابه (اعتقاد أهل السنة):[باب جماع توحيد الله عز و جل وصفاته وأسمائه وأنه حي قادر عالم سميع بصير متكلم مريد باقي.

سياق ما يدل من كتاب الله عز و جل وما روى عن رسول الله r على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته **بالسمع لا بالعقل:**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الله تعالى يخاطب نبيه r بلفظ خاص والمراد به العام: {فاعلم أنه لا إله إلا الله}، وقال تبارك وتعالى: {اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين}، وقال تبارك وتعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون}، **فأخبر الله نبيه r في هذه الآية أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء قبله التوحيد**، وقال تعالى: {قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب}، وقد استدل إبراهيم بأفعاله المحكمة المتقنة على وحدانيته بطلوع الشمس وغروبها وظهور القمر وغيبته وظهور الكواكب وأفولها، ثم قال: {لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين}؛**فعلم أن الهداية وقعت بالسمع، وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع**، قال الله تبارك وتعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون}، وقال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا}، وقال تبارك وتعالى: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}، وقال تبارك وتعالى: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون * ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين} {وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تأتيهم بينة ما في الصحف الأولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى}، **فدل على أن معرفة الله والرسل بالسمع كما أخبر الله عز و جل وهذا مذهب أهل السنة والجماعة**]ا.هـ.

إذن في قوله:(والرب هو المعبود)، بيان للنتيجة التي لا مَحِيدَ عنها، لكل عاقل سليم العقل، التزم ما دلت عليه النصوص المتقدمة، أن الرب تبارك وتعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وهو المعبود جل الله في علاه، إذ أن ما سلمتم به من الربوبية؛ مقتض ومستلزم لإثبات العبودية لله وحده لا شريك له، فلا معنى لمجادلة الرسل فيما جاءوا به من الأمر بالتوحيد الخالص لله رب العالمين، إلا الجحود والعناد والاستكبار.

فالعبادة بالإخلاص والمتابعة هو سبيل النجاة ولا سبيل سواه.

قال المؤلف رحمه الله:(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}، شرع المؤلف يستدل على هذه النتيجة الحتمية، لتلك المقدمة المُلْزِمة للعباد كلهم، إلا أن يكون معاندا مستكبرا، أو مجنونا فقد عقله، فهو لا يميز.

قوله:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ}: هذا النداء يفيد التخصيص، والمقصود هنا التخصيص بالتكليف أمرا ونهيا، كما أنه يفيد التشريف لمن كان أهلا لذلك، أما الصم البكم الذين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يعقلون، فهؤلاء أهل هذه الآية:{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنفال:٥٥].

نوعي الإصغاء:

كما أن هذا النداء، حَاثٌّ على ضرورة الإصغاء والتفكر، والتعقل مع ما يُراد طَرْحُه وإيرَادُه، وضرورة الميل إلى الحق والركون إليه، والاستبصار فيه؛ ولهذا قال تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [الزمر:٢١]، وقال:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق:٣٧].

وإلا فإن الله تبارك وتعالى حدثنا، عن نوع آخر من الإصغاء، يستعيض به المجرمون، عن الإصغاء لكلام الله تعالى ورسله، والركون إلى الحق، كما قال تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} [الأنعام:١١٢-١١٣].

ثم اعلم رحمك الله،أن شَرَفَ الخطاب من شَرَفِ الْمُخَاطِبِ به، وحيث أن الْمُخَاطِبَ هنا، هو الله رب العالمين، تَعَيَّنَ استفراغ الوسع، في الفهم والإصغاء، وبلوغ الغاية من القيام لله تعالى، بالإكرام والإجلال، والخضوع والخشوع، وتأمل قوله تعالى:{لَوْ أَنْزَلْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر:٢١].

قوله:{اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم}: هذا سبب النداء، فلا تلتفت إلى غيره، لا في حالك، ولا فيما بعد ذلك، ولا فيما وراء ذلك، وهو أمر بالعبادة للرب الذي خلق، والمعنى أن من لم يخلقكم؛ لا يستحق أن يُعْبَد.

قوله:{لعلكم تتقون}: دليل أن على التقوى قَرِينُ التوحيد، فلا يُتَصور وجود مُتَّقٍ غير مُوَحِد، ولا مُوَحِد غير مُتَّقٍ، فويل للذين يَدَّعُون ولاية الله، وهم يَدْعُونَ الناس إلى الشرك والتنديد، وعبادة العبيد، وويل للذين يصدقونهم على ذلك، ويتبعونهم.

واعلم، أن من أبرز علامات التقوى، تقديم فرائض الله جل وعلا، وليس هناك فريضة أعظم ولا أجل، من تحقيق التوحيد لله تعالى، والبراءة من الشرك والمشركين، بل هذه هي حقيقة التقوى.

فإن هناك قدرا من التقوى، لا يتصور وجود الإسلام والإيمان بدونه، وهو التقوى في حق الله جل وعلا، بالقيام له بالتوحيد الخالص، إيمانا بالله وكفرا بالطاغوت، وبهذا الاعتبار يَصْدُقُ وَصْفُ التقوى على كل مؤمن ومؤمنة، ثم الناس بعد ذلك درجات متفاوتة في تقوى الله جل وعلا؛ ولهذا قال تعالى:{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}[الحجرات:١٣]، وقال النبي r كما في حديث جابر في صحيح مسلم:"قَدْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ للهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبَرُّكُمْ". وهذا المعنى متواتر عن النبي r في مواضع من الصحيحين.

وعليه فالتقوى هنا بمعنى التوحيد، و{لعل} من الله متحققة الوقوع، والمعنى أن من أراد أن يكون متقيا، فليبدأ بهذا الحق، الذي لا تكون تقوى بدونه، مَهْمَا اتَّقَينَا من المُحَرَّمَات الأخرى، ومَهْمَا فعلنا من المأمورات، والطاعات والقربات، فمن أراد أن يتقي عذاب الله؛ فعليه بتوحيد الله جل وعلا، إذ لا عاصم من عذاب الله، إلا من رحم الله، والله تعالى لا يرحم يوم القيامة، إلا أهل التقوى الموحدين، كما قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:١٥٦].

قوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ}: أي احفظوا الإحسان وتعاملوا به مع الله تعالى، فإنكم تعلمون يقينا، أن الله تعالى هو الذي فعل بكم ذلك كله، فهو الذي سخر لكم الأرض والسماء وما فيهما، وجعل السماء سقفا محفوظا، وذلل الأرض، ومَهَدَها، وجعلها مسخرة لكم، لا تبغي عليكم، ولا تمتنع منكم، مع عظمة حجمها وقدراتها، وأنزل من السماء ماء طهورا، ثم جعل الأرض رحما لكم، تنبت زرعكم، ومستودعا لمائِكم، وتستر أذاكم وقذركم، وتدفنون فيها موتاكم، كل ذلك وغيره كثير،فقط؛ لتعبدوا الله وحده لا شريك له، وتلك هي الأمانة التي حملناها بين يدي الله جل جلاله، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب:٧٠-٧٣].

قوله:{فلا تجعلوا لله أنداداً و أنتم تعلمون}: بعد أن أمر بالتوحيد، نَهَى عن ضِدَّه، ومع أن الأمر بالشيء غالبا هو نهي عن ضده، إلا أنه في هذا المقام هو من باب التوكيد لمقام التوحيد، ودفعه الإيهام؛ لأنه حق الله على العبيد؛ ولأن البعض قد يتوهم، أنه إذا عبد الله في جوانب كثيرة، واتخذ معه أندادا في شيء آخر، أنه بذلك لا يخرجه عن كونه قائما بحق الله تعالى، مُتَّصِفاً بالتوحيد، فأراد الله تعالى أن يحسم هذه المادة، ويقطع على الشياطين طريقهم، أن يضلوا العباد ويهلكوهم، والله هو البر الرؤوف الرحيم، جل لله في علاه.

ولهذا جاءت كثير من النصوص متضمنة كلمة التوحيد، ومعها هذا المقام، أعني مقام التوكيد ودفع الإيهام، كما في الصحيحين عَنْ عُبَادَةَ **t** عَنْ النَّبِيِّ **r** قَالَ:"مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الْعَمَلِ" وفي رواية" مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ". فتأمل كيف أكد (لا إله إلا الله) بقوله (لا شريك له).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومثله في صحيح البخاري عن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ عَنْ النَّبِيِّ r قَالَ:"مَنْ تَعَارَّ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الْحَمْدُ لله وَسُبْحَانَ الله وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي أَوْ دَعَا اسْتُجِيبَ لَهُ فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ".

ومثله ما في الصحيحين من طريق وَرَّاد مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ كَتَبَ الْمُغِيرَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ الله r كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ إِذَا سَلَّمَ:"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ"ومثل هذا كثير جدا.

فلابد من التحقق، بتحقيق النفي والإثبات في هذا المقام الخطير، قال الإمام الشنقيطي في كتابه(أضواء البيان):[وقد بين معناها المشار إليه هنا مفصلا في آيات أخر كقوله:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} الآية، فصرح بالإثبات منها بقوله:{اعْبُدُوا رَبَّكُمْ}، وصرح بالنفي منها في آخر الآية الكريمة، بقوله:{فَلا تَجْعَلُوا لله أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون}، وكقوله:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، فصرح بالإثبات بقوله: {أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ} وبالنفي بقوله: {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، وكقوله:{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}، فصرح بالنفي منها بقوله:{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ}، وبالإثبات بقوله:{وَيُؤْمِنْ بِالله}؛ وكقوله:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}، وكقوله:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَنَا فَاعْبُدُونِ}، وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}؛ إلى غير ذلك من الآيات]ا.هـ.

وأقوال السلف، وأهل التفسير في قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا}، تدور على العِدْلِ والنَّظِير والشَّبِيه والمَثِيل والشَريك. والمعنى أن الله تبارك وتعالى لا يرضى ذلك ولا يقبله، وسيحبط عمل من يلقاه به، وله عند الله تعالى العذاب الأليم، والنكال الشديد.

قوله: {وأنتم تعلمون}: إما أن يكون هذا العلم مسبقاً (أي قبل هذه الآية من عند رسول الله r)، وإما أن يكون هذا العلم حادثاً (أي بعد الآية)، وفيه دليل على أن العلم هو مفترق الطرق، وبه يأخذ الله جل وعلا عباده، فمتى ما قامت الحجة، واستبانت المحجة؛ لزم العبد كل ما يترتب على ذلك، من كفر وإيمان، وعذاب وإحسان.

قال المؤلف رحمة الله: (قال ابن كثير): هو الإمام الحافظ، المحدث، المؤرخ، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي،ولد بقرية "مجْدَل" من أعمال بصرى، وهي قرية أمه، سنة سبعمائة للهجرة أو بعدها بقليل، نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، ومن أشهر شيوخه شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، رحمه الله، والحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، رحمه الله، والحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، رحمه الله، كان ابن كثير، رحمه الله، من أفذاذ العلماء في عصره، أثنى عليه معاصروه ومَنْ بَعْدَهُم الثناء الجَمّ الجميل، فقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الحافظ الذهبي في طبقات شيوخه: "وسمعت مع الفقيه المفتي المحدِّث، ذي الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي، سمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة، له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرَّج وناظر وصنف وفسر وتقدم"، وقال عنه أيضًا في المعجم المختص: "الإمام المفتي المحدِّث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال". وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني: "صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر، وأفتى ودرس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل"، وقال العلامة ابن ناصر الدين: "الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين"، وقال ابن تغري بردي: "لازم الاشتغال، ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتى ودرس إلى أن توفى"، وقال ابن حجر العسقلاني: "كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته".وقال ابن حبيب: "إمام روى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ، والحديث والتفسير"، وقال العيني: "كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع وجمع وصنف، ودرس، وحدث، وألف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه رياسة علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة مفيدة"، وقال تلميذه ابن حجي: "أحفظ من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئا كثيرا من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيها جيد الفهم، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، ونظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه"، وقال الداودي:"أقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والتعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب"، وتوفي في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة، ودفن عند شيخه ابن تيمية، رحمهما الله[1].

وهذا النقل الذي ذكره المؤلف عن ابن كثير لم أقف عليه بهذه الحروف، ولكن وجدت قريبا منه، كما في تفسير ابن كثير:[وقوله:{أَتَدْعُونَ بَعْلا} أي: أتعبدون صنما؟ {وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللهَّ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ} أي:هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له]ا.هـ.

قوله:(الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة): هذا من الأساليب الجميلة في التأليف والتعليم، وذلك بانتقاء مختصر الكلام، ومفيده، عن الأئمة الذين لهم قدم صدق في الأمة، فتكون هذه الكلمات نبراسا يُهْتَدى بها، ويسهل انتشارها، فيحصل بذلك النفع العميم.

---

١ - انتهى منقول بحروفه من ترجمته لمحقق تفسير ابن كثير طبعة دار طيبة سامي بن محمد بن عبد الرحمن بن سلامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العقيدة واحدة أبدا:

وهذه الكلام من العماد ابن كثير رحمه الله تعالى، هو معنى قول المؤلف آنفا:(والرب هو المعبود)، وفي هذا إشارة بليغة، إلى أن العقيدة واحدة، لا تتنوع ولا تتلون، بل هي كذلك من زمن السلف إلى زمان ابن كثير، وإلى زمان المؤلف، وفيما بعد ذلك، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهي حقائق ثابتة، ومعاني ومفاهيم راسخة، لا تقبل التلاعب والاجتزاء أبدا.

وهذا كثير في الذكر الحكيم، الاستدلال على الألوهية بطريق الربوبية والأسماء والصفات، كما قال تعالى:{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [لقمان:١٠-١١]، ثم ذكر وصية لقمان لابنه يحذره ويخوفه من الشرك بالله تعالى، وقوله تعالى:{فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم:١٧-٣٢].وقوله:{قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[النمل:٥٩-٦٣]. قال ابن كثير في تفسيره:[فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فَلِمَ يُعبَدُ غيره؟ ولِمَ يُتَوَكَّلُ على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك]ا.هـ.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان:[ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جلَّ وعلا ـ على وجوب توحيده في عبادته. ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير. فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده. ووبَّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده. لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده؛ لَزِمَهُ الاعتراف بأنه هو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له، جل الله في علاه. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ}، إلى قوله:{فَسَيَقُولُونَ اللهُ}، فلَّما أقروا بربوبيته وبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره بقوله:{فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}، ومنها قوله تعالى:{قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله}، فلمَّا اعترفوا وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله:{قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}، ثم قال:{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لله}، فلما أقرُّوا وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله:{قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}، ثم قال:{قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله}، فلما أقروا وبخهم منكراً عليهم شركهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بقوله:{قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}، ومنها قوله تعالى:{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ}، فلما صح الاعتراف وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله:{قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا}، ومنها قوله تعالى:{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صح إقرارهم وبخهم منكراً عليهم بقوله: {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [٤٣/ ٨٧]، ومنها قوله تعالى :{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} فلما صح اعترافهم وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله :{فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأٌّرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صح إقرارهم وبخهم منكراً عليهم شِركهم بقوله:{قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}، وقوله تعالى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صح اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله:{قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}، وقوله تعالى:{ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أن القادر على خلق السَّموات والأرض وما ذكر معها، خير من جماد لا يقدر على شيء. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله.{أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}، ثم قال تعالى:{أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً}، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله:{أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}، ثم قال جلَّ وعلا:{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خلَفَاءَ الْأَرْضَ أَإِلَهٌ}، ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكراً عليهم بقوله: {أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}، ثم قال تعالى: {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًى بَينَ يَدَي رَحْمَتِهِ}، ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكراً عليهم بقوله: {أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ثم قال جلَّ وعلا: {أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ والأَرْضِ}، ولا شك أن الجواب كما قبله. فلما تعين الاعتراف وبخهم منكراً عليهم بقوله: {أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}،وقوله: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ}، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}. والآيات بنحو هذا كثيرة جداً. ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع:أن كل الأسئلة المتعلِّقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار. لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة. نحو قوله تعالى: {أَفِي اللهِ شَكٌّ}، وقوله: {قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا}، وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار. لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلِّق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار، لأنهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتن

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ:الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ:الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا.كُلُّهَا لله تَعَالَى.وَالدَّلِيلُ:قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً} [الجن: ١٨]. فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون: ١١٧].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله:(وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان): المؤلف رحمه الله بعد أن بين حقائق العبودية، وربط ذلك بحقائق الربوبية، وبين أن الله تبارك وتعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، شرع في بيان هذه العبادة التي ما خُلق الإنس والجن إلا من أجلها، وهذا أسلوب أدبي تربوي رفيع،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث أن النفوس إذا عُظِّمَ لها أمْرٌ ما؛ تطلعت إلى معرفة تفاصيله، وإذا علمت شدة حاجتها إليه، وأنه لا عز ولا كرامة ولا نجاة لها إلا به؛ اشتاقت إلى العمل به.

لطيفة تربوية:

فالمؤلف بَعْدَ أن بَيَّنَ وَشَوَّقَ، جاء بأنواع العبادات بعد ذلك مباشرة، وكأنه يقول ها هي دونك، فَعُضَّ عليها بالنواجذ، ولا تزهد فيها البَتَّة، بل استمسك بها، قولا وعملا، ظاهرا وباطنا.ولهذا قال بعدها:(وأنواع العبادة التي أمر الله بها).

فبعد أن اشتاقت النفوس، وعرفت المطلوب؛ دلها على الكيفية والتفاصيل، وقَدَّمَ ذكرها إجمالاً؛ لحث العباد على المسارعة في الخيرات، فكأنه قال:وهَاكَ جملة من أنواع العبادات.

وفي طَيَّاتِ قوله:(وأنواع العبادة) إشارة إلى أنها ليست نسكاً معيناً، يؤدى وينتهي الأمر، بل هي أنواع شتى، فالحياة كلها عبادة لله جل وعلا، وعليك أيها المسلم أن تَتَقَلَّبَ في هذه الأنواع، حتى تلقى الله جل وعلا ، كما قال تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[الأنعام:١٦٢-١٦٣].

قوله:(التي أمر الله بها): بيان وتأكيد على أن معرفة هذه الأنواع، سبيله الكتاب والسنة، خلافاً لما عليه أهل الجاهلية، من اتباع الهوى والسادات والكبراء، بل الله تعالى هو الآمر وما علينا إلا أن نسمع ونطيع، كما قال الله تعالى:{ألا له الخلق والأمر}،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص: ٦٨]، وقال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب:٣٦].

قوله:(مثل الإسلام والإيمان والإحسان)، هذه الثلاثة سماها النبي **r** :"دينكم"، كما سيأتي معنا، في حديث جبريل المشهور.

وهذه الأسماء الثلاثة، إذا جاءت في سياق واحد، فالصحيح أنها تفترق في المعنى، فيكون المراد بالإسلام الأعمال الظاهرة، وهي الأركان الخمسة المذكورة في حديث عمر بن الخطاب المشهور الآتي، والمراد بالإيمان أعمال القلوب، وهي الأركان الستة الآتي تقريرها، والمراد بالإحسان مرتبة فوق الإسلام والإيمان، كما سيأتي بيانه.

والعبد مطالب بكل ذلك، فالدين له شعائر ظاهرة، وشعائر باطنة، ولابد له من الإحسان، وهذه المرتب الثلاث كلها سيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

وقد يشكل على البعض، تمثيل المؤلف رحمه الله بهذه الثلاث؛ لأنها تمثل الدين كله، ظاهرا وباطنا، قولا وعملا واعتقادا، كما بين ذلك النبي **r** ، فيقال إن المؤلف يتكلم عن الأمور الواجبات المتحتمات، وإنما مثل بهذه الثلاثة؛ لبين أن هناك أعمالا، لم تذكر في تعاريف هذه الثلاث، هي أيضاً من جملة العبادة؛ لكي لا يظن ظان، أنه قد أدى ما عليه، وهناك أيضا النوافل، فهناك نفل الذكر، وترداد كلمة التوحيد، ونفل الصلاة والصيام والصدقة والحج، إلى غير ذلك من النوافل، ومن الفرائض الجهاد بكل أنواعه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذه كلها داخلة في جملة العبادات، وكأن المؤلف رحمه الله تعالى عنى بهذه الأسماء الثلاث ما ورد في حديث جبريل الآتي؛ ولهذا جعلها أمثلة للعبادة. والله أعلم.

قال المؤلف:(ومنه)، الضمير عائد على العبادة، والمعنى: أي ومن أنواع العبادة أيضا،أمور أخرى، منها الأعمال الظاهرة ومنها الباطنة، ثم شرع يذكرها، وقد استعمل المؤلف هنا أسلوب اللف والنشر، وقد تقدم بيان معناه، فذكر إجمالاً، ثم فصّل كل واحدة بدليلها.

قال المؤلف:(وغير ذلك من العبادة): بيان أن العبادة ليست محصورة على ما تقدم فقط، بل هناك أعمال أخرى وراء ذلك، إذ كل ما يحبه الله ويرضاه، فعله عبادة، وكل ما يكرهه الله ويأباه، تركه عبادة؛ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله:(العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة).

قال المؤلف:(كلها لله): الضمير عائد على العبادات، وهذا من باب التعميم بعد التخصيص، والمعنى أنه إذا ثبت أن الشيء عبادة، فهي مختصة أبدا بالله رب العالمين.

كما أن في ذلك إشارة إلى الإخلاص، فإنه مَرْكَبُ الخلاص، أي لن تغني عنك العبادات، حتى تُخَلِّصَها من شوائب الشرك كله، وإلا فإن أهل الجاهلية كانوا يقومون بكثير من تلك العبادات، ولكنها متضمنة للشرك بالله، إما في ذات العمل المخصوص، أو في عبادات أخرى، صرفوها لغير الله تعالى؛ فصاروا بذلك مشركين، فأحبط الله جميع أعمالهم الصالحة، وأورثهم لظى، كما قال تعالى:{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ} [الغاشية:١ - ٧].

قوله:(والدليل قوله تعالى:{وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً})، هذه الآية تقدم الحديث عن تفسيرها ومتعلقاته العظيمة، في تقرير وإثبات حق الله تبارك وتعالى، ومن التوحيد الخالص.

قوله:(فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ)، هذه هي الحقيقة الكبرى التي يجب ألا نغفل عنها أبدا، أن من صرف العبادة كلها أو بعضها، ولو شيئاً يسيراً منها لغير الله، - وإن كان من صُرِفَت له العبادة، ملكا مُقَرَّباً، أو نَبِيّاً مرسلا، أو وَلِيّاً صالحا - ؛ فهو عند الله مشرك كافر، واعتبر بقوله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر:٦٥-٦٦].

التَّرَادُف اللَّفْظي والمَعْنَوي بين لفظي الشرك والكفر:

قوله:(مشرك كافر)، هذا من الترادف اللفظي والمعنوي في بعض المواطن، فإن الشرك والكفر يأتيان مترادفين، في بعض المواضع، ويأتي كل واحد منهما بمعنى مغاير، وذلك بحسب دلالة السياق، ففي قوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون:١١٧]،هنا جاء الشرك والكفر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مترادفين؛ لأنه استفتح الآية بعمل شركي، ثم ختمها باسم الكفر، ولا خلاف في النتيجة والمؤدى، فإن المشرك والكافر مخلدان في النار أبدا.

وهذه حقيقة مهمة، متعلقة بقضية تقدم الإشارة إليها من قبل، وهي قضية إقامة الحجة، ومسألة الأعذار المعتبرة شرعا، في مسائل تنزيل الأحكام على الأعيان.

فإن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة؛ يقطع ويعلم يقينا، أنه لا فرق بين الكفر والشرك، من جهة أحكام الدنيا والآخرة، فيما يتعلق بانتقاض الإيمان، وحبوط الأعمال، والخلود في النيران، والحجاب عن رؤية الرحمن، جل جلاله تبارك وتعالى، وإن اختلف الناس في تعريف كل واحد منهما، وترادفهما من عدمه.

وعليه فكل ما يمكن أن يقال في الشرك، فإنه يقال في الكفر والعكس، فالكل ناقض للإسلام، وناقل عن الملة.

وإنما قلت؛ هذا لأن هناك من فرق بين الكفر والشرك، في أحكام الدنيا، فيما يتعلق بمسائل العذر المعتبرة شرعا؛ ليمرر فهما اعتقده حقا، فقال بالعذر في مسائل الكفر، ومنعها في مسائل الشرك، وهذا خطأ بَيِّنٌ واضح، ومخالفة صريحة لصريح الكتاب والسنة، وتعامل سلف الأمة.

فالسلف كانوا يجعلون ذلك بابا واحدا، فيما يتعلق بجميع أحكام الدنيا والآخرة، ولهذا لا فرق عندهم بين من استحل الحرام، والذي قال بخلق القرآن، كلاهما قد أتى الكفر بالله تعالى، فالضابط عندهم مستقر ثابت، وهو مسألة العلم بالْمُكَفِّر، وجودا وعدما، فمتى ما انتفى العلم، عن عدم إعراض ولا استكبار ولا عناد، فإنهم يعذرون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلا منهما. واعلم أن من عَدَمِ العِلمِ بالحق التأويل الخاطئ، لمن سلك السبيل الصحيحة في الاجتهاد.

مقدمة وبيان مختصر[١]، عن العذر بالجهل المعتبر

فكان أهل كل زمان، يعالجون ما يظهر بين أيديهم من الشركيات والكفريات، على هذا المنوال والنسق، وألفت في ذلك كتب، وسرت الركبان بالفتاوى في ذلك، بلا نكير ولا مخالف.

وإليك هذا النقولات في مكفرات ظهرت في زمان الصحابة والسلف وبعد ذلك، وانظر كيف تعاملوا معها:

فقد أخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن يونس بن عبد الأعلى، قال:سمعت الشافعي يقول:(لله أسماء وصفات لا يسع أحدا ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، **وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل** لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر)ا.هـ.

قال البخاري في خلق أفعال العباد(ج١ - ص٦٢) :[**وكل من لم يعرف الله بكلامه أنه غير مخلوق فإنه يعلم ويرد جهله إلى الكتاب والسنة فمن أبي بعد العلم به كان معاندا،** قال الله تعالى :{وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}،

---

١ - وأما بسط الكلام في ذلك والرد على المخالف، فستجده إن شاء الله تعالى وافيا في كتابي:(**العذر بالجهل بين ميزان السلف وتخليط الخلف بين الإفراط والتفريط**).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولقوله :{ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} فأما ما احتج به الفريقان لمذهب أحمد ويدعيه كل لنفسه فليس بثابت كثير من أخبارهم وربما لم يفهموا دقة مذهبه بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق وما سواه مخلوق وأنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة وتجنبوا أهل الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء فيه العلم وبينه رسول الله e]ا.هـ.

وقال أبو محمد بن حزم الظاهري رحمه الله:[مَن ادعى أن النبي e لم يدَع أحداً يُسلم حتى يوقِفَه على هذه المعاني كان قد كذب بإجماع المسلمين من أهل الأرض، وقال ما يدري أنه فيه كاذب، و ادعى أن جميع الصحابة y تواطئوا على كتمان ذلك من فعله عليه السلام، وهذا المحال ممتنع في الطبيعة، ثم فيه نسبة الكفر إليهم؛ إذ كتموا ما لا يتم إسلام أحد إلا به. وإن قال:إنه e لم يَدَّعِ قط أحَدٌ إلى شيء من هذا، و لكنه مودع في القرآن، و في كلامه e قيل له:صدقت]ا.هـ. [الفصل في الملل والأهواء والنحل].

وقال ابن قدامة في المغني:[**ومن اعتقد حل شيء أجمع على تحريمه، وظهر حكمه بين المسلمين وزالت الشبهة فيه للنصوص الواردة فيه، كلحم الخنزير، والزنى، وأشباه هذا، مما لا خلاف فيه، كفر، وإن استحل قتل المعصومين، وأخذ أموالهم بغير شبهة ولا تأويل فكذلك** وإن كان بتأويل كالخوارج فقد ذكرنا أن أكثر الفقهاء لم يحكموا بكفر ابن ملجم مع قتله أفضل الخلق في زمنه، متقربا بذلك ، وكذلك يخرج في كل محرم استحل بتأويل مثل هذا، وقد روي أن قدامة بن مظعون شرب الخمر مستحلا لها، فأقام عمر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه الحد ، ولم يكفره، وكذلك أبو جندل بن سهيل، وجماعة معه ، شربوا الخمر بالشام مستحلين لها ، مستدلين بقول الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا}، فلم يكفروا، وعرفوا تحريمها فتابوا وأقيم عليهم الحد، فيخرج فيمن كان مثلهم حكمهم، **وكذلك كل جاهل بشيء يمكن أن يجهله لا يحكم بكفره حتى يعرف ذلك ، وتزول عنه الشبهة ويستحله بعد ذلك**]ا.هـ.

وقال ابن عبد البر رحمه الله في كتابه :(التمهيد):[**من جهل بعض الصفات وآمن بسائرها لم يكن بجهل البعض كافرا**؛ لأن الكافر من عاند لا من جهل، وهذا قول المتقدمين من العلماء ومن سلك سبيلهم من المتأخرين]ا.هـ.

متى ظهرت عبادة القبور والأولياء؟:

ثم لما ظهرت عبادة القبور والأولياء الصالحين، وكانت لا تعرف في القرون المفضلة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[فَإِذَا كَانَ الدُّعَاء فِي مَسْجِدِ رَسُولِ الله r أَمَرَ الْأَئِمَّةُ فِيهِ بِاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ كَمَا رُوِيَ عَنْ الصَّحَابَة وَكَرِهُوا اسْتِقْبَالَ الْقَبْرِ فَمَا الظَّنُّ بِقَبْرِ غَيْرِهِ وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ لَك أَنَّ قَصْدَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْقُبُورِ: لَيْسَ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ. وَمَنْ ذَكَرَ شَيْئًا يُخَالِفُ هَذَا مِنْ الْمُصَنِّفِينَ فِي الْمَنَاسِكِ أَوْ غَيْرِهَا فَلَا حُجَّةَ مَعَهُ بِذَلِكَ وَلَا مَعَهُ نَقْلٌ عَنْ إمَامٍ مَتْبُوعٍ. وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ أَخَذَهُ بَعْضُ النَّاسِ عَنْ بَعْضٍ؛ لِأَحَادِيثَ ظَنُّوهَا صَحِيحَةً وَهِيَ بَاطِلَةٌ أَوْ لِعَادَاتِ مُبْتَدَعَةٍ ظَنُّوهَا سُنَّةً بِلَا أَصْلٍ شَرْعِيٍّ. **وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعُصُورِ الْمُفَضَّلَةِ " مَشَاهِدُ " عَلَى الْقُبُورِ وَإِنَّمَا ظَهَرَ ذَلِكَ وَكَثُرَ فِي دَوْلَةِ بَنِي بويه**؛ لَمَّا ظَهَرَتْ الْقَرَامِطَةُ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ كَانَ بِهَا زَنَادِقَةٌ كُفَّارٌ مَقْصُودُهُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَبْدِيلُ دِينِ الْإِسْلَامِ وَكَانَ فِي بَنِي بويه مِنْ الْمُوَافِقَةِ لَهُمْ عَلَى بَعْضِ ذَلِكَ وَمِنْ بِدَعِ الْجَهْمِيَّة وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ فَبَنَوْا الْمَشَاهِدَ الْمَكْذُوبَةَ " كَمَشْهَدِ عَلِيٍّ " - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَأَمْثَالِهِ . وَصَنَّفَ أَهْلُ الْفِرْيَةِ الْأَحَادِيثَ فِي زِيَارَةِ الْمَشَاهِدِ وَالصَّلَاةِ عِنْدَهَا وَالدُّعَاءِ عِنْدَهَا وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ. فَصَارَ هَؤُلَاءِ الزَّنَادِقَةُ وَأَهْلُ الْبِدَعِ الْمُتَّبِعُونَ لَهُمْ يُعَظِّمُونَ الْمَشَاهِدَ وَيُهِينُونَ الْمَسَاجِدَ وَذَلِكَ: ضِدُّ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْتَتِرُونَ بِالتَّشَيُّعِ]ا.هـ.

وقال ابن الجوزي في كتابه:(تلبيس إبليس):[قال ابن عقيل:لما صعبت التكاليف على الجُهَّال والطَّغَام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمْرِ غيرهم، قال:وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع، من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالألواح، وكتب الرقاع فيها يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ التراب تبركا، وإفاضة الطِيبِ على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر، اقتداء بمن عبد اللات والعزى، ولا تجد في هؤلاء من يحقق مسألة في زكاة فيسأل عن حكم يلزمه، والويل عندهم لمن لم يُقَبِّل مَشْهَد الكف، ولم يَتَمَسَّح بِآجُرَّةِ مسجد المأمونية يوم الأربعاء]ا.هـ. وكان ابن عقيل قد عاش في الفترة مابين ٤٣١ إلى أن توفي رحمه الله سنة ٥١٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن ظهرت المشاهد في أواخر القرن الثالث، ولم تعرف عبادة القبور إلا بعد ذلك[١]، على يد الصوفية، والقرامطة والرافضة، ومن نحى نحوهم وتأثر بهم.

فأقول: لما ظهرت هذه الكفريات والشركيات، تعامل معها العلماء بنفس النسق والأسلوب، الذي تعاملوا به مع الكفريات والشركيات التي ظهرت من قبل، فكانوا يفرقون بين النوع والعين، والكلام كله على من تلبس بالكفر أو الشرك من المسلمين، - لا على الكفار والمشركين الأصليين، فهؤلاء بالإجماع كفار مشركون بأعيانهم-.

---

١ - وكتب أحد الباحثين في (شبكة الدفاع عن السنة) فقال:[صدق شيخ الإسلام رحمه الله، وأهل التاريخ والآثار، قد أقاموا البراهين على صدق ما يقول،...ثم نقل عن أحد الموسوعات المصرية فقال إنها، أتثبت أن أوائل الأضرحة التي شيدت عليها المشاهد هي أضرحة الشيعة الرافضة، فبعد أن أثبتت أن أول ضريح في الإسلام أقيمت عليه قبة عرفت بقبة الصليبية، وأنها بنيت عام ٢٨٤ هـ على قبر الخليفة المنتصر العباسي، ونقلت عن الطبري أن أم الخليفة العباسي المنتصر استأذنت في بناء ضريح منفصل لولدها فأذن لها، إذ كانت العادة قبل ذلك أن يدفن الخليفة في قصره، وتلك الأم هي أم ولد نصرانية رومية، فهي بحكم عقيدتها وما تربت عليه من تعظيم القبور طلبت ذلك، وأجيبت إليه عندما تمكن نساء القصر من تسيير الحياة ، وغلبن على الخلفاء في حال ضعفهم وانصرافهم إلى شهواتهم وملذاتهم، إذن فالتأثير النصراني ظاهر في إنشاء هذا المشهد. ثم ذكر تواريخ لمشاهد بنيت فقال: ويليها من حيث التاريخ ضريح إسماعيل الساماني المبني سنة ٢٩٦هـ في مدينة بخارى، ثم ضريح الإمام علي في النجف الذي بناه الحمدانيون سنة ٣١٧ هـ، ثم ضريح محمد بن موسى في مدينة قم بإيران سنة ٣٦٦هـ، ثم ضريح السبع بنات في الفسطاط سنة ٤٠٠ هـ، وهذا الترتيب قد ذكره غير واحد من المستشرقين والباحثين في الآثار والعمارة الإسلامية]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أقول: كانوا ينظرون في حالة هذا المسلم الذي تلبس بمكفر، إن كان ممن يُعْذَر أو لا؟، مع اتفاقهم على أنه أتى كفرا وشركا بالله تعالى، ولكنهم أبدا ما كانوا يقولون إن هذا كفر ننظر فيه في حال صاحبه، فإن كان معذورا عذرناه، وإلا كفرناه، وأما إن كان مشركا فهذا نكفره مباشرة، بلا نظر في حاله البتة، هذا لم يكن موجودا أصلا؛ ولهذا ابن تيمية رحمه الله لما ظهرت في زمانه هذه المشاهد الشركية، وحصل في زمانه عبادة للقبور، أجرى نفس القاعدة، المتقدمة، في التفريق بين النوع والعين، وضرورة اعتبار حال العبد مع العلم، وقيام الحجة وإزالة الشبهة، وكان رحمه الله تعالى لا يفرق في هذا الباب بين عباد القبور، ولا الجهمية، والحلولية، فالكل كفر، ولابد من العدل والإنصاف، وطرح العواطف جانبا، ونبذ الغيرة المخالفة لما كان عليه النبي r وأصحابه y، والسلف والأئمة، وإليك شيئا من أقواله وأقوال غيره في ذلك:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:[فإنه بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن يدعو أحداً من الأموات و لا الصالحين و لا غيرهم لا بلفظ الاستغاثة و لا بغيرها ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها ، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا إلى ميت ونحو ذلك بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، **لكن لغلبة الجهل و قلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه.....**]ا.هـ. (مختصراً من: الاستغاثة الكبرى).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد صرَّح في مقام آخر باشتراط قيام الحجة على الجاهل قبل الحكم بكفره، فقال رحمه الله، كما في :(الاستغاثة الكبرى):[والاستغاثة بالرسول؛ بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم كما أنه يستغاث بغيره بمعنى أن يطلب منه ما يليق به، ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به وإما مخطئ ضال وأما بالمعنى الذي نفاه الرسول عليه الصلاة و السلام فهي أيضاً مما يجب نفيها، ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها] ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري:[ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم أنا لو وافقتكم كنت كافرا لأني أعلم أن قولكم كفر وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال وكان هذا خطابا لعلمائهم و قضاتهم و شيوخهم وأمرائهم وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم في قصور من معرفة المنقول الصحيح و المعقول الصريح الموافق له وكان هذا خطابنا فلهذا لم نقابل جهله و افتراءه بالتكفير بمثله كما لو شهد شخص بالزور على شخص أو قذفه بالفاحشة كذبا عليه لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ولا أن يقذفه بالفاحشة]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري:[وأيضا فإن تكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها وإلا فليس كل من جهل شيئا من الدين يكفر؛ ولهذا لما استحل طائفة من الصحابة والتابعين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كقدامة بن مظعون وأصحابه شرب الخمر وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحا على ما فهموه من آية المائدة اتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما على أنهم يستتابون فإن أصروا على الاستحلال كفروا وإن أقروا به جلدوا فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداء لأجل الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق فإذا أصروا على الجحود كفروا].ا.هـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى:[وليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة ، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة]ا.هـ.

وقال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى أيضا: [إن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يُلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطبق ذلك وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر و النهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان كما عفا النبي r عما عفا عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا بإمكان الشرط، ومن هنا يتبين سقوط كثير من الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي وإن كان واجباً في الأصل] ا- هـ.

لا فرق عند السلف بين الأصول والفروع في إمكانية وقوع الجهل المعتبر فيها:

وقال في عدم التفريق بين الأصول والفروع في إمكانية وقوع الجهل، ووجود العذر المعتبر شرعا:قال كما في مجموع الفتاوى (٢٣ / ٣٤٦ - ٣٤٧):[وَهَكَذَا الْأَقْوَالُ الَّتِي يَكْفُرُ قَائِلُهَا قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ لَمْ تَبْلُغْهُ النُّصُوصُ الْمُوجِبَةُ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَقَدْ تَكُونُ عِنْدَهُ وَلَمْ تَثْبُتْ عِنْدَهُ أَوْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ فَهْمِهَا وَقَدْ يَكُونُ قَدْ عَرَضَتْ لَهُ شُبُهَاتٌ يَعْذُرُهُ اللهُ بِهَا فَمَنْ كَانَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مُجْتَهِدًا فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَأَخْطَأَ فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُ خَطَأَهُ كَائِنًا مَا كَانَ سَوَاءٌ كَانَ فِي الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ أَوْ الْعَمَلِيَّةِ **هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ r ، وَجَمَاهِيرُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَمَا قَسَّمُوا الْمَسَائِلَ إلَى مَسَائِلِ أُصُولٍ يَكْفُرُ بِإِنْكَارِهَا وَمَسَائِلِ فُرُوعٍ لَا يَكْفُرُ بِإِنْكَارِهَا.**

فَأَمَّا التَّفْرِيقُ بَيْنَ نَوْعٍ وَتَسْمِيَتِهِ مَسَائِلَ الْأُصُولِ وَبَيْنَ نَوْعٍ آخَرَ وَتَسْمِيَتِهِ مَسَائِلَ الْفُرُوعِ **فَهَذَا الْفَرْقُ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ لَا عَنْ الصَّحَابَةِ وَلَا عَنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَلَا أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَإِنَّمَا هُوَ مَأْخُوذٌ عَنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَعَنْهُمْ تَلَقَّاهُ مَنْ ذَكَرَهُ مِنْ الْفُقَهَاءِ فِي كُتُبِهِمْ** وَهُوَ تَفْرِيقٌ مُتَنَاقِضٌ فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ : مَا حَدُّ مَسَائِلِ الْأُصُولِ الَّتِي يَكْفُرُ الْمُخْطِئُ فِيهَا؟، وَمَا الْفَاصِلُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَسَائِلِ الْفُرُوعِ؟، فَإِنْ قَالَ: مَسَائِلُ الْأُصُولِ هِيَ مَسَائِلُ الِاعْتِقَادِ وَمَسَائِلُ الْفُرُوعِ هِيَ مَسَائِلُ الْعَمَلِ. قِيلَ لَهُ: فَتَنَازَعَ النَّاسُ فِي مُحَمَّدٍ r هَلْ رَأَى رَبَّهُ أَمْ لَا؟، وَفِي أَنَّ عُثْمَانَ أَفْضَلُ مِنْ عَلِيٍّ أَمْ عَلِيٌّ أَفْضَلُ؟، وَفِي كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَتَصْحِيحِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ هِيَ مِنْ الْمَسَائِلِ الِاعْتِقَادِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَلَا كُفْرَ فِيهَا بِالِاتِّفَاقِ وَوُجُوبُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَتَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ وَالْخَمْرِ هِيَ مَسَائِلُ عَمَلِيَّةٌ وَالْمُنْكِرُ لَهَا يَكْفُرُ بِالِاتِّفَاقِ . وَإِنْ قَالَ الْأُصُولُ: هِيَ الْمَسَائِلُ الْقَطْعِيَّةُ قِيلَ لَا: كَثِيرٌ مِنْ مَسَائِلِ الْعَمَلِ قَطْعِيَّةٌ وَكَثِيرٌ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ لَيْسَتْ قَطْعِيَّةً وَكَوْنُ الْمَسْأَلَةِ قَطْعِيَّةً أَوْ ظَنِّيَّةً هُوَ مِنْ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ الْمَسْأَلَةُ عِنْدَ رَجُلٍ قَطْعِيَّةً لِظُهُورِ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ لَهُ كَمَنْ سَمِعَ النَّصَّ مِنْ الرَّسُولِ r وَتَيَقَّنَ مُرَادَهُ مِنْهُ. وَعِنْدَ رَجُلٍ لَا تَكُونُ ظَنِّيَّةً فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ قَطْعِيَّةً لِعَدَمِ بُلُوغِ النَّصِّ إيَّاهُ أَوْ لِعَدَمِ ثُبُوتِهِ عِنْدَهُ أَوْ لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ الْعِلْمِ بِدَلَالَتِهِ.....إلى أن قال:

وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنَّ مَذَاهِبَ الْأَئِمَّةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذَا التَّفْصِيلِ بَيْنَ النَّوْعِ وَالْعَيْنِ وَلِهَذَا حَكَى طَائِفَةٌ عَنْهُمْ الْخِلَافَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَفْهَمُوا غَوْرَ قَوْلِهِمْ فَطَائِفَةٌ تَحْكِي عَنْ أَحْمَد فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدَعِ رِوَايَتَيْنِ مُطْلَقًا حَتَّى تَجْعَلَ الْخِلَافَ فِي تَكْفِيرِ الْمُرْجِئَةِ وَالشِّيعَةِ الْمُفَضِّلَةِ لِعَلِيٍّ وَرُبَّمَا رَجَّحَتْ التَّكْفِيرَ وَالتَّخْلِيدَ فِي النَّارِ وَلَيْسَ هَذَا مَذْهَبَ أَحْمَد وَلَا غَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ بَلْ لَا يَخْتَلِفُ قَوْلُهُ أَنَّهُ لَا يُكَفِّرُ الْمُرْجِئَةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ : الْإِيمَانُ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ وَلَا يُكَفِّرُ مَنْ يُفَضِّلُ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ بَلْ نُصُوصُهُ صَرِيحَةٌ بِالِامْتِنَاعِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مِنْ تَكْفِيرِ الْخَوَارِجِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ. وَإِنَّمَا كَانَ يُكَفِّرُ الْجَهْمِيَّة الْمُنْكِرِينَ لِأَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ ؛ لِأَنَّ مُنَاقَضَةَ أَقْوَالِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ r ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ: وَلِأَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ تَعْطِيلُ الْخَالِقِ وَكَانَ قَدْ ابْتُلِيَ بِهِمْ حَتَّى عَرَفَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ وَأَنَّهُ يَدُورُ عَلَى التَّعْطِيلِ **وَتَكْفِيرُ الْجَهْمِيَّة مَشْهُورٌ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ، لَكِنْ مَا كَانَ يَكْفُرُ أَعْيَانُهُمْ فَإِنَّ الَّذِي يَدْعُو إلَى الْقَوْلِ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يَقُولُ بِهِ وَالَّذِي يُعَاقِبُ مُخَالِفَهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يَدْعُو فَقَطْ وَالَّذِي يُكَفِّرُ مُخَالِفَهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يُعَاقِبُهُ** وَمَعَ هَذَا فَالَّذِينَ كَانُوا مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ يَقُولُونَ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّة: إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَإِنَّ اللهَ لَا يُرَى فِي الْآخِرَةِ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَيَدْعُونَ النَّاسَ إلَى ذَلِكَ ويمتحنونهم وَيُعَاقِبُونَهُمْ إذَا لَمْ يُجِيبُوهُمْ وَيُكَفِّرُونَ مَنْ لَمْ يُجِبْهُمْ. حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا أَمْسَكُوا الْأَسِيرَ لَمْ يُطْلِقُوهُ حَتَّى يُقِرَّ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّة : إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَلَا يُوَلُّونَ مُتَوَلِّيًا وَلَا يُعْطُونَ رِزْقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ إلَّا لِمَنْ يَقُولُ ذَلِكَ **وَمَعَ هَذَا فَالْإِمَامُ أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى تَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ لِلرَّسُولِ وَلَا جَاحِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ وَلَكِنْ تَأَوَّلُوا فَأَخْطَئُوا وَقَلَّدُوا مَنْ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا قَالَ لِحَفْصِ الْفَرْدِ حِينَ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ: كَفَرْت بِاَللهِ الْعَظِيمِ، بَيَّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كُفْرٌ وَلَمْ يَحْكُمْ بِرِدَّةِ حَفْصٍ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ بِهَا وَلَوْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ مُرْتَدٌّ لَسَعَى فِي قَتْلِهِ** وَقَدْ صَرَّحَ فِي كُتُبِهِ بِقَبُولِ شَهَادَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ، وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَد فِي الْقَدَرِيِّ: إنْ جَحَدَ عِلْمَ الله كَفَرَ وَلَفْظُ بَعْضِهِمْ نَاظَرُوا الْقَدَرِيَّةَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِالْعِلْمِ فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خَصَمُوا وَإِنْ جَحَدُوهُ كَفَرُوا، وَسُئِلَ أَحْمَد عَنْ الْقَدَرِيِّ: هَلْ يَكْفُرُ ؟ فَقَالَ: إنْ جَحَدَ الْعِلْمَ كَفَرَ وَحِينَئِذٍ فَجَاحِدُ الْعِلْمِ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْجَهْمِيَّة]ا.هـ.

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان (ج١ - صفحة ١٢٣):[**وهؤلاء الجهال** يرى أحدهم أدنى شيء فيحكم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ولا يلتفت إليهما ويقول : حدثني قلبي عن ربي ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت وأنتم أخذتم عن الوسائط ونحن أخذنا بالحقائق وأنتم اتبعتم الرسوم وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد **وغاية صاحبه أن يكون جاهلا يعذر بجهله** حتى قيل لبعض هؤلاء: لا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرزاق فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الملك الخلاق، وهذا غاية الجهل فإن الذي سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن.

وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول وهو يدعي أنه يسمع الخطاب من مرسله فيستغني به عن ظاهر العلم ولعل الذي يخاطبهم هو الشيطان أو نفسه الجاهلة أو هما مجتمعين ومنفردين.

ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفرا، وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة، فما يلقي في القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه إن لم يعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان]ا.هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَا وَقَعَ من الوَهْم على ابن القيم في دَعْوَى الإجماع على عَدَمَ العُذْر:

وهذا يبين لك الوهم الذي وقع فيه البعض مِنْ نِسْبَة الإجماع إلى ابن القيم في عدم العذر بالجهل لأهل القبلة، واعتمادهم على كلام موهم له في كتابه (طريق الهجرتين)، والصحيح أن المراد به الكفار الأصليين، لا أهل القبلة، ولكن القوم لا يفرقون.

وقال الذهبي رحمه الله في كتاب الكبائر:[واعلم أن كثيرا من الكبائر ، بل عامتها إلا الأقل، يجهل كثير من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد، فهذا الضرب فيهم تفصيل؛ فينبغي للعالم أن لا يستعجل على الجاهل، بل يرفق فيه ويعلمه مما علمه الله، ولا سيما إذا كان قريب عهدٍ بجاهلية، قد نشأ في بلاد الكفر البعيدة، وأسر وجُلِب إلى أرض الإسلام، وهو تركي كافر أو كرجي مشرك لا يعرف بالعربي، فاشتراه أميره تركي لا علم عنده ولا فهم، فبالجهد إن تلفظ بالشهادتين، فإن فهم بالعربي حتى يفقه معنى الشهادتين بعد أيام وليال؛ فبها ونعمت، ثم قد يصلي وقد لا يصلي، وقد يلقن الفاتحة مع الطول إن كان استاذه فيه دين ما، فإن كان استاذه شبيهاً به، فمن أين لهذا المسكين أن يعرف شرائع الإسلام والكبائر واجتنابها، والواجبات وإتيانها ؟!.

فإن عرف هذا موبقات الكبائر وحُذر منها، وأركان الفرائض واعتقدها، فهو سعيد، وذلك نادر، فينبغي للعبد أن يحمد الله تعالى على العافية.

فإن قيل: هو فرَّط لكونه ما سأل عما يجب عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قيل: هذا ما دار في رأسه، ولا استشعر أن سؤال من يعلمه يجب عليه، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، فلا يأثم أحدٌ إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجة عليه، والله لطيف بعباده رؤوفٌ بهم، قال الله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}، وقد كان سادة الصحابة بالحبشة، وينزل الوجوب والتحريم على النبي e فلا يبلغهم تحريمه إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأشهر معذورون بالجهل حتى يبلغهم النص ، فكذا يعذر بالجهل كل من لم يعلم حتى يسمع النص.والله أعلم] ا.هـ.

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى:[إني دائماً - ومن جالسني يعلم ذلك مني - من أعظم الناس نهياً **عن أن يُنسب معيَّن إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى**، وإني أقرر أن الله تعالى قد غفر لهذه الأمة خطأها، **وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية**، وما زال السلف يتنازعون في كثير من المسائل ، ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر، ولا بفسق، ولا بمعصية]....إلى أن قال:[**وكنت أبيِّن أن ما نُقل عن السلف والأئمَّة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا: فهو أيضاً حقٌّ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين** "".....إلى أن قال :[والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول r لكن الرجل قد يكون حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، **ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئاً]ا.هـ.

وقال في مجموع الفتاوى:[وَإِنَّمَا " الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ مَا ثَبَتَ قُبْحُهُ مِنْ الْبِدَعِ وَغَيْرِ الْبِدَعِ مِنْ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ الْمُخَالِفِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إذَا صَدَرَ عَنْ شَخْصٍ مِنْ الْأَشْخَاصِ فَقَدْ يَكُونُ عَلَى وَجْهٍ يُعْذَرُ فِيهِ ؛ إمَّا لِاجْتِهَادِ أَوْ تَقْلِيدٍ يُعْذَرُ فِيهِ وَإِمَّا لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ كَمَا قَدْ قَرَّرْته فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَقَرَّرْته أَيْضًا فِي أَصْلِ " التَّكْفِيرِ وَالتَّفْسِيقِ " الْمَبْنِيِّ عَلَى أَصْلِ الْوَعِيدِ . فَإِنَّ نُصُوصَ " الْوَعِيدِ " الَّتِي فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَنُصُوصَ الْأَئِمَّةِ بِالتَّكْفِيرِ وَالتَّفْسِيقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَا يُسْتَلْزَمُ ثُبُوتُ مُوجَبِهَا فِي حَقِّ الْمُعَيَّنِ إلَّا إذَا وُجِدَتْ الشُّرُوطُ وَانْتَفَتْ الْمَوَانِعُ **لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ]**ا.هـ.

وفي مجموع الفتاوى:[وَسُئِلَ الشَّيْخُ: عَنْ جَمَاعَةٍ اجْتَمَعُوا عَلَى أُمُورٍ مُتَنَوِّعَةٍ فِي الْفَسَادِ وَتَعَلَّقَ كُلٍّ مِنْهُمْ بِسَبَبٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنَّ يُونُسَ الْقَتَّاتَ يُخَلِّصُ أَتْبَاعَهُ وَمُرِيدِيهِ مِنْ سُوءِ الْحِسَابِ وَأَلِيمِ الْعِقَابِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ عَلِيًّا الْحَرِيرِيَّ كَانَ قَدْ أُعْطِيَ مِنْ الْحَالِ مَا إنَّهُ إذَا خَلَا بِالنِّسَاءِ والمردان يَصِيرُ فَرْجُهُ فَرْجَ امْرَأَةٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ وَيَدَّعِي أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ الظُّهُورِ فِي وَقْتٍ فَيَعْلُو دِينُهُ وَشَرِيعَتُهُ ؛ وَأَنَّ مِنْ شَرِيعَتِهِ السَّوْدَاءِ تَحْرِيمَ النِّسَاءِ وَتَحْلِيلَ الْفَاحِشَةِ اللُّوطِيَّةِ وَتَحْرِيمَ شَيْءٍ مِنْ الْأَطْعِمَةِ وَغَيْرِهَا؛ كَالتِّينِ وَاللَّوْزِ وَاللَّيْمُونِ. وَتَبِعَهُ طَائِفَةٌ: مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُصَلِّي فَتَرَكَ الصَّلَاةَ وَيَجْتَمِعُ بِهِ نَفَرٌ مَخْصُوصُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَيَّامِ إلَخْ. فَأَجَابَ: أَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ إنَّ يُونُسَ الْقَتَّاتِيَّ يُخَلِّصُ أَتْبَاعَهُ وَمُرِيدِيهِ مِنْ سُوءِ الْحِسَابِ وَأَلِيمِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَيُقَالُ جَوَابًا عَامًّا: مَنْ ادَّعَى أَنَّ شَيْخًا مِنْ الْمَشَايِخِ يُخَلِّصُ مُرِيدِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْعَذَابِ: فَقَدْ ادَّعَى أَنَّ شَيْخَهُ أَفْضَلُ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ قَالَ هَذَا فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ. فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ r قَالَ :"يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ لَا أُغْنِي عَنْك مِنْ الله شَيْئًا يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ الله لَا أُغْنِي عَنْك مِنْ الله شَيْئًا يَا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ الله لَا أُغْنِي عَنْك مِنْ الله شَيْئًا سَلُونِي مَا شِئْتُمْ مِنْ مَالِي"، وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ:"لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي فَأَقُولُ: لَا أُغْنِي عَنْك مِنْ الله شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُك الْحَدِيثَ بِتَمَامِهِ"، وَذُكِرَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَقْوَالِ. فَإِذَا كَانَ رَسُولُ الله r يَقُولُ مِثْلَ هَذَا لِأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ؛ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - يَقُولُ إنَّهُ لَيْسَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ الله شَيْئًا - فَكَيْفَ يُقَالُ: فِي شَيْخٍ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} {ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله} وَقَالَ: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا}، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ. وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَّا الشَّفَاعَةُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ:"أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ آدَمَ لِيَشْفَعَ فَيَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي وَكَذَلِكَ يَقُولُ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى - وَهَؤُلَاءِ هُمْ أُولُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ – وَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: اذْهَبُوا إلَى مُحَمَّدٍ؛ عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَإِذَا رَأَيْت رَبِّي خَرَرْت لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: أَيْ مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَك وَقُلْ يُسْمَعُ وَاسْأَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ ؛ فَيَحِدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ"،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَذُكِرَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ. فَهَذَا خَيْرُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى الله إذَا رَأَى رَبَّهُ لَا يَشْفَعُ حَتَّى يَسْجُدَ لَهُ وَيَحْمَدَهُ ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ ؛ فَيَحِدُّ لَهُ حَدًّا يُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ . وَهَذَا تَصْدِيقُ قَوْله تَعَالَى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ} إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ تَشْفَعُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ ؛ لَكِنْ بِإِذْنِهِ فِي أُمُورٍ مَحْدُودَةٍ لَيْسَ الْأَمْرُ إلَى اخْتِيَارِ الشَّافِعِ . فَهَذَا فِيمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَشْفَعُ فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ : إنَّ مُحَمَّدًا يُخَلِّصُ كُلَّ مُرِيدِيهِ مِنْ النَّارِ : لَكَانَ كَاذِبًا بَلْ فِي أُمَّتِهِ خَلْقٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ ثُمَّ يَشْفَعُ فِيهِمْ ؛ وَأَمَّا الشُّيُوخُ فَلَيْسَ لَهُمْ شَفَاعَةٌ كَشَفَاعَتِهِ وَالرَّجُلُ الصَّالِحُ قَدْ يُشَفِّعُهُ اللهُ فِيمَنْ يَشَاءُ وَلَا شَفَاعَةَ إلَّا فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ.

وَأَمَّا الْمُنْتَسِبُونَ إلَى الشَّيْخِ يُونُسَ: فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ كَافِرٌ بِاَللهِ وَرَسُولِهِ لَا يُقِرُّونَ بِوُجُوبِ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ بَلْ لَهُمْ مِنْ الْكَلَامِ فِي سَبِّ الله وَرَسُولِهِ وَالْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ مَا يَعْرِفُهُ مَنْ عَرَفَهُمْ.

وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِمْ مِنْ عَامَّتِهِمْ - لَا يَعْرِفُ أَسْرَارَهُمْ وَحَقَائِقَهُمْ - فَهَذَا يَكُونُ مَعَهُ إسْلَامُ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي اسْتَفَادَهُ مِنْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ لَا مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ خَوَاصَّهُمْ مِثْلُ الشَّيْخِ سلول وجهلان والصهباني وَغَيْرِهِمْ : فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُونُوا يُوجِبُونَ الصَّلَاةَ ؛ بَلْ وَلَا يَشْهَدُونَ لِلنَّبِيِّ r بِالرِّسَالَةِ. وَفِي أَشْعَارِهِمْ - كَشِعْرِ الكوجلي وَغَيْرِهِ - مِنْ سَبِّ النَّبِيِّ r وَسَبِّ الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ: مَا لَا يَرْضَى بِهِ لَا الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى. ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ لِيُونُسَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ مَكْذُوبٌ عَلَى يُونُسَ لَكِنَّ مِنْ الْمَعْلُومِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمُشَاهَدِ أَنَّهُمْ يَنْشُدُونَ الْكُفْرَ وَيَتَوَاجَدُونَ عَلَيْهِ وَيَبُولُ أَحَدُهُمْ فِي الطَّعَامِ وَيَقُولُ يَشْرَحُ كَبِدِي يُونُسَ أَوْ مَاءِ وَرْدِ يُونُسَ وَيَسْتَحِلُّونَ الطَّعَامَ الَّذِي فِيهِ الْبَوْلُ وَيَرَوْنَ ذَلِكَ بَرَكَةً. وَأَمَّا كفرياتهم: مِثْلُ قَوْلِهِمْ وَأَنَا حَمَيْت الْحِمَى وَأَنَا سَكَنْت فِيهِ وَأَنَا تَرَكْت الْخَلَائِقَ فِي مَجَارِي التِّيهِ مُوسَى عَلَى الطُّورِ لَمَّا خَرَّ لِي نَاجَا وَصَاحِبُ أَقْرَبِ أَنَا جَنَّبُوهُ حَتَّى جا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرَى الْخَلَائِقَ أَفْوَاجًا إلَى نَبِيِّهِ عِيسَى يَقْضِي لَهُمْ حَاجَا. وَيَقُولُونَ: تَعَالَوْا نُخَرِّبُ الْجَامِعَ وَنَجْعَلُ مِنْهُ جماره وَنَكْسِرُ خَشَبَ الْمِنْبَرِ وَنَعْمَلُ مِنْهُ زناره وَنُحَرِّقُ وَرَقًا وَنَعْمَلُ مِنْهُ طنباره نَنْتِفُ لِحْيَةَ الْقَاضِي وَنَعْمَلُ مِنْهُ أوتاره. أَنَا حَمَلْت عَلَى الْعَرْشِ حَتَّى صج وَأَنَا صَرَخْت فِي مُحَمَّدٍ حَتَّى هَجَّ وَأَنَّ الْبِحَارَ السَّبْعَةَ مِنْ هَيْبَتِي تَرْتَجُّ.

وَأُمُورٌ أُخَرُ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ الْكُفْرِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ قَوْلِ الَّذِينَ قَالُوا: إنَّ لله وَلَدًا. وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ إنَّ مِنْ الشُّيُوخِ مَنْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فَرْجُهُ فَرْجَ امْرَأَةٍ: فَكَذِبٌ مُخْتَلَقٌ؛ بَلْ فِي طَرِيقِهِ مِنْ الْمُنْكَرَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ مَا يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُ دِينَ الْإِسْلَامِ وَأَصْحَابَهُ يَنْقُلُونَ عَنْهُ كفريات سَطَّرُوهَا عَنْهُ كَقَوْلِهِ: لَوْ قَتَلْت سَبْعِينَ نَبِيًّا مَا كُنْت مُخْطِئًا وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَتْلَ نَبِيٍّ وَاحِدٍ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنْ النَّبِيِّ r :"أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ". وَإِذَا قِيلَ: هَذَا قَالَهُ مُشَاهَدَةً لِلْحَقِيقَةِ الْقَدَرِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ. أَنَّ اللهَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ كَانَ الْعُذْرُ أَقْبَحَ مِنْ الذَّنْبِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً: لَمْ يَكُنْ عَلَى إبْلِيسَ وَفِرْعَوْنَ وَسَائِرِ الْكُفَّارِ مَلَامٌ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَهَذَا الْمُحْتَجُّ بِالْقَدَرِ لَوْ تَعَدَّى عَلَيْهِ أَحَدٌ لَقَاتَلَهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ. فَإِنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً: فَهُوَ حُجَّةٌ يَفْعَلُ بِهِ مَا يُرِيدُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً لَمْ يُؤْذِ آدَمِيًّا فَكَيْفَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَكُونُ حُجَّةً لِمَنْ يَكْفُرُ بِاَللهِ وَرَسُولِهِ؟. وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّمَا حَجَّ مُوسَى لِأَنَّ مُوسَى لَامَهُ لِمَا أَصَابَهُ مِنْ الْمُصِيبَةِ لَمْ يَلُمْهُ لِحَقِّ اللهِ تَعَالَى فِي الذَّنْبِ فَإِنَّ آدَمَ تَابَ وَالتَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ بَلْ قَالَ لَهُ : بِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى .....

فَصْلٌ: وَأَمَّا الَّذِي يَدَّعِي النُّبُوَّةَ وَأَنَّهُ يُبِيحُ الْفَاحِشَةَ اللُّوطِيَّةَ وَيُحَرِّمُ النِّكَاحَ وَمَا ذُكِرَ مِنْ ذَلِكَ: فَهَذَا أَمْرٌ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُقَالَ عَنْهُ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ الْكَافِرِينَ وَأَخْبَثِ الْمُرْتَدِّينَ وَقَتْلُ هَذَا وَمَنْ اتَّبَعَهُ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ إمَّا أَنْ يُخَاطَبَ بِالْحُجَّةِ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ وَيَهْدِيَهُ؛ وَإِمَّا أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ فَيُقْتَلُ. فَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ لَزِمَهُ ذَلِكَ وَمَنْ عَجَزَ عَنْ هَذَا وَهَذَا فَلَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا؛ لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ الْمَعْرُوفَ وَيُحِبَّهُ وَيُنْكِرَ الْمُنْكَرَ وَيَبْغُضَهُ وَيَفْعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْأَمْرَيْنِ - مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ - كَمَا قَالَ النَّبِيُّ r فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ:"مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ". وَاَللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ]ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: (الدرر السنية):[وأما التكفير:فأنا أكفِّر مَن عرف دين الرسول، ثم بعدما عرفه سبَّه، ونهى الناس عنه، وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفره]. وفي (ص٦٦) قال:[وأما الكذب والبهتان فقولهم:إنا نكفر بالعموم ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، فكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله، **وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عبد القادر، والصنم الذي على أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل؟!"]ا.هـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين في لقاءات الباب المفتوح (٣٣/ ١٨):[السؤال:ما حكم المرجئة؟، وما حكم من يصف الذين يعذرون بالجهل بأنهم دخلوا مع المرجئة في مذهبهم؟.

الجواب: أولاً: لا بد أن نعرف من هم المرجئة؟، المرجئة هم الذين يقولون: الإيمان عمل القلب، ولكن قولهم هذا باطل لا شك فيه؛ لأن النصوص تدل على أن الإنسان إذا عصى الله عز وجل نقص إيمانه، وأما العذر بالجهل فهذا مقتضى عموم النصوص، ولا يستطيع أحد أن يأتي بدليل يدل على أن الإنسان لا يعذر بالجهل، قال الله تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }، وقال تعالى:{رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ]، ولولا العذر بالجهل لم يكن للرسل فائدة، ولكان الناس يلزمون بمقتضى الفطرة ولا حاجة لإرسال الرسل، فالعذر بالجهل هو مقتضى أدلة الكتاب والسنة، وقد نص على ذلك أئمة أهل العلم: كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، لكن قد يكون الإنسان مفرطاً في طلب العلم فيأثم من هذه الناحية أي: أنه قد يتيسر له أن يتعلم؛ لكن لا يهتم، أو يقال له: هذا حرام؛ ولكن لا يهتم، فهنا يكون مقصراً من هذه الناحية، ويأثم بذلك. أما رجل عاش بين أناس يفعلون المعصية، ولا يرون إلا أنها مباحة ثم نقول: هذا يأثم، وهو لم تبلغه الرسالة هذا بعيد، ونحن في الحقيقة -يا إخواني- لسنا نحكم بمقتضى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عواطفنا إنما نحكم بما تقتضيه الشريعة، والرب عز وجل يقول: (إن رحمتي سبقت غضبي) فكيف نؤاخذ إنساناً بجهله وهو لم يطرأ على باله أن هذا حرام، بل إن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قال: نحن لا نكفر الذين وضعوا صنماً على قبر عبد القادر الجيلاني وعلى قبر البدوي لجهلهم وعدم تنبيههم. والمرجئة لم أعلم أن أحداً أخرجهم من الإسلام، وهم لا شك أنهم مخطئون، وأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، كما يدل على ذلك نصوص كثيرة، وأن عدم عمل الصالحات ينقص من الإيمان]ا.هـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين في (لقاءات الباب المفتوح (٤٨ / ١٦)):[حكم من يقول الشهادتين ويذبح لغير الله:السؤال: ما رأي فضيلتكم بمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم يذبح لغير الله، فهل يكون مسلماً؟ مع العلم أنه نشأ في بلاد الإسلام؟.

الشيخ: الذي يتقرب إلى غير الله بالذبح مشرك شركاً أكبر، ولا ينفعه قول: لا إله إلا الله ولا صلاة ولا صوم ولا غيره، اللهم إلا إذا كان ناشئاً في بلاد بعيدة، لا يدري عن هذا الحكم، كمن يعيش في بلاد بعيدة يذبحون لغير الله، ويذبحون للقبور، ويذبحون للأولياء، وليس عندهم في هذا بأس، ولا يعلمون أن هذا شرك أو حرام، ولم تقم عليهم الحجة في ذلك فإن هذا يُعذر بجهله. أما إنسان يقال له: هذا كفر. فيقول: لا، ولا أترك الذبح للولي، فهذا قد قامت عليه الحجة فيكون كافراً، فإذا نُصح وقيل له: إن هذا شرك، وبينت له الأدلة في ذلك، وأقيمت عليه الحجة الشرعية فلم يعبأ ولم يهتم، صار مشركاً كافراً مرتداً يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. السائل: وهل هناك فرق بين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المسائل الظاهرة والمسائل الخفية؟ الشيخ: الخفية بينة، مثل هذه المسألة لو فرضنا أنه يقول: أنا أعيش في قوم يذبحون للأولياء ولا أعلم أن هذا حرام فهذه تكون خفية؛ لأن الخفاء والظهور أمر نسبي قد يكون ظاهراً عندي ما هو خفيٌ عليك وظاهرٌ عندك ما هو خفي عليَّ. السائل: وكيف أقيم الحجة عليه؟ وما هي الحجة التي أقيمها عليه؟ - الشيخ: الحجة عليه ما جاء في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، وقال تعالى:[إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ]، فهذا دليل على أن النحر للتقرب والتعظيم عبادة، ومن صرف عبادة لغير الله فهو مشرك.

فتجب إقامة الحجة قبل التكفير، وذلك في كل المسائل التي يمكن أن يجهلها الناس، فلا نقسم المسائل إلى مسائل ظاهرة ومسائل خفية؛ لأن الظهور والخفاء أمر نسبي، قد تكون المسألة ظاهرة عندي وخفية عند غيري، فلابد إذاً من إقامة الحجة وعدم التسرع في التكفير؛ لأن إخراج رجل من ملة الإسلام ليس بالأمر الهين، وهناك موانع تمنع من تكفير الشخص وإن قال أو فعل ما هو كفر، منها: الخطأ، فالرجل الذي قال: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) قال كلاماً كفرياً، ومع ذلك لم يكفر؛ لأنه أخطأ من شدة الفرح.

وكذلك إذا أكره رجل على الكفر فتكلم به لم يكفر إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان، لقوله تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِالله مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً}، والعلماء الذين يقولون: كلمة كفر دون صاحبها، هذا إذا لم تقم عليه الحجة ولم نعلم عن حاله، أما إذا علمنا عن حاله فما الذي يبقى؟ نقول: لا يكفر؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معناه: لا أحد كافر؟ أي: لا يبقى أحد يكفر، حتى المصلي الذي لا يصلي نقول: لا يكفر؟ حتى ابن تيمية يقول: إذا بلغته الحجة، قامت عليه الحجة]ا.هـ.

تنبيه مهم للغاية

واعلم أرشدك لطاعته، أن التكلم في هذا المقام (العذر بالجهل المُعْتَبَر)، هو كلام عن أعظم قضية على الإطلاق، ألا وهي قضية الإيمان والكفر، وما أعظمها من قضية، وما أخطرها من مسألة، وإنما قلت ذلك؛ لأن البعض قد يتلاعب به الشيطان، فيظن أن السلف عندما تناولوا قضية وجود أعذار معتبرة شرعا؛ تدرأ تنزيل حكم الكفر على المُعَيَّن - ممن تلبس بشيء من المكفرات من أهل الإسلام – أن هذا مما يرقق حكم ذلك المُكَفِّر الذي أتاه هذا المعين، وأنه سيبقى بمنأى عن الكفر طالما أن هناك أعذارا في ذلك، ونسي هذا المسكين المفتون أن الحديث في هذا المقام إنما هو عن مسألة إلحاق الحكم بالفاعل للمكَفِّر، لا عن الفعل المُكَفِّر، إذ الأمة مجمعة على أن هذا الشخص الذي قد اختلف في تكفيره قد أتى كفرا وشركا أكبر، باتفاق القرون المفضلة ومن تبعهم بإحسان.

إذن هذا العبد المختلف في تنزيل حكم الكفر عليه من عدمه، قد أتى في ميزان الشرع الشرك والكفر بالله رب العالمين، وأنه وإن انطلى حاله وأشكل أو خفي وغمض على العباد في هذه الحياة الدنيا، فإن أمره عند الله تبارك وتعالى مكشوف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مفضوح، فإنما أنت كتاب مفتوح بين يدي من يعلم السر وأخفى الـذي لا تخفـي عليـه خافية، ولو كانت في خائنة الأعين ولحظها.

فلن يغني عن هذا العبد شيئا أن يُدْرَأ عنه حكم التكفير، وهو عند الله كـافر مقيـت لعين، فإنما هي نجاة مزيفة في الدنيا، ثم يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد، أبد الآبدين ودهر الداهرين، لا يخرجون منها ولا يدخلون الجنة، حتى يلج الجمل في سم الخيـاط، كما قال ربنا تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْـوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُجْـرِمِينَ} [الأعراف:٤٠].

فإنما يقضي العباد بما يبدوا لهم من ظاهر حال هذا العبد، وتبقى السرائر معلومة عند علام الغيوب، الذي يعلم السـر وأخفى، كما قال النبي r فيما جاء في الصحيحين عن أم سلمة رضي الله عنها قالت:قال رسول الله r :"إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه فمن قطعت له من حـق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار".

إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَ:

ولهذا إياك أن تغتر أيها الواقع في المُكَفِّر بمثل هذا الخلاف الجـاري في هـذه المسـألة، فإنما هو خلاف لتحرير المسألة والعمل بما يجب من شرع الله تبـارك وتعـالى فيهـا، ومـا يتبع ذلك من اللوازم والمقتضيات الشرعية، ويبقى شأن الآخرة على ما قال ربنا تبـارك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعالى: {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً} [النساء:٤٢]، وقوله: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [الزمر:٤٧-٤٨].

وقوله تعالى: {وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرضِ وَيَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ{٢٧} وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٢٨} هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٢٩} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ{٣٠} وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} [الجاثية:٢٧-٣١].

وعليه فلنعلم أن العذر بالجهل، لا يعني على كل حال النجاة والسلامة.

لا يصح إطلاق وصف الكفر على المعاصي إلا ما خصه الدليل:

واعلم رحمك الله، أن مسمى الكفر والإيمان، هي مُسَمَّياتٌ شرعية، والأصل أنه لا يصح إطلاقها على غير مَوَارِد الشرع، فلا نسمي شيئا أنه كفر، إلا بنص صريح في ذلك، إذ أن إطلاق القول في ذلك، والتعميم فيه؛ مظنة حصول تصور فاسد، وذريعة للقول على الله بغير علم، لمن ساء فهمه؛ فيصير إلى قول الخوارج، والعياذ بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعليه فالقول بأن المعاصي كلها من شعب الكفر، كما قرره بعض الفضلاء من العلماء المتأخرين، فيه نظر كبير، بل لا نسمي شيئا بأنه كفر إلا بنص صحيح صريح، ولكن نقول معاصي، وفسق، وجاهلية، بحسب موارد أدلة الشرع. والله أعلم.

جاء في صحيح البخاري:[بَاب الْمَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ t إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى:{إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}]ا.هـ.

قوله:(مشرك كافر)، تقدم أن هذا كثيرا ما يكون من الترادف اللفظي، وإليك النصوص الدالة على الترادف والتباين، بعد أن تقرر أنه لا فرق بينهما في أحكام الدنيا والآخرة، قال تعالى:{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة:٧٢-٧٣]، فهاتان الآيتان الأولى منهما، افتتحت بذكر الكفر، ثم ختمت بذكر الشرك، والمخاطب واحد، وفي الثانية، ذكر الكفر في سياق التثليث وهذا شرك.

وقال تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة:٣٠-٣١]، وكذلك هنا الآية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأولى، قررت أن من قال إن لله ولدا، فهو كافر، مع أن هذا الفعل شرك، والآية الثانية، سَمَّت اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا شركا، مع أن الله تعالى في آية المائدة يقول: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } [البينة: ١]، فمن المعلوم أن الكل في هذه الآية مشرك كافر، فأهل الكتاب مشركون، والمشركون كفار.

ومن أدلة المغايرة: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣٢-٣٣].

قلت: فغاير بين الكفر واتخاذ الأنداد، وليس ببعيد أن يقال، إن هذا من عطف أفراد الشيء على الأصل، أو يبقى على المغايرة، ولكنه غير مؤثر في أحكام الدنيا ولا الآخرة، كما تقدم.

ومن ذلك قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} [الأعراف: ٣٧].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تسمية السلف الملحد في الأسماء والصفات الإلهية مشركا:

وسمى السلف من ألحد في أسماء الله وصفاته مشركا كذلك، كما في تفسير ابن أبي حاتم:[حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: "يُلْحِدُونَ، قَالَ: يُشْرِكُونَ"]. قلت: **وهذا إسناد صحيح.**

قوله:**{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ الهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}**، اسْتُفْتِحَت هذه الآية بصيغة العموم، وهذا كما تقدم معنا مرارا، أن الله تعالى لا يقبل من أحد أن يتخذ معه أندادا، بأي دَعْوَى كانت، فيستوي في ذلك الصَّالح والطَّالح، والحجر والشجر والبشر، وهذه حقيقة لابد من تكرارها؛ لأن الفتنة بالصالحين، لم تزل موجودة، فالشيطان يَدُقُّ على هذا الوَتَرِ كثيرا؛ لإضلال العباد، ويستغل في ذلك العاطفة الدينية، والتعصب المذموم؛ فيقع في حَبَائِله، وشِرَاك الشِّرْك التي نصبها، فِئَام من العباد، واعتبر بقوله تعالى:{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سبأ:٢٠]، فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وصف القرآن للمشركين حال سماعهم التوحيد:

حتى صار كثير من الأمم إلى قول الله تعالى:{وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر:٤٥]، فنعوذ بالله من الخذلان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نعم صار أكثرهم، إذا دُعوا إلى الله وحده، غضبوا وأرْغَوا وأزْبَدُوا، واقْشَعَرَّت جلودهم، اشمئزازا ونفرة من ذلك، ويَرْمُون من أتاهم بذلك بالعظائم، فتسمع من يقول:أنتم لا تحبون الأنبياء ولا الملائكة، ولا تعظمون الأولياء ولا الصالحين، هذا فيما يتعلق بشرك القباب والقبور، والأضرحة والمشاهد الشركية.

وأما في جانب شرك التشريع، فيقولون:أنتم مُتَخَلِّفُون رَجْعِيون، وما عندكم فقه للواقع، ولا تصور صحيح للمسائل، وترى طَاغُوتَهم الذي نَصَّبَ نفسه مشرعا من دون الله، يَغْلِي غَضَبا وحَنَقا، وَوَدَّأن لو بَطَش بهؤلاء، فَصَدَق عليه قوله تعالى:{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحج: ٧٢]، ولو وَجَدَوا سبيلا إلى قتلهم لَفَعَلُوا، وقد فعل بعضهم ذلك، والله تعالى يقول:{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران:٢١-٢٢].

وتأمل في هذه الآيات، التي يقص الله تبارك وتعالى، فيها حالة المشركين، إذا دُعُوا إلى عبادة الله وحده، قال تعالى:{ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لله الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [غافر:١٢]، وقال:{إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصافات:٣٥-٣٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك تأمل هذه الآيات، قال تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} [الإسراء:٤٥-٤٨].

التوحيد عام في كل شيء:

ألا فلنعلم أنه لا إله إلا الله في الصلاة والصيام والزكاة والحج والذكر، ولا إله إلا الله في الدعاء والاستغاثة والاستعاذة والذبح والنذر ، ولا إله إلا الله في التشريع والحكم، بل لا إله إلا الله في الأرض والسماء، في كل وقت وعلى كل حال، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزخرف:٨٤-٨٥].

قوله:{لا برهان له به}: هذا تَهْيِيجٌ على البَحث والتَّنْقِيب، وهو يتضمن التَّحَدِي والتَّهْدِيد، والمعنى دُونَكُم شَوَاهِدُ الكَون، ومُجْرَيات الأحداث في السموات والأرض، وهذه آيات الله تُتْلَى غَضَّةً نَدِيَّةً، فابْحَثُوا هل تَجِدُون برهانا على ما تدعونه، بأن مع الله أندادا وآلهة أخرى، وهذا كقوله تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف:٤٥]، وقوله: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس:٩٤-٩٧].

وهذا التحدي والتهييج، تحصل به هدايات عظيمة، بل حتى لبعض صناديد الكفر والإلحاد والزندقة، إذ مَنْ هَذا الذي يَجْرُؤُ على أن يَتَحَدَّى بِكِتَابِه، العالم كله، أن يَأْتُوا بمثله، أو أن يجدوا فيه عيبا أو نقصا، أو تعارضا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، إن هذا حقا لإِغْرَاءٌ عظيم، بالْمُحَاوَلَةِ الجَادَّةِ لإيجَاد أدْنَى أدْنَى نَقْدٍ له، هذا مع عظيم العداوة، وشدة الحرص على الصد عن سبيل الله، مع الشهوة العارمة في الانتصار للنفس، ودين الآباء والأجداد، حتى إذا ما عجزوا وأفلسوا؛ علموا يقينا أنه من عند الله علام الغيوب، خالق الخلق، العظيم الكبير المتعال، وأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، وقال سبحانه: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء:٨٨].

معنى لطيف في هذه الآية وأمثالها:

والمعنى أن الله تعالى قد علم أنه لا برهان أصلا على ذلك، ولكن لإيصالهم إلى هذه النتيجة بواقع عملي؛ لعلهم أن يهتدوا، فسبحانه أرحم الراحمين، وهو شديد العقاب، وهذا من المعاني الدقيقة واللطيفة، فلله الحمد والمنة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله:{فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}، تهديد وتخويف، وبيان أنه لا فلاح للكافرين، مهما اجتهدوا وتحزبوا، وأنفقوا أموالهم وطاقاتهم وقدراتهم، فإن الله تبارك وتعالى كتب عليهم الخسران، وحَرَّمَ عليهم الفلاح، فلا يفلحون أبدا، وأعظم خسرانهم وعدم فلاحهم، يوم القيامة، عندما يفضحون على رؤوس الأشهاد، ويساقون إلى جهنم سَوْقَ النِّعَاج، بل النِّعَاجُ منهم أكْرَم، كما قال تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [هود:١٨-١٩].

ومثل هذا كثير في كتاب الله تعالى، كقوله تعالى:{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء:٢٤]، وقوله:{أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ الله قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل:٦٤]، وقوله:{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لله وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [القصص:٧٤-٧٥]، وقوله:{قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا} [فاطر:٤٠]، وقوله:{وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات:١٥٨-١٥٩]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأحقاف:٤]، وقوله: {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سبأ:٤٥-٤٦]. ونحو ذلك من الآيات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com